



ديوان معروف الرصافي

معروف الرصافي

ديوان معروف الرّصافي

تأليف
معروف الرّصافي

مراجعة
مصطفى الغلاييني



رقم إيداع ٢٠١٤/١٠١٠٠

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٨٨٢٠

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

١٩	الجزء الأول
٢١	الكونيات
٢٣	في مشهد الكائنات
٢٧	العالم شعر
٣٥	تجاه اللانهاية
٣٧	من أين وإلى أين؟
٤١	نحن على منطاد
٤٧	كلمة معتبر
٥١	ألكني يا ضياء
٥٥	الأرض
٦١	الاجتماعيات
٦٣	نحن والماضي
٦٧	معترك الحياة
٧١	أم اليتيم
٧٧	السجن في بغداد
٨٣	الدهر والحقيقة
٨٧	في سبيل حرية الفكر
٨٩	إلى أبناء المدارس

٩٣	المطلّقة
٩٩	اليّتم في العيد
١٠٥	سياسة لا حماسة
١٠٧	إلى الشبان
١١١	الدهر
١١٥	إلى أبناء الوطن
١١٩	في المعهد العلمي
١٢١	في منتدى التهذيب
١٢٥	في زحلة
١٢٧	الفنون الجميلة
١٢٩	الحياة الاجتماعية والتعاون
١٣١	في سبيل الوطنية
١٣٣	في المدرسة: دار التفيّض
١٣٥	المدارس ونهجها
١٣٧	العلم والإجازة فيه
١٤١	العلم
١٤٥	دار الأيتام أو مدرسة شنّدر في القدس
١٤٧	الفقر والسقام
١٥٧	تنبيه النيام
١٦١	سوء المنقلب
١٦٧	العادات
١٧١	بعد الدستور
١٧٥	إيقاظ الرقود
١٨١	الصديق المضاع
١٨٥	بعد البين
١٨٩	يقولون
١٩١	في سبيل الوطن
١٩٥	بين تونس وبغداد

المحتويات

١٩٧	في حفلة شوقي
١٩٩	الأمة العربية: ماضيها وبقاها
٢٠١	في إيلياء
٢٠٣	تجاه الريحاني
٢٠٥	بني الأرض
٢٠٩	الحمد للمعلم
٢١١	عرس مصر
٢١٣	من مضحكات الدهر
٢١٥	الشارع الكبير ببغداد
٢١٧	على الخوان
٢١٩	تحية سركيس
٢٢١	إلى البلاغ
٢٢٣	في حفلة الزهاوي
٢٢٥	إلى صاحبة الحياة الجديدة
٢٢٧	إلى المتعلم
٢٢٩	اليتيم المخدوع
٢٣١	ميت الأحياء وحي الأموات
٢٣٣	نحن في بغداد
٢٣٥	رقية الصريع
٢٣٩	مثنيات شعرية
٢٤٣	إلى المتقاعد من ضباط الجيش
٢٤٥	دار تربية الطفل
٢٤٧	خزانة الأوقاف
٢٤٩	التعصب الوطني للأدب
٢٥١	عتاب وولاء
٢٥٥	مناجاة وشكوى
٢٥٧	في حفلة الميلاد النبوي
٢٦١	إلى العمال

٢٦٣	الفلسفيات
٢٦٥	خواطر شاعر
٢٦٩	وجه ابن آدم
٢٧١	ما وراء القبر
٢٧٣	لو
٢٧٥	حقيقتي السلبية
٢٧٧	حياة الوري
٢٧٩	حبذا النوم
٢٨١	بين الروح والجسد
٢٨٣	من نواميس الحياة
٢٨٥	الوصفيات
٢٨٧	أنا والشعر
٢٩١	الغروب
٢٩٥	ليلة في ملهى
٢٩٩	في القطار
٣٠٣	الأرملة المرضعة
٣٠٧	عهد الصبا أو نهر الحياة
٣١١	السفر في التومبيل
٣١٥	من ويلات الحرب
٣١٩	على جسر مود
٣٢١	على البسفور
٣٢٣	إلى غرة آل سعدون
٣٢٥	الوسام وفخامة رئيس الوزراء
٣٢٧	نحن
٣٢٩	في ملعب كرة القدم
٣٣١	الإحسان
٣٣٣	الجرائد وما كانت عليه في الآستانة
٣٣٥	وقفة في الروض

المحتويات

٣٣٧	ما رأيت في بك أوغلي
٣٤١	السد في بغداد
٣٤٥	الساعة
٣٤٧	ذكرى لبنان
٣٥١	لبنان
٣٥٣	في مكتبة الأوقاف
٣٥٥	آل الجميل
٣٥٧	البلبل والورد
٣٥٩	أغرودة العندليب
٣٦١	الصيف
٣٦٣	الشتاء
٣٦٥	التلغراف أو الأسلاك البرقية
٣٦٧	بيروت والتباريس
٣٦٩	في المستشفى الملكي
٣٧١	إلى عبد اللطيف باشا المنديل
٣٧٣	يا دار قسطنطين
٣٧٥	فلكس فارس
٣٧٧	مليكة غناء العرب
٣٧٩	إلى جميع الغواني
٣٨١	قصر البحر
٣٨٣	محاسن الطبيعة
٣٨٧	ليلة في دمشق
٣٨٩	حول البسفور
٣٩١	تأثير التربية
٣٩٣	يقظة الشرق
٣٩٥	إلى القزويني
٣٩٧	إلى حماة الأطفال
٣٩٩	شاعر البشر

- ٤٠٣ ذكرى المآثر التيمورية
٤٠٥ أبو الطيب المتنبي
٤٠٩ إلى الجواهري
٤١٣ الثناء المخلد
٤١٥ الرصافي يقرّظ كتابًا للزهاوي
٤١٧ الأقول المشرق
٤١٩ وقال هذه الأبيات مترجمًا
٤٢١ إلى طه الراوي
٤٢٣ إلى البطل عبد الكريم الريفى
٤٢٥ بداعة لا خلاعة
٤٢٧ في دار النقيب
٤٢٩ الحق المغتصب
٤٣١ تحت تصوير النائب
٤٣٣ إلى عبد الكريم العلاف
- ٤٣٥ **الحريقيات**
٤٣٧ وقفة عند شراغان
٤٤١ أم الطفل في مشهد الحريق
٤٤٥ ثالثة الأثافي
- ٤٤٩ **الجزء الثاني**
- ٤٥١ **المراثى**
٤٥٣ وا صديقه!
٤٥٥ في الملكوت الأعلى
٤٥٩ وا محمداه!
٤٦١ وا شيخاه!
٤٦٣ في موقف الأسى
٤٦٧ ذكرى الرجال من حياة الأمم

المحتويات

٤٦٩	ذكرى الشيخ الخالسي
٤٧٣	على ضريح النائب
٤٧٧	دموع الصداقة
٤٧٩	هلم نبك
٤٨١	دمعة على صديق
٤٨٣	ميتة البطل الأكبر
٤٨٩	ذكرى فتى السعدون
٤٩٣	ابن جبران
٤٩٥	جبر ضومط
٤٩٧	أبو الملوك
٤٩٩	الشيخ قاسم مدرس جامع النعمانية
٥٠١	غريق دجلة
٥٠٣	شهداء الطيران
٥٠٥	إلى أمين نخلة
٥٠٧	في يوم أبي غازي
٥١١	ذكرى الكاظمي
٥١٣	رثاء شوقي شاعر مصر الأكبر
٥١٥	نسائيات
٥١٧	المرأة في الشرق
٥١٩	نساؤنا
٥٢١	حرية الزواج عندنا
٥٢٣	المرأة المسلمة
٥٢٥	التربية والأمهات
٥٢٩	المهجور أو مشهد الحسد في الحزن
٥٣١	إلى الحجابيين
٥٣٣	هوان المرأة عندنا
٥٣٥	التاريخيات

- ٥٣٧ ضلال التاريخ
٥٤١ جالينوس العرب أو أبو بكر الرازي
٥٤٩ الحرب في البحر أو وقعة توشيفا بين الروس واليابان
٥٥٣ هولكو والمستعصم
٥٥٧ أبو دلامة والمستقبل
٥٦١ أطلال العلم أو المدرسة النظامية في بغداد
٥٦٣ في سلانك
٥٦٧ وقفة عند يلدر
٥٧١ تموز الحرية
٥٧٣ المجلس العمومي
٥٧٥ يوم العروس
- السياسيات**
- ٥٧٧ إلى الأمة العربية
٥٧٩ شكوى إلى الدستور
٥٨٣ في معرض السيف
٥٨٩ ما هكذا
٥٩٣ في ليلة نابغية
٥٩٧ إلى السلطنة
٥٩٩ الوطن والأحزاب
٦٠١ عند سياحة السلطان
٦٠٣ الحق والقوة
٦٠٥ صبح الأمانى
٦٠٩ نواح دجلة
٦١١ بعد براح الشام
٦١٥ تجاه الريحاني
٦١٩ بعد النزوح
٦٢٣ إلى هربر صموئيل
٦٢٥ مظاهر التعصب في عصر المدنية

٦٢٧	ولسون بين القول والفعل
٦٣١	يا محب الشرق
٦٣٥	إلى بطل الشرق الأكبر
٦٣٧	تجاه الريحاني
٦٤١	في المدرسة الحربية
٦٤٣	العِلْمُ والعَلْمُ
٦٤٥	السجايا فوق العلم وفوق العالم
٦٤٩	الحرية في سياسة المستعمرين
٦٥١	غادة الانتداب
٦٥٣	الفيل والحمل
٦٥٥	دمشق تندب أهلها
٦٥٧	معتك الأهواء
٦٥٩	نفثة مصدر
٦٦١	إخفار الذمم أو عبد العزيز شاويش
٦٦٣	ياسين باشا
٦٦٥	كيف نحن في العراق؟
٦٦٧	في طريقي إلى حلب
٦٦٩	حكومة الانتداب
٦٧٣	الوزارة المذنبية
٦٧٥	يوم الفلوجة
٦٧٧	الإنكليز في سياستهم الاستعمارية
٦٧٩	بين الانتداب والاستقلال
٦٨١	بني وطني
٦٨٣	يوم سنغافورة
٦٨٧	نحن والحالة العالمية
٦٩١	الحرييات
٦٩٣	إلى الحرب
٦٩٩	في طرابلس

٧٠٣	أدرنة
٧٠٧	الجيش بقائده أو هزيمة «لولا برغان»
٧٠٩	الوطن والجهاد
٧١٣	رؤياي الصادقة
٧١٧	أنشودة الحرب
٧٢١	الشیطان والطلیان
٧٢٣	المقطّعات
٧٢٥	قصر الحمراء
٧٢٧	يا ضاربًا بالکمان
٧٢٩	يا دهر
٧٣١	الحقائق الملقنة
٧٣٣	الخطوة الأولى
٧٣٥	وجه نعيم
٧٣٧	المغربي
٧٣٩	صفا لك
٧٤١	إليك عادل
٧٤٣	الکتاب
٧٤٥	من هذا؟
٧٤٧	من مطبخ الدستور
٧٤٩	الوزارة عندنا
٧٥١	عبد اللطيف باشا المنديل
٧٥٣	إلى السباعي
٧٥٥	عفو بعد نفي
٧٥٧	التراموي في الأستانة سنة ١٩٠٩
٧٥٩	لقيتها في الطريق
٧٦١	الدين والوطن
٧٦٣	الحياة والأداة
٧٦٥	يا أيها المفتي

المحتويات

٧٦٧	في معرض الشكر
٧٦٩	عند لعبة البيلارد
٧٧١	السينما الوطني
٧٧٣	عند نشر المعاهدة
٧٧٥	وزراء المعارف عندنا
٧٧٧	قيصر معلوف
٧٧٩	إلى أمين كاملة
٧٨١	إلى عبد الوهاب النائب
٧٨٣	إلى أولي الأمر
٧٨٥	المصور البارع
٧٨٧	الأغنياء والفقراء
٧٨٩	الجهل فضاح
٧٩١	حمام الوزارة
٧٩٣	رخص المناصب
٧٩٥	الناس والملوك
٧٩٧	منزلة المعلم في المجتمع الإنساني
٧٩٩	أم سري
٨٠١	الحزب الحر العراقي
٨٠٣	قال ذو الحزب
٨٠٥	المسلم المصلح
٨٠٧	نجل عبد اللطيف
٨٠٩	عبد الوهاب النائب
٨١١	إلى أمير الكمنجة
٨١٣	إلى محمد الرضا
٨١٥	فخامة الرئيس ووسام الرافدين
٨١٧	في بيروت
٨١٩	نهاد قرّة الأعين
٨٢١	ذات الشعر الأبيض

٨٢٣	رقة قولي
٨٢٥	جو بيروت
٨٢٧	على مقابر الشهداء
٨٢٩	منيرة
٨٣١	يطلب جلنار
٨٣٣	اسمعي لي كلاما
٨٣٥	وقال في عود انكسر
٨٣٧	ضاق الخناق
٨٣٩	وصف البدر عند الإفرنج
٨٤١	إلى أم كلثوم
٨٤٣	أيتها الكعاب
٨٤٥	الشيخ المرائي
٨٤٧	جاهل متكبر
٨٤٩	الطفل الملتحي
٨٥١	فاسقٌ مُراءٍ أو جاهل يدعي العلم
٨٥٣	الأرض
٨٥٥	أيها المشنوق
٨٥٧	بين اليأس والرجاء
٨٥٩	جواب عن كتاب
٨٦١	الغنيُّ غنيُّ النفس
٨٦٣	الشوق
٨٦٥	شكر على صنيع
٨٦٧	لمن الديار؟
٨٦٩	ليالي الأنس
٨٧١	الشمس
٨٧٣	رئيس الدائنية
٨٧٥	راقم وما أدراك ما راقم!
٨٧٧	نقش على الماء

٨٧٩	هوة الموت
٨٨١	رقت بوصف جمالك ...
٨٨٣	قامت تميمس
٨٨٥	المَكْتَب
٨٨٧	أقبلت في غلائل
٨٨٩	كل امرئٍ وصديقه
٨٩١	النفس الأمارة
٨٩٣	الأنس في غير موقعه كدر
٨٩٥	الدمع والنار
٨٩٧	البصرة
٨٩٩	الحر في أغسطس
٩٠١	البرد في كانون
٩٠٣	معلقة وقد قالها ارتجالاً
٩٠٥	قد يطفح اللؤم
٩٠٧	اللؤم يهجو بعضهم
٩٠٩	تجنَّب
٩١١	في المسرح
٩١٣	شكر ووداع
٩١٥	إلى إيناس الوزير
٩١٧	في مآدبة آل لطف الله
٩١٩	في مآدبة عبد الرحمن عزام بطلوان
٩٢١	في مآدبة نظلة الحكيم
٩٢٣	الكرخي ومن كذب في منعه
٩٢٥	من خواطر الماضي
٩٢٧	صورة
٩٢٩	عصاي الفتية
٩٣١	النشيد الوطني
٩٣٣	إلى عبد الستار القرغولي

ديوان معروف الرّصافي

٩٣٥	دمعة على قبر الزهاوي
٩٣٧	في مدرسة الإمام الأعظم
٩٣٩	شكر ومديح
٩٤١	القدوم المبارك
٩٤٣	إلى حسين النائب
٩٤٥	إلى الدكتور زكي مبارك
٩٤٧	تخليد العظماء
٩٤٩	بين الرصافي والشيخ الراوي
٩٥١	إلى الشيخ قاسم القيسي
٩٥٣	تقريظ كتاب القيسي
٩٥٥	الرصافي يحيي وفد مصر الشقيقة

الجزء الأول

الكونيات

في مشهد الكائنات

جمالك يا وجه الفضاء عجيب

جمالُك يا وجهَ الفضاء عجيبُ
وعينُك في أم النجوم كبيرة
وما زلتَ تغضيها فنخطئُ قصدنا
فيحمرُّ منها في الغديَّة مَطْلَعُ
ويخلفها البدر المنير حفيدها
وليلٌ كأن البدر فيه مَليحة
سريتُ به والبحرُ رهوٌ بجانبِي
فشاهدت فيه الحسنَ أزهرَ مشرقًا
وصدرك يأبى الانتهاءَ رحيبُ
تضيء على أن الضياء لهيب^١
وتفتحها براقَةٌ فنصيب^٢
ويصفرُّ منها في العشيِّ مَغيب
وعنها إذا جَنَّ الظلام ينوب^٣
أغازلها والنَّيِّراتُ رقيب
وردنُ النسيم الغضُّ فيه رطيب^٤
له في العُلا وجهٌ أغرُّ مهيب

^١ لما أثبت للفضاء وجهًا وصدرا في البيت الأول، ناسب أن يعبر عن الشمس التي في الفضاء بقوله: وعينك،

العين لفظ مشترك بين الشمس والباصرة. أم النجوم: المجرة، و«على» في البيت للمصاحبة بمعنى مع.

^٢ يقال: أغضى الرجل عينه: أي طبق جفنيها، والضمير من تغضيها عائد إلى العين التي هي بمعنى

الشمس في البيت المتقدم، وأراد بإغضائها إخفاءها عند الغروب.

^٣ الحفيد: ولد الولد، وجعل البدر حفيدًا للشمس؛ لأنه منفصل عن الأرض المنفصلة عن الشمس، فهو

منها بمنزلة ولد الولد.

^٤ سريت به: أي فيه. رهو: أي ساكن.

ورحْتُ وأهلُ الحيِّ في قبضة الكرى وفي الليل صمْتُ بالسكون مشوبٌ^٥
فكنتُ كأني أسمع الصمت ساريًا له بين أحشاءِ الفضاءِ دبيبٌ^٦
ولو أنّ صمْتُ الليل لم يكُ مطربًا لما هزَّ أعطافَ النسيم هبوب

* * *

ألا إنّ وجه البحر بالنور ضاحكٌ طليق وثغر الماء فيه شنيبٌ^٧
ترقرق منسابًا به الماء والسنا فلم أدِرِ أيُّ اللامعين يسيبٌ^٨
وللبدر نورٌ يمنح البحرَ رونقًا فيبدو كأن الماء فيه ضريبٌ^٩
إذا جمّش البحرَ النسيم تهللت أساريرُ فيها للضياء وثوبٌ^{١٠}
وقفتُ ولألاءِ المنى يستخفني فتطرب نفسي والكريم طروب

* * *

أردّد بين البدر والبحر ناظري فيصعد طرفي مرة ويصوب
تأمّلت في حسن العوالم موهنًا فجاش بصدري الشعرُ وهو نسيبٌ^{١١}

^٥ معنى أنهم في قبضة الكرى: هو أن النوم قد استولى عليهم؛ أي: هم نائمون، وأراد بالصمت عدم الصوت، وبالسكون عدم الحركة، ومعنى كون الصمت مشوبًا — أي: مخلوطًا بالسكون — أنه ليس هناك صوت ولا حركة.

^٦ أراد بقوله: أسمع الصمت؛ أي أدركه بواسطة السمع، وذلك أن المرء إذا أصاخ في الليل فلم يسمع صوتًا ولا حركة، أدرك أن في الليل صمتًا، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الصمت ليس بعدم محض، وإنما هو عدم الصوت أو الكلام، فبهذا تبين لك معنى قوله: أسمع الصمت.

^٧ يقال: ثغر شنيب، أي: فيه شنب، وهو ماء ورقة في الأسنان.

^٨ ترقرق: أي جرى جريًا سهلًا، ومنسابًا: أي متدافعًا في جريه. والسنا: النور. يسيب: يجري ناهبًا كل مذهب.

^٩ يمنح: يعطي. ورونقًا: أي حسنًا وإشراقًا. والضريب: الجليد والصقيع.

^{١٠} التجميش: الملاعبة، يقال: جمش الجارية إذا لاعبها وداعبها بالقرص ونحوه. وتهللت: تلالأت. والأسارير: الخطوط التي تكون في جبهة الإنسان، شبه خطوط الأمواج الصغيرة بخطوط الوجه؛ أي بالأسارير، وقال: إنها تتلألأ بسبب ملاعبة النسيم للبحر، فتلوح أشعة النور متواثبة بين تلك الأسارير.

^{١١} الموهن: وقت الوهن من الليل، ويكون نحو نصف الليل، وهو في البيت منصوب على الظرفية. وجاش: بمعنى هاج، والنسيب: هو الشعر الرقيق في النساء.

كأني وعلويّ العوالم عاشق
فقام له مُستشرفًا ويمينه
ولما رأيت الكون في الأصل واحدًا
ألا إن بطنًا واحدًا أنتج الورى
وإنّ فضاء شاسعًا قد تضاربت
وإن اختلاف الأدميين سيرةً
وأعجب ما في الكائنات ابن آدم
يذمم فعل السوء وهو حليفه
أطلّ من الأعلى عليه حبيب
تشدُّ ضلوعًا تحتهنّ وجيب^{١٢}
عجبت؛ لأن الخلق فيه ضروب
كثيرين في أخلاقهم لرغيب^{١٣}
بأبعاده أيدي القوى لرهيب
وهم قد تساوا صورة لعجيب
فما غيره في الكائنات مُريب
ويحمد قول الصدق وهو كذوب

* * *

رأيت الورى كلاً يراقب غيره
ومن أجل هذا قد ترى كلّ فاعل
فكم حمل في مجمع القوم يتقى
ولو باح كل بالذي هو كاتم
وليس يجد المرء إلا تكلفًا
ويجتنب المرء العيوب؛ لأنها
رياء قديم في الورى شقيت به
وربةً أخلاق يراها خبيثة
وجلم الفتى عند الضعيف فضيلة
فكلّ عليه من سواه رقيب
إلى الناس في كلّ الفعال يُنيب^{١٤}
به ثعلب عند الخلاء وذيب^{١٥}
لما كان في هذا الأنام أديب
وذاك لأن الطبع فيه لعوب
لدى عائبه لا لديه عيوب
قبائل منهم جمّة وشعوب
أناس وعند الآخرين تطيب
ولكنه عند القويّ معيب

* * *

^{١٢} مستشرفًا: أي منتصبًا رافعًا بصره باسطًا كفه فوق حاجبيه كالمستظلّ، وكذلك يفعل الناظر إذا نظر

إلى شيء مرتفع أو بعيد. والوجيب: خفقان القلب واضطرابه.

^{١٣} رغيب: أي واسع، يقال: هو رغيب البطن؛ أي واسع الجوف.

^{١٤} ينيب: يرجع، أي لما كان كل من الناس رقيبًا على غيره مترصدًا لسواه، صار كل واحد منهم ينيب في أفعاله إلى الناس؛ ليدفع عنه بذلك سوء ظنهم به، ومن هنا نشأ فيهم الرياء والتمويه، كما فسر ذلك في البيت الذي يليه.

^{١٥} الباء في قوله: يتقى به: للسببية أو للتجريد؛ مثلها في قولك: لقيت بزید أسدًا.

وقد يفترى المالُ الفضائلَ للورى
وللفقر بين الناس وجهٌ تبينتُ
لقد أحجم المثري فسمّوه حازماً
وإن يتواضع معدم فهو صاغر
وذو العُدم ثرثار بكثرة كلامه
وللناس عادات كثيرة تقودهم
وهنَّ إذا ما يأكلون أكيلهم
أبوا أن يحدوا ضلَّةً عن طريقها
هي الداء أعيا الأولين فهل له
وليس لهم ممَّا افتراه نصيب^{١٦}
به حسنات المرء وهي ذنوب
وأحجم ذو فقر فقيل: هيوب
وإن يتواضع ذو الغنى فنجيب
وذو الوجد منطبق به ولبيب
فكل امرئ منهم لهنَّ جنيب
وهنَّ إذا ما يشربون شريب
وإن مسَّهم من أجلهنَّ لغوب
على عُقمه في الآخرين طبيب؟

^{١٦} يفترى المال الفضائل: أي يختلقها، فكأنه جعل فضائل الأغنياء كذباً محضاً تفتريه أموالهم. ومعنى قوله: «وليس له مما افتراه نصيب» أنهم براء من هذا الافتراء؛ إذ ليس لهم نصيب من الفضائل.

العالم شعر

وما المرء إلا بيت شعر

قرأتُ وما غير الطبيعة من سِفْرِ
أرى غُررَ الأشعار تبدو نضيدةً
وما حادثات الدهر إلا قصائد
وما المرء إلا بيتٌ شعيرٍ عروضه
تنظمننا الأيام شعراً وإنما
فمنناً طویل مُسهب بحر عمره
وهذا مديح صيغ من أطيّب الثنا
صحائفَ تحوي كل فن من الشعر^١
على صفحات الكون سطرًا على سطر^٢
يفوه بها للسامعين فم الدهر
مصائبٌ لكنْ ضَرْبُهُ حُفرة القبر^٣
تردُّ المنايا ما نظَّمن إلى النثر^٤
ومنا قصير البحر مختصر العمر^٥
وذاك هجاء صيغ من منطلق هُجر^٦

* * *

^١ السفر: الكتاب.

^٢ نضيدة: منسقة.

^٣ العروض في علم الشعر: الجزء الأخير من الشطر الأول من البيت. والضرب: الجزء الأخير من الشطر الثاني، ومعنى البيت أن الإنسان أوله للمصائب وآخره للموت.

^٤ النثر: التفريق.

^٥ مسهب: طويل.

^٦ الهجر: القبيح من الكلام.

وربّ نيامٍ في المقابر زرتهم
وقفت على الأجداث وقفه عاشق
فما سال فيض الدمع حتى قرنته
أسگان بطن الأرض هلاً نكرتم
رضيتم بأكفان البلى حلاً لكم
وقد كنتم تؤذي الحشايا جنوبكم
ألا يا قبوراً زرتها غير عارف
لقد حار فكري في ذويك وإنه
فقلت، وللأجداث كفي مشيرة:

بمنهلّ دمع لا يُنهنه بالزجر^٧
على الدار يدعو دارس الطلل القفر^٨
إلى زفرات قد تصاعدن من صدري
عهداً مضت منكم وأنتم على الظهر؟
وكنتم أولي الديباج والحلّ الحمر
فكيف رقدتم والجنوب على العفر؟^٩
بها ساكن الصحراء من ساكن القصر!^{١٠}
ليحتار في مثوى ذويك أولو الفكر^{١١}
ألا إن هذا الشعر من أفجع الشعر!^{١٢}

* * *

وليلٍ غدافيّ الجناحين بيته
وأقلع من سفن الخيال مراسياً
أرى القبة الزرقاء فوقها كأنها
ولولا خروق في الدجى من نجومه

أسامر في ظلماته واقع النسر^{١٣}
فتجري من الظلماء في لجج خضر^{١٤}
رؤاق من الديباج رضع بالدر^{١٥}
قبضت على الظلماء بالأئمل العشر^{١٦}

^٧ أنهل الدمع: سال. لا ينهته: لا يكف.

^٨ الأجداث: القبور. درس المكان: أمحى. والطلل: ما بقي من آثار الديار.

^٩ الحشايا: جمع حشية وهي الفراش المحشو. العفر: التراب.

^{١٠} الصحراء: الأرض الفضاء لا شيء فيها.

^{١١} المثوى: المقام.

^{١٢} أفجع: أوجع.

^{١٣} غدافيّ الجناحين: أسودهما، نسبة إلى الغداف وهو الغراب. النسر: اسم لنجمين، يقال له: النسر الواقع، والآخر يقال له: النسر الطائر، وفي البيت تورية لا تخفى.

^{١٤} لجج: جمع لجة، وهي في الأصل معظم الماء. خضر: سود، يقال: أخضر بمعنى أسود، والخضرة والسواد يستعمل كل منهما مكان الآخر.

^{١٥} القبة الزرقاء: السماء. الرؤاق: سقف في مقدم البيت، أو هو الخيمة.

^{١٦} الدجى: الليل. وأراد بالأئمل: الأصابع؛ وهي في الأصل رءوسها.

خليليّ ما أبهى وأبهج في الرُّؤى
إذا ما نجومُ الغرب ليلاً تغوّرت
تجوّلت من حسن الكواكب في الدجى
إلى أن رأيت الليلَ ولّت جنوده
فيا لك من ليلٍ قرأت بوجهه
فقلت، وطرفي شاخص لنجومه:

* * *

ويوم به استيقظت من هجعة الكرى
فأطربني والديك مُشجّ صياحه
ومما ازدهى نفسي وزاد ارتياحها
فقامت وقام الناس كلُّ لشأنه
وقد طلعت شمس النهار كأنها
وقد قدّ درع الليل صمصامةً الفجر^{٢١}
ترنمُ عصفور يزقزق في وكر^{٢٢}
هيوّب نسيمٍ سَجَسَجٍ طيّب النشْرِ^{٢٣}
كأنّا حجيجُ البيت في ساعة النفر^{٢٤}
مليكٌ من الأضواء في عسكرٍ مَجْر^{٢٥}

^{١٧} الرُّؤى: المنظر. أجواز الدجى: أوساط الليل.

^{١٨} تغوّرت: غابت.

^{١٩} تجولت: كذا بالجيم؛ كما في الأصل، ولم أجد هذه الصيغة في مادة «جال»، ولو روي بالحاء المهملة لكان أحسن وأوفى بالمراد.

^{٢٠} الدهم: جمع أدهم؛ وهو الأسود من الخيل. يقفو إثرها: يتبعها. الشقر: جمع أشقر، والشقرة في الخيل: حمرة صافية يحمز معها العرف والذنب. وأراد بالدهم: الظلمات، وبالشقر: أشعة الشمس مجازاً.

^{٢١} الهجعة: من الهجوع، وهو النوم. الكرى: النعاس. قد: شق. والمراد بدرع الليل: ظلمته. الصمصامة: السيف، والمراد بصمصامة الفجر: شعاعه.

^{٢٢} مشجّ: مطرب.

^{٢٣} ازدهى نفسي: استفزها. ريح سجسج: لينة الهواء معتدلة. النشْر: الرائحة.

^{٢٤} الحجيج: الحجاج. والمراد بالبيت: البيت الحرام في مكة. النفر: مصدر نفر الحجيج إذا اندفعوا من منى إلى مكة.

^{٢٥} المجر: الجيش العظيم.

بدأت من وراء الأفق ترفل للعلا
 غدت ترسل الأنوار حتى كأنها
 إلى أن جلت في نورها رونق الضحى
 وأهدت حياة في الشعاع جديدة
 فقلت، مشيراً نحوها بحفاوة:
 رويداً رويداً في غلائلها الحمر^{٢٦}
 تسيل على وجه الثرى نائب التبر^{٢٧}
 صقيلاً وفي بحر الفضاء غدت تجري^{٢٨}
 إلى حيوان الأرض والنبت والزهر
 ألا إن هذا الشعر من أبداع الشعر!^{٢٩}

* * *

وببيضة خدرٍ إن دعت نازح الهوى
 من اللآء يملكن القلوب بكلمة
 تهادت تريني البدر محدقةً بها
 فله ما قد هجن لي من صباية
 تصافح إحداهن في المشي تزيها
 مررن وقد أقصرت خطوي تأدباً
 فطاطأن للتسليم منهن أرؤساً
 فألقيت كفي فوق صدري مُسلمًا
 وأرسلت قلبي خلفهن مُشيئًا
 أجاب ألا لبيك يا بيضة الخدر^{٣٠}
 ويحيين ميت الوجد بالنظر الشزر^{٣١}
 أوانس إحداق الكواكب بالبدر^{٣٢}
 ألفت بها طي الضلوع على الجمر!^{٣٣}
 فنحز إلى نحرٍ وخصر إلى خصر^{٣٤}
 وأجمعت أمري في محافظة الصبر
 عليها أكاليل صفرن من الشعر
 وأطرقت نحو الأرض منحنى الظهر
 فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدري

^{٢٦} ترفل: تجر ذيلها وتتبختر. غلائلها: أراد بها ثيابها، مفردها غلالة، وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع.

^{٢٧} الثرى: الأرض والتراب الندي.

^{٢٨} رونق الضحى: إشراقه وحسنه. صقيلاً: مجلواً.

^{٢٩} الحفاوة: التلطف والمبالغة بالإكرام.

^{٣٠} أراد بببيضة الخدر: الجارية الحسنة؛ لأنها مكنونة في خدرها. نازح الهوى: نائيه وذاهبه.

^{٣١} اللآء: اللاتي. الوجد: الحب. النظر الشزر: هو نظر فيه إعراض، أو نظر الغضبان بمؤخر العين، أو النظر يمين وشمال، وهذا التفسير أقرب لعنى البيت.

^{٣٢} أحدق بالشيء: أحاط به.

^{٣٣} هجن: هيجن. الطي: مصدر طوى.

^{٣٤} يقال: هذا ترب فلان، وهذه ترب فلانة: إذا كانت على سنها، وأكثر ما يستعمل في المؤنث. النحر: موضع القلادة من العنق.

وقلت، وكفّي نحوهن مشيرةً: ألا إن هذا الشعر من أجمل شعرا!

* * *

ومائدةً نسجُ الدّمقس غطاؤها
رَقَى من أعاليها الفنغرافُ منبرًا
وفي وَسَطِ النّادي سراج منور
فراح بإذن العلم يُنطقِ مقولًا
فطورًا خطيبًا يُحزنُ القلبَ وُغْظُهُ
يفوه فصيحًا باللّغا وهو أبكمُ
أمينُ أبى التّدليس في القول حاكيا
تراه إذا لقنته القول حافظًا
فيا لك من صنع به كل عاقل
فقلت، وقد تمّت شقاشق هدره

بمجلس شبان همُ أنجم العصر^{٣٥}
محاطًا بأصحاب غطارفةٍ غرًّا^{٣٦}
فتحسبه بدرًا وهمُ هالةِ البدر^{٣٧}
عرفنا به أن البيانَ من السحر
وطورًا يُسرُّ السمع بالعزف والزمير^{٣٨}
ويُسمع ألحان الغنا وهو ذو وقر^{٣٩}
فتسمعه يروي الحديث كما يجري^{٤٠}
تمر الليلي وهو منه على ذكر^{٤١}
أقرّ لأديسونَ بالفضل والفخر!^{٤٢}
ألا إن هذا الشعر من أعجب الشعر!^{٤٣}

* * *

وأصيدَ مأثورِ المكارم في الورى يُريك إذا يلقاك وجه فتى حُرًّا^{٤٤}

^{٣٥} الدمقس: الديباج والحريز الأبيض.

^{٣٦} الغطارفة: السادة.

^{٣٧} الهالة: دارة القمر، كالطفاوة لدارة الشمس.

^{٣٨} العزف: الضرب بالمعازف؛ وهي آلات الطرب.

^{٣٩} اللغا: اللغات؛ وهي جمع لغة. الوقر: الصمم؛ وهو زهاب السمع.

^{٤٠} التّدليس في الحديث: هو أن لا يذكر المحدث في حديثه مَنْ سمعه منه، ويذكر مَنْ هو أعلى مِنْ حدثه؛ لوهم أنه سمعه منه، والمدلس لا يُقبل حديثه.

^{٤١} الذكر بضم الذال: التذكر.

^{٤٢} أديسون: هو مخترع الصدى؛ «الفنغراف».

^{٤٣} تمت شقاشق هدره: سكت، والشقشقة في الأصل: لهاة البعير، وقيل: شيء كالرئة يخرج من فيه إذا هاج، ويقال للفصيح: هدرت شقشقتة.

^{٤٤} الأصيد: الرجل الذي لا يلتفت من زهوه وخيلائه.

يروح ويغدو في طيالسة الغنى
تخوّنه ريب الزمان فأولعت
فأصبح في طُرُق التصعلك حائراً
كأن لم يَرُح في موكب العز راكباً
ولم تزدهم صيدُ الرجال ببابه
فظل كئيبَ النفس ينظر للغنى
إلى أن قضى في علة العدم نحبه
فرحّت ولم يُحفل بتشجيع نعشه
وقلت، وأيدي الناس تحثو ترابه:

ويقضي حقوق المجد من ماله الوفير^{٤٥}
بإخلاقها دبباجتية يدُ الفقر^{٤٦}
يحول من الإملاق في سمل طمر^{٤٧}
عتاق المذاكي مالك النهي والأمر^{٤٨}
ولم يَغْمُر العافين بالنائل الغمّر^{٤٩}
بعين مُقلّ كان في عيشة المثري^{٥٠}
فجهّزه من مالهم طالبو الأجر^{٥١}
أشيّعه في حامليه إلى القبر
ألا إن هذا الشعر من أفجع الشعر!^{٥٢}

* * *

ونائحة تبكي الغداة وحيدها
عزاه إلى إحدى الجنايات حاكم
فويل له من حاكم صُبّ قلبه
من الروم أما وجهه فمشوّه

بشجو وقد نالته ظلمًا يدُ القهر^{٥٣}
عليه قضى بطلاً بها وهو لا يدري^{٥٤}
من الجور مطبوعاً على قالب الغدر
وقاح وأما قلبه فممن الصخر^{٥٥}

^{٤٥} طيالسة: جمع طيلسان، وهو نوع من الثياب يلبسه الخواص. الوفير: الكثير.

^{٤٦} أولع به بالبناء للمجهول: علق به شديداً. الإخلاق: مصدر أخلق الثوب: أبلاه. دبباجتية: خديه. ومعنى البيت: خانه الزمان، وعلقت به يد الفقر، فوضعت من شرفه، وذلك خديه بعد أن كانتا مصعرتين.

^{٤٧} التصعلك: الافتقار. الإملاق: الفقر. سمل طمر: بال.

^{٤٨} المذاكي: الخيل التي تمّت سنها وكملت قوتها.

^{٤٩} صيد: جمع أصيد وقد تقدم معناه. يغمّر: يبالغ في الإحسان. العافين: الفقراء. النائل الغمر: العطاء الكثير.

^{٥٠} المقل: ضيق ذات اليد. والمثري: الغني.

^{٥١} العدم: الفقر.

^{٥٢} تحثو ترابه: تصبه.

^{٥٣} الشجو: الحزن.

^{٥٤} عزاه: نسبه.

^{٥٥} وقاح بفتح الواو: ذو وقاحة، يطلق على الذكر والمؤنث.

أضراً بعفّ الذيل حتى أمضه
تخطّفه في مخلب الجور غيلةً
تنوء به الأقياد إن رام نهضة
تناديه والسجانُ يُكثِرُ زجرها
بُنَيّ أظن السجنَ مسكَ ضُرّه
بُنَيّ استعن بالصبر ما أنت جانياً
فجئت أعاطيها العزاء وأدمعي
وقلت، وقد جاشت غوارب عبرتي:

ولم يلتفت منه إلى واضح الغدر^{٥٦}
فزجّ به من مظلم السجن في القعر^{٥٧}
فيشكو الأذى والدمع من عينه يجري^{٥٨}
عجوزٌ له من خلف عالية الجدر^{٥٩}
بُنَيّ بنفسي حلّ ما بك من ضرّ!
وهل يخذل الله البريء من الوزر؟!^{٦٠}
كأدمعها تنهلُّ مني على النحر
ألا إن هذا الشعر من أقتل الشعر!^{٦١}

^{٥٦} عف: عفيف.

^{٥٧} المخلب: هو في الأصل ظفر كل سبع من الماشي والطيّائر. غيلة: يقال: قتله غيلة: أي خدعه فذهب به إلى موضع فقتله. زج به: طرحه.

^{٥٨} تنوء به: تثقله. الأقياد: جمع قيد.

^{٥٩} الجدر: جمع جدار.

^{٦٠} الوزر: الذنب.

^{٦١} جاشت: فاضت. غوارب الماء: أعالي موجه. العبرة: الدموع.

تجاه اللانهاية

عالقًا في مكرّه بالمجرّة
لم تزل حادثاته مستمره
ألف قرنٍ لما أتى مُستقرّه
لم تكن في أثيره غيرَ ذرّه
لم يكن بالغًا يدِ الدهرِ قعره
حَلَقَةً أَلْقَيْتَ بِصَحْرَاءِ قَفْرِهِ
مقشعراً وتأخذ العقلَ حَيْرِهِ
مثله لم نزد ولا قيدَ شعره
مستفيضاً فشَمْسُنَا مِنْهُ قَطْرِهِ
فهي سقطُ من جمرةٍ مستحرّه
ذُرٌّ مِنْ صِنْعَةِ الْقَوَى بِمَنْدَرِهِ
فظهرنا وهل لأول مره
فهو هاوٍ في ظلمةٍ مكفهره
وعلام الجهول يظهر كبره؟

أبعدَ الدهر في الفضاء مكرّه
إن أمَّ النجوم بنتُ زمان
في فضاء لو سافر البرق فيه
ولو الشمسُ ضُوعفت ألف ضعف
ولو الفكر غاص فيه مُغِذًّا
سعة تحسب المجرّة فيها
يقف الفكر دونها مُكْوَيْدًا
لو أضفنا إلى الفضاء فضاء
إن تكن هذه المجرّة نهرًا
أو تكن أرضنا من الشمس جزءًا
إن تُسائلُ عنا فنحن هباءً
صادفتنا أشعةٌ من حياةٍ
كل مَنْ جاوز الأشعة منا
فعلام الحقود يضرر حقدًا

من أين وإلى أين؟

من أين من أين يا ابتدائي
أمن فناءٍ إلى وجودٍ
أم من وجودٍ له اختفاءً
خرجت من ظلمة لأخرى
ما زلت من حيرة بأمرى
إنَّ طريق النجاة وعزٌّ
يا قوم هل في الزمان نطسٌ
لأَيِّ أمرٍ ذِه الليالي
فتطلعُ الشمس في صباح
أرى ضياءً يروق عيني

ثم إلى أين يا انتهائي؟
ومن وجودٍ إلى فناءٍ؟
إلى وجودٍ بلا اختفاءٍ؟
فما أمامي وما ورائي؟
معانق اليأس والرجاء
يكبو به الطُّرفُ ذو النجاء^١
يهدى إلى ناجح الدواء؟^٢
تأتي وتمضي على الولاء؟^٣
وتغرب الشمس في مساء
ولست أدري كنه الضياء^٤

^١ الطرف: الكريم من الخيل. النجاء: الإسراع والسبق.

^٢ النطس: الطبيب الحاذق.

^٣ ذه: اسم إشارة بمعنى هذه. على الولاء: متتابعة دون فاصل.

^٤ كنهه: حقيقته، والشطر الثاني من البيت فيه استعمال فاعلن على وزن مفعولن، وقد درج على ذلك بعض الشعراء في مخلص البسيط، غير أن علماء الفن لم يذكروا ذلك؛ وفي هذه القصيدة عدة أبيات كذلك.

وما اهتزاز الأثير إلا^٥ عُلالة نزرّة الجَلَاءِ
نحن على رغم ما علمنا نعيش في غيبهب العماء^٦
نشرب ماء الظنون عبًّا فلم نعد منه بارتواء^٧
تأتي علينا مشاهدات نروح منهنّ في مرء^٨
وكم نرى فضل فاعلات من القوى وهي في الخفاء^٩
يا ويلة الحسن إنه عن حقيقة الأمر في غطاء!
فإن أجزاء كل جسم مبتعدات بلا التقاء
وفي دُقاق الجماد عَرَكُ يتَّهم الحسّ بالخطاء^{١٠}

* * *

يا قوة الجذب أطلقيني من ثقلّة أوجبت عنائي
لولاك لولاك يا شكالي لطرت كالنور في الفضاء^{١١}
أنت عماد السماء لكن خفيت عن عين كل راء
ربطت كل النجوم فيها بعضًا ببعض ربطًا اعتناء
فدُرّن في الجوّ جارياتٍ كأنها السننُ فوق ماء
نحن بني الأرض قد علمنا بأننا من بني السماء
لو كنت في المشتري لبانت أرضي سماءً بلا اعتراء^{١٢}

^٥ الأثير في اصطلاح العلم: شيء أطف من الهواء، مملوء به الفضاء. العلالة: هي ما يتعلل به ويتهلّى. نزرّة الجلاء: قليلة الوضوح. يقولون: إن الضياء حاصل من اهتزاز الأثير والشاعر يقول: إن قولهم هذا قليل الوضوح، فهم يتلهون بهذا التفسير؛ لأنهم لم يدركوا الحقيقة.

^٦ الغيبهب: الظلمة.

^٧ عب الماء عبًّا: شربه بلا تنفس.

^٨ المرء: الخلاف والجدل.

^٩ القوى: جمع قوة؛ وأراد بها القوى الطبيعية.

^{١٠} أراد بدقاق الجماد: ذراته، وذرات كل شيء — على ما حققه العلم — في حراك مستمر، مع أن الحس في الظاهر يدركها ساكنة، وهذا معنى قوله: يتهم الحس بالخطاء.

^{١١} الشكال: الوثاق يقيد به.

^{١٢} المشتري: أحد النجوم السيارة.

من أين وإلى أين؟

فليس فوق وليس تحت
وإنما نحن فوق نجم
فليت شعري أي ارتقاء
وأنت يا كهرباء سرُّ
عجائب الكون وهي شتَّى
أضأت إن شئت كلِّ داجٍ
فأنت للكائنات روحٍ
وكم تقاضاك فيلسوف
فقال والقول منه ظن:
ولا اعتلاءً لذي اعتلاء
نحيا محاطين بالهواء
للروح يبقَى أيُّ ارتقاء!
بدا وما زال في غشاء^{١٣}
فيك انطوت أيما انطواء^{١٤}
لنا وأدريت كل ناء^{١٥}
إن كانت الروح للبقاء
حقيقة صعبة الأداء!^{١٦}
ما الكون إلا بالكهرباء

* * *

وليلة بتُّها أنادي
أخذ منهنَّ بالتَّداني
فأنثني باكيًا بشعري
وربما كَرَّ بعدَ وهنٍ
فأرجع القهقري أغني
أقول، والنسرُ فوق رأسي
يا أيها الأنجم الزواهي
أما كفاك السنا جمالاً
يا أنجم النعش فاصدقيني
نجومها أبعد النداء
فكرًا ويأخذنَ بالتَّنائي
ويطرب الليل من بكائي
فكري فألفي بعض الشفاء^{١٧}
وما سوى الشعر من غناء
وطالع النجم في إزائي^{١٨}
لله ما فيك من بهاء!
حتى تجللت بالسَّناء؟^{١٩}
أما ذو النعش بانطفاء؟^{٢٠}

^{١٣} غشاء: غطاء.

^{١٤} شتَّى: متفرقة.

^{١٥} داج: مظلم. أدريت: قربت. ناء: بعيد.

^{١٦} تقاضاك: طلبك.

^{١٧} الوهن: الضعف.

^{١٨} النسر: اسم كوكب. النجم: الثريا. إزائي: مقابلي.

^{١٩} السنا: الضوء. السناء: الرفعة.

^{٢٠} أنجم النعش: هي الأنجم التي تسمى ببينات نعش. ذو النعش: هو الميت.

إني إذا كنت في حدادٍ إليك أهدي حسن العزاء
 وأنت يا نسر من كلال وقعت أم طلبّة الغذاء؟^{٢١}
 أخوك هل طائر لوكر أم قاصد منتهى الفضاء؟^{٢٢}
 كأنّ أمّ النجوم سيفٌ سلّ على الليل ذو مضاء^{٢٣}
 رُضع مَتْنَاه بالدراري فراق في الحسن والرؤاء^{٢٤}
 كأنّ نجم السُّها أديبٌ في أرض بغدادَ ذو ثواء^{٢٥}
 كأنّ خط الشهاب مُدلٍ لأسفل البئر بالرشاء^{٢٦}
 كأنما أنجم الثريا في شكلها الباهر الضياء
 قُقَازُ كفّ به فصوصٌ من حجر الماس ذي الصفاء^{٢٧}
 برئت للموت من حياة ما نُكِّبت مَهْيَع الشقاء^{٢٨}
 لم يكفها أنها احتياج حتى غدت حوصةً البلاء
 يا أيُّها المترف المهنّا يمرح في ثوب كبرياء^{٢٩}
 مهلاً أذا الكبر بعضٌ كِبِرٍ أَلست تقنّي بعض الحياء؟!
 أنت ابن فقر إلى أمورٍ بهنّ يُدعى بابنِ الثراء^{٣٠}

^{٢١} أراد بالنسر: الواقع، وهو اسم نجم. الكلال: التعب.

^{٢٢} أخوك: خطاب النسر الواقع، وأخوه هو النجم المعروف بالنسر الطائر.

^{٢٣} ذو مضاء: حاد قاطع.

^{٢٤} متناه: جانباه. الرؤاء: حسن المنظر.

^{٢٥} السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته. الثواء: الإقامة.

^{٢٦} مدلٍ: مَنْ أدلى الدلو أو الحبل إذا أرسله في البئر. الرشاء: الحبل.

^{٢٧} الققاز: لباس اليد، وهما ققازان. الفصوص: جمع فص، بفتح الفاء وضمّها وكسرهما، وهو يركب في الخاتم من المعادن كاللياقوت والماس ونحوها.

^{٢٨} نكبت: مجهول نكبه الطريق، بمعنى نحاه وأبعده عنها. المهيع: الطريق.

^{٢٩} المترف: المنعم.

^{٣٠} الثراء: الغنى.

نحن على منطاد

نحن من أرضنا على منطادٍ
طائرٍ في الفضاء عرضاً وطولاً
أيها الأرض سرت سيرك مثنى
فتقلّبت في نهارٍ وليلٍ
في بلاد يكون سيرك تأويـ
فيك دفع وفيك يا أرض جذب
فلكُ دائر على الشمس طوراً
جائلٍ في شواسع الأبعاد^١
بجناح من القوى غير بادٍ^٢
ذا نتاجين في زمان أحادٍ^٣
ذا مُضِلٌّ وذاك للناس هادٍ
بأ على أنه سُرى في بلاد^٤
لك ذا سائق وذا لك حادي^٥
في اقتراب وتارة في ابتعاد

^١ المنطاد: هو ما يطار به في الفضاء، وهو ما يسمونه «البالون». جائل: اسم فاعل من الجولان. الشواسع:

البعيدة، من شسع المكان بمعنى بعد. الأبعاد: جمع بعد.

^٢ غير باد: غير ظاهر.

^٣ إنما كان سير الأرض مثنى؛ لأن لها في الزمان الواحد دورتين، تنتجان نتاجين: دورة ينتج عنها اختلاف الليل والنهار، وهذه تتمها بأربع وعشرين ساعة، ودورة ينتج عنها اختلاف الفصول، وهذه تتمها في سنة كاملة.

^٤ التأويب: السير جميع النهار. السرى: السير في الليل. يقول: أيها الأرض إن سيرك النهاري في بلاد هو في الوقت نفسه سير ليلي في بلاد أخرى؛ وذلك لأن الكرة يكون نصفها مضيئاً وهو ما يقابل نور الشمس، والنصف الآخر يكون مظلماً وهو ما لا يقابلها، وبمقدار ما تنير الشمس من الأرض ترسل الظلام على قسم آخر.

^٥ حادي: من حدا الناقة إذا غنى لها لتجود في السير.

ليت شعري وما حصلت من الآ
لبقاء تُقَلِّنا الأرض في تَسْ
نحن في عالم تَقَصَّف فيه
شأننا العجزُ فيه نوجد أنى
ضاع جَذر الحياة عنا فخلنا
شغلتنا الدنيا بلهو ولعب
ضلَّ مَنْ رام راحة في حياةٍ
إنما هذه الحياة جروح
كلُّ أسرٍ يهون إن أطلقت أر
لا تلمني إذا جَزعت فياني
طال عُتبي على عِدات الليالي
كدَّرت عيشي الحوادثُ حتى
صاح ما دلَّ في الأمور على الأشـ
فاعتبر بالسفيه تُمس حليمًا
واللبيب الذي تعلَّم إتيا
أيها الغرُّ لا تغرِّك دنيا
خفَّ من غاص في الغرور كما في

راء إلا على خلاف السداد
ييارها أم تقلِّنا لنفاد؟^٦
عارض النائبات بالإرعاد^٧
قذفتنا يد الخطوب الشداد
أنها كالأصم في الأعداد^٨
فغفلنا والموت بالمرصاد
ونحن منها في معرك وجلاد^٩
أثخنتنا والموت مثل الضماد^{١٠}
واحنا الموثقات بالأجساد
ما ملكت الخيار في إيجادي
مثلما طال مَطُّها بمرادي^{١١}
لا أرى الصفو غير وقت الرقاد^{١٢}
كال إلا تفحص الأضداد
وتعرَّف بالغي طرُق الرشاد
ن المعالي من خسة الأوغاد^{١٣}
ك بكون مصيره لفساد
لجة الماء خفَّ ثقلُ الجماد^{١٤}

^٦ تقلنا: تحملنا.

^٧ العارض في الأصل: السحاب الذي يعترض في الأفق. النائبات: المصائب.

^٨ خلنا: ظننا. الأصم في اصطلاح الحسابين: هو العدد الذي لا يؤخذ جذره، بمعنى أنه لا يكون حاصلًا من ضربه بنفسه كالخمسة والثلاثة والأحد عشر وغيرها، معنى البيت: أننا جهلنا أصل الحياة، فظنناها لا أصل لها، كالعدد الأصم الذي لا جذر له.

^٩ الجلال: مصدر جالدوا، بمعنى تضاربوا بالسيوف.

^{١٠} أثخنتنا: أوهنتنا وأضعفتنا. الضماد: العصابة التي يربط بها موضع الجروح.

^{١١} عدات: جمع عدة بمعنى الوعد.

^{١٢} الرقاد: بمعنى النوم.

^{١٣} الأوغاد: جمع وغد، وهو اللثيم.

^{١٤} خف: من خفة العقل.

يا خليلي والخليل الموسي
خاب قوم أتوا وغى العيش عُزلاً
قد جفتنا الدنيا فهلاً اعتصمنا
لو عقلنا لما اختشى قط محسو
فمتاع الحياة أحقر من أن
أنا والله لا أريد بأن أو
إن لي إن سمعتُ أنه محزو
إن نفسي عن همها ذات شغل
لا أحب النسيم إلا إذا هبَّ

منكما من يقوم في إسعادي^{١٥}
من سلاحي تعاون واتحاد^{١٦}
من جفاء الدنيا بحبل واد؟
دون وقع الأداة من حُساد
يستفزُّ القلوب بالأحقاد
قع شرّاً ولو على من يعادي
ن أنيناً مُرجعاً في فؤادي
بهموم العباد، كلّ العباد
على كل حاضر أو باد

* * *

أيها الناس إن ذا العصر عصرُ الـ
عصر حكم البخار والكهربائيـ
بُنيت فيه للعلوم المباني
فاض فيضُ العلوم بالرغمِ ممَّن
إنَّ للعلم في الممالك سيراً
أطلع الغربُ شمسهُ فحبا الشر
إن للعلم دولة خضعت دو
ما استفاد الفتى وإن ملك الأر
لا تُسابق في حلبة العزِّ ذا العلـ
إن أموات أمة العلم أحياء
وكأين في الناس من ذي خمول

علم والجدِّ في العُلا والجهاد
ة و«الماكنات» والمُنطاد
وأقيمت للبحث فيها النوادي
ضربوا دونهن بالأسداد^{١٧}
مثل سير الضياء في الأبعاد
ق اقتباساً من نورها الوقاد
ن علاها عوالم الأضداد
ض بأعلى من علمه المستفاد
م فما للهجين شأو الجواد^{١٨}
ء حياة الأرواح والأجساد
صار بالعلم كعبة القصاد!

^{١٥} الموساي: المعين.

^{١٦} وغى العيش: شدته، والوغى في الأصل: أصوات المحاربين في الحرب. عزلاً: جمع أعزل، وهو الذي لا سلاح معه.

^{١٧} الأسداد: جمع أسد.

^{١٨} الهجين من الخيل: هو الذي ولدته برذونة من حصان عربي.

* * *

رَبِّ يَوْمٍ وَرَدتْ دَجَلَةٌ فِيهِ
 حَيْثُ يَنْصَبُ فِي سَكُونٍ عَمِيقٍ
 وَهَبُوبِ النَّسِيمِ يَكْتَبُ فِي الْمَا
 يَمَّحِي بَعْضَهَا وَيُظْهِرُ بَعْضُ
 وَتَتَنُّ الْمِيَاهُ لِي بِخَرِيرٍ
 قَمْتٌ فِي وَجْهَهَا أَرَدُّ طَرْفِي
 وَاقْفًا تَحْتَ سَرْحَةٍ نَاحٍ فِيهَا
 مَنَشِدًا فِي النَّوَاحِ شَعْرًا غَرِيزِيَّ
 جَاوِبْتَهُ أَفْنَانُهَا بِأُنَيْنٍ
 أَيُّهَا الطَّائِرُ الْمَرْجُّعُ فَوْقَ الْـ
 بَيْنِ مَاءٍ جَارٍ وَلِحْنِ شَجِيٍّ
 يَا مِيَاهًا جَرْتِ بِدَجَلَةٍ تَجْتَا
 إِنْ نَفْسِي إِلَى الْحَقِيقَةِ عَطَشَى
 كُنْتُ تَجْرِينِ وَالرُّصَافَةَ وَالْكَرِ
 أَيُّهَا الْمَاءُ أَيْنَ تَجْرِي ضَيَاعًا
 فَمَتَى تَفْطِنُ النُّفُوسَ فِيحْيَا
 لَوْ زَرَعْنَا بِكَ الْبَقَاعَ حَبُوبًا
 أَفِيدْرِي خَلِيحَ فَارَسَ مَاذَا

مورداً خالياً عن الوردا
 ماؤها لاثماً ضفاف الوادي
 ء سطوراً مُهتزةً في أطراد
 فهي تنساب بين خافٍ وبارٍ^{١٩}
 كأنين السقيم للعُود^{٢٠}
 ساكنًا والضمير مني ينادي
 طائر فوق غصنها المياد^{٢١}
 يا حزينًا كأنه إنشادي
 من حفيف الأوراق والأعواد^{٢٢}
 غصن هل أنت نائح أم شاد؟!
 منك يا طائر استطار فؤادي
 ز مرورًا بجانبِ بغداد
 أفتشفين غلة من صاد؟^{٢٣}
 خ خلاءً من رائج أو غاد
 وحوالك قاحلات البوادي؟!^{٢٤}
 بك سقيًا موات هذي البلاد؟
 لحصدنا النضار يوم الحصاد^{٢٥}
 فمه منك بالبع بازدراد!؟

^{١٩} تنساب: تسرع.

^{٢٠} العواد: الزوار.

^{٢١} السرحة: الشجرة العظيمة. المياد: المتمايل.

^{٢٢} أفنانها: أغصانها. الحفيف: صوت أوراق الشجر.

^{٢٣} الغلة: العطش. الصادي: العطشان.

^{٢٤} أرض قاحلة: لا نبات فيها.

^{٢٥} النضار: الذهب.

أنت واللّه عسجد ولجّين
فأجر يا ماءً إن جرّيت رويداً
علّنا نستفيق من رقدة الفق
سلكتك السما ينابيع في الأر
فتفجّرت في السفوح عيوناً
وإذا ما انتهيت في جريان
هكذا دار دائر الكون من حي
لو أتينا الأمور باستعداد^{٢٦}
بأنأة ومُهلة واتئاد^{٢٧}
ر فنغنى بفيضك المزداد
ض أمدتك أيما إمداد!
نبتت من مخازن الأطواد^{٢٨}
عدت للبدء في متون الغوادي^{٢٩}
ث انتهى عاد راجعاً للمبدي

^{٢٦} العسجد: الذهب. اللجين: الفضة.

^{٢٧} الأنأة والمهلة والانتاد: ألفاظ مترادفة بمعنى التأني.

^{٢٨} السفوح: جمع سفح، وهو أسفل الجبل. الأطواد: جمع طود، وهو الجبل.

^{٢٩} المتون: جمع متن، وهو جانب الشيء. الغوادي: السحاب الذي يكون فيه المطر، يقول: إن الماء بعدما ينتهي جريانه يرجع كما كان في بادئ الأمر سحاباً بواسطة التبخر ثم ينزل مطراً، وهكذا قال أبو العلاء:

فيا جسد المرء ماذا دهاك وقد كنت من عنصر طيّب؟!
تعود ظهوراً إذا ما رجعت إلى الأصل كالمطر الصيب

كلمة معتبر

أقوى مَصِيفُ القوم والمربعُ
سارت بنا الأرض إلى غاية
ونحن كالماء جرى نابعًا
والعلم قد أنكر منهاجنا
خرقت يا علمُ رداءً لنا
فَجَعَتْنَا يا علمُ في أمرنا
لقد طغت حيرة أهل النهى
كم نشرب الظنَّ فلا نرتوي
والناس ويل الناس في غفلة
والكون قد لاح بمرآته
فالدار قفر بعدهم بِلَقْعٍ^١
لنا وَلِلأَرْضِ هي المرجعُ
لكنْ علينا خفي المنبعُ
ولم يبينْ أين هو المهيع
كنا ارتديناه فهل ترقعُ؟!
أمعِيبُ أنت إذا تجزعُ؟!^٢
هل فيك يا علم لها مَرَدَعُ؟^٣
ونأكل الحَدْسُ فلا نشبع!^٤
ترتع والموت بهم يرتع
للعيش وجهُ شاحب أسفعُ^٥

^١ المصيف: مكان الإقامة صيفًا، والمربع: مكانها ربيعًا. البلقع: الأرض الخالية من السكان.

^٢ مُعْتَب: مرض، مشتق من أعتبه بمعنى أعطاه العتبي؛ أي الرضا. نجزع: لم نصبر.

^٣ النهى: العقل.

^٤ الحدس: التخمين والرجم بالغيب.

^٥ شاحب، يقال: شحَب لونه وشحَب، بمعنى تغير من جوع أو سفر أو مرض، وجه أسفع شاحب متغير من المشاق.

وإن في البدر لخطبًا به
فالعين ما يورث حزنًا ترى
والأرض في منقلبٍ بالورى
حتى إذا ما بلغت شوطها
وهكذا الظلمة تتلو الضيا
ونحن في ذاك وفي هذه
ما بين مسعود يميت الدجى
ومسرع يسبقه مبطئ
وشامت يضحك من حادث
لو كان للقسوة عين وقد
والكل في شغبٍ لهم دائم
والماء يمشي وسلاً تارة
والريح تجري وهي ريْدانة
وبعضهم تُمْرَع وديانته

في البدر لاحت بقع أربع^٦
والأذن ما يزعجها تسمع
والشمس من مشرقها تطلع
لاحت نجوم في الدجى تلمع^٧
والضوء للظلمة يستتبع^٨
بالنوم واليقظة نستمتع^٩
نومًا ومنكود فلا يهجع^{١٠}
ومبطئ يسبقه مسرع
حل بباك قلبه موجع
رأته كانت عينها تدمع
لم يقلعوا عنه ولن يقلعوا^{١١}
وحوضه آونةً مُترع^{١٢}
حينًا وحينًا عاصف ززع^{١٣}
وبعضهم واديه لا يُمرع^{١٤}

* * *

قد لا يحسب الإنسان أماله
حتى إذا أكمل حُسابنها
والموت مصغٍ نحوه يسمع
وافاه ما ليس له مدفع

^٦ الخطب: الأمر.

^٧ الشوط: الغاية والنهاية.

^٨ تتلو: تتبع.

^٩ نستمتع: ننتفع زمانًا طويلاً.

^{١٠} الدجى: الليل. يهجع: ينام.

^{١١} الشغب: الهياج وإثارة الشرور.

^{١٢} الوشل: الماء القليل. مترع: ملائ.

^{١٣} ريْدانة: لينة الهبوب. عاصف، ززع: شديدة الهبوب.

^{١٤} تُمْرَع: تخصب.

فخرٌ للجَنبِ صرِيحًا به
 وظل فوق الأرض في حالة
 لا تعمل الأقدام في كَفِّه
 ولم تعد تقطع أسيافه
 فاستلَّ مثل السيف من مُطْرِفٍ
 وُلِّفَ في ثوب له واحدٍ
 وأهًا له ثوب البِلَى إنه
 ودُسَّ حيث الأرض أمست له
 حيث البِلَى يرميه حتى إذا
 خالط ترب الأرض جثمانه
 لله دُرُّ الموت من خَطَّةٍ
 يخون فيها القولُ منطيقه
 ما أقدر الموت! فَمِنْ هُوَ له
 يا رافع البنيان كما للردى
 ويا طبيب القوم لا تؤذهم

وأَيُّ جنب ما له مصرع؟!
 يزورُ عنها الحسب الأرفعُ^{١٥}
 وكان من قبل بها يصدع^{١٦}
 من بعد ما كان بها يقطع
 طرائق الوشي به تلمع^{١٧}
 ليس له رقم ولا ميدع^{١٨}
 يبلى مع الجسم ولا ينزع
 ملحودة ضاق بها المضجع^{١٩}
 لم يَبْقَ في قوس البِلَى منزع^{٢٠}
 مطحونة منه بها الأضلع^{٢١}
 فيها استوى ذو العيِّ والمُصْقِع!^{٢٢}
 كما تخون البطل الأدرع^{٢٣}
 لم ينجُ لا كِسْرَى ولا تُبْعَ^{٢٤}
 من سُلِّم يدرك ما ترفع
 إنَّ دواء الموت لا ينجع^{٢٥}

^{١٥} يزور: يميل وينحرف.

^{١٦} يصدع: يشق.

^{١٧} المطرف: نوع من الثياب. طرائق الوشي: خطوط التنميق والنقش.

^{١٨} الرقم: الوشي. الميدع: الصوان الذي يصبان به الثوب، أي: ليس وشي ولا صوان يصبان به؛ لأن الكفن يلبس ولا ينزع كما قال في البيت الثاني.

^{١٩} دس في التراب: أودع فيه. ملحودة: اتخذ لها لحدًا.

^{٢٠} يقال: لم يبق في القوس منزع، أي: بلغ الأمر الغاية.

^{٢١} الجثمان: الجسم.

^{٢٢} ذو العي: ذو الحصر، وهو الذي لا يحسن الكلام. المصقع: الفصيح.

^{٢٣} المنطيق: البليغ.

^{٢٤} كسرى: اسم كل ملك كان يحكم الفرس. وتبع: اسم كل ملك كان يحكم اليمن، كقيصر للروم، وخاقان للترك، والنجاشي للحبشة، وفرعون للقبط، والعزير لمصر.

^{٢٥} لا ينجع: لا يؤثر.

ديوان معروف الرّصافي

لا بدّ للمغرور من مَنَدَمٍ فالعَصُّ تدمى عنده الأصبع
وما عسى تُغني وقد حشرجتُ ندامةً ليست إِنْ تنفع^{٢٦}
يا برقع الخلقة وأها لما فيك وأها منك يا بُرُقِع
قد زاغت الأبصار فيما ترى إذ فات عنها سرك المودِع
وليس في الإمكان عند النهى أبدع مما خلق المبيدِع

^{٢٦} حشرجت: الضمير راجع للروح، والحشرجة: الغرغرة عند الموت.

الكني يا ضياء

أجَدِّكَ يا كواكب لا ترينا
كأن العالم العُلويَّ سَفَرُ
نحاول منه إعراب المعاني
كواكب في المجرة عائماتٌ
سرت زُهْرُ النجوم وما دراها
شموس في السماء عَلَتْ وِجَلَّتْ
سوابح في الفضاء لها شئونٌ
وما ارتجفت بَجْنَحِ الليل إلا
لعلَّ لها بهذا الجو شأنًا
تلوح على الدجى متلألئات

بيانًا منك يُخبرنا اليقينًا؟^١
نطالعُه ولسنا مفصحين
بتأويل فنرجع مُعْجِمِينا^٢
حكّت في بحر فسحتها السفينا^٣
فلاسفة مضت ومنجمونا
فظنوا في حقيقتها الظنونا
ولمّا يعلموا تلك الشئونا
لتضحك فيه مما يزعمونا
سوى ما نحن فيه مُرْجَمُونا^٤
فتُبْهَج في تلالُها العيونا

^١ أجد: بفتح الجيم وكسرهما، والهمزة للاستفهام، وهذه من الكلمات التي لا تستعمل إلا مضافة، ومعناها:

أوجد منك هذا العمل، وقيل معناها بفتح الجيم: استخلاف بالجد؛ أي البخت والحظ، وبكسرهما معناها:

استخلاف بالجد؛ أي الحقيقة والاجتهاد، والجد الذي هو ضد الهزل.

^٢ الإعراب: الإظهار. معجمين: غير مفصحين.

^٣ المجرة: مجموعة نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر، وإنما ينتشر ضوءها كأنه بقعة بيضاء. حكّت:

أشبهت، السفين: جمع سفينة.

^٤ مرجمون: قائلون بما لا نعلم.

وَأَنْتَى يَدْرِك الرّائِي مِدَاهَا وَإِنْ أَلْقَى لَهَا نَظْرًا شَفَوْنَا؟^٥
تَوَدُّ الغَانِيَات إِذَا رَأَتْهَا لَوْ انْتَضَمَتْ لَهَا عِقْدًا ثَمِينَا
تَقْلُدُهُ عَلَى اللَّبَّاتِ مِنْهَا وَتَطَّرِحُ الدَّمَالِحَ وَالبُرِينَا^٦

* * *

أَلِكُنِي يَا ضِيَاءَ إِلى الدَّرَارِي رِسَالَةَ مُسَهِّرٍ فِيهَا الجَفَوْنَا^٧
لَعَلَّكَ رَاجِعٌ مِنْهَا جَوَابًا يَزِيلُ عِمَائَةَ المِتْحِيرِينَا
فَقُلْ، إِنِّي تَحْيِّرُ فِيكَ فِكْرِي كَذَاكَ تَحْيِرُ المِتْفَكْرُونَا
فِيَا أُمَّ النُّجُومِ وَأَنْتِ أُمَّ أَيُولَدُ فِيكَ كَالأَرْضِ البِنُونَا؟^٨
وَهَلْ فِيكَ الحَيَاةَ لَهَا وَجُودٌ فَيَمكُنُ لِلرَّدَى بِكَ أَنْ يَكُونَا؟
وَهَلْ بِكَ مِثْلَ هَذِي الأَرْضِ أَرْضُ وَفِيهَا مِثْلُنَا مِتخَالِفُونَا؟
وَهَلْ هُمْ مِثْلُنَا خُلُقًا وَخَلْقًا هُنَاكَ فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَا؟
وَهَلْ هُمْ فِي الدَيَانَةِ مِنْ خِلاَفِ نِصَارِي أَوْ يَهُودٍ وَمَسْلُمُونَا؟
وَهَلْ طَابَتْ حَيَاةَ بَنِيكَ عَيْشًا ففَوْقَ الأَرْضِ نَحْنُ مَعذِبُونَا؟
وَهَلْ حُسِبَتْ بِكَ الأَيَّامُ حَتَّى تَأَلَّفَ مِنْ تَعاقِبِهَا السَّنُونَا؟
وَهَلْ بِالمَوْتِ نَحْنُ إِذَا خَرَجْنَا عَنِ الأَجْسَادِ نَحْوِكَ مَرْتَقُونَا؟^٩
فَتَبْقَى عِنْدَكَ الأَرْوَاحُ مَنَّا تُصَانُ فَلَا تَرَى جَنَفًا وَهُونًا^{١٠}

^٥ مداها: غابتها. شفن شفونا: رفع طرفه ناظرًا الشيء كالمتعجب أو كالمكاره، فهو شافن وشفون بفتح الشين.

^٦ تقلده: أي تتقلده بمعنى تلبسه كالقلادة. اللبات: جمع لبة وهي النحر، الذي هو موضع القلادة من العنق. الدمالج: جمع دملج، وهو حلي يلبس في المعصم. البرين: نوع من الحلي، وهو جمع برة — بضم الباء وفتح الراء — على غير قياس.

^٧ ألكني يا فلان: أي كن رسولي إليه، وتحمل رسالتي إليه. الدراري: أراد بها النجوم الزواهر.

^٨ أم النجوم: هي المجرة.

^٩ مرتقون: مرتفعون.

^{١٠} تصان: تحفظ. جنفًا: ظلمًا.

ألكني يا ضياء

فأحِبُّ بالمنون إذن وأحِبُّ بها إن كان سُلِّمك المنونا!^{١١}

* * *

أبيني ما وراءك يا دراري
قد اتسع الفضاءُ لك اتساعًا
وصغَّرَكَ ابتعادك فيه حتى
فهل كان ابتعادك من دلال
خوالد في فضائك أنت؟ أم قد
وقالوا: ما لعدَّتكَ انتهاءً
وقالوا: الأرضُ بنتك غيرَ مَيِّن
وقالوا: إن والدك المفدَى
ترصَّدك الأنام وما أتانا
«فهرشل» ما شفى منا غليلاً
و «كبلر» قد هدى أو كاد لما
إلى كم نحن نلبس فيك لبسًا
لعلَّ النجم في إحدى الليالي
تقوم له الهواتف قائلات:

فنحن نخاله بعدًا شَطونًا^{١٢}
فهل أبعاده بك ينتهينا؟
إليك استشرف المتشوّفونا^{١٣}
علينا أم بعدت لتخدعينا؟
يحلُّ بك الفناء فتذهبينا؟
فهل صدقوا أو ارتكبوا المجونا؟^{١٤}
فهل أبناء بنتك يصدقونا؟^{١٥}
أثيرٌ في الفضاء أبى السكونا^{١٦}
بعلم كيالك المترصدونا^{١٧}
ولا «غاليل» أنبأنا اليقيننا^{١٨}
أبانك يا نجوم تجاذبيننا^{١٩}
ومن جرَّك ندرع الظُّنونا!^{٢٠}
سيبعث للورى نورًا مبينا
خذوا عني النهى ودعوا الجنونا

^{١١} يقول: أيتها المجرة، هل نحن نرتفع إليك إذا متنا، فإن كذلك فما أحل الموت إن كان سلمًا للوصول إليك!

^{١٢} بئر شطون: بعيدة القمر، وغزوة ونية شطون: بعيدة.

^{١٣} استشرف الشيء: رفع بصره ينظر إليه. تشوف إلى الشيء: تطلع إليه.

^{١٤} المجون: إرسال القول أو الفعل من غير مبالاة كالهزل.

^{١٥} المين: الكذب.

^{١٦} الأثير: مادة منتشرة في كل خلاء ألطف من الهواء.

^{١٧} الكيان: الطبيعة.

^{١٨} هرشل وغاليل وكبلر: علماء فلكيون.

^{١٩} أبانك: أظهرتك.

^{٢٠} من جرَّك: من أجلك.

الأرض

خَبِرُ فِي الْأَرْضِ أَوْحَتَهُ السَّمَاءُ لِأُولَى الْعِلْمِ بَرُسَلِ الْفِكْرِ
أَنْ هَذِي الْأَرْضُ كَانَتْ أَوْلَى مَا تَرَى بَحْرًا بِهَا أَوْ جِبَلًا
أَوْ سَهولًا أَوْ رُبًّا أَوْ سُبُلًا أَوْ رِيَاضًا زَهْرَهَا الْغُضُّ نَمَا^١
من سحابٍ جادها بالمطرِ
إنما كانت كتلك الأخوات من نجومٍ سائراتٍ دائراتٍ
حول شمسٍ هي إحدى النيرات كَنَّ مِنْ قَبْلُ عَلَيْهَا سُدْمًا^٢
كتلة واحدةً في النظرِ
ثم بعدُ انفصلت من ذا السديمِ قِطْعٌ مِنْهَا صَغِيرٌ وَجَسِيمٌ
ضمن أفلاكٍ بها الدورُ تُدِيمُ فاستقر الكُلُّ فيها أنجما
حول غير الشمس لم يَسْتَدِرْ^٣

^١ الغض: الطري.

^٢ السدم: جمع سديم، وهو الضباب؛ أي كانت النجوم التي هي في العالم الشمسي حول الشمس بمنزلة الغيوم.

^٣ الأرض وأخواتها من النجوم السابحة التي يتألف منهما النظام الشمسي، كانت جميعها مع الشمس كتلة واحدة، انفصلت وصار كل نجم على حدة، مرتبطاً مع أخواته بنظام واحد، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

أولاً «نبتون» منه انفصلا ثم «أورانيس» يهدي زُحلاً؛
 ثم للمشتري مريخٌ تلا ثم هذي الأرض فالزهرة ما
 بعدها غير أخيها الأشهر^٤
 وأخو الزهرة بالشمس اقتدى ولها أقربَ سيار غدا
 وهي سارت خلفه طول المدى فأمام الأرض نان انتظما
 خلفها المريخ ثم المشتري
 أرضنا كانت لظى مشتعله مُدٌّ من الشمس غدت منفصله
 لم تزل في دورها منتقلة كتلةٌ فيها اللهب احتدما
 وهي ترمي في الفضا بالشرر
 كان فيح النار منها مصعدا وهجاً في الجو عنها مبعدا
 حيث لا يمكن أن ينعقدا فوقها منه بخارٌ ديماً^٥
 هاطلات بالحيا المنهمر^٦
 بقيت حيناً وهذا أمرها وهي بالإشعاع يخبو حرّها^٧
 وانثنى يبرد من نا ظهرها فاكتست قشراً يحاكي الأدماء^٨
 واستمرت بطنها في سَعْر^٩

^٤ نبتون: هو النجم السيار الذي لم يعرف في القديم. أورانيس: هو نجم سيار لم يكن معروفاً من قبل، وإنما عرف أخيراً، ويسمى أيضاً هرشيل باسم مكتشفه، وهذه النجوم التي ذكرها بعد أورانيس هي السبعة السيارة الأصلية، التي تخطر حول الشمس، ولم يذكر القمر؛ لأنه قد ثبت أنه يدور حول الأرض، وهي تدور حول الشمس.

^٥ أراد بأخيها الأشهر: عطارد، وهو أقرب سيار إلى الأرض، وليس بين الزهرة والأرض سيار سواه.

^٦ الديم: جمع ديمة، وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق، والمراد به هنا المطر مطلقاً.
^٧ الحيا: المطر. المنهمر: السائل؛ أي أن شدة الحرارة المتصاعدة من الأرض كانت تمنع البخار من أن ينعقد سحاباً ماطرًا.

^٨ يخبو: يخمد ويسكن.

^٩ يحاكي: يشابه. الأدم: البشرة وهي ظاهر الجلد.

^{١٠} البطن: مذكر، وتأنيته لغة، وعليها مشى الشاعر، ويجوز أن يكون الضمير في استمرت عائداً إلى الأرض، فتكون جملة بطنها في سعر، في موضع الحال من الضمير، السعر: الحر، وأراد به الاشتعال والهيجان، والسعر في الأصل بتسكين العين، وضم هنا للضرورة.

ثم قد صار على مر الزمان قشرها يغلظ أَنَا بعد آن
 بيد أن النار عند الهيجَان قد أعادت قشرها منخرما
 بصدوع مُدهشات البصر^{١١}
 شخصت أطراف هاتيك الصدوغ بجبال شمخت منها الفروع
 ولها في العين أشكال تروغ تقذف الأفواه منها حُمَمَا^{١٢}
 صار منهن ركام الحجر^{١٣}
 حصلت من قذف هاتيك المواد حيث يجمدنَ جبال ووهاد^{١٤}
 وركاز وصخور وجماد بعضها دَقَّ وبعضُ عظاما^{١٥}
 وهو صلب الجسم صعب المكسر
 وهناك انعقدت فيها الغيومُ من بخار كان في الجوَّ يعوم
 رَدَّهُ البردُ مياهاً في التخوم فجرى السيل عليها مفعِما^{١٦}
 كل غور فوقها منحدر^{١٧}
 عمَّها السيل فغطى حين سأل سطحها مجترفاً منها الرمال
 فَطَمَا الماء ولكنَّ الجبال شخصت في الماء لَمَّا أن طَمَا^{١٨}
 وعلت كالسُّفْن فوق الأبحر
 غمر الماءُ بها ما غمرا ثم خلَّى بعضها منحسرا^{١٩}

^{١١} صدوع: شقوق.

^{١٢} تروغ: تخيف. الحمم: جمع حمة، وهي ما تقذفه البراكين عند ثورانها.

^{١٣} الركام: الشيء المتراكم بعضه فوق بعض.

^{١٤} الوهاد: الأماكن المنخفضة.

^{١٥} الركاز: المعدن. دق: صغر.

^{١٦} التخوم: الفواصل بين الأرضين. مفعِما: مائلاً.

^{١٧} الغور: هو ما انحدر من الأرض، متى تسلطت حرارة الشمس على الأرض امتصت رطوبتها فتتصاعد تلك الرطوبة بخاراً في الجو، ومتى بلغ الطبقة الباردة من الهواء يتحلل ويتساقط مطراً، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْزِقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾. الودق: المطر.

^{١٨} طما: ارتفع.

^{١٩} منحسراً: منكشفاً.

محدثًا في السطح منها جزراً أنزل الماء بها ما حطما^{٢٠}
من طُفالٍ وحُتاتٍ المدر^{٢١}
بسيول الماء كم فيها ارتكم^{٢٢} من رمال رسبت فيها أكم^{٢٢}
ولكم خدّت أخايدَ وكم قد بنت من طبقات علما^{٢٣}
نضدت فيه صفيح المرمّر
ثم صارت وهي من قبل موات^{٢٤} تصلح الأقطار منها للحياة^{٢٤}
فانبرت تُنبت في البدء النبات ثم أبدت من قواها النسما^{٢٥}
وارتقت فيها لنوع البشر^{٢٦}
فعدت إذ ذاك تزهو بالرياض^{٢٧} وبها الأدواح تنمو في الغياض^{٢٧}
ثم ترميها أكفُ الإنقراض بانحطام حيث تمسي فحما
حجريًا بمرور الأعصر
من حطام الخلق في الأرض هضاب^{٢٨} كوّنتهن أكفُ الانقلاب^{٢٨}

٢٠ الجزر: جمع جزيرة، على غير قياس، والقياس: جزائر.

٢١ الطفال: بفتح الطاء وضمها هو الطين اليابس. الحتات بضم الحاء: وهو ما تناثر من شيء. المدر: التراب المتلبد.

٢٢ ارتكم الشيء: اجتمع مع ازدحام وكثرة. رسب الشيء في الماء: وصل إلى أسفله. أكم: جمع أكمة، وهي التل.

٢٣ خدت: شقت. الأخايد: جمع أخدود، وهو شق مستطيل في الأرض. العلم: الجبل.

٢٤ الأرض الموات: وهي الخراب، أو التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد. الأقطار: النواحي والجهات، مفردها قطر.

٢٥ النسّم جمع نسمة وهي نفس الروح، وأراد بالنسّم الأرواح أنفسها.

٢٦ يظهر أن الشاعر يميل إلى مذهب النشوء والارتقاء كما يفهم من هذا المقطع، وقد اضطربت الآراء في أن هذا المذهب يعارض نصوص الدين، وعندني أنه لا يعارضها، ولم يزل علماء الكون في حيرة من تحقيق هذا المذهب.

٢٧ الأدواح: الأشجار العظيمة.

٢٨ الحطام: ما تكسر وتفتت من الأشياء اليابسة، وحطام الخلق: ما تكسر من عظامها وتحطم. الهضاب: جمع هضبة، وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

ما تراب الأرض واللّه ترابٌ إنما ذاك حُطامٌ قدُما
 من جِسومِ بالياتِ الكسرِ
 كم على الأرض رُفات بالياتٍ من جِسومٍ طحنتها الدائرات^{٢٩}
 فاحتفِرُ في الأرض تلك الطبقات تجد الأنقاض فيها ربما^{٣٠}
 هي للأحياء أو للشجر
 كل وجه الأرض للخلق قبور خفف الوطاء على تلك الصدور
 والعيون النجل منهم والثغور إنما أنت ستفنى مثلما^{٣١}
 قد فَنُوا والموت دامي الظفرِ
 ظلَّت الأرض على كَرِّ الدهورِ تُبهر الأَجبل فيها والبحور^{٣٢}
 فوقها تُجَبَلُ والماء يغور وعلى ذاك استدل الحُكما
 بجبال السَّمكِ المستحجرِ
 علماء الأرض لم تبرح ترى حيوان البرِّ لَمَّا دَثرا^{٣٣}
 منه في الأبحر أبقي أثرا وكذا في البرِّ ألقى العلما
 أثرا من حيوان الأبحرِ
 كل ما في الأرض من قفرٍ وبيدٍ وجبال شَهقت فوق الصعيد^{٣٤}
 عن زُهاءِ الربع منها لا يزيد وسوى ذلك منها انكتما
 تحت ماء البحر لم ينحسرِ
 في صعيد الأبحر المنغمسِ مثلُ ما يوجد فوق اليَبسِ

^{٢٩} الرفات: الحطام وهو مفرد مذكر، أراد به الشاعر معنى الجمع، فجمع صفته وأنتها.

^{٣٠} الأنقاض: الأبنية المتهدمة. الرمم: ما بلي من العظم، مفردا رمة، وأراد بها الشاعر ما هو أعظم.

^{٣١} النجل: العيون الواسعة الحسنة.

^{٣٢} تبهر الأَجبل: أي تصيرها بحرًا، والأَجبل: جمع جبل، تبجل: تصير جبلاً — يعرض للأرض بسبب ما في جوفها من القوى والفواعل المختلفة اضطرابات وانقلابات، وقد تسبب هذه الفواعل تغوير الجبال الشاهقة، في غمرها الماء فتصير بحرًا، وقد تسبب ظهور جبال وجزائر في البحر، وقد استدل علماء الكون على ذلك بما شاهدوه من الأسماك المتحجرة في رءوس الجبال ومن آثار الحيوانات البرية في أغوار البحار.

^{٣٣} دثر: بلي وامحى.

^{٣٤} البيد: جمع بيداء، وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس. الصعيد: وجه الأرض.

من جبالِ ناتئاتِ الأروسِ وَوهادِ تستزِلُّ القَدَمَا^{٣٥}
وَرُبًّا مختلفاتِ القَدَرِ^{٣٦}
ما نرى اليوم من الماءِ الحميمِ والبراكينِ التي تحكي الجحيمِ^{٣٧}
ومن الزَّلزالِ ذي الهولِ العظيمِ دلَّ أن الأرضَ فيما قَدُما
ذاتِ جِرمِ ذائبِ مستعرِ^{٣٨}
كل ما كان بحالِ السَّيلانِ فهو يغدو كرة بالدورانِ
وكذاك الأرضَ في ماضي الزمانِ كروياً قد عدا ملتئماً
جِرمها من سَيلانِ العُنصرِ
ثم إن الأرضَ من قبلِ الجمودِ ولدت منها وليست بالولودِ^{٣٩}
قمرًا دارَ عليها بسعودِ وجلا في الليلِ عنها الظلمَا
فهي بنتُ الشمسِ أمُّ القمَرِ^{٤٠}

^{٣٥} ناتئات: مرتفعات. تستزل: تزلق.

^{٣٦} ربا: جمع ربة، وهي المرتفع من الأرض.

^{٣٧} الحميم: الساخن الحار. البراكين: جبال تقذف نارًا ودخانًا وماءً ووحلاً ومواد ذائبة، فيبدو منها إذ ذاك مجموع حوادث تظهر فيها النار أعمالها الغريبة، وأسباب تلك الحوادث غير معروفة، وربما بقيت على الدوام إذ لا وسيلة إلى معرفتها، ومفردتها بركان، وهو لفظ قد اصطلح عليه، ولفظه العربي فلقان: جمع فلق، بفتح الفاء واللام ومعناه جهنم، ثم استعمل لجبل النار.

^{٣٨} مستعر: ملتهب.

^{٣٩} الولود بفتح الواو: الكثيرة الأولاد، الأرض قبل أن تجمد بعد انفصالها عن الشمس انفصل عنها القمر.

^{٤٠} هي: أي الأرض بنت الشمس؛ لأنها منفصلة عنها وهي أم القمر، لأنه منفصل عنها.

الاجتماعيات

نحن والماضي

عهدتك شاعرَ العرب المُجيدا
فنحن إليك بالأسماع نُصغي
بشعر لا تزال تنوط منه
إذا أنشدته الحسناء تاهت^٢
وأنت إذا قرعت به عبيداً
ولو تستنهض الجبناء يوماً
ولو كزرتُه للقوم ألفاً
وكم تهتز أعطافُ المعالي
فلو أنشدتنا في الفخر شعراً
تذكرنا الأوائل كيف سادوا

فما لك لا تطارحنا النشيدا^١
فهل لك أن تفيد فنستفيدا
بجيد بدائع الدنيا عقودا^٢
كأن قرطتها دُرّاً فريدا^٣
رددت إلى الحرار به العبيدا^٤
به لتقحموا الهيجا أسودا
لأقسم سامعوه بأن تُعيدا
إذا ما قلتَ قافيةً شرودا
تذكرنا به العهد البعيدا
وكيف تبوعوا الشرف المديدا^٥

^١ قوله: «لا تطارحنا النشيد»: أي لا تجاوبنا منشداً، يقال: طارحه الكلام والشعر والغناء إذا ناظره وجاوبه.

^٢ تنوط: تعلق. والحيد: العنق أو مقلده أو مقدمه.

^٣ تاهت: تكبرت. وقرطتها: أي ألبستها قرطاً، والقرط بالضم: هو الذي يعلق في شحمة الأذن، من درة أو نحوها.

^٤ قرعت: ضربت. والحرار بالفتح: العتق والحرية.

^٥ تبوعوا الشرف: امتدوا فيه وأدركوا غايته. والشرف المديد: أي الممدود الطويل.

* * *

فقلت له وقد أبدى ارتياحًا إليّ إذ ارتجلتُ له القصيدا:
 أَجَلٌ إِنَّ القَبائلَ من مَعَدٍّ علوا فتنمّوا المجد المجيدا^٦
 وإنّ لهاشمٍ في الدهر مجدًا بناه لها الذي هشَمَ الثريدا
 ومذ قام ابن عبد الله فيهم أقام لكل مكرمة عمودا^٧
 وأنهضهم إلى الشرف المُعلّى وكانوا عنه قَبْلُئذٍ قعودا
 فأصبح واريًا زند المعالي وقبلًا كان مقدّحه صُلودا
 فهم فتحوا البلاد ودوّخوها وقادوا في معاركها الجنودا^٨
 وهم كانوا أشدّ الناس بأسًا وأمنع جانبًا وأعمّ جودا
 وأرجحهم لدى الجُلّى حلومًا وأصلبهم لدى الغمرات عودا^٩
 ولكن أيّها العربيّ إني أراك لغير ما يُجدي مُريدا
 وما يُجدي افتخارك بالأوالي إذا لم تفتخر فخرًا جديدًا!^{١٠}

* * *

أرى مستقبل الأيام أولى بمطمح من يحاول أن يسودا
 فما بلغ المقاصد غير ساعٍ يُرَدِّد في غدٍ نظرًا سديدا
 فوجّه وجهه عزمك نحو آتٍ ولا تَلَفِتْ إلى الماضين جيّدا
 وهل إن كان حاضرنا شقيًّا نسود بكون ماضيّنا سعيّدا؟
 تقدّم أيّها العربيّ شوطًا فإن أمامك العيش الرّغيدا^{١٠}
 وأسّس في بنائك كلّ مجد طريفٍ واتركِ المجد التليدا^{١١}

^٦ أجل: حرف جواب بمعنى نعم. وتسنموا المجد: أي علوه. ومعد: هو معد بن عدنان أبو العرب.

^٧ ابن عبد الله: يعني محمد بن عبد الله ﷺ.

^٨ دوخوها: أي قهروها واستولوا على أهلها.

^٩ الجلى: الخطب العظيم، والأمر الشديد، وهي مؤنث الأجل.

^{١٠} الشوط: الجري مرة إلى الغاية.

^{١١} المجد الطريف: الحديث المكتسب، والتليد: القديم الموروث.

نحن والماضي

فشَرُّ العالمين نُووِ خمول
وخيِرُ الناسِ نُوِ حسبِ قديمِ
تراه إذا ادَّعى في الناسِ فخراً
فدَعْنِي والفخارَ بمجدِ قومِ
قد ابتسمت وجهه الدهر بيضاً
وقد عهدوا لنا بتراثِ مُلكِ
وعاشوا سادة في كل أرضٍ
إذا ما الجهل خيَّم في بلادِ
إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
أقام لنفسه حسباً جديدا
تُقيم له مكارمهُ الشهودا
مضى الزمن القديم بهم حميدا
لهم ورأيننا فعبسَنَ سودا
أضعنا في رعايته العهودا^{١٢}
وعشنا في مواطننا عبيدا
رأيتَ أسودها مُسختِ قرودا

^{١٢} قوله: بتراث ملك، التراث: ما يخلفه الرجل لورثته، أي: بتراث هو ملك، فالإضافة بيانية.

معترك الحياة

هو الدهر لم يترك مشنً غواره
يثير غبار الحادثات بكره
وكم عبر مطويةً في صروفه!
خليلي إنَّ الأرض غربال قدرة
تميد به كفُّ الزمان تحرُّكًا
فيبقى به الأقوى قرينَ ارتقائه
فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها
على سابق من ليله أو نهاره^١
وهل نحن إلا من مُثار غباره!
فهل من مُجبلٍ فيه طرف اعتباره؟
تجمعت الأحياء بين إطراره^٢
لمحو ضعيف أو لإثبات فاره^٣
كما يسقط الأوهى رهين اندثاره^٤
قديرًا على دفع الأذى والمكارة

* * *

^١ الغوار: كالإغارة، مصدر غاور العدو إذا أغار عليهم. ومشن: مصدر ميمي بمعنى الشن، وشن الغارة: تفريقها وصبها من كل جهة. يقول: إن الدهر لا يقعد عن شن الإغارة بحوادثه المتتالية، وهو على جوادين سابقين، هما: الليل والنهار.

^٢ يشير بهذا والذي بعده إلى قانون الاصطفاء الطبيعي، وهو قانون بقاء الأنسب، فهو يعمل عمله في الأرض الدائرة حول الشمس، فيضمحل في أثناء دورانها الضعيف من المخلوقات، ويبقى بها القوي القادر على دفع كل ما يقاوم حياته فيها، فهي في ذلك بمنزلة الغربال، الذي يسقط عند تحريكه كل دقيق صغير، ويبقى فيه ما هو كبير. وإطار الغربال: اللوح المحيط به.

^٣ تميد به: أي تدور به وتتحرك. والفاره: المليح النشيط، والمراد به هنا: ما يقابل الضعيف، وهو القوي.

^٤ الأوهى: الأضعف، وهو مقابل للأقوى في الشطر الأول.

لعمرك ما هذي الحياة بملبس
ولكن لمن أمسى بأيدي وقوّة
أرى الشمس تُخفي ضوءها كل شارقي
وما ذاك إلا أنها في تلهُبٍ
فلم يستطع نجمٌ طلوعاً تجاهها
كذاك ضعيف القوم إن كان جازهُ
وما الليث لولا بأسه في عرينه
ومن غاور الأيام غير مدجّجٍ
ومن لم يُهنّ صرفَ الزمان برحليّةٍ
وما شَرَّفَ الدر الثمين فريدهُ
لمن حيك من عجز نسيحٍ شعاره
يجرُّ على الأيام فضل إزاره^٥
وإن كان ينبو الطرف عن مستناره
يموج بنور ساطع وَقُدُّ ناره
إذا لم يُعدّ بالليل غبّ اعتكاره
قويًّا يكنِ شِلوًّا أَكِيلاً لجاره^٦
بأشرفَ من ضَبِّ الفلا في وجاره
فلا يطمَعَنَّ في مغنمٍ من مُغارهِ^٧
تُهنه صروفُ الدهر في عُقر دارهِ^٨
إذا هو لم يبرح بطونَ مَحارهِ^٩

* * *

أرى كلَّ ذي فقر لدى ذي غنّى
ولم يُعطه إلا اليسير وإنما
ويلبس من تذليله العز ضافياً
يشدُّ الغنى أزرَ الفتى في حياته
أجيراً له مستخدماً في عقاره^{١٠}
على كدِّه قامت صروح يساره
وينظره شزراً بعين احتقاره
وما الفقر إلا مكسر في فقاره

^٥ بأيدي: أي بقوة، فعطف القوة عليه من قبل عطف التفسير، والباء هنا للمصاحبة، وقوله: يجر على الأيام فضل إزاره: كناية عن القوة والقدرة؛ لأن جر فضل الإزار إنما هو فعل الجبابة والأغنياء، فكأنه يقول لمن أمسى قويًّا ذا قدرة وعظمة.

^٦ ضرب في الأبيات المتقدمة مثلاً لتغلب القوي على الضعيف، بما ذكر من الشمس التي لا تستطيع النجوم طلوعاً تجاهها، فلا تطلع إلا إذا غابت الشمس واعتكر الظلام، ثم قال: وكذلك ضعيف القوم إن جاور القوي كان مغلوباً له، والشلو: العضو من اللحم.

^٧ المدجج: اللابس السلاح.

^٨ عقر الدار: وسطها، أي: من لم يرحل لدفع نوائب الدهر عنه، نابته تلك النوائب وهو في وسط داره.

^٩ المحار: الصدف الذي يكون فيه اللؤلؤ، واحده: محارة.

^{١٠} ينتصر بهذا البيت وما بعده لمذهب الاشتراكية، حيث ذكر منزلة الفقير تجاه الغني، وعيش الثاني من كد الأول.

وليس الغنى إلا غنى العلم إنه
ولا تحسبن العلم في الناس منجياً
وما العلم إلا النور يجلو دجى العمى
فما فاسد الأخلاق بالعلم مفلحاً
لنور الفتى يجلو ظلام افتقاره^{١١}
إذا نكبت أخلاقهم عن مناره
ولكن تزيغ العين عند انكساره^{١٢}
وإن كان بحرًا زاخرًا من بحاره

* * *

سل الفلك الدوار عن حركاته
وهل هو في هذا الفضاء مسافر
وهبنا جهلنا بدأه من تقادم
متى ينجلي ليل الشكوك عن النهى
ألا وزى في زند الزمان فنهتدي
أرى الدهر ليلاً كله غير مبصر
وأهليه ساروا خابطين ظلامه
لعمرك إن الدهر يجري لغاية
وها هو ذا يعدو فيبتدر المدى
لقد فاز من بارى جديديه جدّة
وليست حياة الناس إلا تجددًا
وما الناس إلا الماء يحييه جريه
فهل هو فيها دائر باختياره؟
له غاية مقصودة من سفاره؟
فهل يدرك العقل انتهاء مداره؟
وترفع كف العلم مرخى ستاره؟
بسقط ضئيل من سقيط شراره؟
وإن كان في رأد الضحى من نهاره
وإن ركبوا في السير متن بخاره
فإن شئت أن تحيا سعيدًا فجاره
وينهب أعمار الورى في ابتداره
وخاب الذي في جدّه لم يُبارِه
مع الدهر في إيباسه واخضراره
ويرديه مكث دائم في قراره

* * *

لك الخير هل للشرق يقظة ناهض
فقد طال نوم القوم بين دياره؟

^{١١} يشير بهذه الأبيات إلى أن الغنى الحقيقي هو غنى العلم لا المال، وأن العلم لا يجدي نفعًا إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة.

^{١٢} العلم يشبه بالنور من جهة أنه يجلو ظلام العمى، أي: الجهل، كما أن النور يجلو ظلام الليل، وكذلك يشبه النور من جهة أنه إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة يؤدي بصاحبه إلى الزيغ عن الهدى، كما أن النور إذا انكسر شعاعه عند نفوذه في الأجسام الشفافة كالهواء والماء تزوغ عين الرائي، أي: تنحرف بسبب انكساره عن رؤية المرئي كما هو في نفس الأمر، وتحرير المعنى أن العلم إذا لم يقترن بالأخلاق الفاضلة يكون كالنور المنكسر، الذي يزوغ به البشر عن إدراك حقيقة المرئي كما هي.

ألم تر أنّ الغرب أضلت سيفه
وبادرهم كالسيل عند انحداره
أما آن للساهين أن يأبهوا له
تراهم جميعًا بين حيوان واجم
عليهم وهم لاهون تحت غراره؟!
وهم في مهاوي غفلة عن بداره
وقد أصبحوا في قبضة من إساره^{١٣}
وأخر يُطري ماضيًا من فخاره^{١٤}

^{١٣} أن يأبهوا له: أي أن يفطنوا له.

^{١٤} واجم: أي ساكت لشدة حزن أو غم.

أم البيتيم

رمت مسمعي ليلاً بأنة مؤلم
وباتت توالي في الظلام أنينها
فيهفو بقلبي صوتها مثلما هفت
إذا بعثت لي أنة عن توجع
تقطع في الليل الأنين كأنها
يهز نياط القلب بالحزن صوتها
تردده والصمت في الليل سائد
كأن نجوم الليل عند ارتجافها
فما خفقان النجم إلا لأجلها

فألقت فؤادي بين أنياب ضيغم^١
وبتُّ لها مُرْمَى بنهشة أرقم^٢
بقلب فقير القوم رنةً درهم^٣
بعثت إليها أنة عن ترحم
تقطع أحشائي بسيفٍ مثلم^٤
إذا اهتز في جوف الظلام المخيم^٥
بلحن ضئيل في الدجنة مُبهم^٦
تُصيخُ إلى ذاك الأنين المجمع^٧
وما الشهب إلا أدمع النجم ترتمي

^١ الضيغم: الأسد.

^٢ الأرقم: أخبث الحيات وأطلبها للناس.

^٣ يهفو: يخفق.

^٤ مثلم: مغل، مكسر الحد.

^٥ النياط: عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين، والنيط في الأصل: ما يعلق عليه أي شيء.

^٦ الدجنة: الظلمة.

^٧ تصيخ: تستمع. جمع الكلام: أي لم يبينه.

لقد تركتني مُوجِعَ القلبِ ساهراً
أرى فحمةَ الظلماءِ عند أنينها
فأصبحتُ ظمآنَ الجفونِ إلى الكرى
وأصبحَ قلبي وهو كالشعر لم تدعُ
وبيتٍ بكت فيه الحياة نحوسة
به أَلقت الأيام أثقالَ بؤسها
كأنني أرى البنيان فيه مهدماً
ولكن زلزال الخطوب هوى به
دخلت به عند الصباح على التي
فألفيتُ وجهًا خدَّدَ الدمع خدَّه
وجسماً نحيفاً أنهكته همومه
لقد جثمت فوق التراب وحولها
تراه وما إن جاوزَ الخمسَ عمره
بكى حولها جوعاً فغذَّته بالبكا
وأكبر ما يدعو القلوب إلى الأسى

أخا مدمع جارٍ ورأسٍ مُهوم^٨
فأعجب منها كيف لم تتضرم^٩!
وإن كنت ريان الحشا من تألمي^{١٠}
له شعراء القوم من متردِّم^{١١}
ولاحت بوجه العابس المتجهم^{١٢}
فهاجت به الأحزانُ فاغرةَ الفم^{١٣}
وما هو بالخاوي ولا المتهدِّم
إلى قعر مهواة الشقاء المحسِّم
سقاني بكاهي في الدجى كأس علقم^{١٤}
ومحمراً جفن بالبكا متورم^{١٥}
فكادت تراه العينُ بعضَ توهم
صغير لها يرنو بعيني ميتم^{١٦}
يدير لحاظ اليافع المتفهم^{١٧}
وليس البكا إلا تعلَّة مُعدم^{١٨}
بكاء يتيمٍ جائعٍ حول أيم^{١٩}

^٨ هوم الرجل تهويماً وتهوم تهوماً: أي هزَّ رأسه من النعاس.

^٩ تتضرم: تشتعل.

^{١٠} الكرى: النعاس.

^{١١} المتردم: المرقع الذي يرقع.

^{١٢} المتجهم: هو الذي يستقبلك بوجه كريه.

^{١٣} فاغرة: فاتحة.

^{١٤} الدجى: الليل. العلقم: الحنظل وكل شيء مر.

^{١٥} خدد: شقق.

^{١٦} يرنو: يديم النظر.

^{١٧} اليافع: الذي ترعرع وناهز البلوغ.

^{١٨} التعلَّة: هو الشرب بعد الشراب تباعاً، والمراد هنا: أنه كان يبكي مرة بعد مرة، ليعطل نفسه ويشغلها

بذلك. المعدم: الفقير.

^{١٩} الأيم: التي فقدت زوجها.

* * *

وقفت وقد شاهدت ذلك منهما
وقفت لديها والأسى في عيونها
وساءلتها عنها وعنه فأجهشت
ولما تناهت في البكاء تضاحكت
ولكن دموع العين أثناء ضحكها
فقد جمعت ثغراً من الضحك مُفَعِّمًا
فتُذْري دموعًا كالجمان تناثرت
فلم أرَ عينًا قبلها سال دموعها
فقلت، وفي قلبي من الوجد رعشة:

لمريم أبكي رحمة وابن مريم
يكلمني عنها ولم تتكلم
بكاءً وقالت: أيها الدمع ترجم^{٢٠}
من اليأس ضحك الهازئ المتهمك
هو اطلُّ مهما يسجم الضحك تسجم^{٢١}
إلى محجر بكٍ من الدمع مُفَعِّم^{٢٢}
وتضحك عن مثل الجمان المنظم^{٢٣}
بكاءً وفيها نظرة المتبسم
أمجنونة؟ يا ربَّ فارحم وسلِّم!

* * *

ومذ عرضت لابن منها التفاتة
فقام إليها خائرَ الجسم فانثنت
وظلت له ترنو بعين تجوده
فقال لها لما رأني واقفًا
سلي ذا الفتى يا أمُّ: أين مضى أبي؟
فقالته، والعين تجري غروبها

أشارت إليه بالمدامع أن قُم
عليه فضمته بكف ومعصم^{٢٤}
بفدٍّ من الدمع الغزير وتوعم^{٢٥}
أرددُ فيه نظرة المتوسم^{٢٦}
وهل هو يأتينا مساءً بمطعم؟
وأنفاسها يقذفن شُعلة مضرَمَ:٢٧

^{٢٠} أجهشت بالبكاء: أي همت به وتهيأت له.

^{٢١} سجم الدمع: سال.

^{٢٢} مُفَعِّمًا: مملوءًا. المحجر: ما دار بالعين وبدا من البرقع.

^{٢٣} الجمان: اللؤلؤ.

^{٢٤} المعصم: موضع السوار من الساعد.

^{٢٥} الفد: الفرد. التوعم: المولود مع غيره في بطن، من الاثنتين فصاعدًا.

^{٢٦} المتوسم: المتفرس.

^{٢٧} غروبها: دموعها.

أبوك ترامت فيه سفرة راحلٍ
مشى أرمذياً في المعاهد فارتمت
على حينٍ ثارت للنوائب ثورةً
فقامت بها بين الديار مذابحُ
ولولاك لاخترت الحمام تخلُّصاً
فأنت الذي أحرّت أمك مريمًا
أمريم! مهلاً بعض ما تذكريه
أمريم! إن الله لا شك ناقمٌ
أمريم! فيما تحكّمين تبصّري
فليس بدين كلُّ ما يفعلونه
لئن ملئوا الأرض الفضاء جرائماً
ولكنهم في جنح ليلٍ من العمى
وقد سلكوا تيهاء من أمر دينهم
ولما رأيت اللوم لومًا تجاهها
وأطرقت نحو الأرض أطلب عفوها

إلى الموت لا يُرجى له يوم مقدّم^{٢٨}
به في مهاوي الموت ضربة مسلم
أنت بحزازات إلى الدين تنتمي^{٢٩}
تخوّض منها الأرمنيون بالدم
بنفسي من أتعاب عيشٍ مُدَمَّم^{٣٠}
عن الموت أن يوذي بأمك مريم^{٣١}
فإنك ترمين الفؤاد بأسهم
من القوم في قتل النفوس المحرّم
فإن أنت أدركت الحقيقة فاحكمي
ولكنه جهل وسوء تفهم
فهم أجرموا والدين ليس بمجرم
تمشوا بمطموس العلائم مُبَهَم^{٣٢}
فكم مُنجدٍ في المُخزيات ومُتَهَم^{٣٣}
سكتُ فلم أنبِس ولم أتبرّم^{٣٤}
ولا أنا بالجاني ولا بالمتيم^{٣٥}

^{٢٨} ترامت به: أبعده.

^{٢٩} يشير بذلك إلى فتنة أطنة التي ثارت بسبب حمقى الأرمن وجهلاء المسلمين.

^{٣٠} الحمام: الموت.

^{٣١} أردي به: أهلكه.

^{٣٢} جنح الليل: طائفة منه. بمطموس: أي بطريق مطموس. والعلائم: جمع علامة، وهي شيء منصوب

في الطريق يهتدى به.

^{٣٣} التيهاء: الأرض التي يتوه بها الإنسان. المنجد: قاصد النجد، أي: المكان المرتفع، والمنتم: قاصد تهامة

أي: المكان المنخفض.

^{٣٤} لم أنبِس: أتكلم. أتبرم: أتضجر.

^{٣٥} الجاني: المجرم. المتيم: الذي تيمه العشق أي: ذلَّه وعبَّده.

أم اليتيم

وظلَّتْ لها أبكي بعينِ قريحة جرت من أماقيها عصارَةٌ عَنَدَمٍ^{٣٦}
بكيَتْ وما أدري أأبكي تضجُّراً من القوم أم أبكي لشقوة مريم؟!

^{٣٦} الأماقي: جمع موق، وهو طرف العين مما يلي الأنف. العندم: البقم، وهو شجر له ساق أحمر يصبغ بطبيخه.

السجن في بغداد

سكنًا ولم يسكن حراكُ التبذُّرِ
عفا رسمٌ مغنى العزُّ منها كما عفت
بلادُ أناخِ الذلِّ فيها بكلِّ كلِّ
معاهدُ عنها ضلُّ سابقٍ عزها
أحاطت بها الأرزاءُ من كلِّ جانبٍ
وحلَّقَ في آفاقها الجورُ بازياً
وينقضُّ أحياناً عليها فتارةً
مواطن فيها اليوم أيمُنُ من غدٍ^١
«لخولة أطلال ببرقة ثمهد»^٢
على كلِّ مفتول السَّبالينِ أُصيِدُ^٣
فهل هو من بعد الضلالة مُهتدٍ؟
إلى أن محتها معهداً بعد معهدٍ
مُطلّاً عليها صائتاً بالتهدُّدِ^٤
يروح وفي بعض الأحيين يغتدي

^١ التبدد: التفرق. أيمُن: أسعد.

^٢ عفا: أمحى. الرسم: ما كان لاحقاً بالأرض من آثار الديار. المغنى: المنزل الذي أقام به أهله ثم رحلوا. خولة: اسم امرأة. الأطلال: جمع طلل، وهو الباقي من آثار الديار. برقة ثمهد: اسم موضع، استعار الشاعر هذا العجز من صدر مطلع معلقة طرفة بن العبد.

^٣ أناخ بالمكان: أقام به. الكلكل: الصدر. السبالين: تثنية سبال، والسبال: جمع سبلة، وهي شعر الشاربين. الأصيد: الذي يرفع رأسه زهواً وعجباً.

^٤ الأرزاء: المصائب.

^٥ البازي: اسم فاعل من بزا عليه بمعنى تناول، وفيه تورية بالبازي، وهو نوع من الطيور الجارحة التي تسمى الصقور. صائتاً: مصوتاً.

فيخطف أشلاءً من القوم حيّةً ولم يقْدِ المقتولَ منها ولم يد^٦
 ويرمي بها في قعر أظلم مُوحش به أين تسقطُ جذوة الروح تُخمد^٧
 هو السجن ما أدراك ما السجن! إنه جلال البلايا في مضيق التجلد
 بناءً محيطٌ بالنعاسة والشقا لظلم بريءٍ أو عقوبة معتد

* * *

زر السجن في بغداد زورةً راحمٍ لتشهدَ لأنكاد أفجعَ مشهد^٨
 محلُّ به تهفو القلوب من الأسي فإن زرته فاربطُ على القلب باليد^٩
 مربعٌ سور قد أحاط بمثله محيط بأعلى منه شيدَ بقرميد^{١٠}
 وقد وصلوا ما بين ثانٍ وثالث بمعقود سقف بالصخور مُشيد^{١١}
 وفي ثالث الأسوار تشجيك ساحةً تمور بتيَّارٍ من الخسف مُزبد^{١٢}
 ومن وسط السور الشماليّ تنتهي إليها بمسدود الرّتاجين مُوصد^{١٣}
 هي الساحة النكراء فيها تلاعبت مخاريق ضيم تخلط الجدَّ بالدرد^{١٤}
 ثلاثون مترًا في جدار يحيطها بسمك زُهاء العشر في الجو مصعد
 تواصلت الأحزان في جنباتها بحيث متى يبلّ الأسي يتجدد
 تصعد من جوف المراحيض فوقها بخارٌ إذا تمرزُ به الريح تفسد

^٦ أشلاء الإنسان: أعضاؤه. لم يقْدِ المقتول: لم يقتل قاتله. لم يد: لم يعط الدية؛ وهي مال يعطى لولي القتل بدل النفس.

^٧ جذوة الروح: شعلتها.

^٨ الأنكاد: جمع نكد، وهو الرجل المشنوم ذو العسر.

^٩ تهفو: تضطرب.

^{١٠} أي: هو مربع سور، يصف بهذا البيت وما بعده بناء السجن وشكله؛ أي: هو سور مربع أحاط بسور آخر مثله، وهذا أيضًا أحاط بسور ثالث أعلى منه.

^{١١} هو السور الذي تليه ساحة السجن. تشجيك: تحزنك. تمور: تضطرب. الخسف: الإهانة والذل. مزبد: هائج.

^{١٢} الضمير في قوله: إليها يعود إلى الساحة في البيت السابق. الرتاج: الباب العظيم. موصد: مغلق.

^{١٣} المخاريق: ما يلعب به الصبيان من الخرق المقتولة. الضيم: الذل. الدد: اللهو.

هناك يودُّ المرءُ لو قاءَ نفسَه
فقف وسطها وانظر حواليك دائراً
مقابر بالأحياء غصّت لحودها
وقد عميت منها النوافذ والكوى
تظنُّ إذا صدرَ النهار دخلتها
فلو كان للعباد فيها إقامةٌ
يزور هبوبُ الريح إلا فناءها
تضيق بها الأنفاس حتى كأنما
وحتى كأن القومَ شدّت رقابهم

وأطلقها من أسرٍ عيشٍ مُنكِّدٍ^{١٤}
إلى حُجْرٍ قامت على كل مقعد
بخمس مئینِ أنفَسٍ أو بأزيد
فلم تكتحل من ضوءِ شمسٍ بمزودٍ^{١٥}
كأنك في قطعٍ من الليل أسود
لصلوا بها ظهرًا صلاةً التهجدُ^{١٦}
فلم تحظَّ من وصل النسيم بموعدٍ^{١٧}
على كل حيزوم صفائح جلمدٍ^{١٨}
بحبل اختناق محكم الفتل مُحصدٍ^{١٩}

* * *

بها كل مخطوم الخُشام مذلل
يبيت بها والهَمُّ ملءُ إهابه
يُميت بمكذوب العزاء نهاره
ينوءُ بأعباء الهوان مقيدًا
وتقذفهم تلك القبورُ بضغطها
فيرجع بعضٌ من حصير ظلاله

متى قيد مجرورًا إلى الصَّيم يَنقَدِ^{٢٠}
بليلةً مَنبُول الحشا غير مُقصدٍ^{٢١}
ويحيي الليالي غير نومٍ مُشردٍ
ويكفيه أن لو كان غير مُقيدٍ^{٢٢}
عليهم لحرَّ الساحة المتوقدِ
ويجلس فيها جلسة المتعبدِ

^{١٤} قاء نفسه: أي أخرج روحه من جسده كالقيء.

^{١٥} الكوى: جمع كوة، وهي شيء في الجدار أشبه بالنافذة إلا أنه لا ينفذ. المرود: الميل الذي يكتحل به.

^{١٦} التهجد: الصلاة في الليل.

^{١٧} الفناء: الوصيد، وهو ساحة أمام البيت.

^{١٨} الحيزوم: وسط الصدر. الصفائح: الحجارة العراض. الجلمد: الصخر.

^{١٩} محصد: محكم الفتل.

^{٢٠} الخشام: الأنف العظيم. ومخطوم الأنف: أي جعل من أنفه خطام، والمعنى ظاهر. قيد: سحب.

^{٢١} الإهاب: الجلد. المنبول: مصاب بالنبل. والحشا: ما انضمت عليه الضلوع. مقصد: اسم مفعول من

أقصده السهم، أي: أصابه فقتله.

^{٢٢} ينوء بأعباء الهوان: تثقله أحماله.

وليست تقيه الحر إلا تعلقة
وبالثوب بعض يستظل وبعضهم
فمن كان منهم بالحصير مظلاً
تراهم نهار الصيف سفعا كأنهم
وجوه عليها للشحوب ملامح
وقد عمهم قيد التعاسة موثقاً
فسيدهم في عيشه مثل خادم
يخوضون في مستنقع من روائح
تدور رعوس القوم من شم نُننها
تراهم سُكاري في العذاب وما هم
وتحسبهم دوداً يعيش بحمأة
ألا رب حُرّ شاهد الحكم جائراً
فقال ولم يجهر ونحن بمننتي
على أي حكم أو لأية حكمة

لنفس خلت من صبرها المتبدد^{٢٣}
بنسج لعاب الشمس في القيظ يرتدي^{٢٤}
يعدونه ربّ الطرف الممدد^{٢٥}
أثافي أصلاها الطُهاة بموقد^{٢٦}
«تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد»^{٢٧}
فلم يتميز مطلق عن مقيد
وخادمهم في ذلك مثل سيّد
خبائث مهما يزيد الحر تزدد
فمن يك منهم عادم الشم يحسد
سُكاري ولكن من عذاب مشدّد
وما هو من دود بها متولد^{٢٨}
يقود بنا قود الذلول المعبد^{٢٩}
به غير مأمون الوشاية ينتدي:^{٣٠}
ببغداد ضاع الحق من غير منشد!^{٣١}

^{٢٣} التعلقة: ما يتعلل به؛ أي يتلهى.

^{٢٤} القيظ: شدة الحر. ومعنى قوله: «بنسج لعاب الشمس يرتدي» أنه عاري الجسم لا ثوب له.

^{٢٥} الطرف: بيت يصنع من الأدم؛ أي الجلد، للملوك والرؤساء خاصة.

^{٢٦} سفعا: وجوههم متغيرة موردة. الأثافي: أحجار يوضع عليها القدر، مفردتها أثفية. أصلاها: أحرقتها.

الطهاة: جمع طاه، وهو الطباخ.

^{٢٧} الشحوب: تغير اللون. الوشم: هو أن تغرز الإبرة في الجلد، ثم تذر عليه مادة خاصة معروفة. هذا

العجز تنمة لصدر بيت طرفة المتقدم.

^{٢٨} الحمأة: الطين الأسود المنتن؛ أي هم يشبهون الدود الذي تولد في غير الحمأة، ثم ألقى في الحمأة فإنه

يموت فيها، بخلاف الدود المتولد من الحمأة، فإنه يعيش فيها ولا يموت.

^{٢٩} الذلول: البعير السهل القيادة. المعبد: المذل.

^{٣٠} ينتدي: يجتمع في النادي، والمعنى: قال ذلك القول ونحن في نادٍ يجتمع فيه من لم تكن نأمن تجسسه

ووشايته.

^{٣١} منشد: مصدر ميمي من نشد الضائع؛ أي نادى وسأل عنه.

فأدْنَيْتِ لِلنَّجْوَى فَمِي نَحْوِ سَمْعِهِ
 رَعَى اللّٰهَ حَيًّا مُسْتَبَاحًا كَأَنَّهُ
 وَمَا صَاحِبَ البَيْتِ الحَقِيرِ بِنَاؤُهُ
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ تَخَاذَلُوا
 فَنَامُوا عَنِ الجَلَى وَنَمَتِ كَنُومُهُمْ
 وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ أَوْلَيْكَ إِنْ مَشُوا
 وَكَمْ رُمْتُ إِيقَاضًا فَأَعْيَا هَبُوبُهُمْ!
 نَهَوضًا نَهَوضًا أَيُّهَا القَوْمُ لِلْعُلَا
 تَقَدَّمْنَا قَوْمٌ فَأَبْعَدَ شَوطَهُمْ
 وَسَدَّ عَلَيْنَا الِاعْتِسَافَ طَرِيقَنَا
 أَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَزْحَفُ الدَّهْرُ نَحُونَا
 فَيَا رَبِّ نَفْسٌ مِنْ كَرُوبٍ عَظِيمَةٍ
 وَقَلْتِ: لِأَنَّ العَدْلَ لَمْ يَتَبَغَّدِ^{٣٢}
 مِنَ الذَّعْرِ أَسْرَابِ النِّعَامِ المَطْرَدِ^{٣٣}
 بِأَفْزَعٍ مِنْ رَبِّ البِلَاطِ المِمْرِدِ^{٣٤}
 وَلَمْ يَنْهَضُوا لِلخِصْمِ نَهْضَةَ مُلْبِدِ^{٣٥}
 سِوَى نَوْحَةٍ مَنِي بِشَعْرِ مَغْرَدِ^{٣٦}
 مَشَيْتِ وَإِنْ يَقْعَدُ أَوْلَيْكَ أَقْعَدِ؟
 وَكَيْفَ وَعَزَمَ القَوْمُ شَارِبِ مُرْقَدِ؟!^{٣٧}
 لَتَبْنُوا لَكُمْ بَنِيَانَ مَجْدِ مَوْطِدِ
 وَقَدْ كَانَ عَنَا شَوطُهُمْ غَيْرَ مُبْعَدِ
 فَأَجْحَفُ بِالغُورِيِّ وَالْمَتَنَجِّدِ^{٣٨}
 بِجَنْدٍ مِنَ الخُطْبِ الجَلِيلِ مَجْنِدِ
 وَيَا رَبِّ خَفُّفْ مِنْ عَذَابِ مُشَدِّدِ

^{٣٢} النجوى: حديث السر. لم يتبغدد: لم ينتسب لبغداد، ومعنى الأبيات الأربعة: أن ذلك الحر جهر في ذلك النادي الذي يجمع فيه غير الأمناء قائلًا: لِمَ يَضِيعُ الحَقُّ فِي بَغْدَادِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَطْلِبَهُ وَنَسْأَلَ عَنْهُ؟ فقلت له سرًا: ذلك لأن العدل غير بغدادي.

^{٣٣} الذعر: الخوف. الأسراب: جمع سرب، وهو القطيع من النعام والنساء وغيرها.

^{٣٤} الممرد: الملس المنظم.

^{٣٥} الملبد: من أسماء الأسد.

^{٣٦} الجلى: الأمر العظيم.

^{٣٧} أعيا: يريد أعيانني؛ أي أتعبني. هبوبهم: استيقاظهم من الخمول، وإسراعهم إلى المعالي. المرقد: دواء، يرقد شاربه أي يُنيمه كالأفيون. يقول: كيف يهبون إلى المجد وهم شاربيون من الخمول والاستبداد ما أفقدهم السداد؟!

^{٣٨} الاعتساف: الظلم. أجحف به: كلفه ما لا يطيق. الغوري: قاصد الغور، وهو المطمئن من الأرض. المتنجد: قاصد النجد، وهو المرتفع منها.

الدهر والحقيقة

أرى الدهر لا يَألو بستر الحقائق
يجرُّ ذبول الخطبِ فوق طريقها
ولو لم يجئنا كل يومٍ مواربًا
كأن ليالي الدهر غضبي على الورى
وما طلعت كي تهدي القوم شمسُه
وقد تنطق الأيام بالحق أعجمًا
وكم مدّع فضل التمدُّن ما له
وكم عاقلٌ قد عدّه الناس أحمقًا
وربّ ذكي لم يكن من ذكائه
وقد تُعرض الأسماع عن ذي فصاحة

إذا افتَرَّ عن صبحِ تلاه بغاسقٍ^١
ليعفوَ منه ما به من سلائقٍ^٢
لما كان فجر كاذب قبل صادق
فتننظر شزراً بالنجوم الشوارقِ^٣
ولكن لتصليهم جحيم الودائقِ^٤
وتسكت عن تبيانهِ كل ناطق
من الفضل إلا أكله بالملاعق!
وما هو لو يُبلى سوى متحامقٍ!^٥
سوى ما روه من نكاء اللقالقِ^٦
وتصغي إلى ذي اللُكنة المتشادقِ^٧

^١ غاسق: ظلام دامس.

^٢ سلائق: جمع سليقة، وهي الطبيعة.

^٣ النظر الشزر: ما كان بمؤخرة الطرف، وهو نظر احتقار وكبر. والشارق: الطالع.

^٤ الودائق: جمع وديقة، وهي حر نصف النهار.

^٥ المتحامق: المتشبه بالحمقى في أفعاله وليس بأحمق.

^٦ اللقالق: جمع لقلق، وهو ضرب من الطير طويل العنق والمنقار، يأكل الحيات.

^٧ اللكنة: الحبسة في اللسان. المتشادق: المتفصح.

تجور عليهم باقتطاع العلائق
تدُلُّ معشوق وذلة عاشق
ولكنه في كتبهم والمهاريق^٨
تحط بها طرسًا يراعة نامق
مغاربنا من أمره كالمشارق
سوى لغط يُزري بفضل المناطق
تعرفت منها ما بها من خلائق
ولا أنا باكٍ من حبيب مفارق
ولا شاقني برق لربيع ببارق
وأعرضت عن حسن الحسان الغرائق^٩
إلى كل خلٍّ في الزمان موافق^{١٠}
فبيني وبين السكر خمس دقائق^{١١}
بمستقطر من خالص التمر رائق
بشرب كما عبّ القطا متلاحق^{١٢}
بجنح من الأنس المضاعف خافق
وقد دب من رأسي الطلا في المفارق
وقلت لهم ما قلت غير منافق
بِمِزِّ طريٍّ من نُقولِ الحقائق
سوى شكرٍ خلِّي أو سوى حمد خالقي
من السكر أن أحظى به غير سابق

ومن شيم الأيام في الناس أنها
وألطف جور الدهر جور نرى به
وما كان كذب القوم في القول وحده
وأقبح مَيِّنٍ في الزمان خُرافةً
ضلال على مر الجديدين لم تزل
فعدت عن الأيام إذ لم تجد بها
نفضت من الدنيا يدي؛ لأنني
فما أنا وقّاف بها عند منزل
ولا عذبتني في العذيب صباية
تعشقت فيها حسن كل حقيقة
ولي عند إخوان الصفا أريحيةً
إذا ما عقدنا مجلس الأنس بالطلا
أقوم إلى كُبرى الزجاجات مُدهقًا
فأقعر بالكأس الرويّة جبهتي
أسابق ندماني إلى السكر طائرًا
فما هي إلا بعد شربي سويعة
فنادمت أصحابي على غير حشمة
وأغنيتهم عن نقلهم في شرابهم
ولم يبدُ فيّ السكر عند اشتداده
تعوّدت سبقي في الفخار فلم أرد

^٨ المهاريق: الصحف تتخذ من حرير أبيض مصمغ مصقول، يكتب عليها الكتب المخددة كالمعاهدات ونحوها.

^٩ الغرائق: جمع غرنوقة، وهي الشابة الممتلئة.

^{١٠} أريحية: ارتياح.

^{١١} الطلا: الخمر.

^{١٢} الروية: الملوّدة.

كما اعتاد سبقاً في المكارم خزعلٌ
أمير نمته للمكارم والعلأ
كذلك أعلى الله في الناس كعبه
إذا سار سار المجد في طيِّ بُرْدِهِ
فيرحل من أنسابه في مواكب
وإن جاء أغضى من رآه تهيّباً
بلا سابق فيها عليه ولاحق
ججاجُ من كعب كرام المعارق^{١٣}
بحظ من المجد المؤثّل فائق^{١٤}
يرافقه أكرمُ به من مرافق!
وينزل من أحسابه في سرادق
سوى نظّر منهم بعيني مُسارق

* * *

أبا الأمراء الصيد جئتكَ شاكيًا
أجرني رعاك الله منها فإنّها
أترضى وإنني صقر بغداد أنني
لئن أنكروا حقي فسوف تُحقّقه
أصوغ بها حرّ الكلام لخزعلٍ
إليك جنایات الزمان الممازق
رمت كل عظم فيّ منها بعارق^{١٥}
تقدّمني فيها فراخ العقاقع^{١٦}
شواهد أقلام بكفي نوامق
مديحًا كعقد اللؤلؤ المتناسق

^{١٣} نمته: نسبته. والججاج: جمع ججاج، وهو السيد الكريم. والمعارق: جمع معرق وهو الأصل والحسب.

^{١٤} المؤثّل: الثابت القديم.

^{١٥} عرق العظم يعرقه فهو عارق: أكل ما عليه من اللحم.

^{١٦} العقاقع: جمع عقق، وهو طائر صغير ذو لونين: أبيض وأسود، طويل الذنب، صوته العققعة، قيل: وهو نوع من الغربان.

في سبيل حرية الفكر

أنشئت في حفلة منتدى التهذيب السنوية ببغداد بتاريخ ٢ أيار سنة ١٩٢٦.

كتبْتُ لنفسي عهد تحريرها شِعْراً
ومن بعد إتمامي كتابة عهدها
وعَلَّقْتَه كي لا تَناولَهُ يدُ
لذاك جعلت الحقَّ نُصبَ مقاصدي
وجرَّدت شعري من ثياب رِيائه
وأرسلته نظماً يروق انسجامه
فجاء مضيئاً ليْلَه كنهاره
أضْمَنَه معنى الحقيقة عارياً
ويحملة الغاوي على غير وجهه
وأشهدت فيما قد كتبت لها الدهرا
جعلت التُّرِيّاً فوق عنوانه طُغْراً^١
بمنبعث الأنوار من ذروة الشُّعْرى^٢
وصيَّرت سرَّ الرأْي في أمره جهرا
فلم أكْسُه إلا معانيه الغُراً
فيحسبه المصغي لإنشاده نثرا
وإن كان بعض القوم يزعمه كفرا
فيحسبه جُهَّالُه مَنطقاً هُجْراً^٣
فيُوسعني شتْمًا وينظرني شزراً^٤

^١ الثريا: نجم مؤلف من عدة أنجم صغيرة. والطغراء، ويقال لها الطرة: هي علامة توضع في كتب الملوك شعراً لهم، والنقش يجعل في حاشية الثوب.

^٢ ذروة الشيء: أعلاه. والشعري: كوكب نير، يطلع في شدة الحر.

^٣ الهجر: الفحش في الكلام.

^٤ الغاوي: الضال أو الجاهل. ويوسعني شتْمًا: يبالغ في شتمي. وينظرني شزراً: يرمقني باحتقار بمؤخر عينه.

رُؤَيْدِكَ إِنِ الْكُفْرَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ
 هَلِ الْكُفْرَ إِلَّا أَنْ تَرَى الْحَقَّ ظَاهِرًا
 وَأَنْ تَبْصُرَ الْأَشْيَاءَ بِيضًا نَوَاصِعًا
 إِذَا كَانَ فِي عُرْيِ الْجِسْمِ قَبَاحَةٌ
 فَيَلْمُسُهَا مِنْ مَارَسَتْ عَيْنَهُ عَمَى
 أَحَبُّ الْفَتَى أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ
 وَأَكْرَهُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ مَقْلِدًا
 وَمَا هَذِهِ الْأَوْطَانُ إِلَّا حَدَائِقُ
 وَمَا حُبُّهَا إِلَّا لِأَجْلِ تَحْرِيرِ
 وَمَا حَسَنُهَا إِلَّا بِأَنَّ سَمَاءَهَا
 إِذَا كَانَ فِي الْأَوْطَانِ لِلنَّاسِ غَايَةٌ
 فَأَوْطَانِكُمْ لَنْ تَسْتَقِلَّ سِيَاسَةً
 إِذَا السَّيْفُ لَمْ يَعْضُدْهُ رَأْيٌ مُحَرَّرٌ
 سِوَاءَ عَلَى الْإِنْسَانِ بَعْدَ جَمُودِهِ
 إِذَا لَمْ يَعِشْ حَرًّا بِمَوْطِنِهِ الْفَتَى
 أَحْرَيْتِي إِنْ نِي اتَّخَذْتِكِ قَبْلَةً
 وَأَمْسِكُ مِنْهَا الرِّكْنَ مُسْتَلِمًا لَهُ
 إِذَا كُنْتُ فِي قَفْرِ تَخَذْتِكِ مَوْنَسًا
 وَإِنْ نَابَنِي خَطْبُ ضَمَمْتِكِ لِاتِمًّا
 وَإِنْ لَامَنِي قَوْمٌ عَلَيْكَ فِإِنْنِي

وإن صريح العُرف ما خلته نُكْرًا^٥
 فتضرب للأنظار من دونه سترًا
 فتظهرها للناس قانية حُمرا
 فأحسن شيء في الحقيقة أن تعرى
 ويبصرها من كابدت أذنه وقُرًا^٦
 فيصبح في أفكاره مطلقًا حرًّا
 فيحشر في الدنيا أسيرًا مع الأسرى
 بها تُنبت الأفكار من أهلها زهرا
 يكون إلى العلياء بالناس مُنجرًا
 تضاحك من أحرارها أنجمًا زهرا
 فحرية الأفكار غايتها الكبرى
 إذا أنتم لم تستقلوا بها فكرا
 فلا تأملن من حدّه ضربةً بكرًا^٧
 أحلّ بقفر الأرض أم سكن المصرا
 فسمّ الفتى ميتًا وموطنه قبرا
 أوجّه وجهي كل يوم لها عشرا
 وفي ركنها استبدلت بالحجرِ الحجرا^٨
 وإن كنت في ليلٍ جعلتك لي بدرا
 فقبّلت منك الصدر والنحر والثغرا
 لملتِمِسُ للقوم من جهلهم عذرا

^٥ رويدك: تمهل ولا تعجل. والنكر: المنكر ضد المعروف.

^٦ الوقر: ثقل السمع.

^٧ لم يعضده: لم يؤازره. والضربة البكر: التي لم يضرب قبلها مثلها.

^٨ الحجر، بتحرك الجيم؛ هو الحجر الأسود الذي في ركن من أركان الكعبة. والحجر، بكسر الحاء وتسكين الجيم، مكان بجانب الكعبة، وفي اللفظ تورية؛ لأنه يطلق أيضًا على العقل وهو المراد به في البيت.

إلى أبناء المدارس

كفى بالعلم في الظلمات نورا يبيّن في الحياة لنا الأمور
فكم وجد الذليل به اعتزازًا وكم لبس الحزين به سرورا
تزيد به العقول هُدًى ورشدًا وتستعلي النفوس به شعورا

* * *

إذا ما عتقَ موطنهم أناس ولم يبنوا به للعلم دورا^١
فإنّ ثيابهم أكفان موتى وليس بيوتهم إلا قبورا
وحقّ لمثلهم في العيش ضنكٌ وإن يُدعوا بدنياهم ثبورا^٢

* * *

أرى لبَّ العلاء أدبًا وعلماً بغيرهما العلاء أمست قشورا
أبناء المدارس إنّ نفسي تؤمّل فيكم الأمل الكبيراً
فُسقيًا للمدارس من رياضٍ لنا قد أنبتت منكم زهوراً
ستكتسب البلاد بكم علوًّا إذا وجدت لها منكم نصيراً

^١ عقه يعقه عقوقًا: لم يوف له بعهدده وحقه.

^٢ حق لهم كذا: استحقوه. والضنك: الضيق والذل. أن يدعوا ثبورًا: أن يطلبوا الهلاك في الدنيا، يريد أن من قصر في حق العلم استهدف للهلاك.

فإن دَجَتِ الخطوبُ بجانيبِها طلعتُمْ في دُجنتِها بدورا^٣
وأصبحتُم بها للعزِّ حصنًا وكنتم حولها للمجد سورا

* * *

إذا ارتوتِ البلادُ بفيضِ عِلْمٍ فعاجزُ أهلها يمسي قديرا
ويقوى من يكون بها ضعيفًا ويغنى من يعيش بها فقيرا
ولكن ليس منتفعا بعلمٍ فتى لم يحرز الخلق النضيرا
فإنَّ عماد بيت المجد خلقٌ حكى في أنف ناشقه العبيرا
فلا تستنفعوا التعليم إلا إذا هذبتُم الطَّبَع الشريرا
إذا ما العلم لابسَ حسنَ خُلُقٍ فرجٌ لأهله خيرا كثيرا
وما إنْ فاز أغزرنا علومًا ولكن فاز أسلمنا ضميرا

* * *

أبناء المدارس هل مُصيخٌ إلى من تسألون به خبيرا؟^٤
ألا هل تسمعون فإن عندي حديثًا عن مواطنكم خطيرا؟
ورأيًا في تعاونكم صوابًا وقلبًا من تخاذلكم كسيرا
قد انقلب الزمان بنا فأمست بُغاثُ القوم تحتقر النسورا^٥
وساء تقلب الأيام حتى حمدنا من زعازعها الدُّبورا^٦
وكم من فأرة عمياء أمست تُسمى عندنا أسدًا هصورا!^٧
فكيف تروم في الأوطان عزًّا وقد ساءت بساكنها مصيرا!^٨
ولم يك بعضنا فيها لبعض

^٣ دجت الخطوب: أظلمت الحوادث واشتدت. والدجنة: الظلمة.

^٤ مصيخ: مستمع.

^٥ البغاث: مثلث الباء؛ صغار الطير وضعافها.

^٦ الزعازع: جمع زعزع، وهي الريح الشديدة. والدبور: هي الريح التي تأتي من الجنوب وهي مكروهة عند العرب.

^٧ الهصور: الشديد الافتراس.

^٨ ظهيرا: عونًا ومساعدًا.

إلى أبناء المدارس

ألسنا الناظمين عقود مجد نزين من العصور بها النحورا؟
إذا لَجَّ الخطوب طَمَّتْ بَنِينَا عليها من عزائمننا جسورا
لنبتدر العبور إلى المعالي بحيث تطاول الشعري العبورا^٩

* * *

ألا يا ابن العراق إليك أشكو وفيك أمارس الدهر المَكُورا^{١٠}
تتفَضُّ من غبار الجهل واهرعُ إلى تلك المدارس مستجيرا^{١١}
فهنَّ أمانٌ من خشَي الليالي وهنَّ ضمان من طلب الظهورا

^٩ الشعري: كوكب مضيء يطلع في الحر، وهما شعريان: العبور والغميصاء.

^{١٠} المكور: شديد المكر.

^{١١} اهرع: أسرع.

المطلقة

بدأت كالشمس يحضنها الغروبُ
منزّهةً عن الفحشاءِ حَوْدُ
نَوَارُ تستجدُّ بها المعالي
صفا ماءً الشبابِ بوجنتيها
ولكنَّ الشوائبَ أدركته
ذوى منها الجمالُ الغضُّ وجدًّا
أصابت من شبيبته الليالي
فماتت حول رونقه القلوبُ
فعاذ وصفوه كدرٍ مشوبٍ
وكاد يجفُّ ناعمه الرطيبُ
ولم يُدرك ذؤابتها المشيبُ

١ راع: شوه، وراع في الأصل بمعنى أفزع وأخاف. نضرتها: رونقها وحسنها.
٢ الخود: المرأة الشابة. الخفرات: جمع خفرة، وهي المرأة التي تستحي أشد الحياء. الأنسة: التي يؤنس بحديثها. العروب: المرأة المتحبة إلى زوجها.
٣ النوار: المرأة النفور من الريبة، ونوار اسم امرأة كانت زوجًا للفرزدق، فطلقها ثم ندم، وفي البيت إشارة إلى ذلك.
٤ الشوائب: الأمور التي تغير الشيء. مشوب: مخلوط.
٥ ذوى: ذبل.
٦ الذؤابة: الناصية وهي مقدم الرأس، أو هي الطرة.

وقد خَلَبَ العقول لها جبينٌ تلوحُ على أَسْرَتِهِ النُّكوب^٧
ألا إِنَّ الجمالَ، إذا علاه نقابُ الحزن، منظرُهُ عجيب

* * *

حليلاً طيِّبَ الأعراقِ زالت به عنها، وعنه بها، الكروب
رعى ورعت، فلم ترَ قطُّ منه ولم يرَ قطُّ منها ما يريب
توثَّقَ حبلٌ ودَّهما حضورًا ولم يَنكثُ توثُّقَهُ المغيب^٨
فغاضتُ زوجها الخلطاءً يوماً فأمر، للخلاف به نشوب^٩
فأقسمَ بالطلاقِ لهم يميناً وتلكَ أليَّةٌ خطأً وحب^{١٠}
وظلقها على جهل ثلاثاً كذلك يجهل الرجل الغضوب
وأفتى بالطلاقِ طلاقَ بتِّ ذوو فتيا يعصَّبُهُم عصب^{١١}
فبانَتْ عنه، لم تأتِ الدنايا ولم يعلق بها الدَّامُ المعيب^{١٢}
فظلَّت وهي باكية تنادي بصوتٍ منه ترتجفُ القلوب

* * *

لماذا يا نجيب صرمت حبلي وهل أذنبتُ عندك يا نجيب؟!^{١٣}
وما لك قد جفوتَ جفاءً قالِ وصرتَ إذا دعوتُكَ لا تجيب؟!^{١٤}

^٧ الأسرة: هي خطوط في الجبهة والكف، وفي كل شيء، والغالب استعمالها لخطوط الجبهة. النكوب: جمع نكب، وهي المصيبة.

^٨ توثَّق: تقوى. ينكث: ينقض.

^٩ النشوب: نشب الشيء نشوباً، بمعنى علق.

^{١٠} أليَّة: قسم. الحوب: الذنب، الحلف بالطلاق حرام؛ لذلك كان الحالف به مذنباً.

^{١١} عصب: شديد.

^{١٢} بانَتْ: بعدت، بسبب هذه الفتيا الباطلة الخاطئة. الدام: العيب، جهل الناس الحكمة من مشروعية الطلاق، وعبد من يُسمَّون بالعلماء ألقاظ الكتب التي درسوها، فأفتوا بغير علم صحيح فضلوا وأضلوا، وأوقعوا الناس في حرج عظيم.

^{١٣} صرمت: قطعت.

^{١٤} قال: مبعض.

أَبْنُ ذَنْبِي إِلَيَّ، فَدَتِكَ نَفْسِي
أَمَّا عَاهَدْتَنِي بِاللَّهِ أَنْ لَا
لِئَنْ فَارَقْتَنِي وَصَدَدْتَ عَنِي
وَمَا أَدْمَاءُ تَرْتَعُ حَوْلَ رَوْضٍ
فَمَا لَفَتَتْ إِلَيْهِ الْجِيدَ حَتَّى
فَرَاخَتْ مَنْ تَحَرَّقَهَا عَلَيْهِ
تَشْمُ الْأَرْضَ تَطْلُبُ مِنْهُ رِيحًا
وَتَمَزَعُ فِي الْفَلَاةِ لِغَيْرِ وَجْهِ
بَأَجْزَعٍ مِنْ فُؤَادِي يَوْمَ قَالُوا:
فَأَطْرَقَ رَأْسَهُ حَجَلًا وَأَغْضَى
نَجِيبَةً أَقْصَرِي عَنِّي فَإِنِّي
وَمَا وَاللَّهِ هَجْرُكَ بِاخْتِيَارِي
فَلَيْسَ يَزُولُ حُبُّكَ مِنْ فُؤَادِي
وَلَا أَسْلُو هَوَاكَ وَكَيْفَ أَسْلُو
سَلِي عَنِي الْكُوكَبِ وَهِيَ تَسْرِي
فَكَمْ غَالِبَتْهَا بِهَوَاكَ سُهْدًا
خَذِي مِنْ نَوْرِ «رَنْتَجِنٍ» شِعَاعًا

فإني عنه بعدئذ أتوب
يفرق بيننا إلا شعوب^{١٥}
فقلبي لا يفارقه الوجيب^{١٦}
ويرتع خلفها رشاً ربيب^{١٧}
تخطفه بأزمته ذيب^{١٨}
بداء ما لها فيه طبيب
وتنحب، والبغام هو النحب^{١٩}
وأونة لمصرعه تئوب^{٢٠}
برغم منك فارقك الحبيب^{٢١}
وقال ودمع عينيه سكب:
كفاني من لظى الندم اللهب
ولكن هكذا جرت الخطوب
وليس العيش دونك لي يطيب
هو كالروح في له دبيب
بجئ الليل تطلع أو تغيب
ونجم القطب مطلع رقيب
به للعين تنكشف الغيوب^{٢٢}

^{١٥} شعوب: اسم للموت.

^{١٦} الوجيب: الخفقان.

^{١٧} الأدماء: الظبية المشرب لونها بياضاً. الرشأ: ولد الظبية الذي قد تحرك ومشى. ربيب: ملازم لها.

^{١٨} الجيد: العنق. الأزمتان: النابان.

^{١٩} تنحب: تبكي وبكاؤها أشبه بالسعال. البغام: صياح الظبية إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها.

^{٢٠} تمزع: تسرع. لمصرعه: لمكان هلاكه. تئوب: ترجع.

^{٢١} بأجزع: الجار والمجرور خبر لقوله: وما أدماء في بيت سابق. يقول عن لسان المطلقة: إن هذه الظبية التي صفتها كيت وكيت ليست بأشد جزعاً واضطراباً مني حين بلغني أنك طلقنتني، فليتبصر بمثل هذا القول المتسرعون بإيقاع الطلاق، وحل عقدة النكاح الموثقة.

^{٢٢} رنتجن: هو مخترع الأشعة المعروفة باسمه.

وَأَلْقِيهِ بِصَدْرِي وَاَنْظِرْنِي
تَرِي قَلْبِي الْجَرِيحَ بِهِ نَدُوبٌ^{٢٣}
وَمَا الْمَكْبُولُ الْقِي فِي خِضَمِّ
بِهِ الْأَمْوَاجُ تَصْعَدُ أَوْ تَصُوبُ^{٢٤}
فِرَاحٍ يَغْطُهُ التِّيَّارُ غَطًّا
إِلَى أَنْ تَمَّ فِيهِ لَهُ الرَّسُوبُ^{٢٥}
بِأَهْلِكَ يَا ابْنَةَ الْأَمْجَادِ مَنِّي
إِذَا أَنَا لَمْ يَعْذُ بِكَ لِي نَصِيبٌ

* * *

أَلَا قَلْبٌ فِي الطَّلَاقِ لِمَوْعِيهِ
بِمَا فِي الشَّرْعِ لَيْسَ لَهُ وَجُوبٌ
غَلُوتُمْ فِي دِيَانَتِكُمْ غُلُوتًا
يَضِيقُ بِبَعْضِهِ الشَّرْحُ الرَّحِيبُ
أَرَادَ اللَّهُ تَيْسِيرًا، وَأَنْتُمْ
مِنَ التَّعْسِيرِ عِنْدَكُمْ ضُرُوبٌ
وَقَدْ حَلَّتْ بِأَمَّتِكُمْ كَرْوِبٌ
لَكُمْ فِيهِنَّ لَا لَهُمُ الذُّنُوبُ
وَهِيَ حَبْلُ الزَّوْجِ، وَرَقَّ حَتَّى
يَكَادُ إِذَا نَفَخْتَ لَهُ يَذُوبُ
كَخَيْطٍ مِنْ لُعَابِ الشَّمْسِ أَدَلَّتْ
بِهِ فِي الْجَوِّ هَاجِرَةٌ حَلُوبٌ^{٢٦}
يَمَزَّقُهُ مِنَ الْأَفْوَاهِ نَفْتٌ
وَيَقْطَعُهُ مِنَ النَّسَمِ الْهَبُوبُ
فَدَى ابْنَ الْقِيَمِ الْفَقِهَاءَ كَمْ قَدْ
دَعَاهُمْ لِلصَّوَابِ فَلَمْ يُجِيبُوا^{٢٧}
فَفِي «إِعْلَامِهِ» لِلنَّاسِ رُشْدٌ
وَمَزْدَجْرٌ لِمَنْ هُوَ مُسْتَرِيبٌ^{٢٨}
نَحَا فِيمَا أَتَاهُ طَرِيقٌ عِلْمٌ
مِنَ الْغَالِيْنَ لَمْ تَعِهِ الْقُلُوبُ^{٢٩}
وَبَيَّنَّ حَكَمَ دِينِ اللَّهِ لَكُنَّ

^{٢٣} الندوب: آثار الجروح.

^{٢٤} المكبول: المقيد. الخضم: البحر. تصوب: تنخفض.

^{٢٥} الرسوب: الغرق إلى القعر.

^{٢٦} لعاب الشمس: شيء كأنه ينحدر من السماء وقت شدة الحر، تراه مثل نسج العنكبوت. أدلت: أرسلت.

الهجرة: شدة الحر، والهجرة الطوب: هي التي تجلب الغرق لشدة حرارتها.

^{٢٧} ابن القيم: هو العلامة المُحدِّثُ الفقيه المشهور.

^{٢٨} يشير إلى كتاب «إعلام الموقعين» لابن القيم المذكور، وهو من أنفس الكتب التي ألفها. ومزدجر: مصدر

ميمي من ازدجر، بمعنى زجره ومنعه. مستريب: شاك.

^{٢٩} أراد بشيخه: الإمام أحمد بن تيمية رحمه الله.

^{٣٠} الغالين: هم المتشددون في الدين حتى تجاوزوا الحد، قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. لم تعه: لم

تحفظه، ولم تدبر معناه.

المطّقة

لعلّ الله يُحدث بعدُ أمرًا لنا، فيخيّبَ منهم من يخيّب

اليتيم في العيد

ضجيجًا، به الأفراح تمضي وترجع
وليس لها إلا التوهّم مطلع
ويُعوزُ ذا الإعدام طمرٌ مرّع^١
ثيابًا لها يبكي اليتيم المضيع
وترفضُ من عين الأرامل أدمع^٢
يجدُّ للمحزون حزنًا فيجزع
به الحزنُ جدُّ، والسرور تصنع
نحوسٌ بها وجه المسرّة أسفع^٣
رمى نُكتًا سودًا به، فهو أبقع^٤

أطلّ صباح العيد في الشرق يسمع
صباحٌ به تُبدي المسرّة شمسها
صباحٌ به يختال بالوشي ذو الغنى
صباحٌ به يكسو الغنيّ وليده
صباحٌ به تغدو الحلائل بالحلى
ألا ليت يوم العيد لا كان، إنه
يُرينا سرورًا بين حزن، وإنما
فمن بؤساء الناس في يوم عيدهم
قد ابيضّ وجه العيد لكنّ بؤسهم

* * *

خرجتُ بعيدِ النحر صُبْحًا فلاح لي مسارحٌ للأضدادِ فيهنّ مرتع

^١ الوشي: نوع من الثياب الموشية المحسنة. أعوزه الشيء: احتاج إليه فلم يقدر عليه. الإعدام: الفقر.

الطمر: الثوب البالي.

^٢ الحلائل: النساء ذوات الأزواج.

^٣ أسفع: أسود.

^٤ نُكتًا: نقطًا سوداء. أبقع: مختلف اللون.

خرجتُ وقرصُ الشَّمسِ قد ذرَّ شارِقًا
هي الشمسُ خودٌ، قد أطلَّت مصيخةً
كأن تفاريقَ الأشعةِ حولها
ولما بدتُ حمراءَ أيقنتُ أنّها
فرحتُ وراحتُ ترسلُ النورَ ساطعًا
بحيثُ يسيرُ الناسُ كلُّ لوجهةٍ
وبعضُ له أنفُ أشمُّ من الغنى
وفي الحيِّ مزمارٌ لمُشجّي نعيه
فجئتُ وجوفُ الطبلِ يرغو، وحوّله
لقد وقفوا، والطبلُ يهتزُّ صوتهُ
ترى ميعةَ الإطرابِ والطبلُ هادرٌ
فقد كانتِ الأفراحُ تفتحُ بابها

ترى النورَ سيّالاً به يتدفع
على الأرضِ من أفقِ العلا تتطلع^٥
على الأفقِ مُرخاةً ذوائبُ أربع^٦
بها خجلٌ مما تراه وتسمع
وسرتُ وسارتُ في العُلا تترفع
فهذا على رسل، وذلك مسرع^٧
وبعضُ له أنفُ من الفقرِ أجدع^٨
غدا الطبلُ في دردابه يتقعقع^٩
شبابٌ، ولدان عليه تجمعوا^{١٠}
فتهتزُّ بالأبدانِ سوقٌ وأكرع^{١١}
تفيضُ، وفي أسمعهم تتميع^{١٢}
لمن كانَ حولَ الطبلِ والطبلُ يُقرع

* * *

وقفتُ أجيل الطرفَ فيهم فراعني
صبّي صبيحُ الوجهِ أسمرُ شاحبٌ
يزينُ حجاجيه اتّسعَ جبينه
هناكُ صبّيّ بينهم مترعرع
نحيفُ المباني أدعجُ العينِ أنزع^{١٣}
وفي عينه برقُ الفطانة يلمع^{١٤}

^٥ الخود: المرأة الشابة. مصيخة: مستمعة.

^٦ الذوائب: الضفائر.

^٧ على رسل: أي على مهل.

^٨ أنف أشمٌ: مرتفع كبراً. أجدع: مقطوع، وهو كناية عن الذل.

^٩ نعيه: صوته. الدرداب: صوت الطبل.

^{١٠} يرغو: يضح ويصوت.

^{١١} سوق: جمع ساق. وأكرع: جمع كراع، وهو مستدق الساق.

^{١٢} ميعة: كل شيء أوله، تتميع: تتسيل.

^{١٣} شاحب: أي متغير اللون. أدعج العين: أسودها مع سعة فيها. الأنزع: المنحسر الشعر عن جانبي

جبينه.

^{١٤} حجاجيه: حاجبيه، وأصل الحجاج العظم المحيط بالعين.

عليه دريسٌ يعصرُ اليتمُ رُدنهُ
يُليحُ بوجهٍ للكآبةِ فوقه
على كُثرِ قرعِ الطبلِ تلقاهُ واجمًا
كأن هديرَ الطبلِ يقرعُ سمعه
يردُّ ابتسامَ الواقفينَ بحسرةٍ
ويُرسِلُ من عينيه نظرةً مُجهشٍ
له رجفةٌ تنتابهُ وهو واقفٌ
يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد
فكان ابتسامُ القوم كالثلجِ قارسًا

فيقطرُ فقرُ من حواشيه مُدقع^{١٥}
غبارٌ به هبَّت من اليتم زعزع
كأن لم يكن للطبلِ ثمة مقرر^{١٦}
فلم يُلَفِ رجعًا للجوابِ فيرجع
تكادُ لها أحشاؤه تتقطع
وما هو بالباكي، ولا العينُ تدمع^{١٧}
على جانبٍ والجوُّ بالبردِ يلسع^{١٨}
على البردِ من بُردٍ به يتلفع^{١٩}
لدى حسراتٍ منه كالجمرِ تلذع

* * *

فلما شجاني حاله وأفرزني
ورحت أعاطيه الحنانَ بنظرةٍ
وأفتحُ طرفي مُشبعًا بتعطفٍ
هناك على مهلٍ تقدمتُ نحوه
أيا ابن أخي! من أنت ما اسمك ما الذي
فهبَّ أمامي من رقادٍ وجُومهِ
وأعرضَ عني بعدَ نظرةٍ يائسٍ
فعقبتهُ مستطلعًا طلحَ أمره

وقفتُ وكُلِّي مجزعٌ وتوجع^{٢٠}
كما راحَ يرنو العابدُ المتخشع
فيرتدُّ طرفي وهو بالحزن مُشبع
وقلتُ بلطفِ قولٍ من يتضرع:
عراكَ فلم تفرح، فهل أنت مُوجع؟^{٢١}
كما هبَّ مرعوبَ الجنانِ المهجع
وراح ولم ينبسِ إلى حيثُ يهرع^{٢٢}
على البعدِ أقفو الإثر منه وأتبع^{٢٣}

^{١٥} الدريس: الثوب البالي. الردن: أصل الكم. فقر مدقع: شديد كأنه يلصق صاحبه بالدقعاء، وهي التراب.

^{١٦} واجمًا: ساكتًا عاجزًا عن التكلم من كثرة الغم أو الخوف. ثمة: هناك.

^{١٧} المجهش: الهام بالبكاء المتهيي له، وماضيه أجهش.

^{١٨} تنتابه: تصيبه.

^{١٩} البرد: الثوب المخطط. تلفع بالثوب: تلفف به.

^{٢٠} شجاني: حزنني.

^{٢١} عراك: أصابك.

^{٢٢} لم ينبس: لم يتكلم.

^{٢٣} أقفو الإثر منه: أي أتبع أثره.

وبيناهُ ماشٍ حيثُ رُحْتُ وخلفهُ
لمحْتُ على بعد إشارة صاحب
فأومأتُ أن ذكرتهُ موعدًا لنا
وعدتُ فأبصرتُ الصبيَّ معرَّجًا
فلما أتيتُ الدارَ بعدَ دخوله
دنوتُ إلى بابِ الدَّويرةِ مطرِّقًا
سمعتُ بكاءً ذا نشيخٍ مردِّدٍ
فحرتُ وعيني ترمقُ البابَ خلسةً
أأرجعُ أدرجي ولم أكُ عارفًا

* * *

فمرتُ عجوزٌ في الطريقِ وخلفها
تعرضتُها مستوقفًا، وسألتها
فأدنيتهُ مني، وقلتُ لها: اسمعي
فقالَتْ: وأنتِ أنَّةٌ عن تنهيدِ
أيا ابني ما يعنيتُك من نوحِ أيمٍ
فقلتُ لها: إني امرؤٌ لا يهمني
وإني وإن جارت عليَّ مواطني

^{٢٤} الشيخ: هو الذي انتهى شبابه، وقيل: هو مَنْ بلغ الأربعين، وقيل: الخمسين.

^{٢٥} عرج: مال من جانب إلى آخر.

^{٢٦} حيال الباب: قبالة.

^{٢٧} الدويرة: تصغير دار. أطرق: سكت ولم يتكلم.

^{٢٨} النشيخ: الغصة بالبكاء من غير انتخاب.

^{٢٩} يغشيها: يغطيها.

^{٣٠} الأيم: هي مَنْ فقدت زوجها. مفعج: موجع.

^{٣١} مروع: أصابه الروع وهو الخوف.

^{٣٢} قطانهم: سكانهم.

سألتُ، فقد كادت حشاي تمزّع
سألت فعندي شرح ما تتوقع
من الصّيد أقوت دارهم فهي بلقع^{٣٣}
من الدهر عجارٌ شديدٌ مصرّع^{٣٤}
خليلٌ، وأما الآخرون فودّعوا
سعيداً فأودى وهي إذ ذاك مرضع^{٣٥}
أخوها إلى أن كاد يقوى ويضلع^{٣٦}
بما يوجع الأيتام مُغرّى ومولع^{٣٧}
بقلب رئيس الشرطة الحقد أجمع^{٣٨}
عليه بجرم ما له فيه مصنع^{٣٩}
وما هو يا ابن القوم للجرم موقّع^{٤٠}
إلى السجن فهو اليوم في السجن مودّع
من العيش سماً ناقعاً تتجرّع^{٤١}
ضحى العيد يبكيها اليتيم المضيع

أبورع مُني، عمرك الله، بالذي
فقلت: أعن هذي التي طال نحبها
ألا إنها سلمى تعيسةً معشر
وصارعهم بالموت حتى أبادهم
فلم يبق إلا زوجها وشقيقها
ولم يلبث المقدور أن غال زوجها
فربى ابنها سعداً، وقام بأمره
فأذهب عنه الخال دهرٌ غشمشم
جرت هنةٌ منها على خاله انطوى
فزجّ به في السجن بعد تجرّم
عزاه إلى إيقاعه موقّعاً به
ولكنّ عدّ الحاقدين رمى به
فحقّ لسلمى أن تنوخ فإنها
فلا غرو من أم اليتيم إذا غدت

* * *

^{٣٣} الصيد: جمع أصيد، وهو الرجل الذي لا يلتفت من كبره، وأراد بالصيد: أولي النعمة. بلقع: خالية من السكان.

^{٣٤} العجار: المصارع، الذي لا يطاق جنبه في المصارعة.

^{٣٥} غال: أهلك. أودى: أهلك.

^{٣٦} يضلع: يقوى وتشتد أضلاعه.

^{٣٧} الغشمشم: هو من يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شيء، وقيل: هو الكثير الظلم.

^{٣٨} هنة: أي شيء ما وهي مؤنث الهن، وكلاهما يكون كناية عن كل اسم جنس، ومعناها شيء. الشرطة: رجال البوليس والضابطة.

^{٣٩} تجرم عليه: أي ادعى عليه بجرم لم يفعله.

^{٤٠} موقّعاً: منزلاً به ما يسوءه.

^{٤١} السم الناقع: البالغ القاتل.

فَعُدْتُ، وقلبي جازع متوجّع
ألا ليت يوم العيد لا كان إنه
وجئتُ إلى ميعادنا عند صاحبي
فأطلعتهم طلع اليتيم فأففوا
فقلت: دعوا التأفيف فالعار لاصق
ألسنا الألى، كانت قديمًا بلادنا
فما بالنا نستقبل الضيم بالرضا
شربنا حميم الذل ملء بطوننا
فلو أن عير الحي يشرب مثلنا
نهوضًا إلى العز الصراح بعزيمة
ألا فاكتبوا صك النهوض إلى العلا

وقلت، وعيني ثرة الدمع تهمع: ٤٢
يجد للمحزون حزنًا فيجزع!
وقد ضمّه والصحب نادٍ ومجمع
وخبّرتهم حال السجين فرجعوا ٤٣
بكم واركوا الترجيع فالأمر أفضح
بأرجائها نور العدالة يسطع ٤٤
ونعنو لحكم الجائرين ونخضع ٤٥
ولا نحن نشكوه ولا نحن نيجع ٤٦
هوانًا، لأمسي قالسا يتهوع ٤٧
تخرّ لمرماها الطغاة وتركع
فإني على موتي به لموقع ٤٨

٤٢ الثرة من العيون: السحاب الغزيرة. تهمع: تدمع.

٤٣ رجعوا: قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

٤٤ الأرجاء: الأطراف.

٤٥ الضيم: الهوان. نعنو: نخضع.

٤٦ الحميم: الماء الحار.

٤٧ العير: الحمار. قلس: خرج من بطنه طعام أو شراب إلى الفم، سواء ألقاه أم أعاده إلى بطنه، فإن

غلب فهو القيء والتهوع.

٤٨ الصك: ما يكتب عليه الإقرار بالمال وغيره. موقع: كاتب التوقيع.

سياسة لا حماسة

ولستُ للشُّعر، في حالٍ، بمفتقرٍ
فأقبلتُ وهي تمشي مشيَ معتذرٍ
فرحتُ فيهنَّ أجري جريَ مقتدرٍ
وأينما سرتُ سارتُ تقنفي أثري
أعرَّفَ الناسَ سحرَ السَّمعِ والبصرِ
من حيثِ أطربنَ حتى قاسيَ الحجرِ
وكنَّ فيها مكانَ الماءِ في الثمرِ
إذا تُنوشدنَ بين البدو والحضرِ
خلوا من الحشو مملوءاً من العبرِ
عُرِّي فأكسوه لفظاً قدَّ من دُرِّ
ما بين بغدادَ والشهباءِ في سفري
بيتاً من الشُّعرِ لا بيتاً من الشُّعرِ
بوشي ذا العصرِ لا الخالي من العُصرِ
وأبي حسنَ لشعرٍ غيرِ مبتكرِ
فلمستُ واللَّه في شعرٍ بمفتخرِ
ترمي بها حسرائي طائرَ الشرِّ
أبكي بهنَّ على أيامنا الغرِّ

الشعرُ مفتقرٌ منِّي لمبتكرِ
دعوتُ غرَّ القوافي وهي شاردةٌ
وسلمتني عن طوعٍ مقادتها
إذا أقمتُ أقامتُ وهي من خدمي
صرفتُ فيهنَّ أقلامي ورحتُ بها
ملكنَّ من رقَّةِ رِقِّ النفوسِ هوى
سقيتهنَّ المعاني فارتوينَ بها
كم تشرئبُ لها الأسماعُ مصغيةً
طابقتُ لفظي بالمعنى فطابقه
إني لأنتزِعُ المعنى الصحيحَ على
سلِّ المنازلَ عني إذ نزلتُ بها
ما جئتُ منزلةً إلا بنيتُ بها
وأجودُ الشعرِ ما يكسوه قائله
لا يحسنُ الشُّعرُ إلا وهو مبتكرُ
ومنَّ يكنُ قال شعراً عن مفاخرةٍ
وإنما هي أنفاسُ مُصعَّدةٍ
وهنَّ إن شئتُ منِّي أدمعُ غرُّ

أبكي على أمة دار الزمان لها
 كم خلد الدهر من أيامهم خبراً
 ولست أذكر الماضيين مفتخرًا
 وكيف يفتخر الباقون في عمه
 لهفي على العرب أمست من جمودهم
 أين الججاجُ ممن ينتمون إلى
 قوم هم الشمس كانوا والورى قمرٌ
 راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقبًا
 أقول، والبرق يسري في مراقدهم:
 يأيها العرب هبوا من رقادكم
 كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم
 ما لي أراكم أقل الناس مقدرةً
 قَبلاً، ودار عليها بعدُ بالغير^١
 زان الطروس وليس الخبر كالخبر^٢
 لكن أقيم بهم ذكرى لمذكر^٣
 بدارس من هدى الماضيين مندثر^٤
 حتى الجمادات تشكو وهي في صخر!
 ذؤابة الشرف الوضاح من مضر؟!^٥
 ولا كرامة لولا الشمس للقمر^٥
 ناموا عن الأمر تفويضًا إلى القدر
 «يا ساهر البرق أيقظ راقد السمير»^٦
 فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر^٧
 والعود ليس له صوت بلا وتر؟!
 يا أكثر الناس عدًا غير منحصر؟!^٧

^١ الغير: الحوادث.

^٢ أذكر: أذكر.

^٣ العمه: الضلال. الدارس: المنمحي. مندثر: بال دارس.

^٤ الججاج: السادة. الذؤابة: في الأصل معناها الضفيرة فوق الناصية، وذؤابة الشرف: أعلاه.

^٥ ذلك لأن نور القمر مقتبس من نور الشمس، فلا كرامة له لولاها.

^٦ المراقد: جمع مرقد، وهو مكان النوم. السمير: القوم يجتمعون للمسامرة.

^٧ انجابت: انكشفت.

إلى الشبان^١

أدبُ العلمِ وعلمُ الأدبِ شرفُ النفسِ ونفسُ الشرفِ
بهما يَبْلُغُ أعلى الرتبِ كلُّ رامٍ منهما في هدفِ

* * *

أيها السابح في بحر الفنون غائصًا في لُجَّها الملتطمِ
أنتَ واللَّه على رغم المنون ذو وجودٍ قاتلٍ للعدمِ
قرنكُ الحاضر من أرقى القرون خضع السيفُ به للقلمِ
فإذا شئتَ بلوغَ الأربِ فاغترفُ من بحره وارتشفِ
فالمعالي أُودعت في الكتبِ كاللآلي أُودعت في الصَّدَفِ
أنتَ يا جاهلُ من قبل المماتِ ميئُ يمرحُ ما بين البيوتِ^٢
أوما تعلمُ في هذي الحياةِ أن ربَّ العلمِ حيٌّ لا يموت
إذ قضى للعلم ربُّ الكائناتِ بالُعلا فهو زمام الملكوتِ

^١ هذه القصيدة أنشدت يوم افتتاح المنتدى الأدبي الذي أسسه شبان العرب في الآستانة، وقد طلبوا إلى الرصافي أن ينظم لهم قصيدة تُنشد في يوم الافتتاح المذكور، فنظم لهم هذه القصيدة.

^٢ يمرح: يتبختر ويختال فرحًا ونشاطًا، والجملة صفة الميت، والغرض من وصفه بها بيان الفرق بينه وبين الميت الحقيقي، كما يدل عليه قوله: من قبل الممات، أي: أنت ميت مجازًا قبل أن تموت حقيقة.

وعلى الجهلِ قضى بالعَطَبِ فهو في الناسِ دليلُ التلفِ
فافتكرَ إن شئتَ علمَ السببِ هل يكونُ النورُ مثلَ السَّدَفِ^٣

* * *

يا رعى اللهَ زمانًا لو يدوم كان للدهرِ كأيامِ الصُّبا
أشرفتَ فيه من العلمِ النُّجوم ظنَّ كلُّ الناسِ أن لن تغربًا
زمنٌ قد ضحكتَ فيه العلوم ونراها اليومَ تبكي العرَبًا
حيثُ منهمُ فقدتُ خيرَ أبٍ واغدتُ من يُتمها في شظفٍ^٤
يا عهدَ العِلْمِ ما شئتَ اندبي يا عيونَ المجدِ ما شئتَ اندرفي

* * *

هل أتاك الدهرُ، فيما قد أتى، بحديثِ العُربِ في الأندلسِ؟
حيثُ بالعزمِ أَماطوا العنتًا وبنورِ العِلْمِ ليلَ الهوسِ^٥
فاسألنَّ الغربَ عما تُبَّتَا في رُبوعِ خَلْفوها دُرُسُ؟
هل ترى ثَمَّةً من لم يجبِ عن معاليهم ولم يعترفِ؟
أه لو يرْجِعِ ماضي الحُقْبِ أه لو عادَ زمانَ الشرفِ!

* * *

سل رُبًا بغدادَ عما قد مضى لبني العباسِ في تلكِ الديارِ
واسألنَّ الشامَ عما قد أضا للمعاويينِ فيها من فخارِ
كم ترى للمجدِ سيفًا منتضى كم ترى للعلمِ فيها من منارِ!
عجبي يا قومُ كلَّ العجبِ هذه الآثارَ لم لا نقتفي!؟

^٣ السدف بفتح السين: الظلمة، ويجوز أن يكون بضم ففتح، على أن يكون جمع سدفة كظلمة، وزناً ومعنى.

^٤ الشظف: بالتحريك، ضيق العيش وبيسه وشدته.

^٥ العنت: مصدر عنت إذا فسد، أو وقع في أمر شاق، أو لقي الشدة وهلك. والهوس: بفتح السين طرف من

الجنون وخفة العقل.

آه من رقدتنا وا حربي آه من غفلتنا وا أسفي!^٦

* * *

يا أباة الضيم من عليا نزار
كنتم كالسيف مشحوذ الغرار
كم إلى العلم أقمتم من منار
قطفت أبواعكم عن كئيب
الذي حل حماكم لن يرع^٧
بعقول هي أسنى من شعاع
كل مجد شاهق المقتطف^٨
أورثوها خلقا عن سلف
تلك والله مزايا العرب

* * *

أنت يا شمس على كر السنين
حدثينا بحديث الأولين
أفكانوا مثلنا مختلفين
إننا يا شمس في مضطرب
قد تقلبت طلوعا في الورى
فلقد شاهدت تلك الأعصرا
لا يغيثون إذا خطب عرا?^٩
قد ألفناه فلم نألف
عن بني الغبراء أو فانكسفي
إن بقينا هكذا فاحتجبي

* * *

يا بني يعرب ما هذا المنام
أين من كان بكم يرعى الذمام
أفلا يلذعكم مني الملام
خارجا عن نفسى كاللهب
أوما أسفر صبح النوم؟!
ويلبى دعوة المهتمم?^{١٠}
فلقد ألفظ جمرا من فمي!
محرقا مهجة قلبي الدنف
لنأ لولا فيض دمعي السكب
لتحرقت بنار الأسف

^٦ وا حربي: وا، حرف ندبة للتوجع أو التفجع، والحرب بفتحيتين: الهلاك، يقال: وا حربا ووا حربي توجعا أو تأسفا وكذلك وا أسفي ووا أسفا.

^٧ الغرار: بالكسر حد السيف، ومشحوذ الغرار: أي ماضي الحد.

^٨ الكئيب: بفتحيتين، القرب، يقال: رماه من كئيب، وعن كئيب: أي من قرب وتمكن.

^٩ عرا: يعرو؛ أي عرض وألم. والخطب هنا: الأمر المكروه.

^{١٠} المهتمم: بصيغة المفعول، المظلوم.

* * *

يا شبابَ القومِ لولاكمُ لما ساغَ لي العذبُ وما إن لذَّ لي
إنني أبصرُ منكم أنجمًا لامعاتٍ في ظلامِ الأملِ
فاصبروا اليومَ على حرِّ الظَّما كي تنالوا الرِّيَّ في المستقبلِ
واتعبوا اليومَ فعُقبى التعبِ راحةٌ مُشبعَةٌ بالترفِ
لتقونا أسوأ المنقلب إذ بناءُ القومِ هاري الجُرفِ

* * *

يا شبابَ القومِ هُبُّوا للبرازُ فبكم يبسمُ ثغرُ الوطنِ
وارفلوا إما بثوبِ الإعتزاز أو بثوبٍ هو ثوبُ الكفنِ
وأعدُّوا العلمَ لا السيفَ الجُراز إنه عُدةٌ هذا الزمنِ^{١١}
بسواه العزُّ لم يكتسبِ وهو المُنصفُ للمنتصفِ
إنه واللَّه لا عن كذبِ شرفُ النفسِ ونفسُ الشرفِ

^{١١} الجراز بالضم: صفة للسيف، ومعناه القاطع.

الدهر^١

هل الدهرُ إلا أعجميٌّ أخاطبهُ
أيثني إلى وجه اللئيم بوجهه
أراه إذا طارحته الجد لاعبًا
ويضرب أطنابَ المنى لي هازلًا
وبيناه يُبدي لي ابتسامَةً خادع
لقد أضحكتَ غيرَ الحليم سُثُونَهُ
فيا أدباءَ القوم هل تنقضي لكم
يشدُّ عليكم بالسيوفِ نكايَةً
فما لي إلى فهمِ الحديثِ أجازبه؟
ويرتدُّ مزورًا عن الحرِّ جانبهِ^٢
وما أنا ممَّنْ يا أميمُ يلاعبه^٣
وما أنا مخدوعٌ بما هو ضاربه
يقطَّب حتى لا تبين حواجبه^٤
وأبكتِ سوى عينِ السفية نوائبُهُ
شكايَةً دهرٍ حاربَتكم مصائبهِ؟!
وأقلامكم، وهو الأصمُّ، تعاتبهِ^٥

^١ هذه القصيدة لم تنشر هنا بكاملها بل حذف منها زهاء أحد عشر بيتًا.

^٢ يثني: يعطف، والباء في بوجهه زائدة في المفعول. ومزورًا: منحرفًا.

^٣ يقال: طارحه الكلام والشعر وغير ذلك: إذا ناظره وجاوبه.

^٤ بيناه: الألف كافة لبين أو هي مختصرة من ما الكافة، والأصل بينما، فحذفت الميم من ما، وكذلك القول في الضمير المتصل بها أنه مختصر من هو، والأصل بينا هو، فالضمير ضمير رفع، وقوله يقطب: أي يزوي ما بين عينيه.

^٥ أي: هو يحمل عليكم بالسيوف قهراً بالقتل والجرح، وأنتم تقابلونه بالأقلام عتابًا، وهو مع ذلك أصم غير سامع للعتاب، والبيت تمثيل لحالة الأدباء مع الدهر.

* * *

هو الدهر لم يسلم من الغي أهله
إذا آنسوا نورَ الحقيقة رابهم
تضاربت الأهواء فيهم فناكبُ
طبائعهم شتى على أن بينهم
لعمرك حتى البرق خالف بعضه
أبت حركات الكون إلا تباينا
ولولا اختلافُ شاءه الله في القوى
كما الليل لم يأمن من الشر حاطبه^٦
فتجثو على الأبصار منهم غياهبه^٧
عن الشرِّ يُقْصيه، وآخرُ جالبه
كريمًا تواليه ووغدًا تجانبه
فقد خولفت بالموجبات سوابه^٨
دوافعه فعالة وجوازبه
لما دار في هذا الفضاء كواكبه

* * *

سبرتُ زماني بالنهاى ومخضته
ولم أستشُر في الناس إلا تجاربي
فلا ترتكبُ قربَ اللئام فإنهم
وما عجبي في الدهر إلا لواحدٍ
وذلك أن العيش فيه مطيبٌ
ولو كان في أعماله الدهرُ عاقلاً
بتجربتي حتى تجلّت عواقبه
وهل يصدق الإنسان إلا تجاربه
لكالبحرٍ محمولٌ على الهول راكبه
وإن كثرتُ في كلِّ يومٍ عجائبه
لمن خبثت بالمخزيات مكاسبه
لما كان مثلي في الورى من يحاسبه

^٦ حاطب ليل: مثل عندهم في التخليط، ومنه قولهم: المكثار حاطب ليل؛ أي يجمع بين الحميد والرديء، أو أن الحاطب في الليل لا يأمن الشر إذا ربما جمع الأفاعي في الحطب الذي احتطبه وهو لا يدري، ففي البيت تشبيه الدهر بالليل، وأهليه بالحاطب فيه، فهم لا يسلمون من الوقوع في الباطل كما أن حاطب الليل لا يأمن من الوقوع في الشر، وكما في البيت: مثلها في قول الشاعر:

كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

^٧ آنسوا: أبصروا. رابهم: أوقعهم في الريب، وضمير الفاعل في رابهم يعود إلى الدهر.
^٨ يريد بهذا البيت وما بعده: أنه لا عجب في اختلاف طبائع الناس، وكونهم شتى بين كريم ولثيم؛ إذ هذا التخالف جارٍ في جميع ما في الكون فالبرق منه موجب ومنه سالب، ولولا اختلاف القوانين الجاذبة والدافعة لما تم نظام هذا العالم، ولا دارت في هذا الفضاء كواكبه.

ولو لم يكن في كل ما فيه خادعاً
 ألا ربَّ شيطان من الإنس قد غدا
 فقلتُ له: اخساً إنما أنت خائبٌ
 فولَّى على الأعقابِ يحبو وقد درى
 فأتبعه مني شهابٌ تسامح
 ولو شئتُ أرسلتُ الخديعةَ خلفه
 ولكنَّ أبى مني الخداعَ مهذبٌ
 لما أمَّ فيه صادقُ الفجرِ كاذبه^٩
 يخاتلني خَلْسًا وعيني تراقبه^{١٠}
 وقبلك أعياءُ الجنِّ ما أنت طالبه^{١١}
 ولله درِّي أنني أنا غالبه^{١٢}
 يشقُّ ظلامَ الجهلِ بالحلمِ ثاقبه^{١٣}
 تطاردهُ حتى تضيقَ مذاهبه
 تعودُ فعلَ الخيرِ مذ طرُّ شاربه

* * *

وذي سَفَهٍ أغضيتُ عنه تكرُّماً
 فقمْتُ له بالنعلِ ضرباً فلم تزلْ
 وجنَّبته السيفَ الجُرَّازَ؛ لأنَّه
 لقد عابني جهلاً ولم يدرِ أنه
 له نسبةٌ مجهولةٌ غيرُ أنه
 فدبَّتْ على رجليَّ غدراً عقاربُه
 يدايَ به حتى اطمأنتْ غواربه^{١٤}
 تعالت عن الكلبِ العقورِ مضاربه
 أقلُّ فداءً للذي هو عائبه
 مغامزه معلومةٌ ومعائبه^{١٥}

^٩ أم فلان القوم: إذا تقدمهم. وصادق الفجر: مفعول مقدم، وكاذبه: فاعل مؤخر، والمعنى أن كل ما في الدهر خادع فلذلك ترى الفجر الصادق يتقدمه الفجر الكاذب.

^{١٠} يخاتلني: أي يخدعني عن غفلة. والخلس: مصدر خلس الشيء إذا أخذه في مختلة، وهو في البيت مفعول لأجله، أو هو مفعول مطلق؛ لأنه بمعنى المخاتلة.

^{١١} اخساً: أي ابعد وانزجر، وهي كلمة زجر وطرده للكلب.

^{١٢} المعنى المراد من قوله: «فولى على الأعقاب يحبو» أنه ذهب كالكلب يمشي على أربع.

^{١٣} أتبعه: بمعنى تبعه أي لحقه. وشهاب تسامح: أي شهاب صفح وعفو عنه.

^{١٤} فلم تزل يداي به حتى اطمأنت: أي لم تزل يداي تمارسه أو موقعة به حتى فعل؛ أي ما زلت أحاوله. غواربه: الغارب هو الكاهل، وأعلى كل شيء، وأعلى الموج.

^{١٥} المغامز: جمع مغمز، وهو المطعن، فهي كالمعائب معني.

إلى أبناء الوطن

أنشدها في حفلة أقيمت له بعد رجوعه إلى بغداد سنة ١٩٢٣.

سر في حياتك سَيْرَ نايه
وإذا حلتَ بموطن
واخترَ لنفسك منزلاً
ورمّ العلاءَ مخاطراً
والمجدُ ليسَ يناله
وإذا يخاطبُك اللئيمُ
وإذا انبرى لك شاتماً
فالروضُ ليس يضيره
ولربُّ ذنبي قد أتا
ما امتازَ قطُّ عن ابن آ
ولم الزمانَ ولا تحابه^١
فاجعلُ محلَّك في هضابه^٢
تهفو النجومُ على قبابه^٣
فيما تحاولُ من لبابه
إلا المخاطرُ في طلبه
مُ فصمَّ سمعك عن خطابه
فاربأُ بنفسك عن جوابه^٤
ما قد يُطنطنُ من ذبابه^٥
ك من ابن آدم في إهابه^٦
وى شخصه بسوى ثيابه

^١ النايه: المشهور، ضد الخامل.

^٢ هضابه: جمع هضبة، وهي الجبل المنسبط على الأرض، والمراد: المنازل المرتفعة.

^٣ تهفو: تسرع، يقال: هفت نفسه إلى الشيء إذا أسرع إليه.

^٤ انبرى له: عارض و صنع مثل صنعه، اربأُ بنفسك: ارفع نفسك.

^٥ يضيره: يؤذيه، يطنطن: يصوت ويحدث طنيناً.

^٦ أصل الإهاب: الجلد قبل أن يدبغ، والمراد الجلد مطلقاً.

وَإِذَا ظَفَرْتَ بِذِي الْوَفَا ۖ فَحُطَّ رِحْلِكَ فِي رِحَابِهِ ۖ
فَأُخْوِكَ مِنْ إِنْ غَابَ عِنْدَ ۖ كَ رَعَى وَدَاكَ فِي غِيَابِهِ
وَإِذَا أَصَابَكَ مَا يَسُو ۖ ءُ رَأَى مَصَابِكَ مِنْ مَصَابِهِ
وَتَرَاهُ يَجْعَعُ إِنْ شَكَو ۖ تَ كَأَنَّ مَا بِكَ بَعْضُ مَا بِهِ ۖ^٧

* * *

يَا قَوْمُ قَدْ هَرَمَ الزَّمَا ۖ نٌ مِنْ التَّمَادِي فِي انْقِلَابِهِ
فَلذَلِكَ عِنْدَ الْهَاجِرَا ۖ تِ يَسِيلُ شَيْءٌ مِنْ لِعَابِهِ
مَا زَالَ عَنِ خَرْفِ بِهِ ۖ لِلنَّاسِ يَهْزِرُ فِي كِذَابِهِ ۙ
يَأْتِي بِكُلِّ عَجِيبَةٍ ۖ تَدْعُو اللَّيْبِ إِلَى ارْتِيَابِهِ
وَالنَّاسُ فِي عَطِشٍ تَسِي ۖ رُ إِلَى ارْتَوَاءٍ مِنْ سَرَابِهِ
فَمَتَى يَجُودُ لَنَا الزَّمَا ۖ نٌ وَلَوْ بِمَذْقٍ مِنْ وَطَابِهِ ۙ^{١٠}
وإلى متى هو ساترٌ ۖ وَجَهَ الْحَقِيقَةَ فِي ضِبَابِهِ ۙ^{١١}
يَتَلَوُ بِصَرْفِ الْحَادِثَا ۖ تَ لَنَا فَصُولًا مِنْ كِتَابِهِ
كَمْ يَدَّعِي وَطَنِيَّةَ ۖ مَن لَمْ تَكُنْ مَرَّتْ بِبَابِهِ!
فَتَرَاهُ يَنْفِخُ لِأَغْيَا ۖ فِيهَا وَيَنْفِخُ فِي جِرَابِهِ
لِيَكُونَ مَكْتَسِبًا بِهَا ۖ مَالًا تَهَالِكُ فِي اِكْتِسَابِهِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ صَائِدٌ ۖ وَكَأَنَّمَا هِيَ مِنْ كِلَابِهِ
وَتَرَاهُ يَرْمِي الْمَخْلَصِي ۖ نَ بِكُلِّ سَهْمٍ مِنْ جِعَابِهِ
وَيَعِيبُ قَوْمًا بِالْخِيَا ۖ نَةٍ وَالْخِيَانَةَ بَعْضُ عَابِهِ ۙ^{١٢}

^٧ حط رحلك في رحابه: أي انزل عنده في أرضه، والمراد تمسك بإخائه.

^٨ يقال: وجع في الماضي، ويوجع وييجع وياجع في المضارع، يريد أنه يتوجع لما ينوبك.

^٩ الخوف: الهذيان والهذر، مثل كلام المحموم والمجنون، والمراد أنه يخطئ فيما يأتي به من الحوادث ولا يستقيم له قصد.

^{١٠} المذق: اللبن الممزوج بالماء، يريد غير الخالص. والوطاب: جمع وطب، وهو سقاء يوضع فيه اللبن.

^{١١} يريد أن وجه الحقيقة ليس ظاهرًا وإنما يخفيه الضباب؛ يعني ما يأتي به الدهر من الخير والشر

ليس واضحًا.

^{١٢} عابه: عيبه.

* * *

لا بدّ للوطنِ العزيزِ من المسكّنِ لاضطرابه
من مجلسٍ للشعبِ يند وينوبُ عن أبنائه
حتى نرى أمرَ البلا أبهتَ حكومتنا له
أترى الحكومة تبتغي هذا لعمرُ أبيك ما
هلاً يقوم القاعدون كي ينقذ الوطنَ الذي
وغدا يهدد بالبووار إن لم تكونوا مدركيه

من المسكّنِ لاضطرابه
ظُر بالتأمّل في ما به إن صادقوه على منابه
به يعودُ إلى نصايه والشعب ليس له بأيه
ه ونحن نعرضُ عن طلابه؟! يدعو الحلیم إلى انتخابه
مسارعينَ إلى انتخابه؟ مسارعينَ إلى انتخابه؟
صرف الزمان له بناه بنيه، بورُ في ترابه
فلا محالة من خرابه

* * *

أبّ المسافرُ للديا لو كان يجنح للإيا
قد كان يمرح في التغرُ لا تعجبنَ لخاملٍ
فالسيفُ أحسن ما يكو أما العراقُ فإنَّ لي
ينجاب يأسى بالرجا من كل من هو في ظلا
لمع الذكاء بوجهه يا من زكت أحسابهم

ر على اضطرابٍ في إياه
ب لما تعجّل في زهابه
ب بالحفاوة من صحابه لبس النّباهة في اغترابه
ن إذا تجرّد من قرابه كلّ الرجاء بأسدٍ غابه
ء إذا نظرت إلى شبابه م الليل أضواً من شهابه
كالبرق يلمع في سحابه فأتوا بأخلاقٍ نوابه^{١٣}

^{١٣} زكت أحسابهم: برئت أصولهم من الدنس. نوابه: جمع نابه، أي: شريف عالٍ.

ديوان معروف الرّصافي

ووجههم بالنّيِّرا ت من النجوم لها مشابه
إني لأشكر فضلكم شكرَ المثاب على ثوابه
كالروض يشكر وابلًا حيّا الأزاهر بانسكابه

في المعهد العلمي

ألا فليقل ما شاء فيّ المفنّد^١
به غير تبيان الحقيقة مَقْصِد
وإن هان عند الشعر ما كنت أنشدُ
وللدُّر قَدْرٌ دون ما أنا منشِدُ
يطيب به لكنّ من الذل مورِدُ
أنوح بها حينًا وحينًا أغرِدُ
يُسَلُّ على الأيام طورًا ويغمدُ^٢
يقول سخيْفَ الشعر وهو مقلدُ
تنقَّصه في الشعر حمّاد عجرد^٣
وللمرء من دنياه ما يتعود
وما كان من شأني الكلام المعقد

لعمرك إن الحرَّ لا يتقيدُ
إذا أنا قصّدتُ القصيدَ فليس لي
نشدت بشعري مَطْلِبًا عزَّ نيله
فللنجم بُعْدٌ دون ما أنا ناشِدُ
وكم جنبّنتني عزّة النفس منهلًا
وما أنا إلا شاعرٌ ذو لبانِةٍ
ولي بين شدّقيّ الهريتين صارمُ
ولا عجبٌ إن عابني الشاعر الذي
فإن ابنَ بُرْدٍ وهو أكبرُ شاعرٍ
تعودت تصرّحي بكلِّ حقيقةٍ
إذا رمت نصحاء جئت بالنصح واضحا

^١ المفنّد: اللائم العائب.

^٢ الشدق الهريث: الواسع، وأصله من صفات الأسد. وصارم: لسان حاد مثل السيف يغمد؛ أي: يوضع في غمده وهو قرابه.

^٣ ابن برد: هو الشاعر بشار بن برد، شاعر فارسي، وحماد عجرد: شاعر أيضًا في عصر بشار كان مولعًا بهجائه، وكلاهما عاش في صدر الدولة العباسية.

وقد أبصر الداءَ الدفين الذي بنا
يقولون لي: استنهض إلى العلم قومنا
أما علموا أن الحياة بعصرنا
وما ينفع القول الذي أنت قائلٌ
فيا قومنا إن العلوم تجددت
وخلُّوا جمود العقل في أمر دينكم
وإن شئتم في العيش عزاً فأقدموا
وأمضوا سديد الرأي دون تردُّدٍ
ولا تقبلوا قيِّداً بقولٍ مُجرِّدٍ

* * *

وأطلالِ علم لا تزال شواخصاً
أراها فأبكي وهي رهنُ يدِ البلى
وما أنا سالٍ عهداً حين لم تسلْ^٤
فإن تكبروا تسديد دمعي لأجلها
ومعهدِ علم أسسته عصابةُ
شباب مشوا للمكرّمات بعزيمةٍ
سأستودع الأيام كلَّ قصيدةٍ
أقول لهم قولاً به أستزيدهم
أما وخلال فيكمُ عربيّةٍ
يسرُّ العلاء أن ينهض القوم للعلاء

^٤ يعني الشاعر أنه لطول تجربته وممارسته لشئون الحياة يستطيع أن يميز الصحيح من الفاسد ما لا يستطيعه غيره، وشبه نفسه بالهدهد الذي يرى الماء الغائر في الأرض لبعده نظره.

في منتدى التهذيب

أنشدها في حفلة افتتاح منتدى التهذيب في بغداد.

تريد لسي الأيام أن أتقيّدا
وتقعد بي دون المدى في خطوبها
كفى لصريح العقل قيّداً لمطلق
لعمر الهدى إنَّ النهى ليس من صوى
فما بال هذا العقل أمسى معطلاً
أُخْلِقْنَا كَرُّ الجديدين ضلّة
فيما منجدي فيما أريد من العلا
أعني على ما لو تحقّق كونه
تجهّز من الحسنى بما أنت قادر
وأحسن إلى مَنْ قد أساء تكرّماً
وحبّ الذي عاداك إن رمت قتله
وأطلب فيها أن أكون المجدداً
وغاية همّ النفس أن أبلغ المدى
من الناس يبغي أن يكون مقيدا
سواها لمن ضلوا الطريق إلى الهدى^١
لدينا كأنّ الله أوجده سدى؟!^٢
ولم نتقمّص فيهما ما تجددا؟!^٣
ولولا العلا لم أطلب الدهر منجدا
لما كان لي بل للأناسيّ مُسعدا
عليه ولا تقبل سوى العقل مرشدا
وإن زاد بالإحسان منك تمردا
فإني رأيتُ الحبّ أقتل للعدا

^١ النهى: العقل وأصله جمع نهية، وهي ما ينهى المرء عن القبيح. والصوى: جمع صوة، وهي العلامة تنصب في الطريق ليهتدي بها السائرون في الصحراء ونحوها. يريد أن العقل من معدن الهداية.

^٢ سدى: ضياعاً، بلا فائدة.

^٣ يخلقنا: يبيلنا. ويقال: فلان يفعل كذا ضلة، إذا لم يوفق للرشاد، وكأنه منصوب على الحال؛ أي: ضالاً. وتقمص الشيء: كالتقميص.

على كل حال أن تحبَّ من اعتدى
تحصَّل شرُّ ثالث وتولَّدا
مديدٍ وصار الشر في الناس سرمدًا
سوى أن يظلَّ السيف في الغمدا
أشار إلى أسيفه متهدِّدا
عسيرًا ففي هذا الزمان تمهدا
بها كل جمعٍ عدَّ في الحكم مفردا
على الخير تسليمي إلى الشر مقودا
لأضرب في الأيام للغدر موعدا
فعندي نفسٌ تتقي الذلَّ بالردى
لأصحت في المثريين أطولهم يدا
من العيش إلا ما استطيب وحُمدا
وإن لامني الأعمى عليها وفندا
شحا بقمٍ قد كان في العَضُّ أدرءا
وشتت شملي في هواه مبددا
عليَّ له في الحب أن أتشددا
تعلَّق ليلي العامريُّ مُعمدا
شدوت به في محفل القوم مُنشدا
خنا الطبع إلا أن يروا لي حُسدًا
ويمنعه ذبانه أن يغردا
جهولٌ تلهى أو حليمٌ تبددا
ولا مثل جدِّ المرء للمرء مُسعدا

فليس مضرًا في العلا بالذي أرى
إذا دُفع الشر القبيح بمثله
وأمتست دواعي الشر ذات تسلسل
فما الرأي عندي إن تمخَّضت الوغى
وأن تجمع الدنيا على ردِّ طامع
فإن كان هذا في العصور التي خلتُ
فإن جميع الأرض أمتست كبلدة
ولي خُلُقٌ يأبى عليَّ انطباعه
وأضرب عن جهل الجهول ولم أكنُ
إذا ما اتقت نفس رداها بذلة
ولو طلبت نفسي الغنى بامتهانها
ولكنني آليتُ ألا أذيقها
سجية نفس لم أحل عن عهودها
وما ضرني إذ عضني متشادقُ
ولي وطنٌ أفنيت عمري بحبه
ولم أر لي شيئاً عليه وإنما
تعلَّقته منذ الصبا مغرمًا كما
وسيرت فيه الشعَرَ فخرًا فطالما
وكم رام إسكاتي أناسٌ أبى لهم
ومن عجبٍ أن يعشق الروض بلبلُ
وما الناس إلا اثنان في الشرق كلُّه:
ولم أر مثل الفضل في الشرق مخفقًا

٤ المتشادق: يريد به المتشوق، وهو المتفاح الذي يملأ شذقيه بالكلام، وقيل: هو المستهزئ بالناس، يلوي شذقه بهم وعليهم، وتشدق في كلامه: فتح فمه واتسع. شحا الرجل فاه: فتحه، وشحا فوه: انفتح، متعدُّ ولازم، والباء زائدة أو على تضمينه معنى نطق بقم. والأرد: صفة من الدرد، وهو سقوط مقدم الأسنان.

تأمل قليلاً في بنيه مفكراً
فتبصر أيقاظاً يطيعون هجداً
وكم فارة في الشرق تحسب هرة
ألا رب شك قال لي وهو أسف:
فقلت له: أبشر بخير فإنه
لتشهد منهم للعجائب مشهدا
وتبصر أحراراً يخافون أعبدا
وكم عقق في الشرق سمي ههدا
أما أن للتهذيب أن يتبعدا؟[°]
ببغداد للتهذيب أسس منتدى

[°] تبعد: أي يصير ويتحول إلى بغداد.

في زحلة

قالها سنة ١٩٢٣ وأنشدها في حفلة أقيمت له وللريحاني في زحلة.

حَبِبت العِلا منذ الصبا حَبَّ شاعرٍ
أَأقدر فيها أن أصيخ لللائمِ
تقول ابنة الأقبام وهي تلومني
إلى كم تُجدُّ البين عني مسافرًا
وأسكتها عني نشيخٌ لم تزل
إلى أن تفانى الصَّبر فافتَرَّ مدمعي
ولا غرو أن أبكي أسَى من بكائها
وقلت لها: إني امرؤٌ لي لبانةٌ
تعوّدت أن لا أستنيمَ إلى المنى
وأن أمضيَ الهم الذي هو مُقلقي

وقمت إليها ساعياً سعيَ قادرٍ
وقد ملكت مني جميع المشاعر؟^١
وأدمعُها رقراقة في المحاجر:^٢
أما تستلذُّ العيش غيرَ مسافرٍ؟^٣
تردّده منها بأقصى الحناجر
كمدمعها عن لؤلؤٍ متناثر
فأعظم ما يشجي بكاء الحرائر
منوطٌ مداها بالنجوم الزواهر
وَألا أرى إلا بهيئةِ ثائر
بطيِّ الفيافي أو بخوض الدياجر^٤

^١ أصاخ له: استمع وأنصت.

^٢ رقراقة: جائلة متحركة. والمحاجر: جمع محجر، وهو ما دار بالعين من العظم.

^٣ تجد البين سفرًا بعد سفر.

^٤ أمضى همه: نفذ ما عزم عليه وهم به. وطي الفيافي: قطع الصحاري، والفيافي: جمع فيفاة. والدياجر:

جمع ديجور، وهو الظلمة، وأصله: الدياجير.

أما تَرَيْنَ الوجّهَ مِنِّي شاحبًا
ولست أبالي أنني عادم الغنى
ذريني أزرُ في هُضْب لبنان أربُعًا
بحيث أرى تلك الليوث خوادِرًا
ليوُثُ إذا ما عبّست في مُلمّةٍ
وألقت جيوش الفاخرين سلاحها
فأكرم بلبنان مَقْرًا لنابه
ألا إنما لبنان في الأرض عاهل
وزحله في لبنان تاجُ لرأسه
وما هي إلا روضةٌ أنبتت له
أزحلهُ إني تاركُ فيك مُهجتي
فنشكرك الشكر الذي أنت أهله
وفاء امرئٍ ما عودَ الغدرَ نفسه
ومن عجبٍ أن الشؤيعرَ لامني
ومَنْ كان مثلي شاعرًا لا تسوءه
على أنني من عاذريه وإن يكن
وكم في رُبا لبنان من ذي فصاحةٍ
ومن أهل آدابٍ كشارقة الضحى

لكثرة ما عرّضته للهواجر^٥
إذا كان جدّي في العلا غير عاثر
تعالّت بحيث العز مُرخی الضفائر
تسارق أَلحاظًا عيون الجآذر
تبسمت الدنيا تبسّم ناصر
إذا خفقت راياتها بالمفاخر
ومأوى لمنكود ومهدى لحائر
تبوّأ عرشًا من حليل المآثر
قد ازدان من أبنائها بالجواهر
أزاهيرٍ من تلك الحسان الغرائر^٦
تعاطيك من بعدي محبة شاكر
طوال الليالي خالداً في الدفاتر
ولا ودًّا إلا مُخلصًا في الضمائر
ببيروت لوم الشاتم المتجاسر
مقازعة جاءته من متشاعر^٧
لي الحق في عذري له غير عاذر
مُجيدٍ بيوم الحفل قرعَ المنابر!
ومن أهل علمٍ كالبحار الزواخر

^٥ الشحوب: الصفرة والتغير. والهواجر: جمع هاجرة وهي شدة الحر وسط النهار.

^٦ الغرائر: جمع غريرة، وهي التي لم تجرب شئون الحياة لنعمتها وحدثها.

^٧ مقازعة: مهاجاة ومسابة.

الفنون الجميلة

فاسلك إليه من الفنون طريقا
ممثل والتصوير والموسيقى
غصن الحياة بها يكون وريقا
منها الوجوه تلالؤا وبريقا
يمسي الغليظ من الطباع رقيقا
والعيش أخضر والزمان أنيقا
جعل الفنون من الحياة بروقا
زهر المسرة سوسنا وشقيقا
تدع الأسير من القلوب طليقا
وتفك ربقة من تراه ربيقا
إن كنت تشكو في الحياة الضيقا
فتحس منها قرقفا ورحيقا
إلا وكان لعارفيه عشيقا
ما كان وجه الحادثات طليقا

إن رمت عيشا ناعما ورقيقا
واجعل حياتك غضة بالشعر والت
تلك الفنون المشتهاة هي التي
وهي التي تجلو النفوس فتمتلي
وهي التي بمذاقها ومشاقها
تمضي الحياة طرية في ظلها
إن الذي جعل الحياة رواعدا
وأدرها غيث اللذائذ منبتا
وأقام منها للنفوس حوافزا
فتحل عقدة من تراه معقدا
تلك الفنون، فطر إلى سعة بها
وإذا أردت من الزمان مضاحكا
ما فاز قط بوصلها من عاشق
فهي ابتسامات الدنا وبغيرها

* * *

همُّ يجفُّ في الحلوق الريقا
في النفس تطفئ في حشاك حريقا
هرج الغناء خلاعة وفسوقا

رطب حياتك بالغناء إذا عرا
إن الغناء لمحدث لك نشوة
واترك مجادلة الذين توهموا

أفأنتَ أغلظ مهجة من نوقهم؟! فقد استحثُّوا بالحداءِ النُّوقا
أرقى الشعوب تمدناً وحضارة مَنْ كان منهم في الفنون عريقا
وأحطُّهم من إن سمعت غناءهم فمن الضفادعِ قد سمعت نقيقا
فالفن مقياس الحضارة عند مَنْ حازوا الرقيَّ، وناطحوا العيُّوقا

* * *

الشعر فنٌّ لا تزال ضرابه تتلو الشعور بألسن الموسيقى
ويجيدُ تقطير العواطف للورى فتحاله لقلوبهم أنبيقا

* * *

ومسارح التمثيل أصغر فضلها جعل الكليل من الشعور ذليقا^١
وإذا رأى فيها الوقائع غافل من نوم غفلته يكون مفيقا
تنمي الحميد من الخصال وتنتقي ما كان منها بالفخار خليقا
وتجيء من عبر الزمان بمشهد يُلقى خشوعاً في النفوس عميقا
ويكون منظره الرهيب ممهداً لمشاهديه إلى الصلاح طريقا

* * *

أما المصوّر فهو فنّانٌ يرى ما كان من صور الحياة دقيقا
يأتيك ريشته بشعرٍ صامت ولقد يفوق الشاعرَ المنطيقا^٢
وبدائع التّصوير من حسناتها أن يستفيد بها الشعور سموقا^٣
فهي الجديرة أن تكون ثمينةً وتكون أنفق من سواها سوقا^٤
إن الحياة على الكُدورة لم تجد مثل الفنون لنفسها راووقا^٥

^١ الكليل من السلاح: الذي لا يقطع. والذليق: الماضي الحاد.

^٢ المنطيق: الفصيح.

^٣ السموق: الارتفاع.

^٤ أنفق: أروج.

^٥ الراووق: المصفاة.

الحياة الاجتماعية والتعاون

أنشئت في حفلة تأسيس جمعية حماية الأطفال في بغداد سنة ١٩٣٨.

يعيش الناس في حال اجتماع
وتكثر للتعاون والتفادي
ولو ساروا على طرق انفراد
رأيت الناس كالبنيان يسمو
فيمسك بعضه بعضاً فيقوى
كذاك الناس من عَجَمٍ وَعُرْبٍ
قد اشتبكت مصالحهم فكلُّ
ولولا سعي بعضهم لبعضٍ
إذا ربُّ الحسام ثناهُ عجزُ
وإن قلم الأديب عراه زَيْغُ
وإن صِفرت يدٌ من رَيْع زرع

فتحدث بينهم طرق انتفاع
على الأيام بينهم الدواعي
لما كانوا سوى هَمَجٍ رِعايٍ^١
بأحجار تسيِّع بالسياع^٢
ويمنع جانبيه من التداعي
جميعاً بين مرعيٍّ وراعٍ
لكلِّ في مجال العيش ساعٍ
لعاشوا عيش عادية السباع^٣
تدارك عجزه ربُّ اليراع
تلافى زيغهُ سيفُ الشجاع
أعيد ثراؤها بيدِ صناع^٤

^١ الهمج والرعاي: السفلة من الناس، وأصل الهمج: صغار البعوض.

^٢ تسيِّع بالسياع: أي تطلي بما يطلي به البناء بعد بنائه، ليجمل شكله ومنظره.

^٣ عادية: أي مفترسة.

^٤ صفرت: أي صارت صفراً خالية. وريع الزرع: يريد ثمرته وفائدته التي تجنى منه. واليد الصناع:

الماهرة، وهي ضد اليد الخرقاء، وهي التي لا تحسن عملاً.

بذاك قضى اجتماع الناس لَمَّا
يساند بعضهم في العيش بعضًا
فتعلوا في ديارهمُ المباني
وتستعلي الحياة بهم فتمسي
وما مدنِيَّة الأَقْوامِ إلا
ولم يصلح فساد الناس إلا
تُشاد به الملاجئ لليتامى
وتُبنى للعلوم به مبان
وإلا فالشقاء لهم حليفٌ
ومما سرني أني أناجي
سعوا لحماية الأطفال منا
فقاموا بالذي يُعلي ويُسلي
وما هذي الحياة سوى صراعٍ
وما سادت شعوب الخلق إلا
إذا لم يُعَنَّ بالأطفال قومٌ
ولا تزكو المَناشئ في أناسٍ
وما هاج العواطف في فؤادٍ
فشكرًا للكرام وكل شكر

أن اعتصموا بحبل الإجماع
مساندة ارتفاع وانتفاع
وتخصب في بلادهمُ المراعي
من العيش الرغيد على يفاع^٥
تعاونهم على غُرِّ المساعي
بمال من مكاسبهم مُشاعٍ
وتُمتار المطاعم للجياح
تفيض العلم مؤتلق الشعاع
وما حملُ الشقاء بمستطاعٍ
رجالاً في الفخار ذوي ابتداعٍ
بما أوتوه من كرم الطباع
يصونون الضعاف من الضياع
يتمُّ بفوز مفتول الذراعٍ
بتهيئة البنين لذا الصراعٍ
فهضبة مجدهم رهن انصداع^٦
يرون الطفل من سقط المتاع^٧
كحال الطفل في زمن الرضاع
لِمَنْ عضدوا الكرام بمدِّ باع^٨

^٥ اليفاع: المرتفع.

^٦ انصداع: تشقق وتكسر.

^٧ سقط المتاع: أردأ وأرخص ما في البيت من متاع وأدوات كالمكنسة والكوز ونحوهما.

^٨ عضده يعضده، بضم الضاد في المضارع: قَوَّى عضده وشد أزره، يريد عاونوا بمد أيديهم بالمال.

في سبيل الوطنية

كتب إليه صديقه فخري البارودي وهو إذ ذاك في بيروت، يخبره بأنه ألف في دمشق شركة للمنسوجات الوطنية، ويطلب إليه أن يكتب فيها قصيدة يدعو بها القوم إلى مؤازرتها والانضمام إليها، فكتب القصيدة الآتية وأرسلها إليه في دمشق.

مَنْ كان في المجد المؤتَّل راغبًا
فخري الذي ابتكر المفاخر واغتنى
وأبى سوى غُرِّ المساعي إذ سعى
وبنى له بدمشق مجدًا طارفًا
إن كان محمود الفعال فإنه
نفع البلاد بماله وبسعيه
ورأى الشَّتات بها فقام موحدًا
ودعا الرجال بها فألَّفَ شركةً
تغني البلاد بسعيها عن غيرها
وتقوم بالعمل المفيد لأهلها
فليطلبنَّه بهمة البارودي
منهنَّ مفتخرًا بكل جديد
متشبِّئًا منها بكل مفيدٍ^١
من بعد مجد في دمشق تليد^٢
ورث المكارم عن أبٍ محمود
وبحسن رأي في الأمور سديد
فيها المساعي أيُّما توحيد^٣
ترمي إلى غرض أغر حميد
وتعيد عهد ثرائها المفقود
من نسج أرديةٍ لهم وبُرود

^١ غر المساعي: جمع أغر، وهو الذي في وجهه بياض.

^٢ الطارف والطريرف: المكتسب الحديث، والتالد والتليد: الموروث القديم.

^٣ الشَّتات: التفرق.

حتى تكون عن الأجانِب في غنى
أوما ترى أهلَ البلاد تقيدوا
العربُ يكسوهم ملابس هم بها
وتراه يسلخهم بمصنوعاته
هذي سفائَنهم تروح وتغتدي
فكأنما هي لامتصاص دماننا
حتى متى نشقى ليسعد غيرنا
ويجانِب الوطني من أشيائنا
إن البلاد لتشتكي من أهلها
يا سادة الأوطان لستم سادة
أفسيدُ مَنْ عاش وهو لغيره
إن السيادة تستدير مع الغنى
لا يستقلُّ بسيفه الشعب الذي
مَنْ كان محلول العرى في ماله
يا قومنا أنتم كغارس كرمة
كم تزرعون بأرضكم ولغيركم
فتبصّروا يا قوم في أحوالكم
مَنْ شاء منكم أن يُعزَّ بلادهُ

وتعيش غيرَ أسيرة التقليد
للغرب من حاجاتهم بقيود؟
يعرون من مال لهم ونقود
سلخَ الشياهِ فهم بغير جلود
ببضائع لم تحصَّ بالتعديد
بعض المحاجم أو كبعض الدود^٤
وتذلُّ القربى لعزِّ بعيد؟!
ولو أنّه من أحسن الموجود؟!
وتقول قول الرازح المجهود:^٥
ما عشتم من فقركم كعبيد
في حاجة؟! بل ذاك عيش مسود^٦
في حالتي عدم له ووجود^٦
لا يستقلُّ بنقده المنقود^٧
وجب انحلال لوائه المعقود
وسواه منها قاطف العنقود
مما زرعتم حبُّ كل حصيد!
وتنبَّهوا من غفلة ورقود
فليسع سعي معزّها البارودي

^٤ المحاجم: جمع محجم، وهو كأس صغير يسحب به الدم من الإنسان. والدود: هو العلق الأسود، يستعمل كالمحجم لامتصاص بعض الدم من الجسم.

^٥ الرازح المجهود: هو الذي لحقه الإعياء من حمل ثقيل.

^٦ يريد أن المرء لا يوصف بأنه سيد إلا إذا استغنى عن غيره، فأما إذا احتاج إلى غيره فهو عبد له، وقد قيل: «استغن عن شئت تكن أميره، واحتج إلى مَنْ شئت تكن أسيره.»

^٧ يريد أن الاستقلال الاقتصادي للبلاد ينبغي أن يقدم على الاستقلال السياسي.

في المدرسة: دار التفيض

قد أقيمت للطالبين منارا
جعلوا العلم للحياة مدارا
من طريق العلوم ثوبًا معارا
ردّ ليل الجهل المميت نهارا
فأرإل لنكتب الأسفاراً؟!^١
م فجاجًا وكم شققنا بحارا!
وركبنا لأجله الأخطارا
إذ لبسنا الصبر الجميل شعارا
م إذا كانت النفوس كبارا
هل ملكنا بغيرها الأقطارا?^٢
هل عمرنا بغيره الأمصارا؟
هل طلبنا بغيرهن فخارا؟
هل غسلنا بغيرهن العاراً؟
هل رضينا تحت النجوم قراراً؟

نعمتِ الدار للتفويضِ دارا!
هي دارٌ ينتابها ولد قوم
نحن قوم نرى المفخر إلا
ما قصدنا بسلنا السيف إلا
هل شدنا الرحال في الأرض للأس
كم طوينا من قبل في طلب العـ
واقتمنا لأجله كلّ هول
ولقد هانت النوائب فيه
إنما تصغر الخطوب لدى القو
سل بنا العلم والفنون جميعاً
سل بنا العدل في جميع الرعايا
سل بنا الغرّ من كبار المساعي
سل بنا هذه الدماء الدوامي
سل بنا هذه النجوم الدراري

^١ الأسفار الأولى: جمع سفر بفتح الفاء، والثانية: جمع سفر بكسر السين وسكون الفاء، وهو الكتاب.

^٢ سل بنا: سل عنا، وفي الكتاب العزيز: ﴿فَأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا﴾.

كم رفعنا للعلم في الأرض برجًا
لا يكن منك في الذي قلت شكُّ
يعلم الله ذو الجلالة أنا
إنما هذه المدارس روضٌ
تتغذى بها النفوس غذاء
جلّ فعلاً إكسيرها المتعالي
يدخل الناشئون فيها من النا
ربّ نفس كدّرهم قد جلاها الـ
نضرت هذه المدارس روضاً
تمنح العاجز الضعيف اقتداراً
كانت الناس في القديم عبيداً
فعليكم فيها بتحصيل علمٍ

وبنينا له كغمدان دارا!
وإذا شئت فانظر الآثارا
لسوى الله ما رجونا وقارا
ينبت المجد والعلا والفخارا
هو ينمي العقول والأفكارا
كيف يجلو القلوب والأبصارا؟!
س نحاساً ويخرجون نضارا
علم حتى أعادها دينارا
من بني القوم منبتاً أزهارا
موشكاً أن يغالب الأقدارا
وبها اليوم أصبحوا أحرارا
يرغد العيش، يسعد الأعمارا

المدارس ونهجها

أنشئت في حفلة وضع الحجر الأساسي لبناية مدرسة التفيض الأهلية التي أقيمت عصر ١٨ كانون الثاني سنة ١٩٢٩.

أبنوا المدارس واستقصوا بها الأملأ
جودوا عليها بما درت مكاسيكم
إن كان للجهل في أحوالنا عللٌ
سيروا إلى العلم فيها سير معتزمٍ
لا تجعلوا العلم فيها كل غايتكم
هذي مدارسكم شروى مزارعكم
لا تتركوا الشوك ينمو في منابتها
وأسسوها على الأعمال قائمة
يلقى بها النشء للأعمال مختبراً
وأمطروا روضها علماً ومقدرة
فتنبت العالم الفنان مخترعاً

حتى نطاول في بنيانها زحلا
وقابلوا باحتقار كل من بخلا
فالعلم كالطب يشفي تلكم العلالا
ثم اركبوا الليل في تحصيله جملا
بل علموا النشء علماً ينتج العملا^١
فأنبتوا في ثراها ما علا وغلا^٢
أعني بذلكم الأمواء والنحلا
ممهدين إلى المحيا بها سبلا
وللطباع من الأدران مغتسلا
حتى تفتح من أزهارها الأملأ
وتنبت الفارس المغوار والبطلا

^١ يريد لا توجهوا كل اهتمامكم إلى التعليم القولي النظري، بل وجهوا عنايتكم إلى الشئون العملية، كالعلوم التطبيقية التي تفيد في ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وما إليها.

^٢ شروى: مثل.

وتنبت الحارس الفلّاح مزدرعًا
واسقوا المتلمذ فيها خمرٍ مكرمةٍ
حتى إذا ما غدا خريجها طربًا
ربوا البنين مع التعليم تربية
وثقفوهم بتدريبٍ وتبصرةٍ
وجنبوهم على فعلٍ معاقبةٍ
إن العقاب يزيد النفس شرّتها
بل أنشئوا ناشئ الأحداث وهو على
بحيث يمشي إذا شأنته شائنة
من يترك الشرّ خوفًا من معاقبةٍ
فجيّشوا جيش علم من شبيبتنا
إن قام للحرث ردّ الأرض مُمرعةً
وإن غزا مستظلاً ظلّ رايته
إننا لمن أمةٍ في عهد نهضتها
هذا هو العلم لا ما تأدبون له
ماذا تقولون في نقدي مناهجكم
وأبي نفع لمن يأتي مدارسكم
فأجمعوا الرأي فيما تعلمون به
ثم انهجوا في بلاد العرب أجمعها
حتى إذا ما انتدبنا العرب قاطبة

وتنبت المدرة المنطيق مرتجلا
عن خمرة الكرم تمسي عنده بدلا
من عزة النفس خيل الشارب الثملا
يمسي بها ناطق الأخلاق مكتملا
ثقافة تجعل المعوج معتدلا
إن العقاب إذا كرّته قتلا
وليس ينكر هذا غير من جهلا
حبّ الفضيلة في محياه قد جبلا
من فعله احمرّ منها وجهه خجلا
فليس يُحسب ذا فضل وإن فضلا
عرمرمّا تضرب الدنيا به المثلا
أو قام للحرب دكّ السهل والجبلا
هزّ البلاد وأحيا الأعصر الأولا
بالعلم والسيف قبلا أنشأت دولا
مما تكون به عقباكم الفشلا
وقد كفيتكم التفصيل والجملا؟
إن كان يخرج منها مثلما دخلا!
ثم اعملوا بنشاط ينكر الملا
نهجًا على وحدة التعليم مشتملا
كنا كأنا انتدبنا واحدًا رجلا

العلم والإجازة فيه^١

إِنَّ مَنْ حَازَ فِي الْعُلُومِ إِجَازَهُ
وخلِيقٌ بعيثَةٌ مرتضاهُ
إنما هذه الإجازة صَكُّ
بِيدِ المرءِ ضامنٌ إعزازه
وهي تعويذةٌ له من عيون
بالمساوي همَّازةٌ غمَّازه
فهنيئًا لِمَنْ أُجِيزَ وشكرًا
للذي في علومه قد أجازَه

* * *

معهدُ العلم وهو حِرْزٌ يفوق الـ أبلقَ الفردَ منعةً وحرازه^٢

^١ الإجازة: هي الشهادة التي تمنحها المدارس والمعاهد للطلاب الذين أتموا دراستهم كلها أو بعضها وسميت بذلك؛ لأن شيوخ العلم من سلف المسلمين كانوا يجيزون المنتهين من الطلاب برواية مروياتهم وقراءة مؤلفاتهم، لأنهم أصبحوا أهلاً لذلك، وكان الطلاب يعتزون بشهادة أستاذيهم لهم، ويذكرونها في تراجمهم وتواريخ حياتهم.

^٢ الأبلق الفرد: حصن معروف للسَّموعِ بنِ عادِياءِ اليهودي بأرض تيماء من بلاد العرب، قال فيه الشاعر:

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعز على مَنْ رامه ويطول

تَلَجَأُ النَّاسُ فِي الْحَيَاةِ إِلَيْهِ
 حَبِذَا الْعِلْمُ يَكْسِبُ الْمَرْءَ عِزًّا
 فِي نَفُوسِ الَّذِينَ لَمْ يُرْزَقُوهُ
 إِنَّمَا الْعِلْمُ مِنْ مَعَاجِزِ عَيْسَى
 صَاحِبِ الْعِلْمِ يَرْكَبُ الْمَجْدَ طَرْفًا
 وَيَهْزُ الدُّنْيَا رَجَاءً وَخَوْفًا
 نَحْنُ سَفَرٌ وَمَا الرُّوَا حِلُّ وَالزَّا
 كِلٌ مَنْ لَمْ يُعِدَّهُ لِاجْتِيَازِ
 إِنْ عَقَلَ الْفَتَى لِيَصْبِحَ بِالْعِلْمِ
 وَالطَّبَاعِ الْعَرَجَاءِ فِي كُلِّ شَخْصٍ
 أَلْغَزَ الدَّهْرَ فِي الْحَقَائِقِ لَكِنْ
 وَإِذَا الْأَمْرُ قَدْ غَشَتْهُ الْغَوَاشِي

هَرَبًا مِنْ جِهَالَةٍ وَخَازِهِ
 وَيَقِيهِ فِي عَيْشِهِ إِعْوَاذِهِ
 حَسْرَاتٍ وَفِي الْقُلُوبِ حَزَاذِهِ
 كَمْ جَهَوْلٌ أَحْيَاهُ وَهُوَ جَنَازِهِ!
 جَاعِلًا غَايَةَ الْعِلْمِ مَهْمَا زَهُ^٣
 بِيَدٍ مِنْ دَرَايَةِ هَزَاذِهِ
 دُ سَوَى الْعِلْمِ، وَالْحَيَاةِ مَفَاذِهِ^٤
 لَمْ تَيْسِرْ بِيَدِ النَّجَاحِ اجْتِيَازِهِ
 مَ رَزِيئًا بِكَفِّ مَنْ قَدْ رَاذِهِ^٥
 تَقْتَضِي مِنْ ثِقَافَةِ عُكَازِهِ
 أَفْهَمَ الْعِلْمِ أَهْلَهُ أَلْغَاذِهِ
 ضَمَّنَ الْعِلْمَ لِلوَرَى إِبْرَاذِهِ

* * *

كَانَ لِلْعِلْمِ فِي الْقَدِيمِ طَرِيقٌ
 فَجَرَى الْيَوْمَ فِي طَرِيقٍ جَدِيدٍ
 هُوَ صَيْدٌ وَلَمْ يَعُدْ يَجْعَلُ الْمَصْدُ
 قَدْ عَرَفْنَا حَقِيقَةَ الْقَوْلِ فِيهِ
 وَبَحَثْنَا عَنِ جَوْهَرِ الْحَقِّ فِيهِ
 بَلَّهَ إِطْنَابُ شَرْحِهِ بِقِيَاسِ

غَيْرِ رَحْبٍ يُشَقُّ أَنْ تَجْتَازَهُ
 جُعِلَ الشُّكُّ وَالْيَقِينُ طَرَاذِهِ
 طَاؤُ مِنْهُ غَيْرَ التَّجَارِيْبِ بَاذِهِ^٦
 وَتَرَكْنَا لِلْغَافِلِينَ مَجَاذِهِ
 فَبَلَّغْنَا دَفِينَهُ وَرَكَازِهِ^٧
 إِنْ فِي تَجْرِبَاتِهِ إِجْجَاذِهِ^٨

^٣ الطرف: الحصان الكريم. والمهماز: ما يحدث به الفرس على السير.

^٤ مفازة: صحراء يهلك فيها السائر الذي لم يستعد لها.

^٥ رازه: اختبره بيده ليعرف ثقله.

^٦ شبه العلم بصيد، وجعل التجربة كالبازي، وهو الصقر الذي يستعان به على الصيد.

^٧ الركاز: المعادن المدفونة في الأرض.

^٨ يقول: استعنا في عصرنا على تحقيق العلم بالتجربة الموجزة، واستغنينا بها عن الشرح الطويل، والقياس المنطقي النظري.

العلم والإجازة فيه

هو في الناس قدره متعالٍ
وإذا المُلْكُ لم يؤيِّده علم
وإذا العلم فاه يوماً بوعيدٍ
وإذا أنشط الجبان لحربٍ
قَلَمُ المرء في بلوغ المعالي
صاحب العلم في الأمور أمير
يبصر الخطب من هواديه حتى
فلهذا، نعم لهذا أهني
لم يطلُ صرْحُ إيفلٍ أنشازه^٩
فارتقب سلبه ورجَّ ابتزازه^{١٠}
ذهب اليأس أملاً إنجازه^{١١}
صال يرغو حماسة وحمازه
فائق في وغي الحروب جُرازه^{١٢}
قد غدا كل حادث جِلوازِه^{١٣}
يلتهي فيه مبصرًا أعجازه^{١٤}
كلَّ مَنْ حاز في العلوم إجازَه

^٩ صرْحُ إيفل، أو برج إيفل: بناء عالٍ جدًّا في فرنسا. والأنشاز: جمع نشز، وهو كل شيء مرتفع، ويقول:

إن قدر العلم وشرفه عالٍ جدًّا لا يساميه برج إيفل علوًّا.

^{١٠} يقول: إن المُلْكُ الذي لا يقوم على دعائم العلم لا يلبث أن يضيع ويسلب.

^{١١} إذا وعد العلم بتحقيق غرض، فلا بد أن يناله، وإن ظنه الناس مستحيلًا أو بعيدًا.

^{١٢} الجراز: السيف.

^{١٣} الجلواز: بمعنى الشرطي.

^{١٤} هواديه: أوائله ومقدماته.

العلم

إلى شبان الكلية الإنكليزية في القدس

إلا بعلم يَجِدُّ في طلبه
عيشًا أمينًا من سوء منقلبه
فراحة المرء من جنى تعبهِ
أضرب عن شهده وعن ضربه
كل المعالي تدور في قُطْبهِ
مصمِّم الرأي غير مضطربه
فالعالم أبقى للمرء من نشبه
فالعالم يغني النسيب عن نسبه
واجتنب الفخر غير مكتسبه
يسرح في لهوه وفي لعبه!
فقصّر الناس عن مدى حسبه!
يحلُّ بيتًا يكون في صَقْبهِ
لو كنَّ يُحسبن من قوى طُنْبهِ^١
بعد قليل يفضي إلى عطبه

لا يبلغ المرء منتهى أربه
فأو إلى ظلّه تعش رَغْدًا
واتعب له تسترخ به أبدًا
ولذة العلم، مَنْ تذوّقها
وإن للعلم في العلا فلگًا
فاسع إليه بعزم ذي جلد
وابذل له ما ملكت من نشب
لا تتكل بعده على نسب
واطرح المجد غير طارفه
ما أبعد الخير عن فتى كسل
كم رفع العلم بيت ذي ضعة
حتى تمنى أعلى الكواكب لو
وودت الشمس في أشعتها
وإن يسدّ جاهل فسؤدده

^١ الطنب: حبل تشد به الخيمة.

يرى امرؤ مجدّ جاهلٍ عجبًا لو صحَّ عقلاً لكفَّ عن عجبه
 كم كذب الدهر في فعائله وسؤدد الجاهلين من كذبه
 العلم فيضٌ تحيا القلوب به فامتَحَّ بسجَلِ الحياة من قُلبه^٢
 كل فخارٍ أسبابه انقطعت إلا فخارًا يكون من سببه
 للعلم وجهٌ بالحسن منتقب وسافر منه مثل منتقبه
 ما حسن وجه للفتى بمفخرة إن لم يؤيِّد بالحسن من أدبه
 ما أقدر العلم! إنَّ صيحتَه يمعن منها الخميس في هربه^٣
 مَنْ تَخَذَ العلمَ عُدَّةً لوغَى أغناه عن درعه وعن يَلْبِه^٤
 فانتدب العلم للخطوب فما خاب لعمرى رجاء منتدبه
 العلم كالنور بل أفضُّله ما أفقر النور أن يشبّه به!
 سقيًا ورعيًا لروض معهده وطالبيه وقارئى كتبه
 ما الناس إلا رُوَادُ نجعتِه وناشروه وكاشفو حُجْبِه
 وَمَنْ غدا هاديًا يعلِّمه وراح يشقى الجهول من وصبه
 ومعهدٍ أسست قواعده في بلد شفنى هوى عربه
 شيده للعلوم مدرسة مَنْ كَانَ نشر العلوم من دأبه
 قد غرَّدَ المجد في جوانبه فاهتَزَّ عطف الفخار من طربه^٥
 وأصبح العلم فيه مزدهرًا بكل ذاكى الذكاء ملتهبه
 بمثله في البلاد قاطبة يشفى عَقور الزمان من كَلْبِه^٦
 أضحت فلسطين منه مُمرعةً مذ جادها بالغزير من سُحْبِه^٧

^٢ السجل: الدلو. والقلب: جميع قليب، وهي البئر.

^٣ الخميس: الجيش؛ لأنه خمس فرق: قلب وجناحان، ومقدمة ومؤخرة. يمعن: يبالغ.

^٤ عدة الحرب: أدواتها. واليلب: الترسة أو الدروع من الجلود، أو جلود يخرز بعضها إلى بعض، تلبس على الرءوس خاصة.

^٥ العطف: الجانب.

^٦ شبه الزمان بالكلب العقور، وهو المصاب بالكلب، فإذا عض إنساناً عقره أي: أهلكه.

^٧ المرع: المخصب. جادها: أنزل بها المطر الجود الغزير.

العلم

تاھت به إلیاء فاخرةً علی دمشق الشام أو حلبه
شكرًا لبانيه ما أقام به شبَّانه القاطنون في قُبَّبه

دار الأيتام أو مدرسة شنلر في القدس

به تنسى تيتّمها اليتامى
يذمُّ لفقد والده الحِماما
إذا ما الدهر أفقده المقاما
عليه وعن أبيه أبا هماما
وتُحيي الليل فيه لكي يناما
وتطعم جسمه منها الطعاما
صغارًا قبل ما بلغوا الفطاما^١
فتخرجه لهم يفعًا غلاما
على علم فيخترق الزحاما
وشدَّ عليه من حزم حزاما

لدار شنلر في القدس فضل
ويحمده من الفقراء طفل
بها يجد اليتيم له مقامًا
يرى عن أمه أمًّا عطوفًا
تميت نهارها فيه ليحيا
فتُشرب نفسه حبُّ المعالي
وترأم كل مَنْ فجعوا بيتم
ويدخلها يتيم القوم طفلاً
عليماً بالحياة يسير فيها
وقد لبس الفضيلة وارتداها

* * *

وأستسقي لساكنها الغماما
إذا هو لم يكن إلا كلاما
لأبناء الأرامل والأيامى
مثوبة كل مَنْ صلّى وصاما

وقفت بها أعاطيها التحايا
وأشكر فضلها والشكر عجز
أدار شنلر لا زلت مأوى
أثابك مالِكُ الملكوت عنهم

^١ رثمت الأم ولدها: شمته وعطفت عليه.

ضمنت لهم رغيد العيش حتى
وجارَ الدهر معتدياً عليهم
إذا ما أبكت الدنيا يتيماً
لقد هوّنت رزء اليتيم حتى
وكاد إذا رأى مغناك راءٍ
ليمكتَ فيك مغتبطاً سعيداً
ويعلم كيف يدّرع المعالي
وما فقد المسيح الناسُ لَمَّا
فنبّت عن المسيح وقمت حتى
ولا عجب فقد جدّدت منه
شمخت على رُبا القدس اعتلاءً
ولحت بأفقها بدرًا منيرًا
ألا إنّ النجومَ بشُعرييها
هززت الطور فهو يكاد يمشي
وجاذبت الكرامة خير قبر
تُباهي القدس مكة فيك حتى
فلا برحت ربوعك عامرات

أخذت على الزمان لهم ذماما
فكنت لهم من الدهر انتقاما
أعدت بكاءه منه ابتساما
غفرنا للزمان بك الأثاما
يوذُ بأن يكون من اليتامي
ويكسب عندك الشرف الجساما^٢
ويعرف كيف يبندر المراما
أعدت لهم خلائقه الكراما
لقد شكر المسيحُ لك القياما
عواطف كان عمّ بها الأناما
فكنت لهن من شرف وساما
جلا من ليل أبؤسها الظلاما
لتحسد من مرابعك الرغاما^٣
إليك على تقدّسه احتراما
به دفن المسيح ومنه قاما
تفاخر فيك مشعرها الحراما
نسلُّ على الشقاء بها حُساما

^٢ الشرف الجسام: الجسيم.

^٣ الشعريان: الشعري العبور، والغميصاء؛ كوكبان مضيئان. والرغام: التراب.

الفقر والسقام

أَيُّ مَضْنَى يَمُدُّهَا بِاكَتْئَابٍ أَنَّهُ تَتْرَكَ الْحِشَا فِي التَّهَابِ
يَتَشَكَّى وَاللَّيْلَ وَحَفُّ الْإِهَابِ ضَمِنَ بَيْتَ جَثَا عَلَى الْأَعْقَابِ^١
صَفَعْتَهُ، فَمَالَ، كَفُّ الْخَرَابِ^٢
تَسْمَعُ الْأَذْنَ مِنْهُ صَوْتًا حَزِينًا رَاجِعًا فِي حِشَا الظَّلَامِ كَمِينًا
يَمَلَأُ اللَّيْلَ بِالدَّعَاءِ أَنْيْنَا رَبُّ كُنْ لِي عَلَى الْحَيَاةِ مَعِينًا
رَبُّ إِنْ الْحَيَاةِ أَصْلَ عَذَابِي^٣
وَجَعُ فِي مَفَاصِلِي دَقَّ عَظْمِي وَدِهَانِي وَلَمْ يَرُقَّ لِعُدْمِي^٤
عَاقَنِي عَنِ تَكْسُّبِي قَوْتَ يَوْمِي رَبُّ فَارْحَمْ فَقْرِي بِصَحَّةِ جِسْمِي
إِنْ فَقْرِي أَشَدَّ مِنْ أَوْصَابِي^٥
يَا طَبِيبًا وَأَيْنَ مِنْي الطَّبِيبُ؟! حَالُ دُونَ الطَّبِيبِ فَقْرٌ عَصِيبٌ^٥
لَا أَصَابَ الْفَقِيرَ دَاءٌ مَصِيبٌ إِنْ سَقَمَ الْفَقِيرَ شَيْءٌ عَجِيبٌ

^١ الوحف: الشعر الكثير الأسود. الإهاب: الجلد، يصف شدة ظلام الليل. جثا على الأعقاب: يريد أنه قارب

أن يتهدم.

^٢ كف: فاعل صفعت.

^٣ العدم: الفقر.

^٤ الأوصاب: الأمراض.

^٥ عصيب: شديد.

بطلت فيه حكمة الأسباب

* * *

رجلٌ معسرٌ يسمّى بشيرا كان يسعى طول النهار أجيرا
كاسباً قوته زهيداً يسيرا مالگًا في المعاش قلباً شكورا
راجياً في المعاد حسن المآب^٦
عالٌ أختاً حكتهُ خُلُقاً نزيهاً عانساً جاوز الزواج سنيها^٧
لزمت بيت أمها وأبيها مع أخيها تعيش عند أخيها
مثله في طعامه والشراب
كل يوم له زهاب ومأتى في معاش من كده يتأتى^٨
هكذا دأبه مصيفاً ومشتى فاعتراه داء المفاصل حتى
عاقه عن تعيُّشٍ واكتساب
بينما كان في قواه صحيحاً ساعياً في ارتزاقه مستميحاً^٩
إذ عراه الضنى فعاد طليحاً ورمته يد السقام طريحاً^{١٠}
جسمه من سقامه في اضطراب
بات يبكي إذا له الليل أوى بعيون من السهاد نشاوى^{١١}
فترى وهو بالبكا يتداوى قطرات من عينه تتهاوى
كشهاب ينقضُّ إثر شهاب^{١٢}
إنَّ سقمًا به وعُقمًا ألمًا تركاه يذوب يوماً فيوما
فهو حيناً يشكو إلى القسم عُدماً وهو يشكو حيناً إلى العدم سقما

^٦ أي أن ذلك المضمن الذي مرّ ذكره في أول القصيدة هو رجل معسر ... إلخ.

^٧ عالٌ أختاً: كفلها وكفأها معاشها. العانس: هي التي طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج.

^٨ يتأتى: يتهيأ.

^٩ مستميحاً: طالباً.

^{١٠} الطليح: المهزول.

^{١١} نشاوى: سكارى، جمع نشوان.

^{١٢} الشهاب: هو ما يُرى كأنه كوكب قد سقط.

باكيًا من كليهما بانتحاب
ظل يشكو للأخت ضعفًا وعجزًا إذ تعزیه وهو لا يتعزَّى
أيها الأخت عزَّ صبري عزًّا إن للداء في المفاصل وخزًا^{١٣}
مثل طعن القنا ووخز الحراب^{١٤}
قد تمادى به السقام وطالا وتراءى له الشفاء محالا
إذ قُلبًا به السقام استحالا كان هينًا فصار داء عضالا^{١٥}
ناشبًا في الفؤاد كالنُشاب^{١٦}

* * *

ظلم ملقى وأعوزته المطاعم موثقًا من سقامه بالأداهم^{١٧}
منفقًا عند ذاك بعض دراهم ربحتها من غزلها الأخت فاطم
قبل أن يُبتلى بهذا المصاب
قال والأخت أخبرته بأن قد كربت عندها الدراهم تنفذ:^{١٨}
أخبري السقم علُّه يتبعُد أيها السقم خلّ عيشي المنكد
لا تُعقني في عيشتي عن طلابي
مرّضيني شقيقتي مرّضيني وعلى الكسب في غدٍ حرّضيني
وإذا مسك الطوى فإرضيني أو على الناس للمبيعِ ارضيني^{١٩}
علّهم يشترونني مما بي
رام خبزًا والجوع أذكى الأوارا في حشاه فعلّته انتظارا
ثم جاءت بالماء تُبدي اعتذارا وهل الماء، وهو يطفئ نارًا

^{١٣} الوخز: الطعن غير النافذ برمح أو إبرة أو غير ذلك.

^{١٤} القنا: جمع قنّاء، وهي الرمح.

^{١٥} القلاب: داء القلب، داء عضال: شديد متعب غالب.

^{١٦} ناشبًا: عالقًا.

^{١٧} أعوزته المطاعم: احتاج إليها فلم يقدر عليها. موثقًا: مقيدًا. الأداهم: القيود.

^{١٨} كربت: كادت.

^{١٩} الطوى: الجوع.

يطفئُ الجوع ذاكياً في التهابٍ؟!
خرجتُ فاطمٌ إلى جارتِها وهي تُذري الدموع من مقلتيها
فأبانت برقّةٍ حالتِها من سَقامٍ ومن سَعارٍ لديها^{٢٠}
وشكت بعد ذا خلوّ الوطاب^{٢١}
فانثنت وهي بين ذلٍّ وعزٍّ تحمل التمر في يدٍ فوق خبز^{٢٢}
وبأخرى سمنًا وبعض أُرزٍّ منحوها به وذو العرش يجزي
مَنْ أعان الفقير حسن الثواب

* * *

ليلة تنشر العواطفُ ذُعرا في دجاها حيث السحاب اكفها^{٢٣}
ذا هزيمٌ يمجُّ في الأذن وقرا حين تبدي صوالج البرق تترى^{٢٤}
كهربائيّة سرت في السحاب
مدّ فيها ذاك المريض الأكفّا في فراش به على الموت أوفى^{٢٥}
طرفها كالسّها يبين ويخفي حيث يُغضي طرفًا ويفتح طرفا^{٢٦}
عاجزًا عن تكلم وخطاب
فدعته والعين تُذري الدموعا أخته وهي قلبها قد ريعا
يا أخي أنت ساكن أفجوعا؟ ساكت أنت يا أخي أم هجوعا؟^{٢٧}

^{٢٠} السعار بضم السين: شدة الجوع.

^{٢١} الوطاب: جمع وطب، وهو سقاء اللبن من الجلد، وخلو الوطاب كناية عن الفقر والحاجة.

^{٢٢} انثنت: رجعت.

^{٢٣} ذعرا: خوفًا. اكفهر: تراكم واشتدت ظلمته.

^{٢٤} الهزيم: الرعد وصوته. يمج: يلقي. الوقر: الصمم. صوالج: صولجان وهو ما تضرب به الأكرة، وصوالج البرق: هي الرياح التي تسوق السحب بشدة، فيحصل منه الاحتكاك الذي يولد البرق، فإن كان الاحتكاك أعظم حصل مع البرق صوت الرعد.

^{٢٥} أوفى: أشرف.

^{٢٦} السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته، يغضي: يغمض.

^{٢٧} الهمة للاستفهام والفاء عاطفة، وجوعًا: مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله من ساكت، وأصل العبارة: أفأنت ساكت جوعًا أم أنت ساكت هجوعًا؛ أي نومًا؟

فأشفني يا أخي برجع الجواب
 فرأت منه أنه لا يجيبُ فتدانت والدمع منها صبيبُ
 ثم أصغت وفي الفؤاد وجيبُ ثم هابت والموت شيء مهيبُ^{٢٨}
 ثم قامت بخشية وارتياب
 خرجت فاطمٌ من البيت ليلاً حيث أرخى الظلام سدلاً فسدلاً^{٢٩}
 وهي تبكي والغيث يهطل هطلاً مثل دمع من مقلتيها استهلاً
 أو كماءٍ جرى من الميزاب
 ربُّ أدرك باللطف منك شقيقي وامنع الغيث ربُّ عن تعويقي
 ومُرِّ البرق أن يضيءَ طريقي ببريقٍ يبديه إثرَ بريق
 فعسى أهتدي به في نهابي
 قرعت في الظلام باب الجار وهي تبكي الأسي بدمع جار
 ثم نادت برقةً وانكسار أمَّ سلمى ألا بحق الجوار
 فافتحي إنني أنا في الباب
 فأتتها سَعْدَى وقد عرفتها وعن الخطب في الدجى سألتها^{٣٠}
 ثم سارت من بعد ما أعلمتها تقتفيها وبنتها تبعتها
 فتخطين في الدجى بانسياب^{٣١}
 جئن والسُّحْبُ أقلعت عن حياها وكذلك الرعود قلَّ رغاها^{٣٢}
 حيث يأتي شبه الأنين صداها غير أن البروق كان ضياها
 مومضاً في السماء بين الرباب^{٣٣}
 فدخلن المحلَّ وهو مخيف حيث إنَّ السكوت فيه كثيف^{٣٤}

^{٢٨} الوجيب: الخفقان والرجفان.

^{٢٩} السدل: الستر.

^{٣٠} الخطب: الأمر.

^{٣١} الانسياب: الإسراع في المشي.

^{٣٢} الحيا: المطر. الرغاء: صوت الرعد.

^{٣٣} الرباب بفتح الراء: السحاب الأبيض الذي أراق ماءه.

^{٣٤} شبه كثرة السكون بجيش كثيف أو عظيم.

وضياءُ السراج نزر ضعيف وبه في الفراش شخص نحيف
 دبّ منه الحمام في الأعصاب^{٣٥}
 قالت الأخت أم سلمى: انظريه ثكلت روح أمه وأبيه^{٣٦}
 فرأت منه إذ دنت نحو فيه نَفَسًا مبطئ التردد فيه
 ثم قد غاله الردى باقتضاب^{٣٧}
 وجمت حيرة وبعد قليل رمقت فاطمًا بطرفٍ كليل^{٣٨}
 فيه حَمْلٌ على العزاء الجميل فَعَلَا صوت فاطمٍ بالعويل
 وبكت طول ليلها بانتحاب
 فاستمرّت حتى الصباح تُوالي زفرات بنارها القلبِ صالٍ^{٣٩}
 فأتاها ودمعها في انهمال بعض جاراتها وبعض رجال
 من صعاليك أهل ذاك الجناب^{٤٠}
 وقفوا موقفًا به الفقر ألقى منه ثِقَلًا به المعيشة تشقى
 فرأوا دمع فاطم ليس يرقا وأخوها ميّت على الأرض ملقى^{٤١}
 مُدْرَجٌ في رثايت الأثواب^{٤٢}
 فعدت فاطمُ تَرَنُّ رنيننا ببكاء أبكت به الواقفينا
 ثم قالت لهم مقالًا حزينًا أيها الواقفون هل ترحمونا
 من مُصابٍ دها وأي مصابٍ؟!
 أيها الواقفون لا تهملوه دونكم أدمعي بها فاغسلوه
 ثم بالثوب ضافيًا كفنوه وادفنوه لكن بقلبي ادفنوه

^{٣٥} الحمام: الموت.

^{٣٦} ثكلته أمه: فقدته.

^{٣٧} غاله: أهلكه. الاقتضاب: الاقتطاع والانتزاع.

^{٣٨} وجمت: سكتت من كثرة الغم والحزن.

^{٣٩} صال: محترق.

^{٤٠} الصعاليك: الفقراء، مفردها صعلك. الجناب: هو المكان القريب من محلة النوم.

^{٤١} ليس يرقا: لا يجف، وأصله يرقأ بالهمز فخفف.

^{٤٢} مدرج: مكفن. ورثايت الأثواب: البالي منها.

لا تواروا جبينه بالتراب
 بعد أن ظلَّ لافتقاده المال وهو مُلقى إلى أوان الزوال
 جاد شخص عليه بعد سؤال بريال وزاد نصفَ رِيال
 رجل حاضر من الأنجاب^{٤٣}
 كفنوه من بعد ما تمَّ غسلاً وتمشوا به إلى القبر حملاً
 فترى نعشهُ غداة استقلَّ نعش مَنْ كان في الحياة مقلًّا^{٤٤}
 دون سترٍ مكسَّر الأجناب
 ناحت الأخت حين سار وصاحت أختك اليوم لو قضت لاستراحت
 ثم سارت مدهوشةً ثم طاحت ثم قامت ترنو له ثم راحت^{٤٥}
 تسكب الدمع أيما تسكاب
 أيُّها الحاملوه لا مشيَّ ركُضٍ إن هذا يوم الفراق المُمِضِّ^{٤٦}
 فاسألوه عن قصده أين يمضي إنه قد قضى ولم يك يقضي
 واجباتِ الصبا وشرح الشباب^{٤٧}
 إن قلبي على كريم السجايا طاح واللَّه من أساه شظايا^{٤٨}
 قاتل الله يا ابن أمِّي المنايا أنا من قبلُ مُدُّ حسبت الرزايا
 لم يكن رزءٌ موتكم في حسابي
 إن ليلي وليس من راقديه كلما جاءني وذكَّرنيه^{٤٩}
 قلت والدمع قائلٌ لي: إيه! يا فقيداً أعاتب الموت فيه^{٥٠}

^{٤٣} الأنجاب: جمع نجب، وهو السخي الكريم.

^{٤٤} استقل: ارتفع. مقلًّا: فقيراً.

^{٤٥} طاحت: سقطت.

^{٤٦} الممض: الموجع المؤلم.

^{٤٧} شرح الشباب: أوله.

^{٤٨} طاح: معناها هنا ذهب. من أساه: من حزنه. شظايا: قطعاً، وهو جمع شظية، وتطلق على كل فلقة

من شيء.

^{٤٩} راقديه: النائمين فيه.

^{٥٠} إيه: كلمة يطلب بها استزادة الحديث.

ببكائي وهل يفيد عتابي؟!
رحتُ يوماً وقد مضت سنتان أتمشّي بشارع «المَيْدان»
مَشْيَ حيرانَ خطوهُ مُتَدَانٍ أثقلتُهُ الحياة بالأحزان^{٥١}
وسقته كأساً كطعم الصاب^{٥٢}
بينما كنت هكذا أتمشّي عرضتُ نظرة فأبصرتُ نعشا
بادياً للعيون غير مغشّي نقش الفقر فيه للحزن نقشا
فبدا لوح أبؤس واكتئاب
قلتُ سرّاً، والنعش يقرب مني: أيها النعش أنت أنعشتَ حزني
للأسى فيك حالة ناسبتني إن بدا اليوم فيك حزن فإني
أنا للحزن دائماً ذو انتساب
رحتُ أسعى وراءه مذ تعدّي مسرعاً في خطاي لم أَلْ جهداً^{٥٣}
مع رجالٍ كأنجم النعش عدّاً هم به سائرون سيراً مجداً^{٥٤}
فنراه يمر مرّ السحاب
مذ لَحَدْنَا ذاك الدفين وعدنا قلت، والدمع بلّ منّي رُدنا:٥٥
إن هذا هو الذي قد وعدنا فأبينوا من الذي قد لحدنا
فتصدّي منهم فتى لجوابي
قال: إن الدفين أخت بشير أخت ذاك المسكين ذاك الفقير
بقيت بعده بعيش عسير ويطرف باكٍ وقلب كسير
وقضت مثله بداء القلب
قلت: أقصِرْ عن الكلام فحسبي منك هذا فقد تزلزل قلبي
ثم ناجيت والضراعة ثوبي ربّ رحماك ربّ رحماك ربي^{٥٦}

^{٥١} متدَانٍ: متقارب.

^{٥٢} الصاب: شجر مر.

^{٥٣} تعدى: تجاوز.

^{٥٤} أي: عدد حاملي النعش كعدد أنجم بنات نعش، وهي سبعة.

^{٥٥} الرदन بضم الراء: أصل الكم.

^{٥٦} الضراعة ثوبي: أي وأنا لابس ثوب الضراعة.

رَبِّ رَشْدًا إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ
رَبِّ إِنْ الْعِبَادَ أضعفُ أَنْ لَا يَجِدُوا مِنْكَ رَبًّا عَفْوًا وَفَضْلًا
فَاعْفُ عَنْ أَخذِهِمْ وَإِنْ كَانَ عدلًا أَنْتَ يَا رَبُّ أَنْتَ بِالْعَفْوِ أَوْلَى
مِنْكَ بِالْأخذِ وَالْجِزَا وَالْعِقَابِ
قَدْ وَردْنَا وَالْأَرْضَ لِلْعِيشِ حَوْضٌ وَاحِدٌ كَلْنَا لَنَا فِيهِ حَوْضٌ
فَلِمَاذَا بِهِ مَشُوبٌ وَمَحْضٌ؟ عِظَةٌ حَكْمَةُ الإِلهِ، فبِعِضٍ^{٥٧}
فِي نَعِيمٍ وَبِعِضْنَا فِي عَذَابٍ
أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ كَمْ قَدْ ظَلَمْتُمْ نِعَمَ اللّهِ حَيْثُ مَا إِنْ رَحِمْتُمْ
سَهْرَ البَائِسِينَ جَوْعًا وَنَمْتُمْ بِهِنَاءٍ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ طَعَمْتُمْ
مِنْ طَعَامٍ مَنْوَعٍ وَشَرَابٍ
كَمْ بَدَلْتُمْ أَمْوَالَكُمْ فِي المِلاهِى وَرَكِبْتُمْ بِهَا مَتُونَ السَّفَاهِ!
وَبَخَلْتُمْ مِنْهَا بِحَقِّ الإِلهِ أَيُّهَا المَوْسِرُونَ بَعْضُ انْتِبَاهِ!
أَفْتَدِرُونَ أَنْكُمْ فِي تَبَابٍ؟^{٥٨}

^{٥٧} مشوب: مخلوط. محض: خالص من الكدورة.

^{٥٨} التباب: الخسران.

تنبيه النيام

أما آن أن يغشى البلاد سعودها
متى يتأتى في القلوب انتباهها
أما أسدٌ يحمي البلادَ غضنفرٌ؟
برئتُ إلى الأحرار من شرِّ أمةٍ
سقى الله أرضًا أمحلت من أمانها
جرى الجور منها في بلادٍ وسيعه
ويذهب عن هذي النيام هجودها؟
فينجابَ عنها رينها وجمودها؟^١
فقد عاث فيها بالمظالم سيدها^٢
أسيرة حكام ثقال قيودها
وقد كان رواد الأمان ترودها^٣
فضاقت على الأحرار ذرعًا حدودها

* * *

عجبتُ لقومٍ يخضعون لدولةٍ
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها
إذا وُلّيت أمرَ العباد طغاتها
وأصبح حرُّ النفس في كل وجهةٍ
وصارت لئام الناس تغلو كرامها
يسوسهم بالموبقات عميدها
وأموالها منهم ومنهم جنودها
وساد على القوم السراة مسودها
يُردُّ مهانًا عن سبيل يريدها
وعاب لبيدًا في النشيد بليدها^٤

^١ الرين: ما غطى على القلب بحيث يحجب عنه رؤية الحقيقة.

^٢ عاث فيها: أفسدها. السيد الذئب.

^٣ الرواد: جمع رائد، وهو الرسول الذي يرسله القوم لينظر لهم مكانًا ينزلون فيه، يقال منه: راد المكان

يروده، يرتاده؛ بمعنى طلبه.

^٤ لبيد: عَلَمُ الشاعر المشهور.

فما أنت إلا أيُّها الموت نعمةٌ يعزُّ على أهل الحفاظ جودها^٥

* * *

ألا إنما حرّية العيش عادةٌ مُنى كل نفسٍ وصلُّها ووفودُها
يُضيء دجنَّاتِ الحياة جبينها وتبدو المعالي حيث أطلع جيدها^٦
لقد واصلت قومًا وختت وراءها أناسًا تمنى الموت لولا وعودها
وقد مرضت أرواحنا في انتظارها فما ضرَّها، وا لهفتا! لو تعودها^٧

* * *

بني وطني ما لي أراكم صبرتمُ على نُوبِ أعيا الحُصاة عديدها؟!
أما أدكم حمل الهوان فإنَّه إذا حُمّلته الراسيات يئودها؟!^٨
قعدتم عن السعي المؤدّي إلى العلا على حين يُزري بالرجال قعودها
ولم تأخذوا للأمر يومًا عتاده فجاءت أمورٌ ساءَ فيكم عتيدها^٩
ألم ترُوا الأقومَ بالسعي خلّدت مآثر يستقصي الزمانَ خلودها
وساروا كرامًا رافلين إلى العلا بأثواب عزٍّ ليس يبلى جديدها

* * *

قد استحوذت، يا للخسار! عليكمُ شياطينُ إنسٍ صال منكم مريدها^{١٠}

^٥ أهل الحفاظ: المحامون عن عوراتهم، والمدافعون دون أن يصل إليهم الضيم.

^٦ أطلع عنقه: مده متطاولًا.

^٧ تعودها: تزورها من عيادة المريض.

^٨ أدكم: أثقلكم. يئودها: يثقلها.

^٩ العتاد: العدة لأمر ما تهيئه وما أعد من سلاح ودواب وآلة حرب. العتيد: الحاضر المهيأ، يقول: لم تستعدوا للركي فيما مضى، فجاءكم يوم ساءكم فيه حاضركم، ويعني بالحاضر ما كانت تقاسيه الأمة من جور الحكام واستبداد الطغاة، وهو يصلح لحالتنا الحاضرة أيضًا، ويكون حاضرنا السابق ماضيًا، وحريرتنا الآن حاضر لنا، فإنها جاءتنا على غير استعداد منا لها بما أفسد الظالمون من نفوسنا فأسأنا استعمالها ولم نحسن فهمها بسبب ما يوحيه المتقهقرون إلى زعانف القوم وما ييئونه في نفوسهم من الشرور، تارة باسم الوطنية، أصلح الله الأحوال وجعل كيد الرجعيين في ضلال.

^{١٠} المرید: الخبيث المتمرد الشرير.

تنبيه النيام

وما أتقدت نار الحميَّة منكمُ
ولولا اتحاد العنصرين لَمَا غدا
إذا جاهلٌ منكم مشى نحو سُبيَّةٍ
كأنَّكم المعزَى تهاوَيْنَ عندما
وما ثلَّةٌ قد أهملتْها رُعاتها
فباتت ولا راعٍ يحامي مراحها
بأضيغٍ منكم حيث لا ذو شهامةٍ
لقد اتحدت فاستطال خمودها^{١١}
من النار يذكو لو علمتم وقودها
مشى جمعكم من غير قصدٍ يريدها^{١٢}
نزا فنزت فوق الجبال عتودها^{١٣}
بمأسدةٍ جاعت لعشر أسودها^{١٤}
فرائس بين الضاريات تبيدها
يذب الرزيا عنكم ويذودها^{١٥}

* * *

أطمع هذي الناس أن تبلغ المنى
فهل لمعت في الجو شعلة بارق
وأدخنة النيران لولا اشتعالها
وإن مياها الأرض تعذب ما جرت
ومن رام في سوق المعالي تجارةً
ولم تور في يوم الصدام زنودها^{١٦}
وما ارتجست بين الغيوم رعودها؟^{١٧}
لما تم في هذا الفضاء صعودها
ويفسدها فوق الصعيد ركودها
فليس سوى بيض المساعي نقودها

^{١١} أي إن نار حميتكم لم تتقد لأنكم لم تتحدوا، فإن اشتعال النار لا يكون إلا باتحاد العنصرين: الأكسجين والكربون.

^{١٢} السبة: العار.

^{١٣} نزا: وثب. العتود: الجدي الذي استكرش، أو هو ما رعى وقوي وأتى عليه حول؛ يريد بذلك أنه إذا قام قائم منا بأمر نتابعه عليه من غير أن نعلم ما هو ولا أن ندري أكانت عاقبته شرًا أم خيرًا؟

^{١٤} الثلة بفتح الثاء: الجماعة الكثيرة من الغنم، وأما الثلة بضم الثاء: فهي الجماعة من الناس. المأسدة: المكان الذي تكثر أو ترى فيه الأسود.

^{١٥} يذب: يدفع، ومثله يذود.

^{١٦} أورى الزند: أخرج ناره، والزند: العود الذي يقتدح به النار، والأسفل يقال له: زنده.

^{١٧} ارتجست السماء: رعدت، وارتجست البناء: رجف وتحرك حركة سمع لها صوت.

سوء المنقلب

بغدادُ حسبك رقدَةٌ وسُباتٌ
ولَعنتُ بك الأحداثَ حتى أصبحت
قلبَ الزمانِ إليك ظهرَ مجنَّهٍ
ومن العجائبُ أن يمسَّكُ ضره
إذ من ديالَةَ والفراتِ ودجلةٍ
إن الحياةَ لفي ثلاثة أنهرٍ
قد ضلَّ أهلك رشدهم وهل اهتدى
قومٌ أضاعوا مجدهم وتفرَّقوا
لقد استهانوا العيشَ حتى أهملوا
يا صابرين على الأمور تسومهم

أوما تمضُّك هذه النكباتُ؟^١
أدواء خطبك ما لهنَّ أساةُ^٢
أفكان عندك للزمان تراتُ؟^٣
من حيث ينفع لو رعتك رعاةُ^٤
أمست تحلُّ بأهلك الكريات
تجري وأرضك حولهنَّ موات
قومٌ أجاهلهم هم السَّروَاتُ؟^٥
فتراهمُ جمعًا وهم أشتات
سعيًا مغبَّةً تركه الإعناتُ^٦
خسفًا على حين الرجالُ أباةُ^٧

^١ السبات: النوم. تمضك: توجعك.

^٢ الأحداث: النوازل. أدواء: جمع داء. أساة: أطباء.

^٣ المجن: الترس، وقلب له ظهر المجن: أي صارحه بالعدواة، ترات: عداوات، وهي جمع ترة.

^٤ رعاة: جمع راع.

^٥ السروات: السادة والرؤساء.

^٦ المغبة: العاقبة. الإعنات: الإذلال والإيقاع في الشدة وفي أمر يخاف منه.

^٧ سامه الخسف: أذله وأهانته. أباة: لا يرضون الضيم والإهانة.

لا تهملوا الضرر اليسير فإنه
فالنار تلهب من سقوط شرارة
لا تستنيموا للزمان توكلًا
فإلى متى تستهلكون حياتكم
تالله إن فعالكم بخلافه
أفتزعمون بأن تترك السعي في
إن صحّ نقلكم بذاك فبيئنا
لم تلقّ عندكم الحياة كرامةً
شقيت بكم لَمَّا شقيتم أرضكم
وجهلتم النهج السويّ إلى العلا
بالعلم تنتظم البلاد فإنه
إن البلاد إذا تخاذل أهلها
تلك الرّصافة والمياه تحفّها
سالت مياه الواديين جوارفًا
فتهاجم الماءان من ضفتيّهما
حتى إذا اتّصل الفرات بدجلة
زحفت جيوش السيل حتى أصبحت
فسقت بيوت الكرخ شرّ مقييٍ

إن دام ضاقت دونه الفلوات^٨
والماء تجمع سيله القطرات
فالدهر نزأً له وثبات^٩
فوضى وفيكم غفلةً وأناة^{١٠}
نزل الكتاب وجاءت الآيات^{١١}
هذي الحياة توكلٌ وثقاة؟!^{١٢}
أو قام عندكم الدليل فهاتوا
في حالة فكأنكم أموات
فلها بكم ولكم بها غمرات^{١٣}
فترادفت منكم بها العثرات
لرقيّ كل مدينة مرقاةً
كانت منافعها هي الآفات
والكرخ قد ماجت به الأزمت
فطفحن والأسداد مؤتكلات^{١٤}
فتناطحا وتوالت الهجمات
وتساوت الوهدات والربوات
بالكرخ نازلة لها ضوضاةً
منها فقاعت أهلها الأبيات^{١٥}

^٨ الفلوات: الأراضي المتسعة.

^٩ نزاء: وثاب.

^{١٠} الأناة: الحلم.

^{١١} الفعال: بفتح الفاء، بمعنى الفعل.

^{١٢} الثقاة: التقوى.

^{١٣} الغمرات: الشدائد.

^{١٤} الأسداد: جمع سد. مؤتكلات: أكل بعضها بعضًا.

^{١٥} شبه الماء الداخل إلى البيوت بما يشربه الإنسان من المقيئات، فكما يخرج الإنسان ما في جوفه بعد شرب المقيء، فكذلك البيوت أخرجت ما فيها من السكان بعد دخول الماء.

واستنقعت فيها المياه فطحلت
حتى استحال الكرخ مشهداً أبؤس
طرقاته مسدودةً ودياره
يا كرخ عزَّ على المروءة أنه
فلئن أماتك السيول فإنما
بالمكث ترغو تحتها الحمات^{١٦}
تبكي به الفتیان والفتيات
مهدومةٌ وعراضه قذرات
لجج المياه عليك مزدحمات
أواجهنَّ عليك ملتطمات

* * *

من مبلغ المنصور عن بغداده
أمست تناديه وتندب أربُعاً
وتقول: يا لأبي الخلائف لو ترى
لغدوت تنكرني وتبرح قائلًا
أين البروج بنيتهاً مشيدةً
أين الجنان بحيث تجري تحتها الـ
أترى أبو الأمناء يعلم بعده
لا دجلةُ يا للرزية دجلةُ
كان الفرات يمدُّ دجلةَ ماؤه
إذ بين دجلة والفرات مصانع
يا نهر عيسى أين منك مواردُ
ماذا دهى نهر الرفيل من البلى
إذ قصر عيسى كان عند مصبِّه
خبراً تفيض لمثله العبراتُ
طمست رسوم جمالها الهبوات
أركان مجدي وهي منهدمات!^{١٧}
بتعجبٍ: ما هذه الخربات؟!
أين القصور علت بها الشرفات؟!
أنهارُ يانعة بها الثمرات؟!
بغداد كيف تروعها النكبات؟
بعد الرشيد ولا الفرات فرات
بجداولٍ تُسقى بها الجنات
تفتُر عن شنبٍ بها السنوات^{١٨}
عذبت وأين رياضك الخضلات؟^{١٩}
حيث المجاري منه مندرسات؟!^{٢٠}
وعليه منه أطلَّت الغُرفات^{٢١}

^{١٦} طحلت: علاها الطحلِب وهي خضرة تعلو الماء المزمِن. الحمات: جمع حمأة وهي الطين الأسود؛ أراد

بها جثث الذين لم يستطيعوا الخروج من البيوت.

^{١٧} يا لأبي الخلائف: هو نداء استغاثة.

^{١٨} المراد بالشنب هنا: الخصب، والري والشنب في الأصل: هو الماء والرقعة والبرد والعذوبة في الأسنان،

ويقول: افتر المحبوب: بمعنى ضحك، وافتر عن أسنان كالبرد.

^{١٩} الخضلات: المرتوية.

^{٢٠} الرفيل: نهر يصب في دجلة بغداد.

^{٢١} قصر عيسى: هو قصر عظيم في بغداد وكان مبنياً على شاطئ نهر الرفيل.

أم أين بركة زُلزل وزُلّالها السَلـ
 يا نهرَ طابِقَ لا عدمتك منهلاً
 أم أين كرخايا تمدُّ مياهاه
 أم أين نهر الملك حين تسلسلت
 قد كان تزدرع الحبوب بأرضه
 أم أين نهر بطاطيا تأتيه من
 وله فروع أصلهنَّ لشارع الـ
 تنمو الزروع بِسقيه فغلّاله
 لهفي على نهر المُعلّى إذ غدت
 نهر هو الفردوس تدخل منه في
 كالسيف مُنصّلتاً تضاحك وجهه الـ
 إذ نَهر بينَ عند كلواذي به
 وبقربه من نهر بُوقِ دارة
 يا قصر باب التبر كنت مقرّناً
 أيّام تطلّعك العدالة شمسها
 أيّام تبصرك الحضارة في العلا
 أيّام تنشدك العلوم نشيدها
 أيّام تقصدك الأفاضل بالرجا
 أيّام يأتيك الشكّي بأمره
 تمضي الشهور عليك وهي أنيسة

سأل تسرح حوله الطيبات^{٢٢}
 أين الصّراة تحفُّها الرّوضات؟^{٢٣}
 نهر الدجاج فتكثر الغلات؟
 فيه المياها وهنَّ مطّردات؟
 فتسحُّ فيه بفيضها البركات
 نهر الدجيل مياهاه المجراة؟
 كبش المجاري منه منتهيات
 كل العراق ببعضها يقتات
 لا تستبين جناحه النضرات
 قصر الخلافة شعبة وقناة
 أنوارٌ وهيَ عليه ملتمعات
 مُلد الغصون تهزُّها النسما^{٢٤}
 تنفي الهموم مروجها الخضرات
 والنفي يصدر منك والإثبات^{٢٥}
 وترِفُ فوقك للهدى رايات
 بدرًا عليك من الثنا هالات
 فتعود منك على العلوم صلات
 فتفيض منك لهم جدًّا وهبات^{٢٦}
 فيروح عنك وما لديه شكاة
 وتمرُّ باسمه بك الساعات

٢٢ بركة زلزل: بركة في بغداد كان قد بناها رجل يقال له: زلزل، وكان مشهورًا بضرب العود حتى ضرب به المثل، وكان في أيام المهدي والهادي والرشد.

٢٣ نهر طابق: في بغداد يصب في نهر عيسى. الصراة: نهر على فرسخ من بغداد يأخذ من نهر عيسى.

٢٤ نهر بين: نهر بالعراق. كلواذي: قرية قرب بغداد. ملد: جمع أملد، وغصن أملد: ناعم.

٢٥ لعله باب التبن بالنون: وهي محلة كبيرة كانت ببغداد على الخندق.

٢٦ الجدا: العطية.

ماذا دهاك من الهوان فأصبحت
قد ضيَّعت بغداد سابق عزِّها
كم قد سقاها السيل من أنهارها
واليوم قلت: بجانبها أرخوا
آثار عزك وهي منطمسات؟!
وعدت تجيش بصدرها الحسرات
ضرًّا وهنَّ منافع وحياة!
دقق السيول، فماجت الأزمات

العادات

لهنَّ ينقاد في كل الإرادات
ينفكُّ عنهنَّ حتى في الملذات
حتى يرى في تعاطيه المسرات
تكون حاجاته إلا كثيرات
تعودي ما به تزداد حاجاتي
حتى تنال غناها بالمنيات
لما أسيغت بحال بنت حانات
قوم بوقت انفراد واجتماعات
ما عدت الخمر أولى في البليات

كل ابن آدم مقهور بعادات
يجري عليهن فيما يبتغيه ولا
قد يستلذ الفتى ما اعتاد من ضرر
عادات كل امرئ تأبى عليه بأن
إني لفي أسر حاجاتي ومن عجب
كل الحياة افتقاراً لا يفارقها
لو لم تكن هذه العادات قاهرة
ولا رأيت سيكارات يدخنها
إن الدخان لثان في البلاء إذا

* * *

في الكف وهي احتراق في الحشاشات^١
ألقى اصفراراً على بيض الثنبيات^٢
بل قد تفتت بفكيه المرارات

وربَّ بيضاء قيد الأصبع احترقت
إن مرَّ بين شفاه القوم أسودها
وليتها كان هذا حظَّ شاربها

^١ أراد بالبيضاء: اللفافة من التبغ. وقيد الأصبع أي: مقداره.

^٢ الشفاه: جمع شفة، الثنبيات والثنايا: هي أربع أسنان في مقدم الفم، اثنتان من فوق واثنتان من أسفل، ومفردهما ثنية.

وإنما أنا في تلك المصيبات
 شربت لكن دخاناً من سيكاراتي
 أحرقت ثوبي منه بالشرارات
 إياكم في التذانٍ بالمُضِرَّات
 إذ تشربون لهيباً ملء كاسات
 يَسْمُ من دمنا تلك الكريّات
 إن كان لا بدّ من هذي الحماقات
 لُمّني أُلْمَكَ ولا ترصّ اعتذاراتي
 على قلوبٍ لنا منهنّ أشتات
 من العيون فنأتى بالمداجاة
 وإن علمناه من بعض المباحات
 في زعمها وهي من أجلي الشناعات
 من الأثام نسيجاً من خرافات!
 وشوّهوا وجه أحكام الديانات
 عند النساءٍ وإن كنّ العفيفات
 خافوا عليهنّ من عار الجهّالات
 مهما تفنّنت منها في عباراتي
 في الناس منهنّ آفاتٌ بأفات!
 ما راجت الخمر في سوق التجارات
 بين الورى وهو مطلوبٌ كأقوات
 فوق احتقارٍ له أضعافٌ مرات
 حتى يبيعهوه قيراطاً ببدرات^٢
 يبلى به غيرٌ مثيرٍ ذي سفاهات

عوائد عمّت الدنيا مصائبها
 إن كلّفتني السكارى شرب خمرتهم
 واخترت أهون شرّاً بالدخان وإن
 قلت: يا قوم تكفيكم مشاركتي
 إنّي لأمتصّ جمرًا لفّ في ورقٍ
 كلاهما حُمُقٌ يفتّر عن ضررٍ
 حسبي من الحُمُقِ المعتاد أهونه
 يا مَنْ يدخّن مثلي كلّ أونةٍ
 إن العوائد كالأغلال تجمعننا
 مقيدين بها نمشي على حذرٍ
 قد نُنكر الفعلَ لم تألفه عادتنا
 وربّ شنعاءٍ من عادتنا حسنت
 عناكبُ الجهل كم أَلقت بأدمغة
 فحرّموا وأحلّوا حسب عادتهم
 حتى تراهم يرون العلم منقصة
 وحجّبوهنّ خوف العار، ليتهم
 لم تحصّ سيئة العادات مقدرتي
 فكم لها بدعٌ سودٌ قد اصطدمت
 لو لم يك الدهرُ سوقاً راج باطلها
 ولا استمرّ دخانُ التبغ منتشراً
 لو استطعتُ جعلتُ التبغ محتكراً
 وزدتُ أضعافاً أضعافٍ ضريبته
 فيستريح فقير القوم منه ولا

* * *

^٢ البدرات: جمع بكرة، وهي عشرة آلاف درهم.

العادات

الْحُرُّ مَنْ خَرَقَ الْعَادَاتِ مَنِتْهَجًا
وَمَنْ إِذَا خَذَلَ النَّاسُ الْحَقِيقَةَ عَنْ
وَلَمْ يَخْفُ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ لِائْتِمَةٍ
وَعَامَلَ النَّاسَ بِالْإِنْصَافِ مَدْرَعًا
أَغْبَى الْبَرِيَّةِ أَرْفَاهِمَ لِعَادَتِهِ
نَهَجَ الصَّوَابِ وَلَوْ ضَدَّ الْجَمَاعَاتِ
جَهْلٍ أَقَامَ لَهَا فِي النَّاسِ رَايَاتِ
وَلَوْ أَتَتْهُ بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ
ثُوبَ الْأَخْوَةِ مِنْ نَسَجِ الْمَسَاوَاةِ
وَأَعْقَلَ النَّاسَ خَرَاقُ لِعَادَاتِهِ

^٤ المشرفيات: السيوف.

^٥ أرفاهم: اسم تفضيل من قولهم: رفاً الثوب.

بعد الدستور

سقوط كامل باشا

وغنّت لنا الدنيا تهنئنا عزفاً^١
فأهلاً بما زفت وشكراً لمن زفاً
وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ببعض هتافاً يصعق الظلم والحيفا
أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا
ولا كحلت عيناً ولا خضبت كفاً
على الشعر أن لا يستطيع له وصفا
ولا غير شنف العدل في أذنها شنفاً^٢
وهل يكتسي الديباج من يكتسي العرفاً^٣
ونحن أناس نحسن النشر واللفاء^٤
وقمنا على الأقدام صفاً لها صفاً^٥

سقتنا المعالي من سلافتها صرفاً
وزفت لنا الدستور أحراراً جيشنا
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكرًا
ورحنا نساوي العز يهتف بعضنا
ولاحت لنا حريّة العيش عندما
أتت عاطلاً لا يعرف الحلي جيدها
فجاءت بمطبوع من الحسن قد قضى
فلم نرض غير العلم تاجاً لرأسها
ولم نكسها إلا من العرف حلة
نشرنا لها مناً لفيف اشتياقنا
حللنا الحبي لما أتتنا كرامة

^١ السلافة: أفضل الخمر، وهو ما تحلب وسال قبل العصر.

^٢ الشنف: هو ما يعلق في الأذن من الحلي.

^٣ العرف: المعروف.

^٤ اللفيف: المجموع، ويطلق على ما اجتمع من الناس من قبائل شتى.

^٥ الحبي: جمع حبة، وهي ما يحتبي به الرجل من عمامة أو ثوب.

عقدنا لها عقد اللّواء تعشُّقًا فكنا لها إلْفًا وكانت لنا إلْفًا
رفعنا لواء النصر يهفو أمامها ورحنا على صرف الزمان لها حِلْفًا
فلم ترَ غير الرفق فينا سجيَّةً وإن كان بعض القوم أبدى لها عنفاً

* * *

تحمَّلَ أعباءَ الصِّدارةِ كاملٌ فناءَ به ما لم يخفَّ وما خفًّا
طوى كشحه منها على غير لطفها وأظهر من وجه الخِداعِ بها اللطفًا^٦
نحا أن يتمَّ الدست فيهما لحزبه علينا وظنَّ الأمرَ فيما نحا يخفى^٧
وقد فاته أنا أولو ألمعيَّةِ بها نخطف الأسرار من قلبه خطفًا
وأنا نرى مَنْ قد تأبَّط شرَّه بعين تقدُّ الإبطُ أو تخلع الكتفا
لنا فطنة ترمي الزمان بنورها فيبدو حجاب الغيب منه وقد شفًّا^٨
رمانا بشزُر اللحظ مزورٌ طرْفِه فصحنا به أن غُصَّ يا كامل الطرفا
فما نحن بعد اليوم مهما تنوعت عناصرنا من أمة تحمل الخسفا
مددنا إلى كف الإخاء أكفِّنا نصافحه شوقًا فمدَّ لنا الكفا
فطاب لنا منه العناق وضمَّنا إليه فقبلناه من عينه ألْفًا
أدلاً وهذا العزُّ صرَّح سابعًا علينا إذن فالعز أن ندرك الحتفا
إذا نحن قمنا مُحَنِّقين رأيتنا ندكُّ جبال الظلم ننسفها نسفا
ونحن إذا ما الحرب أفنت جيانا قتالاً ركبنا الموت في حربنا طرفًا^٩
تربَّع في صدر الوزارة كامل فخط من النقصان في وجهها حرفا
وأنحى عليها بالجفاء مشتتًا نجاحًا بركنيها الركينين ملتفا
لقد أغضب الدستور فعلاً ونية ومَنْ أعلنوا الدستور والشعب والصحفا
قد استوضَّحوه الأمر والأمر واضحٌ فأعياه إيضاح الحقيقة فاستعفى

^٦ طوى كشحه عنها: أي أعرض عنها.

^٧ الدست: الحيلة والخديعة، ويطلق على ما يكون فيه الغلب في الشطرنج.

^٨ شف الثوب: لم يحجب ما تحته.

^٩ الطرف: الكريم من الخيل.

رأى عذره أن لم يطل سبكه زيفا
تمهّل حيناً يكثر الخط والحذفا
ويحتاج للتفكير من مؤه الخلفا^{١٠}
فإياك أن تطغى وأن تثني العطفاً^{١١}
إلى المجد لا تلقى كلاً ولا ضعفا
لغير التجافي اختارك الشعب واستصفي
من العلم فاستمطر لها الديم الوطفاً^{١٢}
فحقق لها من طبّ رأيك أن تشفى
ومثلك من راعي الدمام ومن وقى
أماماً وقد خلّت تقهقرها خلفا
فإن البلاء الجمّ من حوله احتفأ
فلا أنبتت زرعاً ولا أشبعت ظلماً^{١٣}
به الماء يجفو أو به الماء قد جفأ^{١٤}
حكّت شهداء «الطف» إذ نزلوا الطفا^{١٥}
على الذل إذ أمست قلوبهم غلفا
رؤاقاً على هام الكواكب قد أوفى
يقاسون أهوالاً به تجدع الأنفا^{١٦}

ولم يطلب الإمهال إلا لأنه
كذلك من صاغ الكلام ملفقاً
ومن قال حقاً قاله عن بديهته
فيا أيها «الصدر» الجديد أتعظ به
ويا مجلس النواب سرّ غير عاثر
ودع عنك مذموم التجافي فإنما
ألم تر أرجاء البلاد محولة
بلاد جفاها الأمن فهي مريضة
فإن لأهليها عليك لزمة
وما أنت إلا أمة قد تقدمت
ولا تنس مغبرّ العراق وأهله
فدجلة أمست كالذجيل شحيحة
وإن «الفرات» العذب أمسى مرنقاً
سلّ «الحلة» الفيحاء عنه فإنها
فيا ويل قوم في العراق قد انطووا
ولم يذكروا مجداً لهم كان ضارباً
وكانوا به شمّ العرانيين فاغتدوا

^{١٠} الخلف: هو أن تعد عدة ولا تنجزها.

^{١١} أراد بالصدر الجديد: حسين حلمي باشا. العطف: الجانب، وثني العطف: كناية عن الإعراض والجفاء.

^{١٢} محولة: مجدبة لا مرعى فيها ولا كلاً. الديم: جمع ديمة، وهي مطر يدوم في سكون، بلا رعد ولا برق. الوطف: جمع وطفاء، وهي السحابة المسترخية لكثرة مائها.

^{١٣} الذجيل: شعبة من نهر دجلة.

^{١٤} مرنقاً: مكدرًا غير صافٍ.

^{١٥} الحلة: قرية في طف دجيل بغداد. الطف: أرض من ضاحية الكوفة وفيها قتل الحسين بن علي عليه السلام.

^{١٦} العرانيين: جمع عرنيين، وهو الأنف.

يَرْجُونَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ رَجَاءَهُمْ وَمَنْ يَحْمِلُ الدَّبَّوسَ أَوْ يَضْرِبُ الدُّفَاً^{١٧}

^{١٧} يشير بهذا البيت إلى قوم تركوا النصوص الشرعية القاضية بالسعي والاعتماد على النفس، ولجئوا في طلب الخير والنصر إلى الأموات أو الدجالين الذين يحملون الدبابيس، ويضربون الدفوف والمزاهر؛ ادعاء أنهم من أهل البيت وخيرة رجاله، وما هم إلا أهل لهو وبطالة.

إيقاظ الرقود

إلى كم أنت تهتف بالنشيد وقد أعيك إيقاظ الرقود؟!
فلست وإن شددت عرى القصيد بمُجدٍ في نشيدك أو مفيد
لأن القوم في غيٍّ بعيدٍ
إذا أيقظتْهم زادوا رقادا وإن أنهضتْهم قعدوا وثادا
فسبحان الذي خلق العبادا كأن القوم قد خُلِقوا جَمادا!
وهل يخلو الجماد عن الجمود
أطُلت وكاد يُعييني الكلامُ مَلامًا دون وقعته الحسامُ
فما انتبهوا ولا نفع الملام كأنَّ القومَ أطفال نيام
تُهزُّ من الجهالة في مهود
إليكِ إليكِ يا بغدادُ عنِّي فإني لستُ منكِ ولستِ منِّي
ولكنِّي وإن كُبر التجني يعزُّ عليَّ يا بغدادُ أني
أراك على شفا هولٍ شديدٍ
تتابعِ الخطوبُ عليكِ تترى وبُدِّل منكِ حُلُو العيشِ مُرًا
فهلَّا تُنجِبين فتىً أغرًا؟ أراكِ عقمِ لا تلدين حُرًا
وكنتِ لمثله أركى ولوِدي
أقام الجهل فيك له شهودا وسامكِ بالهوان له السُّجودا
متى تُبدين منك له جحودا فهلَّا عدتِ ذاكرةً عهدا
بهن رَشَدتِ أيام الرشيدِ؟

زَمَانٌ نَفُوذٌ حَكَمَكَ مُسْتَمِرٌّ زَمَانٌ سَحَابٌ فَيُضِكُ مُسْتَدِرٌّ
زَمَانٌ الْعِلْمُ أَنْتَ لَهُ مَقَرٌّ زَمَانٌ بِنَاءٌ عَزَكَ مُشْمَخِرٌّ
وَبَدْرٌ عَلَكَ فِي سَعْدِ السَّعُودِ
بَرَحَتِ الْأَوْجُ مِيلاً لِلْحَضِيضِ وَضَقْتَ وَكُنْتَ ذَاتَ عَلَا عَرِيضِ
وَقَدْ أَصْبَحْتَ فِي جِسْمٍ مَرِيضِ وَكُنْتَ بِأُوجِهِ لِلْعَزِّ بِيضِ
فَصَرْتَ بِأُوجِهِ لِلذَّلِّ سُودِ
تَرْقَى الْعَالَمُونَ وَقَدْ هَبَطْنَا وَفِي دَرَكِ الْهَوَانِ قَدْ انْحَطَطْنَا
وَعَنْ سَنَنِ الْحَضَارَةِ قَدْ شَحَطْنَا فَفَقَطْنَا يَا بَنِي بَغْدَادِ قَطْنَا!^١
إِلَى كَمْ نَحْنُ فِي عَيْشِ الْقُرُودِ؟!
أَلَمْ تَكُ قَبْلَنَا الْأَجْدَادُ تَبْنِي بِنَاءً لِلْعُلُومِ بِكُلِّ فَنٍّ؟
لِمَاذَا نَحْنُ يَا أُسْرَى التَّائِي أَخَذْنَا بِالتَّقَهُّرِ وَالتَّدْنِي؟!
وَصَرْنَا عَاجِزِينَ عَنِ الصَّعُودِ
كَأَنَّ زُحْلًا يَشَاهِدُ مَا لَدَيْنَا لِذَلِكَ أَحْمَرٌ مِنْ حَنْقِ عَلَيْنَا
فَقَالَ مَوْجَّهًا لَوْمًا إِلَيْنَا: لَوْ أَنِّي مِثْلَكُمْ أَمْسَيْتُ هَيْنَا
إِذْنٌ لِنُضُوتُ جَلِيَابَ الْوُجُودِ
رَكَدْتُمْ فِي الْجِهَالَةِ وَهِيَ تَمْشِي وَعِشْتُمْ كَالْوَحُوشِ أَحْسَ عَيْشِ
أَمَا فِيكُمْ فَتَى لِلْعَزِّ يَمْشِي؟! تَبَارَكَ مَنْ أَدَارَ بِنَاتِ نَعَشِ!^٢
وَصَفَّدَكُمْ بِأَصْفَادِ الرُّكُودِ
حَكَيْتُمْ فِي تَوْقُفِكُمْ جُدِيًّا فَصَرْتُمْ كَالسَّهَاءِ شَعْبًا خَفِيًّا^٣
أَلَا تَجْرُونَ فِي مَجْرَى الثَّرِيًّا تَوْمٌ بَدُورَهَا فَلَكَا قَصِيًّا؟
فَتَبَرَّزَ مِنْهُ فِي وَضْعٍ جَدِيدِ

* * *

^١ شحطنا: بعدنا، قطنا: حاسبنا وكافينا.

^٢ بنات نعش قسمان: كبرى وصغرى، وكل منهما سبعة كواكب، أربعة نعش وثلاثة بنات.

^٣ الجدي: أحد البروج الاثني عشر وأصله غير مصغر. السها: نجم خفي تمتحن الأبصار برؤيته.

حكومة شعبنا جارتُ وصارتُ علينا تستبِدُّ بما أشارت
 فلا أحدًا دعتَه ولا استشارت وكل حكومة ظلمت وجارت
 فبشَّرها بتمزيق الجدود
 حكومتنا تميلُ لباخسيها مُجَانِبَةً طريقَ مؤسَّسيها
 فلا يَغْرُزُكَ لِينُ مَلابسيها فهم كالنار تحرقُ لامسيها
 وتحسُنُ للنواظر من بعيدٍ
 لقد غَصَّ «القصيم» بكل نذلٍ وأمسى من تخاصمهم بشغلٍ^٤
 فريقا خَطَّتِي غِيٌّ وجهل كلا الخصمين ليس له بأهلٍ
 ولكن مَنْ لتنكيل المرید^٥
 إليهم أرسلت بغداداً جُنْدًا ليهلك فيه من عبثٍ ويُفدَى
 لقصدي ابن الرشيد أضع قصداً فلا يا ابن الرشيدِ بلغت رُشداً
 ولا بلغ السعود ابنُ السعودِ
 مشوا يتحركون بعزمٍ ساكنٍ ورثتهُ حالهم تبكي الأماكنُ
 وقد تركوا الحلائلَ في المساكنُ جنود أرسلت للموت لكن
 بفتك الجوع لا فتك الحديد
 قد التفَعُّوا بأسمالٍ بَوالٍ مُشاةً في السهول وفي الجبال
 يُجدُّون المسيرَ بلا نعالٍ بحالٍ للنواظر غير حالٍ
 وزِيٌّ غير ما زِيَّ الجنودِ
 مشوا في منهج جهلوه نهجا يجوبون الفلا فجًّا ففجًّا^٦
 إلى حيث السلامة لا ترجى فيا لهفي على الشبان تزجى^٧
 على عبثٍ إلى الموت المبيد!
 وكلُّ مُذ غدوا للبيت أُمَّا فودَّع أهله زوجًا وأُمَّا^٨

^٤ القصيم: اسم محل.

^٥ المرید: بفتح الميم، هو الخبيث المتمرد الشرير.

^٦ فجًّا فجًّا: أي طريقًا فطريقًا، وأصل الفج: الطريق الواسع بين جبلين.

^٧ تزجى: تدفع.

^٨ أُمَّا: قصد.

وضمّ وليدَه بيِدٍ وشمًّا بكى الولد الوحيدُ عليه لَمَّا
 غدا يبكي على الولد الوحيدِ
 تقول له الحليّةُ وهو ماشٍ: رُويدًا لا برحت أختا انتعاش!
 فبعذك مَنْ يحصّل لي معاشي؟! فقال، ودمعه بادي الرشاش:
 وكلتكمُ إلى الربِّ الوُدودِ
 عساكر قد قضاوا عُرِيًّا وجوعا بحيثُ الأرضُ تبتلع الجموعا
 إلى أن صار أغناهم ربُّوعا لِفِرطِ الجوعِ مرتضيا قنوعا
 بِقِدِّ لو أصاب من الجلودِ^٩
 هناك قضاوا وما فتحوا بلادا هناك بأسْرهم نفدوا نفاذا
 هناك بحيرةٍ عديموا الرشادا هناك لِرِوعهم فقدوا الرقادا
 هناك عزُّوا هناك من البرودِ
 أناديهم ولي شجنٌ مهيجٌ وأذكرهم فينبعثُ النشيج
 ودمعٌ محاجري بدمٍ مزيجٌ ألا يا هالكين لكم أجيح^{١٠}
 ذكا بحشايٍ محتدمِ الوقودِ
 سكنًا عن جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمّر ما استطاعا
 فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أمة هلكت ضياعا
 تولى أمرها عبدُ الحميدِ
 أيا حرية الصحف ارحمينا فإنَّا لم نزل لك عاشقينا
 متى تصلين كيما تطلقينا عدينا في وصالِكِ وامطينا
 فإننا منك نقنعُ بالوعودِ
 فأنت الروحُ تشفينَ الجروحا يُحرِّجُ فقدك البلدِ الفسيحا
 وليس لبلدٍ لم تحوِ روحا وإن حوت القصور أو الصروحا
 حياةٌ تُستفاد لمستفيد^{١١}

^٩ القد: بكسر القاف، هو القطعة من الجلد غير المدبوغ والنعل الذي لم يجرد عن الشعر.

^{١٠} الأجيح: الالتهاب.

^{١١} حياة مرفوع بليس؛ لأنه اسمها، وخبرها الجار والمجرور «لبلدة».

أقول، وليس بعضُ القولِ جِدًّا لسلطانِ تجبّرَ واستبدا
تعدّي في الأمور وما استعدًّا ألا يا أيها الملكُ المفدّي
وَمَنْ لولاهُ لم نُكُ في الوجود
أَنْمُ عن أن تسوسَ الملكَ طرفا أقم ما تشتهي زمراً وعزفا
أَطْلُ نَكَرَ الرعية، خلٌّ عُرُفا سُمِ البلدانُ مهما شئتَ خسفا
وأرسلُ مَنْ تشاءُ إلى اللحد
فَدَتَكَ الناسَ من ملكٍ مُطاعِ أبْنِ ما شئتَ من طُرُقِ ابتداعِ
ولا تخشَ الإلهَ ولا تراعي فهل هذي البلادُ سوى ضياعِ
ملكِ، أو العبادُ سوى عبِيدِ؟
تَنعَمُ في قصورك غيرِ دارِ أعاشِ الناسُ أم هم في بوارِ؟
فإنك لن تطالبَ باعتذارِ وهبْ أن الممالكَ في دمارِ
أليس بناءُ «يلدن» بالمشيدِ؟!
جميعَ ملوكِ هذي الأرضِ فُلُكُ وأنتَ البحرَ فيكِ نَدَى وهُلُكُ
فأنتي يبلغوكِ وذاك إِفِكُ؟! لئن وهبوا النقودَ فأنتَ ملكُ
وهوبٌ للبلادِ وللنقودِ

الصديق المضاع

أفي سفر قد كنت أم كنت لاهيا؟
فكيف علينا قد أطلت التجافيا؟!
بعيدًا عن الخلان تأبى التدانيا؟
فإني أرى حُزنًا بوجهك باديا
تديران لحظًا يحمل الحزنَ وانيا؟
به بعد أن قد كنت أحمر قانيا؟
عهدتك غريِّدًا بشعرك شاديا
بما ناب من صرف الزمان مباليا
سحابة صيف لا تدوم ثوانيا

علامَ حُرْمنا منذُ حين تلاقيا
عهدناك لا تلهو عن الخِلِّ ساعةً
وما لي أراك اليوم وحدك جالسًا
أنابك خطبُ أم عراكَ تعشُّق؟
وما بالُ عينيك اللتين أراهما
وأبي جوى قد عُدت أصفر فاقعًا
تكلِّمُ فما هذا الوجودُ فإنني
تجلَّدُ تجلَّدُ يا «سليمٌ» ولا تكن
ولا تبتئس بالدهر إن خُطوبه

* * *

تنائرن حتى خلتهنَّ لآليا
وذكَّرتني ما كنت بالأمس ناسيا
قريعُ تباريحٍ تُشيب النواصيا^١
ترحَّلت عنها لا عليَّ ولا ليا

فقال ولم يملك بوادرَ أدمع
لقد هجَّتني يا أحمدُ اليوم بالأسى
أتعجب من حزني وتعلم أنني
لقد عشتُ في الدنيا أسيفًا وليتني

^١ القريع: الغالب في المقارعة.

فأصبحت من جور الأخلَاء شاكياً^٢
 من الحقد إلا عدتُ عنها كما هيا
 وما كان من داء التملُّق دائياً
 فإن صريح الرأى ألا تداريا
 فكنتُ على قلبي بحبِّيه جانياً^٣
 بأنِّي حرَّ النفس صعبُ قياديا
 أبيتُ عليها أن تكون سمائيا
 ودعني وشأني والأسى وفؤاديا
 أضع وداً عند مَنْ ليس وافيأ
 ليظهر إلا في سوى الشعر باكيا
 وأقحمتُ منها كلَّ هولٍ يراعياً^٤
 وألقيتُ في غير المديح المراسيا
 أرى الناس مؤتى تستحق المراثيا
 لما نطقت بالشعر إلا أهاجيا
 إليّ الندى ناعٍ فأنشدت راثياً!^٥
 فلما انتهت للفعل كانت مناعياً!

وقد كنت أشكو الكاشحين من العدا
 وما رحْتُ أستشفي القلوب مداويا
 وداريتُ حتى قيلَ لي: متملِّقُ
 وحتى دعاني الحزمُ أن خلَّ عنهمُ
 ورُبَّ أخ أوقرتُ قلبي بحبه
 أراد انقيادي للهوان وما درى
 إذا ما سمائي جاد بالذل غيئها
 ألا فابك يا أحمدُ اليوم رحمةً
 فإنَّ أحق الناس بالرحمة امرؤ
 وما كان حظِّي وهو في الشعر ضاحكُ
 ركبتُ بحور الشعر رهواً ومالجاً
 وسيَّرتُ سفني في طلاب فنونه
 وقلتُ: اعصني يا شعرُ في المدح إنني
 ولو رضيت نفسي بأمر يشينها
 وكم قام ينعي حين أنشدت مادحاً
 وكم بشرتني بالوفاء مقالة

* * *

وكفكفتُ دمعاً فوق خديهِ جارياً^٦
 تنوبُ دواهي الدهر مَنْ كان داهياً^٧

فلماً بكى أمسكتُ فضل ردايه
 وقلت له: هوّن عليك فإنما

^٢ الكاشح: العدو الباطن العداوة.

^٣ أوقرت: أثقلت.

^٤ الرهو: السير السهل. أقحمت يراعي: قذفته وأدخلته بشدة.

^٥ الندى: الكرم، يقول: إذا أنشدت مادحاً قام الناعي ينعي إليّ الكرم؛ أي: يخبرني بموته، فأبدلت الرثاء

بمدحي.

^٦ الفضل: الزيادة، وفضل الرداء: يريد به طرفه.

^٧ تنوب: تصيب. الداهي: العاقل، وصاحب الرأي الجيد. يقول: إن المصائب لا تصيب إلا العقلاء.

من الناس لم يجنوا لك الوُدَّ صافيا
 فكنت الفتى الأعلى وكانوا الأدانيا
 فقد يشكر الإنسان ما كان شاكيا
 يجرُّ تجافينا إلينا التصافيا
 لرحنا من الطوفان نشكو الغوايا^٨
 نجومٌ بأفلاكٍ لهنَّ جواريا
 إذا هي في الإثبات لم تَلَقَ نافيا
 ويحيينَ ما دام التباين باقيا
 ألم تر في الكون التنافر ساريا؟!
 ألم تغنَّ عنهم أن ملكت القوافيا؟
 وأطلع لنا فيها النجوم الداريا
 فتبدو وإن أرخصتهنَّ غواليا
 وتأتيك طوعًا إن دعوت العواصيا
 فشدَّ بها قلبًا من الوجد هافيا؛^٩
 فداويت لي سُقمًا وهيَّجت ثانيا
 أمني لهم مما أحبُّ الأمانيا
 أطاولُ في العز الجبال الرواسيا
 وإن كنت عنهم نازح الدارِ نائيا
 إذا لم أكن للقوم في النفع ساعيا
 ولكنَّ نُصحَ القوم جُلُّ مراميا
 تُنشِطُ كسلانًا وتنهض ثاويا
 ولكنَّ سريَّ القوم من كان هاديا
 ومن أيِّ طُرُقٍ يبتغون المعاليا
 وجددَّ رشدًا عندهم كان باليا

وما ضرَّ إن أصفيت ودَّك معشرًا
 كفى مفخرًا أن قد وفيت ولم يفوا
 لعلَّ الذي أشجاك يُعقب راحة
 ألا ربُّ شرٌّ جرَّ خيرًا وربما
 فلو أن ماء البحر لم يك مالحًا
 ولولا اختلاف الجذب والدفع لم تكن
 وكيف نرى للكهرباء ظواهرًا
 تموت القوى إن لم تكن في تباين
 فلا تعجبن من أننا في تنافرٍ
 وهبهم جفوك اليوم بخلاً بودهم
 فطر في سموات القريض مُرفرفًا
 فأنت امرؤٌ تُعطي القوافي حقها
 يجيبك عفواً إن أمرت شرودها
 فقال، وقد ألقى على الصدر كفه
 لقد جئتني بالقول رطبًا ويابسًا
 فإنني وإن أبدى لي القوم جفوةً
 وما أنا عن قومي غنيًا وإن أكن
 إذا ناب قومي حادث الدهر نابني
 وما ينفع الشعرُ الذي أنا قائلُ
 ولستُ على شعري أرومٌ مثنوية
 وما الشعرُ إلا أن يكون نصيحةً
 وليس سريَّ القوم من كان شاعرًا
 فعلمهم كيف التقدم في العُلا
 وأبلى جديد الغي منهم برشده

^٨ الغوايا: السحب الممطرة صباحًا.

^٩ هافيًا: مضطربًا.

ديوان معروف الرّصافي

وسافر عنهم رائدًا خصب نفعهم يشقُّ الطوامي أو يجوب المواميا^{١٠}
وإن أفسدتهم خطّة قام مصلحًا وإن لدغتهم فتنّة قام راقيا^{١١}

^{١٠} رائدًا: طالبًا. الطوامي: أراد بها البحار، وأصلها من طما الماء والبحر؛ أي امتلأ. يجوب: يقطع.
الموامي: جمع مومة، وهي الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.
^{١١} الراقي: هو الذي يقرأ وينفث؛ دفعًا لأذية اللدغ.

بعد البين

طوائحُ جاءت بالخطوب تباعا
سوى حبِّها عند البراح متاعا
أمضته فيها الحادثات قِراعا
لعزَّ عليها أن أكون مُضاعا
لأشكرها أن لم تُتمَّ رِضاعا
نهضتُ خصامًا دونها ودفاعا
فلم تبدِ إصغاءً لها وسماعا
تخذتُ بها السيفَ الجُراز يِراعا^١
على الحِقد صاعًا بالعداءِ فصاعا
طباعُ المعالي أن تسوءَ طباعا
وتأبى الضواري أن تكون ضباعا
فلم يُجدِ نفعًا ما أتيت وِضاعا
لبيبُ يُداري في نُهاه رِعا
ونزَّهت شعري أن يكون قِضاعا^٢

لقد طوّحتني في البلاد مُضاعًا
فبارحتُ أرضًا ما ملأتُ حقائبِي
عَتبتُ على بغداد عَتَبَ موَدِّع
أضاعَتني الأيام فيها ولو دَرَت
لقد أرضعتني كلَّ خَسْفٍ وإنَّني
وما أنا بالجاني عليها وإنَّما
وأعملتُ أقلامي بها عَرَبِيَّة
ولو كنت أدري أنها أعجمية
ولو شئتُ كailتُ الذين انطَووا بها
ولكن هي النفس التي قد أبت لها
أبيت عليهم أن أكون بذلَّة
على أنني داريتُ ما شاءَ حقدَهم
وأشقى الوري نفسًا وأضيعهم نُهي
تركت من الشعر المديح لأهله

^١ الجراز: القاطع.

^٢ قِضاعا: سفاهة ومشاتمة.

وأُنشدته يجلو الحقيقة بالنُّهى ويكشف عن وجه الصواب قناعا
وأرسلته عفواً فجاءَ كما ترى قوافي تجتاب البلاد سِراعاً

* * *

وقفت غداةً البين في الكرخ وقفةً لها كربت نفسي تطير شعاعاً^٢
أودّع أصحابي وهم محدِّقون بي وقد ضقت بالبين المُشِتَّ ذراعاً
أودّعهم في الكرخ والطرف مرسل إلى الجانب الشرقيّ منه شعاعاً
وأدعم رأسي بالأصابع مُطرَقاً كأن برأسي يا أميمٍ صُداً^٣
وكنت أظن البين سهلاً فمُذَّأتى شرى البين مني ما أرادَ وباعاً
وإني جبانٌ في فِراق أحبتي وإن كنت في غير الفراق شجاعاً
كأني وقد جدَّ الفِراق سفينةً أشالت على الريح الهجوم شِراعاً^٤
فمالت بها الأرواح والبحرُ مائِجٌ وقد أوشكت ألواحها تتداعى^٥
فتحسبني من هِزّةٍ فيّ أفدعاً ترقي هضاباً زلزلت وقِلاعاً^٦
فما أنا إلا قومّة وانحناءة وسرُّ أذاعتها الدموعُ فذاعاً
رعى الله قومًا بالرصافة كلما تذكرتهم زاد الفؤاد نزاعاً^٧
أبيت، وما أقوى الهجوم! بمضجع تصارعني فيه الهموم صِراعاً
والهُو بذكراهم على السير كلما هبطت وهاداً أو علوت يَفَاعاً^٨
هم القومُ أما الصبر عنهم فقد عصى وأما اشتياقي نحوهم فأطاعاً
لقد حكّمني في الأمور فلم أكن لأنطقَ إلا أمراً ومطاعاً

^٢ كربت: كادت.

^٤ أدم: أسند. أميم: أصلها أميمة، وهي تصغير أم؛ وحذفت تاؤها لأنها منادى مرخم.

^٥ أشالت: رفعت.

^٦ الأرواح: جمع ريح.

^٧ الأفدع: المعوج المفاصل كأنها قد زالت عن مواضعها، وهذا أقرب معانيه إلى مقصد الشاعر.

^٨ الرصافة: محلة في بغداد، ينسب إليها صاحب الديوان.

^٩ اليفاع: المرتفع من الأرض.

فلستُ أبا لي بعد أن جدَّ بينهم
سلام على وادي السلام وإنني
له اللّه من وادٍ تكاسل أهله
رأهم عبيدًا فاستبدَّ بمائه
جرى شاكراً صنع الطبيعة إنَّها
وما أنس لا أنس المياة بدجلة
ولو أنَّها تسقي العراق لما رمت
وما جدت ريح وإن قد تناوحت
سأجري عليها الدمع غير مضيع
وأذكر هاتيك الرباع بحسناها

زجرت كلاباً أم قحمت سباعاً^{١٠}
لأجعل تسليمي عليه وداعاً
فباتوا عطاشاً حوله وجياعاً
ولم يجد بين المجدبات مشاعاً
أبانت يدًا في جانبه صناعاً
وإن هي تجري في العراق ضياعاً
به الشمس إلا في الجنان شعاعاً
مهبباً به إلا قرى وضياعاً
وأندب قاعاً من هناك فقاعاً
فنعمت على شحط المزار رباعاً^{١١}

^{١٠} بينهم: بعدهم. قحمت المغازة: دخلها وطواها غير مبالٍ بها.

^{١١} الرباع: جمع ربع، شحط: بعد.

يقولون

يصدُّ ذويه عن طريق التقدُّم!
أوائله في عهدِها المتقدِّم؟!
فماذا على الإسلام من جهل مسلم؟
وهل أمّة سادت بغير التعلُّم
بصائر أقوام عن المجد نُوم
حُبَّها وأبدت منظر المتبسِّم^١
على وجه عصر بالجهالة مظلم^٢
وقوَّض أطناب الضلال المخيم
لأهليه مجدًّا ليس بالمتهدِّم
فطارت بأفكار على المجد حُوم
نهوضًا إلى العلياء من كل مجثم
وساروا بنهج للحضارة معلم
كزعزع ريح أو كتيار عيِّلم
بأسرع من رفع اليدين إلى الفم

يقولون في الإسلام ظلمًا بأنه
فإن كان ذا حقًّا فكيف تقدمت
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله
هل العلم في الإسلام إلا فريضة
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعُلا
وحلَّت له الأيام عند قيامه
فأشرق نور العلم من حَجْرَاتِهِ
ودكَّ حصون الجاهلية بالهدى
وأنشط بالعلم العزائم وابتنى
وأطلق أذهان الورى من قيودها
وفك إसार القوم حتى تحفزوا
فخلَّوا طريقًا للبداوة مَجْهَلًا
فدَوَّت بمستنِّ العلاء نهضاتهم
وعمَّا قليل طبَّق الأرض حكمهم

^١ قوله حُبَّها: جمع حيوة وهي ما يحتوي به الرجل من عمامة أو ثوب.

^٢ قوله: من حجراته بفتححتين: أي من نواحيه، جمع حَجْرَة، وهي الناحية.

تَلَأَلُوْ بَرَقِ الْعَارِضِ الْمَتَهَزِمِ
 بِهَا عَنِ بَنِي الدُّنْيَا شُكُوكَ التَّوْهُمِ
 عَلَى مِثْلِهِ مِمَّنْ لَأَدَمَ يَنْتَمِي
 وَلَا عَرَبِيٌّ بَعْضُهُ فَضْلٌ أَعْجَمِ
 وَلَا فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى وَالتَّكْرُمِ
 صَلَاةٌ مُّصَلٌّ أَوْ عَلَى صَوْمِ صِيَمِ
 يُؤَدِّي مِنَ الْحَسَنِ إِلَى نَيْلِ مَغْنَمِ
 وَمَا خَصَّتِ التَّقْوَى بِتَرْكِ الْمَحْرَمِ
 يَكُونُ عَثَارًا فِي طَرِيقِ التَّقَدُّمِ
 فَأَيُّ ارْتِقَاءٍ بَعْدُ أَمْ أَيُّ سُلْمِ!
 رُوَيْدًا فَقَدْ فَارَقْتُمْ كُلَّ مَأْتَمِ
 لِأَظْهَرَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ
 لِنُبْدِي إِلَيْكُمْ جَفْوَةَ الْمُتَهَكِّمِ
 وَتِلْكَ لَعَمْرِي شِيْمَةَ الْمُتَحَلِّمِ
 كَشَفْتُمْ لَنَا عَنْ مَنْظَرِ مُتَجَهِّمِ
 كَمَا هِيَ إِذْ أَوَدَّتْ بَعَادٍ وَجُرْهُمِ

وقد حاكت الأفكار عند اصطدامها
 ولاحت تباشير الحقائق فانجلت
 وما ترك الإسلام للمراء مية
 فليس لمثر نقصه حق مُعِدِمِ
 ولا فخر للإنسان إلا بسعيه
 وليس التقى في الدين مقصورة على
 ولكنها ترك القبيح وفعل ما
 فنقوى الفتى مسعاه في طلب العلا
 فهل مثل هذا الأمر يا لأولي النهى
 وإن لم يكن هذا إلى المجد سُلمًا
 ألا قل لمن جاروا علينا بحكمهم:
 فلا تنكروا شمس الحقيقة إنها
 علونا وكنتم سافلين فلم نكن
 ولم نترك الحسنى أو أن جدالكم
 فلما استدار الدهر بالأمر نحوكم
 فلا تأمنوا الأيام إن صروفها

في سبيل الوطن

إلى إخواننا المسيحيين

فَيُبْنَى عَلَى أَسِّ الْمُوَاخَاةِ بُنْيَانٌ؟
فَتَكْسَبُ عِزًّا بِالتَّنَاصُرِ أَوْطَانٌ؟
وإنَّ التَّعَادِيَّ فِي الدِّيَانَةِ عُدْوَانٌ
فَتَعْمُرُ بُلْدَانَ وَتَأْمَنَ قُطَّانٌ
فَمَاذَا عَلَيْنَا أَنْ تَعَدَّدَ أَدْيَانٌ؟!
لِسَانَ وَأَوْطَانَ وَبِاللَّهِ إِيْمَانٌ
بِهَا قَالَ إِنْجِيلٌ كَمَا قَالَ قُرْآنٌ؟!
عَلَى رُسُلِهِ إِلَّا لِيَسْعُدَ إِنْسَانٌ
فَدَعَوَاهُ فِي أَصْلِ الدِّيَانَةِ بَهْتَانٌ
إِذْ فَاتَّبَعَ الدِّينَ يَا قَوْمُ خُسْرَانٌ
إِلَى كُلِّ قَوْلٍ لَمْ يُؤَيِّدْهُ بَرَهَانٌ
تَخَبَّطَهُ مِنْ شِدَّةِ الْمَسِّ شَيْطَانٌ

أَمَا أَنْ أَنْ تَنْسَى مِنَ الْقَوْمِ أَضْغَانٌ
أَمَا أَنْ أَنْ يُرْمَى التَّخَاذُلَ جَانِبًا
عَلَامَ التَّعَادِيِّ لِاخْتِلَافِ دِيَانَةٍ؟!
وَمَا ضَرُّ لَوْ كَانَ التَّعَاوُنَ دِينِنَا
إِذَا جَمَعْتَنَا وَحْدَةَ وَطَنِيَّةِ
إِذَا الْقَوْمُ عَمَّتْهُمْ أُمُورٌ ثَلَاثَةٌ:
فَأَيُّ اعْتِقَادٍ مَانَعَ مِنْ أَخُوَّةِ
كِتَابَانَ لَمْ يَنْزِلْهُمَا اللَّهُ رَبُّنَا
فَمَنْ قَامَ بِاسْمِ الدِّينِ يَدْعُو مَفْرَقًا
أَنْشَقَى بِأَمْرِ الدِّينِ وَهُوَ سَعَادَةٌ؟!
وَلَكِنَّ جَهْلَ الْجَاهِلِينَ طَحَا بِهِمْ
فَهَامُوا بِتِيَهَاءِ الْأَبَاطِيلِ كَالَّذِي

* * *

تَدْرُّ لَكُمْ مِنْهَا مَدَى الْعَمْرِ أَلْبَانَ

مَوَاطِنَكُمْ يَا قَوْمُ أُمَّ كَرِيمَةَ

ففي حِضْنِهَا مَهْدٌ لَكُمْ وَمَبَاءٌ^١
 فَمَا بِالْكَمِّ لَا تُحْسِنُونَ وَوَاجِبُ^٢
 أَصْبِرًا وَقَدْ أَمْسَى الْعَدُوُّ يُهِينُهَا؟!
 أَجَلٌ إِنَّكُمْ تَأْبَى الْحَيَاةَ نَفُوسِكُمْ
 أَلَسْتُمْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَلَاؤُهُمْ
 نَمْتَكُمْ إِلَى الْمَجْدِ الْمُؤْتَلِّغِ تَغْلِبُ^٣
 فَلَا تَنْكُرُوا عَهْدَ الْإِخَاءِ وَقَدْ أَتَتْ
 أَجِبْ أَيُّهَا النَّذْبُ الْمَسِيحِيُّ مُسْلِمًا
 فَلَا تَحْرَمَا الْأَوْطَانَ أَنْ تَتَحَالَفَا
 أَلَا فَاَنْهَضَا نَحْوَ الْعِدَا وَكَلَاكَمَا
 وَقَوْلَا لِمَنْ قَدْ لَامَ: صَهْ وَيَكْ إِنْنَا

وفي قلبها عطف عليكم وتحناناً^١
 على الابنِ لِلأَمِّ الْكَرِيمَةِ إِحْسَانُ^٢
 أَمَا فَيْكُمْ شَهْمٌ عَلَى الأُمِّ غَيْرَان؟!
 إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى الْمَجْدِ عُنْوَانُ^٣
 تَقَاعَسَ عَنْهُ الدَّهْرُ وَانْحَطَّ كَيْوَانُ?^٤
 كما قد نمتكم للمكارم غسان
 تصافحكم فيه نِزارٌ وَعَدْنَانُ^٥
 صفا لك منه اليَوْمَ سِرٌّ وَإِعْلَانُ^٦
 يَدًا بَيِّدَ حَتَّى تُؤَكِّدَ أَيِّمَانُ^٧
 لصاحبه في المَأْزِقِ الضَّنْكَ مِعْوَانُ^٨
 على كل حال في المواطنِ إِخْوَانُ

* * *

فَمَنْ مَبْلَغُ الْأَعْدَاءِ أَنْ بِلَادِنَا
 وَإِنَّا إِذَا مَا الشَّرُّ أَبْدَى نِيَوِيهِ^١
 سنستصرخ الآساد من كل مَرِيضٍ^٢
 أَسْوَدٌ وَغَى تَأْبَى الْحَيَاةَ نَمِيمَةً^٣
 مَقَاحِيمٌ تَصَلَّى الْمَعْمَعَانَ مُشِيحَةً^٤
 وتكسو العراءَ الرَّحْبَ مَسْحَ عَجَاجَةٍ^٥
 سننهض للمجدِ المَخْلَدِ نَهْضَةً^٦
 وتعتز من أرضِ الشَّامِ دِمَشْقَهَا^٧

مأسد لم يطرق ذَراهنِ سِرْحَانِ^٨
 رددناه عِنا بِالظُّبَا وَهُوَ خَزْيَانُ^٩
 فتمشي إلى الهِجَاءِ شَيْبٌ وَشَبَّانُ^{١٠}
 وتلبس بِالْعَرِّ الرَّدَى وَهُوَ أَكْفَانُ^{١١}
 إِذَا احْتَدَمَتْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ نِيرَانُ^{١٢}
 يُمَجُّ بِهَا السَّيْفُ الرَّدَى وَهُوَ عُريَانُ^{١٣}
 يَقْرُّ بِهَا حَوْرَانٌ عَيْنًا وَلُبْنَانُ^{١٤}
 وتهتز من أرضِ الْعِرَاقِينَ بَغْدَانُ^{١٥}

^١ المباءة: المنزل.

^٢ كيوان: زحل بالفارسية، معرب.

^٣ مأسد: جمع مأسدة، وهي المكان الذي تكثر فيه الأسود. والذرا بفتح الذا: فناء الدار ونواحيها.

والسرحان بالكسر: الذئب.

^٤ مشيحة: جادة مانعة لما وراء ظهرها.

^٥ المسح بالكسر: الكساء من شعر، وإضافته إلى عجاجة بيانية، أي: مسحا عن عجاجة.

وتطرب في البيت المقدّس صخرة
وتحسُن للعُرب الكرام عواقب
ولو أنصفتنا ساسة الغرب لاغتدت
ورقّت قلوب للعراق وأهله
ولكنهم رانت عليهم مطامع
لقد قيل: إن الغرب ذو مَدَنِيَّة
وأَيُّ فَخَار كائن في تمدُّن
إذا كانت الأخلاق غير شريفة

وترتاح في البيت المحرّم أركان
فيحمدُها مُفَتِّ ويشكر مطران
يمشُق لها من ساسة الغرب أعوان
وأصغت إلى شكوى فلسطين آذان
فأمسوا وهم صُمٌّ عن الحق عُميان
فقلت: وهل معنى التمدُّن عدوان؟
إذا لم يَقم في الغرب للعدل ميزان
فماذا عسى تجدي علومٌ وعِرفان؟

* * *

بنفسي أفدي في العراق منابِتًا
رياضُ رعتها النائبات بأذوِبٍ
لقد كان فيها الرند والبان زاهيًّا
وأصبح مرصودًا بها كلُّ منهلٍ
وظل ابنها عن كل حوضٍ مُحلًّا
سأبكي عليها كلما هبَّت الصِّبا
ومن ذرّفت أماقه الدمعَ لؤلؤًّا

يفوحُ بها شيخٌ ويَعْبَقُ حَوَضان^٦
من الجور فارتاعت ظباءٌ وغزلان
فأصبح لا رنْدُ هناك ولا بان
عليه من الترنيق بالظلم ثعبان^٧
يحوم على سلساله وهو عطشان^٨
فمالت بها من حول دجلة أغصان
ذرّفتُ عليها أدمعي وهي مَرْجان

^٦ الشيخ: نبات طيب الرائحة، وكذا الحوِذان.

^٧ الترنيق: التكدير.

^٨ محلًّا: أي مطرودًا ممنوعًا عن ورود الماء.

بين تونس وبغداد

أنشدت في حفلة التأهيل والترحيب بالزعيم التونسي الأستاذ الكبير عبد العزيز الثعالبي،
عند قدومه بغداد سنة ١٩٢٥.

أتونس إنَّ في بغدادَ قومًا
ويجمعهم وإياك انتسابُ
ودينٌ أوضحٌ للناس قبلًا
فنحن على الحقيقة أهل قُربى
وما ضَرَّ البِعاد إذا تدانت
وإن المسلمين على التآخي
تَرفُّ قلوبهم لك بالوداد
إلى مَنْ خَصَّ مِنطَقَهم بضاد
نواصِحُ آية سبَلِ الرشاد
وإن قضيتِ السياسة بالبعاد
أواصرُ من لسان واعتقاد
وإن أغرى الأجنب بالتعادي

* * *

أتونس إن مجدك ذو انتماء
لنا بـثعالبيك خيرٌ مُلقٍ
وأكبرُ حامل بيدِ اعتزامٍ
وأسمى من سما أدبًا وعلمًا
دع القول المُرِيب وقائلِيه
تجدُه خطيبها في كل خَطب
إلى عُليا نزار أو إياد
على أشتاتنا حبلَ اتحاد
لحبِّ بلاده عَلمَ التفادي
وأفصحُ مَنْ تكلم عن سداد
وسل عنه المنابر والنوادي
ومدْرَها لدى كل احتشاد^١

^١ المدره: المحامي المدافع عن القوم.

فَتَيَّ صَرُحْتَ عَزَائِمَهُ وَجَلَّتْ
تَغَرَّبَ ضَارِبًا فِي الْأَرْضِ يَبْغِي
فَأَوْغَلَ فِي الْمَفَاوِزِ وَالْمَوَامِي
وَكَانَ طَوَافَهُ شَرْقًا وَغَرْبًا
وَلَكِنْ سَاحَ لِاسْتِنْهَاضِ قَوْمِ
يَغَارُ عَلَى الْعُرُوبَةِ أَنْ يَرَاهَا
فَأَنْتَى سَارَ كَانَ لَهُ هَدِيرٌ
وَكَمَ قَدْ قَامَ فِي نَادٍ خَطِيبًا
تُنِيرُ بِكَهْرِبَائِيِّ الْمَعَانِي
تَحُلُّ مِنَ الْقُلُوبِ إِذَا وَعَتَهَا
إِلَى أَنْ جَاءَ حَاضِرَةٌ نَمَاهَا
فَكَانَ نَزُولُهُ فِي سَاكِنِيهَا
فِيَا عَبْدَ الْعَزِيزِ أَقَمَ عَزِيمًا
يَحْيِيكَ الْعِرَاقَ بِرَافِدِيهِ

عَنْ الرَّوَّغَانِ فِي طَلَبِ الْمَرَادِ
مَدَى مِنْ دُونِهِ خَرَطَ الْقِتَادَ^٢
وَطَوَّفَ فِي الْحَوَاضِرِ وَالْبُؤَادِي^٣
لِغَيْرِ تَكْسُّبٍ وَسَوَى ارْتِفَادِ^٤
حَكَّوْا بِجُمُودِهِمْ صِفَةَ الْجَمَادِ
مَهْدَدَةَ الْمَصَالِحِ بِالْفَسَادِ
يَهْزُ دَوِيَّهُ أَقْصَى الْبِلَادِ
بِمُحْكَمَةِ الْمَقَاصِدِ وَالْمَبَادِي
أُمُورًا كَنْ كَالظَلْمِ الدَّادِي^٥
مَحَلَّ الْحُبِّ مِنْ شَغَفِ الْفُؤَادِ
أَبُو الْأَمْنَاءِ ذُو الشَّرَفِ التَّلَادِ
نَزُولَ الْمَاءِ فِي الْمَهْجِ الصَّوَادِي
بِحَيْثِ الْأَرْضِ طَيِّبَةً الْأَمْرَادِ
تَحِيَّةً مُخْلِصًا لَكَ فِي الْوِدَادِ

^٢ خراط القتاد: قطع ورقه باليد، والقتاد: نبت ترعاه الإبل فتسمن عليه، ويصعب خراط ورقه لكثرة شوكة وقوته.

^٣ الموامي: جمع موماة، وهي الصحراء أيضًا.

^٤ الارتفاد: طلب الرغد، وهو العطاء، يريد أنه لا يبغى من تطوافه كسب مال.

^٥ الدّادي: جمع دأداً بالفتح، أو دؤدؤ بالضم؛ وهي آخر ليلة في الشهر، وأصله: الدّادئ بالهمزة، ثم خفف.

في حفلة شوقي

وما زال ليلى بالعراقين ساهراً^١
على الدهر في كل المواطن ثائرا
وأقرع منهم بالبيان المُكابرا
وكالريح هبّاباً وكالشمس ظاهرا
إذا الدهر أبلَى من بنيه السرائرا
لأدرك نفعاً أو لأدفع ضائرا
يدي أن تحلّي في الجنان أساورا
إذا ما تقاضتني العُلا أن أجاهرا
فيضمّر فيه للجليس الضمائرا
سكنت البوادي واجتنت الحواضرا

أمارسُ دهرًا من جديدي داهرا
أبى الحقُّ إلا أن أقوم لأجله
وأن أتمادى في جدال خصومه
وإني لأهوى الحق كالطيب ساطعاً
ستبقى لنفسي في هواه سريرة
وتكره نفسي أن أكون مخادعاً
ومن أجل مقتي للمخانيث أنكرت
وما العجزُ إلا أن أكون مُكاتماً
وما أنا من يُبهمُ القولَ لاحقاً
ولولا طموحي في الحياة إلى العُلا

* * *

تُفتّق أذهاناً وتجلو بصائرا
وإن بها للحقّ عوناً وناصرا
وإن لأهل الفضل فيها دساكرا

يقولون لي: في مصرَ للعلم نهضة
وإنّ بها للعلم قدراً وحرمةً
وإنّ لأهل العلم فيها نواديًا

^١ يريد أنه أرقه أمر مهم، وهو رغبته في الدفاع عن الحق، وحبّه لجدال خصومه ومنكريه الذين يزخرفون الباطل وينصرونه.

بها رفعوا للقائلين المنابرا؟!
تملّك صيتاً في الأقاليم طائراً؟!
بإنشاده في البر والبحر سائراً
تشدُّ به منا لمصرَ الأواصراً!
ولن تعدّموا مني على الشعر قادراً
يفوق الأوالي بل يبزُّ الأواخراً
وقام عليه بالذي شاء أمراً
وإن رام سهلاً منه أنشد ساحراً
إذا عقدوا منهم عليه الخناصراً
لذا جعلوا حسن الثناء وكائراً^٢

ألم ترَ أنّ القوم في كل محفلٍ
وقد ضربوا وعدّاً لتكريم شاعرٍ
هو الشاعر الفحل الذي راح شعره
فلو قلتَ بعضَ الشعر في يوم حفلهم
فقلتُ: أجل والشعر ليس بمعجزي
ألا إن شوقي شاعرٌ جدُّ شاعرٍ
تملّك حرَّ الشعر فهو رقيقه
إذا رام جزلاً منه أنشد زاخراً
فلا عجبٌ من أهل مصر وغيرهم
بني لهمُ مجداً رفيعاً بشعره

* * *

تقام له ذا اليوم في مصر ساخراً
تقيم على الأحرار في العلم حاجراً؟!
عليّاً وطه حاصباً متطائراً^٢
وما بال هذا عدٌّ في مصر كافراً؟!
فليس لمصر أن تكرم شاعراً
ويُوضع قدرُ العلم ينطق ناثراً؟!
ويقذف بالتجهيل من جاء فاكراً؟!
إذا كان عمّا يبلغ العلم قاصراً
إذا لم تكن فيه النفوس حرائراً
لمن كان عن حُرّية الفكر جائراً
له السبق في تكريم من كان شاعراً

ولكنني قد أنظر الحفلة التي
إذا احتفلت مصرٌ بشوقي فما لها
فقد أسمعنا صجّةً أمطرت بها
فما بالُ هذا عدٌّ في مصر مارقاً
إذا لم تكُ الأفكار في مصر حرةً
أُرفع قدرُ العلم ينطق ناظماً
ويُختصُّ بالتبجيل من جاء منشداً
ألا إنَّ هذا الشعر ليس بطائل
كما أنّ هذا العلم ليس بنافع
وتكريمُ ربِّ الشعر ليس بمفخرٍ
وإلا فعصر الجاهلية قبلنا

^٢ الوكائر: جمع وكيرة، وأصله الطعام يعمل عند الفراغ من بنيان الوكر، أو عند شرائه فيدعو إليه، استعاره الشاعر هنا لحفلة التكريم.

^٢ علي: هو الأستاذ علي عبد الرازق صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، وطه: هو أستاذ الجيل؛ الدكتور طه حسين.

الأمة العربية: ماضيها وبقاها

وسعادة الأوطان في عُمرانها
متواصلُ الأسباب من سُكانها
إلا بنشر العلم في أوطانها
أجرتْ به الأعمالُ حَيْلَ رهانها
أملَ البلاد يكون في شَبانها
نزلت بها الآيات في قرآنها
بفتوحها وعُلوها وبيانها
يعيا ذوو الإحصاء عن حِسبانها
تتحير الأفكار في بُنيانها
عن قَيْسها أبداً وعن قَحْطانها
للمكرُمات يُعدُّ من ديدانها^١
خضعت لها الأفلاك في دورانها
بهرت بني الدنيا جلاله شأنها
رايات مَعْدلة على قَطَّانها
من تُركها طُراً إلى إسبانها

هِمُّ الرجال مَقِيَسَةٌ بزمانها
وأساس عُمران البلاد تعاونُ
وتعاون الأقبام ليس بحاصل
والعلم ليس بنافعٍ إلا إذا
إن التجارب للشيوخ وإنما
هذي لدى العرب الكرام مبادئُ
والعُربُ أكبرُ أُمَّةٍ مشهورة
كم قد أقامت للعلوم مدارساً
وبنّت بأقطار البلاد مصانعاً
فالمجدُ مأثور بكل صراحة
طُبِعَتْ على حُبِّ العلاء فسعيها
نهضت بماضي الدهر نهضتها التي
حَسُنَتْ عواقبُ أمرها حتى لقد
فهمُّ الألى فتحوا البلاد ونشروا
وهمُّ الألى خضعت لهم أمم الورى

^١ الديدان بالفتح: الدأب والعادة.

والروم قد نزلت لهم عن ملكها والفرس عمّا شيد من إيوانها

* * *

يا أمة عاش البريةُ أعصرًا في عدلها رعدًا وفي إحسانها
تم انقضت تلك العصورُ فجاءها زمنٌ به انقادت إلى عبدانها
فنضت ملبسَ عزّها وتثاقلت في الذل راسفة بقيد هوانها

في إيلياء

إلى فاضليها: النشاشيبي والسكاكيني

بغير دم الأنام تريد رِيًّا
بها شكل الأهله خنجريًّا
لِجِرم الأرض حين غدا كُريًّا
فلما يقتدحُ زندًا وريًّا^١
أهانوا الشهم واحترموا الزريًّا
ظنينَ القوم يتَّهم البريًّا
أُعزِّي العلم أم أبكي الدرِّيًّا؟!
وقلبُ ظلٍّ في عمه كُريًّا
وكانت قبل تحتمل الهريًّا^٢
وهزَّ أخو الجبانة سمهريًّا^٣
فأصبحَ من تجسُّسه ثريًّا!
فأمطى من سعايته شريًّا!
قسيًّا في السياسة مرمريًّا

أرى الأيام ظامئة وليست
ولو لم تنو حربًا ما تبدئى
ودلَّ على قلبها انقلاب
وأصلدت الحقيقة في الليالي
نفضتُ يديَّ من أبناء دهر
وقلَّ حيائهم حتى رأينا
وساد الجاهلون فلستُ أدري
لهم عينُ تراعي السرَّ يقضى
تقلدتُ السيوف رُعاة معز
فجرد منهم الرعديدُ عضبًا
وكم ترب تجسَّس للأعادي
وساع كان يسرِّح بالمواشي
وإن لُساسة الدنيا لقلبًا

^١ أصله: لم يور.

^٢ الهريا: العصي، وهو جمع هراوة.

^٣ العضب: السيف القاطع، والسمهري: الرمح الصلب الشديد.

قد اتخذوا الحسام لهم لساناً فقالوا البطلَ واختلقوا الفرياً
وكيف تُساس مملكةٌ بعدل إذا ما الحكم أصبح عسكرياً؟

* * *

ألا ما بالَ دمعي ليس يرقا؟! كأنَّ بمقلتي عرقاً صرياً
إذا ذُكرَ العراقُ بكيتُ شجواً بدمع طمَّ سائله القرياً
ولمَّا سرتُ في جبلٍ وسهلٍ وكابدتُ السائمَ والعرياً
نزلتُ بإيلياءَ على كرامٍ وخيمُ العيش عاد بهم مرياً
فكدتُ بقربهم أنسى بلادي وأسلو الطفَّ ثمةً والغرياً
ولم أرَ كالنشاشيبيِّ ندباً إلى العلياء مبتدراً جرياً
فتى سعت المفاخرُ وهي عطشى إلى آدابه فأصبن رياً
تجدد في العلاء فكان بدعاً فعاش بمصره رجلاً طرياً
وأحرز في الورى شرفاً ربيعاً وصيتاً في العلا إسكندرياً
ولم أرَ سيداً كأبي سريِّ ولا مثلَ ابنه ولداً سرياً
هما متشابهان فعبقريُّ من الآباء أنجب عبقرياً
أبٌ في المجد أروعَ أحوذيُّ نَمى للمجد أروعَ أحوذيّاً
إلى الشهم السكاكينيِّ أهدى ثناءً لا يزالُ به حرياً
فتى غرس المكارمَ ثم منها جنى ثمر العُلا غصّاً طرياً
يعافُ معاشه إلا شريفاً ويأبى المجد إلا جوهرياً

٤ الأحوذي: الجاد في أمره، والحسن السياقة للأمر.

تجاه الريحاني

شكواي الخاصة

به الأناف يَفَعْمُهُنَّ طيبُ
له تهتز بالطرب القلوب
بريحانيِّنا وهو الأديب
له في كل مكرمة نصيب
له بجليسه أترُّ عجيب
فَواقًا لاغتدى وهو الأريب^١
تمرُّ عليه ناسمة تطيب
وريحان الرياض له نسيب
كما يحيا من المطر الجديد
كواكب ليس يُدرکہا مَغيب
كما طارت بشهرته جَنوب
تعرَّفه القبائل والشعوب
شَكاة لا تُصيخ لها الخطوب
وأدعو مَنْ أراه فلا يجيب!

لهذا اليوم في التاريخ نذكر
ويحسن في المسامع منه صوتُ
ففي ذا اليوم نحن قد احتفينا
فتى كثرت مناقبه فأضحى
نجالس منه ذا خُلق كريم
وأقسم لو يجالسه سفيهُ
كذاك يكون زهرُ الروض لَمَّا
ولم يُنسب إلى الريحان إلَّا
له قَلَمٌ به تحيا المعاني
وتُشرق في سماء الشعر منه
لقد طارت بشهرته شَمالُ
وطبَّق صيته الأفاق حتى
فديتك! هل تُصيخ؟ فإن عندي
إلى كم أستغيث ولا مغيث

^١ فواقًا: أي قدر فواق، وهو مدة ما بين الحلبتين.

أَقَمْتُ ببلدة مُلئتُ حُقودًا
أمرُّ فتَنظرُ الأبصارُ شَزْرًا
وكم من أوجِهٍ تُبدي ابتسامًا
سكنت الخانَ في بلدي كأني
وعشت معيشة الغرباء فيه
وما هذا وإن آذى بدائي
ولكني أرى أبناء قومي
يُقدِّم فيهم الشَّريرَ دفعًا
فهذا الداء منتشِبٌ بقلبي
فكيف شفاؤه ومتى يُرجى؟
وإن أكَ قد شكوت فما شكاتي
سأنصبُ للهواجرَ حرَّ وجه
وأضربُ في البلادَ بغير مُكث
إلى أن أستظلَّ بظلِّ قوم
وإلا فالحياة أمرٌ شيءٍ

عليّ فكل ما فيها مُريب
إليّ كأنما قد مرَّ ذيب
وفي طيِّ ابتسامتها قُطوب!
أخو سَفَرٍ تقاذفه الدروب
لأنني اليوم في وطني غريب
ولا هو أمره أمر عَصيب
يدبر أمرهم مَنْ لا يُصيب
لشَرِّته ويُحتقر الأديب
وفي قلب العُلا منه وجيب
وأين دواؤه وَمِن الطيب؟
إلى ذي خُلَّةٍ شيءٍ معيب
يعود إلى الشروق به الغروب
أجوب من المُهامِ ما أجوب
حياة الحر عندهم تطيب
وخيرٌ من مرارتها شُعبُ

بني الأرض

بني الأرض هل من سامع فأبئته
جُبلنا على حبِّ الحياة وإنها
سعى الناس والأقدار مخبوءة لهم
جرت سفن الأيام مشحونة بنا
حديثٌ بصيرٍ بالحقيقة عالم؟
مخيفة أحلامٍ أطافت بحالم
وناموا وما ليل الخطوب بنائم
على بحر عيش بالردى متلاطم

* * *

تأمَّلتُ في الأحياءِ طرّاً فلم أجد
وربَّ سعيدٍ واحدٍ تمَّ سعدهُ
وما المرءُ إلا دَوْحَةٌ في تنوفاً
لها ورقٌ قد جفَّ إلا أقلُّه
ولا بدَّ أن تُجثَّتْ يوماً جذورها
وتقلعها إحدى الرياح الهواجم
بهم باسمًا إلا على ألفٍ واجم
بألفٍ شقيٍّ في المعيشة راغم
مُلَوَّحَةٌ أغصانها بالسماجم^١
وعيدانها بين النُّيُوب العواجم^٢
وتقلعها إحدى الرياح الهواجم

* * *

أرى العُمرَ مهما ازداد يزداد نقصه
ولولا انهدامٌ في بناءِ جِسمنا
إذن نحن في نقصٍ من العمر دائم
لما احتيج في تعميمها للمطاعم

^١ الدوحة: الشجرة العظيمة. التنوفاً: المفازة والفلاة لا ماء فيها ولا أنيس.

^٢ النُّيُوب: جمع ناب، وهي السن التي خلف الرباعية. العواجم: الأسنان؛ لأنها تعجم المأكول.

لحى الله بأساء الحياة كأننا
 نروح كما نغدو نجاهد دونها
 فلو كنت في هذا الوجود مخيراً
 هل الموت إلا سالك وحياتنا
 وما زال هذا الدهر غضباناً أخذاً
 تبصّر تجد هذي البسيطة منزلاً
 وليس الذي آسى له فقد هالك
 أرامل تستذري الدموع وحولها
 وكائن ترى مخدومة في جلالها
 فليت المنايا حين قوّض بيتها
 نكبّل من حاجاتها بالأداهم^٣
 أموراً دعتنا لارتكاب الجرائم
 وفي عدمي لاخترته غير نادم^٤
 إليه سبيل مستبين المعالم؟
 على الناس من سيف المنون بقائم^٥
 كثير اليتامى عامراً بالمآتم
 ولكن ضياع المفجعات الكرائم
 يتامى كأفراخ القطا والحمائم
 سعت حيث أبكاها الردى سعي خادم!^٦
 بدأن بها من قبل هدم الدعائم!

* * *

أرى الخير في الأحياء ومض سحابة
 إذا ما رأينا واحداً قام بانياً
 وما جاء فيهم عادل يستميلهم
 جهلت كجهل الناس حكمة خالق
 وغاية جهدي أنني قد علمته
 بدا خلباً والشرّ ضربة لازم
 هناك رأينا خلفه ألف هادم
 إلى الحق إلا صدّه ألف ظالم
 على الخلق طراً بالتعاسة حاكم
 حكيمًا تعالى عن ركوب المظالم

* * *

دأبت لنفسي في الحياة كأنني
 يخاصمني منها على غير طائل
 وأقنع بالقوت الزهيد لطيبه
 من العيش ملقى في شقوق الضراغم
 أناس فأبدي الصفح غير مخاصم
 حذار وقوعي في خبيث المطاعم

^٣ يقال: لحى الشجرة: بمعنى قشرها، ويستعمل اللحي بمعنى الشتم والسب مجازاً كما هنا. الأداهم: القيود.

^٤ اخترته: أي اخترت العدم.

^٥ قائم السيف: مقبضه.

^٦ كائن: بمعنى كم للتكثير.

بني الأرض

وأترك ما قد تشتهي النفس نيلَه
وكم لي في بغدادَ من ذي عداوَةٍ
لما تشتهيهِ قِلةٌ في دراهمي
إذا جئت بالقلب السليم يجيئني
وما أنا في شيءٍ عليه بجارم!^٧
بقلبٍ له من كثرة الحقد وارم

^٧ جارم: مذنب.

الحمد للمعلم

إلى المعلم نخلة زريق

وأرقت فيه النجم أن يتغورا^١
تكاثف حتى خلته قد تحجرا
فلو سار سار في دُجَاهِ تَعْتَرَا
إذا زاد طُولاَ زدت فيه تَضَجُّرَا
لواعج شوقٍ في الفؤاد تسعُرَا
بتيهَاءِ يَجْتَابِ الدُّجَى متحِيرَا
تُرَدُّ لحظًا في الدُّجَنَةِ أَشْرَا
لنخلة رأيا بالذكاء مُنَوَّرَا
كبيرًا ومد شاهدته كان أكبرَا
وعقلُ رزين بالعلوم تحضُرَا
أديبًا وإن خاشنته فَعَضَّنَفْرَا
لُدُنْ كان للتدريس فيها تصدُرَا
بها قرط الأذان دُرًا وجوهرا
أمالِي أملها عليهم وقررا

وليلٍ به قد بتُّ أختلس الكرى
تمطى على الأكام منه بغيهپ
وكاد دُجَاهِ يَمَكُن الكفَّ لمسه
لقد بتُّه والهمُّ مُعْتَلِجٌ به
يقلِّبني فيه الجوى وتهزُّني
أرى الزُّهر فيه يضطربن كخابط
كأنَّ نجوم الليل غُضِبِي على الدُّجَى
إلى أن بدا لي الصُّبح يحكي عموده
فتى كنت قبل اليوم حُبِّرت فضله
له خُلُقٌ بادٍ إباءً ونخوةً
ترى منه إن لا يَنْتَهُ ذَا دماثة
لقد علمت هذي المدارس فضله
تقصَّتْ له فيها ثلاثون حِجَّة
وجَهَّز بالآداب أبناء قطره

^١ يتغور: يميل للمغيب.

بذلك أحيا للأعاريب لهجةً
إذا استبهمت طُرُقُ الفصاحة مازها
لنا اليوم جيش من تلاميذ علمه
هم الجيش سدّوا ثغَرَ كلِّ جهالةٍ
له الفضلُ في تعليمهم أفصح اللّغا
فكلُّ فتى منهم أديبٌ نقيمه
لك ابنُ زُرَيْقٍ مِنَّةٌ سرْمديّةٌ
إذا ما سمعنا ناطقًا بفصاحةٍ
كفى بالسكاكيني في القدس شاهدًا
فقد كان قبل اليوم تلميذك الذي
خلا رَبْعُها من ساكنيه وأقفرا
بما في كتابِ اللّهِ منها تقرّرا
به الجهل ولى مدبرًا وتقهورا
إذا اتخذوا في كل ثغر معسكرا
وغرّ القوافي والكلامَ المحبّرًا
ليلقى درسًا أو ليقرع منبرًا
سيذكرها في دهره مَنْ تذكرا
من الناس أثنينًا عليك تشكّرًا
بما لك من فضل عميم على الورى
غدا اليوم أستاذًا كبيرًا مفكّرًا

عرس مصر

قالها لَمَّا أُقِيمَ في مصر عرس لكريمة مصري عند اقترانها بابن الداماد فريد باشا، وكان ذلك في أثناء حرب البلقان المعلومة.

أطربَتَهُمْ بلحنها الأَنغامُ
فأقاموا مجالسَ الأَنسِ حتى
أضحكوا أوجهَ السفاهة ضحكًا
إنَّ في مصر للكريمة عرسًا
أوقدوا فيه للسُرورِ سراجًا
ذاك عرس تَكَشَّرَ اللؤمُ فيه
وتغنَّتْ للقومِ فيه قِيانُ
فلعِينِ الحليمِ فيه بكاء

حين أدمت قلوبنا الألامُ
رقصَ العارَ بينهم والذامُ
قد بكت في خلاله الأَحلامُ
سوف تُعْنَى بشرحه الأَقلامُ
عمَّ من نوره البلادَ ظلامُ
عن نيوب كأنهن سهامُ
أنكر المهدُّ صوتها والذمامُ
ولتغر السفيه فيه ابتسامُ

* * *

أيها المُولمُونِ في مصر مهلاً
أتغنِّيكم القيانَ بيوم
لبست هذه البلادَ حدادًا
وجرت أعين الفرات دموعًا
أشَمَاتًا بالمسلمين وقد دا
إن رمتهم يد الزمان بخطب
فهوت في مصارع الحكم منهم

إن إيلامكم لنا إيلامُ
قام في مآتم به الإسلام؟!
وتحلَّت بوشيتها الأفرامُ
وجرى النيلُ ثغره بسامُ
رت عليهم بنحسها الأيام؟!
جَلَل ما لنقضه إبرامُ
جثت تملأُ الفضاء وهامُ

وتخلُّوا عن البلاد وأبقوا حُرْماتٍ تدوسها الأقدام

* * *

يا بني مصر صغية لسؤال
أتناط الفتوح في خنصر الكف
أدما القتلى لديكم خضاب
أم تريدون أن تكونوا كقوم
أم أصختم إلى الأغاريد كيلا
لست أدري وقد سمعت بهذا
فيه عتب لكم وفيه ملام
ازدياناً إن قطت الإبهام؟^١
أم أنين الجرحى لكم أنغام؟
أسكرتهم بين القبور مُدام؟
تسمعوا كيف تنحب الأيتام؟
يقظة ما سمعته أم منام؟

^١ الفتوح: جمع فتح، وهي حلقة كالخاتم.

من مضحكات الدهر

ولو كان يجري بالذي هو مهلكي
ولا خائفٌ من شره المتحرِّكِ
فأضيقُ ما فيه شكايةٍ مشتكي
ولك كضحكِ العَفِّ من متهتِّكِ
لما حصلوا منها على غير مُضحكِ
كعشواءٍ تمشي مشية المتهرِّوكِ^١
وتبرك أحياناً على غير مَبْرِكِ
كحك فصوص النرد في نقل مُهْرَكِ^٢
حوى من سهام القَمْرِ كل مُدْمَلِكِ^٣
وأخر مقمورٍ بقدح التصعلِكِ
سوى شبكِ منصوبةٍ للتملكِ

سأبدي لدهري ناجدَ المتضحِّكِ
فما أنا راجٍ بعد ذا اليوم خيرَه
إذا الدهر لم يُعتب من الناس جازعاً
على أنَّ ضحكي منه لا عن سفاهةٍ
ولو سبَرَ الناس الحوادث بالنهي
وما حادثات الدهر إلا خوابُ
وتنهض للإرقال في غير مَنهض
وما حُكْم هذا الدهر إلا تحكُّمُ
كأننا من الدنيا ببيت مقامرٍ
فمن قامرٍ قد فاز باليسرِ قدحُه
وما الحِرَف اللاتي يجيد احترافها

^١ المتهوك: المضطرب، الذي تراه كأنه يموج في مشيته.

^٢ المهرك: واحد المهارك، وهو قطع مستديرة من خشب أو غيره يلعب بها في النرد.

^٣ سهام القمر: قداحه التي يقارع بها في القمار. والمدملك: من السهام المخلوق، أي: المسوى للممس، لما جعل أحكام الدهر في البيت المتقدم كأحكام كعاب النرد، ناسب أن يجعل الدنيا في هذا البيت بيت مغامرة، والناس فيها بين قامر ومقمور، وأوضح ذلك بالأبيات التالية.

وإنَّ طبيبِ القومِ ناصِبٌ كِفَّةٌ
 ومن مضحكات الدهر حاملُ سُبْحَةٍ
 وآخرُ تركيٍّ تعرَّبَ وادَّعى
 وتحديثُ غرِّ مطرِيًّا عدلُ دولة
 وما الناسُ إلا خادعٌ أدركَ المنى
 فلا تُبِدُ من زيرِ النساءِ تعجبًا
 فما دارتِ الأفلاكُ إلا وقطبها
 وإن أبصرتُ عينك يوماً حقيقةً
 فإنك لم يُنبئك مثلُ مُجَرَّبٍ
 فهذا لعمرُ الله رأيي فخذ به

ليصطاد فيها بالدواء الممصطك^٤
 تُقَبَّلُ جهلاً كَفُهُ للتبرُّك
 على عربي هُجِنَةُ المتترك^٥
 برايتها رسم الصليب المشبَّك
 وآخر مخدوع لها غير مدرك
 ولا تغتَرِرُ بالزاهد المتنسك
 بحكم الهوى حب الكعابِ المفكِّ^٦
 تخالف ما قد قلتُه فتشكَّك
 خبير ولم ينصحك مثل مُحَنِّك
 فقد فُزَتَ منه بالجذيلِ المحكِّ^٧

^٤ الكفة: حباله الصائد التي يصيد بها الطباء، وهي بضم الكاف وتكسر. والدواء الممصطك: المخلوط بالمصطكي.

^٥ حاصل معنى البيت أن من المضحكات تركياً تعرب، فصار يعير بالهجنة عربياً قد تترك.

^٦ الكعاب: كسحاب؛ الجارية الناهد. والمفكك بصيغة الفاعل واللام مشددة؛ التي استدار ثديها، يقال: فلكت الجارية: استدار ثديها كفلكة المغزل.

^٧ الجذيل المحكك: الذي يشتفى برأيه، والجذيل: تصغير جذل، وهو عود كانوا ينصبونه في العطن لتحتك به الإبل الجربي، ثم صار يضرب مثلاً للذي يستشفى برأيه.

الشارع الكبير ببغداد

دَ وَلَا تَمْشِ فِيهِ إِلَّا اضْطَرَارًا
تَلَقَّ فِيهِ السُّهولَ والأوعارَ
إِنْ تَقَحَّمْنَ وَعَثَهُ والخبارَ
جِهَ حَثْوًا وتَقذِفَ الأحجارَ
قَ نَهَارًا لَمَّا أَمِنَتِ العشارَ
مِنْ هَوَاءِ تَنْسَمُوهُ غبارًا
حَامِلًا فِي ذرَاتِهِ الأفتارَ
مَسْبَطَرًا عَرْمَرَمًا جَرَارًا^١
جَاشَ نَقَعًا عَلَى الوجوهِ مُثَارًا
مَ إِذَا هُمْ تَخَبَّطُوهُ نَهَارًا
فَتَجَنَّبَ رصيفه المنهارًا
رَفَافًا لِحَظًّا أَنْكَرْتَهُ إنكارًا
عَ حُسْنًا وَيَبْهَجُ الأَبصارًا
تَكَرَّهُ العَيْنُ أَنْ تَرَاهُ جِدَارًا
مَتَدَانٍ تَقْيِسُهُ أَشْبَارًا

نَكَبِ الشَّارِعِ الكَبِيرِ ببغدا
شَارِعُ إِنْ رَكِبْتَ مَثْنِيَهُ يَوْمًا
تَتْرَامِي سَنَابِكَ الخَيْلِ فِيهِ
فَهْيُ تَحْتُو التُّرَابَ فِيهِ عَلَى الأُو
لَوْ رَكِبْتَ البُرَاقَ فِيهِ أَوْ البِرْ
تَحْسَبُ العَابِرِينَ فِيهِ سُكَارِي
سَاطِعًا يَمْلَأُ الفِضَا مُسْتَطِيرًا
مُسْتَجِيشًا مِنَ الجَرَاثِمِ جَيْشًا
هُوَ إِنْ رُشَّ جَاشٌ وَحَلًّا وَإِلَّا
تَصْهَرُ الشَّمْسُ فِيهِ أَدْمَغَةُ القُو
وَإِذَا مَا مَشِيْتَ فِي جَانِبِيهِ
وَإِذَا مَا أُرْسَلْتَ فِيهِ إِلَى الأَطْمِ
لَا تَرَى فِيهِ مَا يَسْرُكُ بِالصَّنَدِ
بَلْ تَرَى العَيْنَ فِيهِ كَلَّ جِدَارِ
فَجِدَارٌ عَالٍ وَفِي الجَنْبِ مِنْهُ

^١ مسبطرًا: من اسبطر؛ أي امتد.

ودكاكينُ كالأفاحيص تمت
أين هذا من الشوارع في الأمص
عبدوها ومهدوها فجاءت
وأعدوا بهنَّ كل رصيف
وأقاموا لهم بها كلَّ صرح
فعلى الجانبين كل بناء
ثم لم يكتفوا بذلك حتى
فوقتهم ظللها وهج الشم
هكذا فلتكن شوارعنا اليو
دُ يمينًا بطوله ويَسارا
ار زانت بحسنها الأمصارا؟!
لا اعوجاجًا بها ولا إزوارا
يَحْمَد السيرَ فوقه من سارا
مشمخرٌ بناؤه اشمخرارا
خيلَ في الحسن كوكبًا قد أنارا
غرسوا في ضفافها الأشجارا
س وسرَّ اخضرارها الأنظارا
م وإلا فما عمرنا الديارا

على الخوان

أكبَّ على الخوان وكان خَفًّا
ووالى بينها لُقْمًا ضخامًا
وعاجل بَلْعَهْنَ بغير مَضْغٍ
فضاقت بطنه شَبَعًا وشالت
فأرسلتُ اللحاظ إليه شَزْرًا
أَرَى اللقَمَات تَأخُذها حلالًا
قد انتَضَدت بجوفك مفرداتُ
أتردد الطعامَ بغير مضغ؟!
فلا تَأْكُل طعامك بازدرادٍ
ألا إِنَّ الطعام دواءٌ داءٍ
فداو سَقَامَ جوعك عن كفافٍ
وما أكل المطاعم لالتذانِ
طعام الناس أعجب ما أحبوا

فلما قام أثقله القيام^١
فما مرئت له اللُقْم الضخام^٢
فهن بفيه وضع فالتهام
إلى أن كاد ينقطع الحزام
وقلت له: رويدك يا غلام!
فتدخل فاك وهي به حرام
تخلَّل بينها الداءُ العُقام
على أيام صحتك السلام
معاجلةً فيأكلك الطعام
به ابتليت من القِدَم الأنام
فإكثار الدواء هو السَّقَام
ولكن للحياة بها دوام
فمنه حياتهم وبه الجِمام

^١ أكبَّ عليه: أقبل عليه ولزمه. وكان خَفًّا بالكسر: أي خفيًّا.

^٢ والى بينها: أي تابع بين اللقم. فما مرئت له: أي ما سأغت المغبة. لقمًا: تمييز للضمير المضاف إليه في قوله بينها.

يقودهمُ الزمان إلى المنايا
وأعجب منه أن الناس راموا
إذا استعصى القفار عليك أكلاً
حَذَارِ حَذَارٍ من جَشَعِ فَإِنِّي
وأغبي العالمين فتىً أكوُلُ
ولو أني استطعت صيام دهري
ولكن لا أصوم صيام قومٍ
فإن وضح النهار طَوْوًا جِياً
وقالوا: يا نهار لئن تُجِعْنَا
وناموا مُتخمين على امتلاءٍ
فقل للصائمين أداءَ فرضِ:
وما غير الطعام لهم زمام
تنوُّعه ألا ببئس المَرام!
كفاك من القَراح له إدام^٢
رأيت الناس أجشعها اللثام!
لفطنته ببطنته انهزام
لصمت فكان ديداني الصيام
تكاثر في فُطورهمُ الطعام
وقد نهموا إذا اختلط الظلام
فإنَّ اللَّيْلَ منك لنا انتقام
وقد يتجشَّئون وهم نيام
ألا ما هكذا فُرض الصيام!

^٢ القفار بالفتح: صفة لمحذوف؛ أي الخبز القفار، ويقال: خبز قفار: أي غير مأدوم. والقراح بالفتح: الماء الخالص.

تحية سر كيس

أنشدها في حفلة أقيمت في القدس لتكريم الكاتب الشهير سليم سر كيس، عند قدومه إليها زائراً.

فَسَجَرْتُ فِيهِ مِنَ الثَّنَاءِ وَطَيْسَا
يُعْزَى إِلَيْهِ مِنَ الْعُلَا مَعْكُوسَا
بِلِقَائِهِ، إِلَّا الْفَتَى سِرْكَيْسَا
فَأَحْسَّ قَلْبِي مِنْ هَوَاهِ رَسَيْسَا
عَقْدًا مِنَ الصَّيْدِ الْكِرَامِ نَفَيْسَا
فِي دِيرٍ مِنْهُ عَلَى الْجُلُوسِ كَثُوسَا
فِي رِيكِ مَعْجَزَةِ ابْنِ مَرْيَمِ عَيْسَى
خَلْنَا مَحْدَثْنَا أَرْسَطَالَيْسَا
بِالضَّحْكِ تَصْفَعُ مِنْ تَرَاهِ عَيْبُوسَا
يَوْمًا لَجَادَ لَهُ وَحَلَّ الْكَيْسَا
أَكْرَمَ بِمَثَلِكَ يَا سَلِيمَ جَلَيْسَا!
أَخْلَقَ بِمَثَلِكَ أَنْ يَكُونَ رَيْسَا
تُزْرِي بِأَزْهَارِ الرِّيَاضِ طُرُوسَا
عِذْرَاءَ بَاهِرَةَ الْجَمَالِ عَرُوسَا
تَشْفِي بِنَفْثِ يِرَاعِكَ الْمَأْلُوسَا
فَتَضِيءُ فِي لَيْلِ الشُّكُوكِ شَمُوسَا

من فاضلٍ أكبرته قبل اللِّقَا
حتى إذا كان اللقاء وجدت ما
إلا الفتى سر كيس؛ أي وتشرُفي
جالسته في القدس أولَ مرَّةٍ
في مجلسٍ نظم الزمان بصدرة
إذ كان يسكرنا بخمر حديثه
يحيي السرور الميتَ منك بنكتة
وإذا أفاض من الحديث بحكمة
وإذا تحدّثَ مازحًا فنكاته
لو يستدرُّ يدَ الشحيح بظرفه
جالسته فكه الكلام منافئًا
فمجالس الأديباء أنت رئيسها
أولست ربَّ مَجَلَّةٍ أدبيةٍ
في كل شهرٍ بالفنون تزفها
قد جئتَ في تحبيرها متنطِّسًا
تبدو الحقائق من خلال سطورها

ديوان معروف الرّصافي

لَمَّا قَدِمْتَ الْقُدْسَ قَصِدَ زِيَارَةَ فَمَنْحَتَ وَحِشَةَ أَهْلِهَا تَأْنِيْسَا
قَمْنَا لِفَضْلِكَ يَا سَلِيْمٌ تُجَلِّئُ نَحْنِي الظُّهُورَ مُطَاطِئِينَ رءُوسَا

إلى البلاغ

أرسلها وهو في الآستانة إلى محمد باقر، لَمَّا أصدر جريدة البلاغ في بيروت.

بما أصدرت من حُجج البلاغ
فجاءت وهي فائقة المصاغِ
لدى الأذواق طيِّبة المساغِ
نحاول منه قلبًا غير صاغِ؟
أينفع ما تريد من الدباغِ؟
حيارى بين منتصف وباغِ؟
يلوكون القفار بلا صبِاغِ
وما هو في «الحقيقة» غير لاغِ
لتمضغهم بأسنان شواغِ
تضجُّ كأنها الإبل الرِّواغِ
فما أدعوك فيه إلى الفراغِ
فيفرح من ملالك كل طاغِ
يفلِّق هام أرباب الرِّواغِ
وأونَّة بدنندنه المنَّاغِ
تؤيِّدك البلاغة في البلاغِ
تفوق سواك في كبر الدِّماغِ

أباقرُ لم تدعُ للقوم عُذرًا
فقد صُغتِ النصائحَ خالصاتِ
وأوضحتِ الحقائقِ رائقاتِ
ولكن أين من يُصغي ومن ذا
لقد حلم الأديم فليت شعري
ألسـت ترى بني الإسلام أمسوا
فقومٌ في مقاصفهم وقومٌ
وكم داعٍ رأوه لهم «مفيدًا»
وكم صحفٍ لهم فغرَّتْ حلوقًا
وما أخذتهمُ نفتًا ولكن
على أني وإن أبديت سُخطًا
فلا تترك بلاغك عن ملالِ
فقم في القوم مُنتضياً يراعًا
وخطبهمُ بشقشقةِ المنادي
فأنت فتى إذا بلَّغت أمرًا
وأنت وإن خلقتِ نحيف جسم

في حفلة الزهاوي

زهت بقدم شاعرها الزهاوي
زهت بطبيبِ علتهَا المداوي
به لو ظلَّ وهو هناك ثاوي
فخارُ الأرض والشرف السماوي
بِمَنْ لا زال مُرشدَ كل غاوي
يَراعُ جميلها إلا دَعاوي
رواه له بأقصى الأرض راوي
فجَلَّ عن المُعادلِ والمساوي
يسوءك نقدُ أربابِ المُساوي
بفهم كان أجدر بالتداوي
إذا هم أفزعوك بصوت عاوي
يدل على الضغائن في المطاوي
تذيقُ نفوسهم حرَّ المكاوي
إذا ما ناوعوك ولم تناوِ
بضغثٍ من نباتِ الشعرِ ناوي
بهزَّ مذبذبةً وهويَّ هاوي
وهم ما بين مهزول وضاي
ويسقطهم إلى سفلى المَهاوي

أرى بغداد من بعد اغبرارِ
زهت بكبيرها أدبًا وعلمًا
وكادت مصر تسبقها فخارًا
ولكن عاد محتقبًا إليها
فأهلاً بالحكيم وألفَ أهلِ
وما الآداب في بغداد لولا
إذا ما قال في بغداد شعراً
تفرَّد في بديع الشعر معنًى
أعيدُك يا جميل الشعرِ من أن
يداوون السقيم من المعاني
ألا لا تعجبن وهُمُ نئاب
لقد نقدوا قريضك نقد أعمى
فأحم لهم حديد الشعر حتى
فهم قوم يروُن الحلم عَجْزا
ولا تضربهم إن شئت إلا
فهم مثل الذباب يطير نعرًا
وليسوا مُحوجيك إلى معين
فنفخُ منك يجعلهم هباءً

ديوان معروف الرّصافي

وما احتاج القويُّ إلى مُعينٍ إذا كان الضعيف هو المُقاوي

إلى صاحبة الحياة الجديدة

أرسلها إلى السيدة حبوبة صاحبة مجلة الحياة الجديدة في بيروت.

هَلُمَّ يا قومُ نسعى
فإن فينا افتقارًا
إلى اتحادٍ وسعي
إلى معاهدٍ نُفني
إلى مدارس تعلو
إلى عقولٍ كبار
إلى جسومٍ نُقاوي
إلى صلاحٍ نداوي
وإن أريد اكتفاءً
فكل ما نبتغيه
هو الذي تدعّيه
تلك الصحيفة تأتي
تلك المجلة تحوي
حبوبةً استنشديني
فأنت خيرُ فتاةٍ
الشرق فيه قيود
وفيه داءٌ جُمود

إلى حياةٍ سعيده
إلى أمورٍ عديده
إلى المساعي المُفيدة
بها الشرور المبيده
على القصور المُشيده
إلى نفوسٍ رشيده
بها الخطوبَ الشديده
به فساد العقيده
بكلمةٍ عن قصيده
هو الحياة الجديدة
حبوبةً في الجريده
لنا بكل شريده
من كل عقد فريده
إن شئتِ كل نشيده
حميدةٍ ومجيدة
وقد فككتِ قيوده
وقد شفيتِ جُموده

ديوان معروف الرّصافي

آرأوك الغرُّ فيه صحيحة وسديده
مَن لا يُريد أمورًا لهنَّ أنت مُريدَه
إلا الذي عاش غرًّا وطوَّق الأسرُ جيدَه
فذاك ما عاش إلا لقصعة وثریده

إلى المتعلم

ووصولاً إلى الفخار الأتم^١
فاترك النفس والذي هي ترمي
إن قسر الطباع أكبر ظلم
ر ومن ذا يردُّ تيار يَمِّ
م وإلا استقأت من سوء هضم
هاضم في ذكائه كل علم
رب في كلِّ ذي العلوم بسهم
لذويه من قبح فهم الأعم^٢
يد فاعلم وليس منم كمُصمي^٢
تِ فهازل سُويعة واستجم^٢
فق يُذكي الفؤاد والعنف يُعمي

أخَص في العلم إن أردت كمالاً
وإذا رُمْتَ في التعلُّم جِدْقاً
واجتنب قسرها على ما أبته
إنما الميل في الغرائز تياً
أطعم العقل ما اشتهاه من العـ
ليس في أرؤس الرجال دماغُ
فمن النقص أن تحاول أن تضـ
حسن فهم الأخصَّ أكثر نفعاً
وبُغاة العلوم مثل رماة الصـ
وإذا ما اشتغلت بالجد ساعاً
وترفَّق إذا جُهدت فإن الر

^١ قوله أخص: فعل أمر من أخصى طالب العلم، إذا تعلم علماً واحداً.

^٢ قوله: «وليس منم كمصمي»، المنمي: اسم فاعل، من قولهم: أنمى الصياد الصيد؛ إذا رماه فأصابه ولم يقتله، ثم ذهب عنه فمات، والمصمي: اسم فاعل من قولهم: أصمى الصيد؛ إذا رماه فقتله مكانه وهو يراه، والمعنى أن طالب العلم كرامي الصيد، فإذا أخصى في العلم وأتقنه كل الإتقان، كان كالمصمي الذي ينتفع بصيده.

ولقد يبلغ العجول مداه
كل مَنْ كانت العلوم لديه
أَيُّ فضلٍ لعالم غير بدع
سار شوطاً لكلِّ علم ولكن
هَبْه أبدى من العلوم نجومًا
أوليس البدرُ التمام وإن كا
كن قويًّا في كل ما تدَّعيه
أيها العاجزُ الضعيفُ رويدًا

بالتأني بلوغ خَضَمٍ بِقَضَمٍ^٣
جَمَّةً كان نفعه غيرَ جَمٍّ
ليس في العلم يُرتجى للمُهْمِّ؟!
لم يَنَلْ فيه غايةَ المستتمِّ
في ليالٍ من المشاكل دُهم
ن وحيدًا يربو على ألفِ نجم؟!
إنما الفوز للقويِّ المُلمِّ
أقرنُ الضأن فاتكُ بالأجمِ^٤

^٣ المراد بالخضم هنا: الأكل ملء الفم. والقضم: الأكل بأطراف الأسنان قليلاً قليلاً، وقد ضمن هذا البيت المثل وهو قولهم: «قد يبلغ المخضم بالقضم»؛ أي الشبعة تبلغ بالأكل بأطراف الفم، أي الغاية البعيدة تدرك بالرفق.

^٤ الأقرن من الضأن: الذي له قرنان. والأجم: الذي لا قرن له، والمعنى أن القوي فاتك بالضعيف لا محالة.

اليتيم المخدوع^١

قضى والليل مُعتكراً بهيمٌ
قضى في غير موطنه قتيلاً
قضى من غير باكيةٍ وباكٍ
قضى غُصَّ الشبيبة وهو عَفٌّ
سقاه من الردى كأسًا دهاقًا
تجرَّعها على طربٍ ولكن
على حينَ الربابة في نواحٍ
بحيث رقائق الألحان كانت
كأن ترنُّم الأوتار نعيٌ
ولا أهل لديه ولا حميم
تمجُّ دمَ الحياة به الكلوم^٢
ومن يبكي إذا قتل اليتيم؟
مُطهَّرة ماآزره كريم
عَفافُ النفس والعِرْضُ السليم^٣
بكفُّ اليتيم ليس له نديم
يساجلها به العود الرخيم
بها الأشجان طافية تعوم
وصمت السامعين لها وجوم

^١ السبب الذي دعا شاعرنا إلى نظم القصيدة، أن رجلاً يهودياً مطرباً من حلب اسمه «سليم» خدع غلاماً مسيحياً يتيمًا من أهلها، وأتى به من بغداد فأراد منه المنكر بعض أهلها، فأبت نفس الغلام الزكية الطاهرة ذلك، فجاءه يوماً وهو سكران والغلام في نادي طرب يضم المئات من الناس، وأطلق عليه الرصاص، فسقط ذلك اليتيم المخدوع على الأرض، فحمل إلى مستشفى الغرباء هناك، وقبض على الجاني وزج به في السجن، فنظم معروف الرصافي هذه القصيدة حاكياً بها هذه الحادثة المؤلمة.

^٢ الكلوم: الجروح.

^٣ دهاقًا: ممتلئة.

فجاء الموتُ ملتفَعًا بخزِي
فأطلق من مسدّسه رصاصًا
فخرَّ إلى الجبين به «نعيمٌ»
فبانَ مودّعًا بعد ارتثاثٍ
لئن لم تبك من أسف عليه
ولو درتِ النجوم له مصابًا
عسى الشهباءُ تتأره فتبدي
ولم يقتله «إبراهيم» فيما
أليس «سليمٌ» الملعون أغوى
وأخرجه من الشهباءِ غرًّا
وجاء به إلى بغداد حتى
سأبكيه ولم أعبأ بلاح
ولمّا أن ثوى ناديت أرخ

وملءُ إهابه سفهُ ولومٌ^٤
به في الرّمي تنخرق الجسم
كما انقضت من الشهب الرجوم^٥
حياءً لا تُناط بها الوصوم^٦
سفاهتنا فقد بكت الحُوم^٧
بكته على ترفعها النجوم
إلى الزوراءِ ما يبدي الخصيم^٨
أرى بل إن قاتله «سليم»
«نعيمًا» فهو شيطان رجيم
يتيمًا ما له أبدًا زعيم
تخرّمه بها قتل أليم
وأندبُه وإن سخط العموم
ثوى قتلاً بلا مهلٍ «نعيم»

^٤ الإهاب: الجلد قبل أن يديخ.

^٥ الرجوم: ما يرمج به، مفردها رجم.

^٦ ارتث ارتثاثًا: بالبناء للمجهول؛ حمل من المعركة جريًا. الوصوم: العيوب.

^٧ الحُوم: العقول.

^٨ الشهباء: حلب. والزوراء: بغداد.

ميت الأحياء وحي الأموات

تَيْقُظُ فما أنت بالخالدِ
فخلدٌ بسعيك مجداً يدومُ
وأبْقِ لك الذكر بالصالحاتِ
وردٌ ما يناديك عنه الصدورُ
وسر بين قومك في سيرةٍ
فإن فتى الدهر مَنْ يدَّعي
ولا تكُ مُرْمَى بداءِ السكونِ
وكن رجلاً في العلا حُوَّلاً
إذا اطردت حركات الحياة
ولم تتنوع أفانينها
ولم تتجدد لها شَمَلَةٌ
فما هي إلا حياة السَّوامِ

ولا حادث الدهر بالراقِدِ
دوام النجوم بلا جاحدِ
وخلُّ النزوع إلى الفاسدِ
ألا درُّ درُّك من وارد!²
تميت الحقود من الحاقِدِ
فتأتني أعاديه بالشاهدِ
فتصبح كالحجر الجامدِ
تفنن في سيره الراشد³
ومرَّت على نسقٍ واحدِ
ودامت بوجهٍ لها باردِ
من السعي في الشرف الخالدِ
تجول من العيش في نافدِ⁴

¹ النزوع: الميل.

² الصدور عن الأمر: الرجوع عنه. در درك: أي أكثر خيرك، وأصل معنى الدر: اللين.

³ الحول: هو الشديد الاحتيال.

⁴ السوام: الحيوانات السائمة.

* * *

وما يُرْتَجَى من حياة امرئٍ كماءٍ على سَبْخَةٍ رَاكِدٍ^٥
وليس له في غضون الحياة سوى النَّفْسِ النَّازِلِ الصَّاعِدِ
يَغْضُ على الجهل أجفانه ويرضى من العيش بالكاسد
فذاك هو الميْتُ في قومِه وإن كان في المجلس الحاشد
وما المرءُ إلا فَتَى يَغْتَدِي إلى العلم في شَرِكِ صَائِدِ
سعى للمعارف فاحتازها وصاد الأنيسَ مع الآبَدِ^٦
وطالع أوجه أقمارها بعينٍ بصيرٍ لها ناقد
فأبدى الحقائق من طيِّها وألقى القيود على الشارد
إذا هو أصبح نادى: البدارَ وشمّر للسعي عن ساعد
فكان المجليّ في شأوه بعزمٍ يشقُّ على الحاسد
وإن بات بات على يَقْظَةٍ بِطَرْفِ لِنَجْمِ العُلا راصد
وأحدثَ مجدًا طريفًا له وأضربَ عن مجده التالد
وما الحمقُ إلا هو الاتكا لُ على شَرَفِ جَاءٍ من والد
فذاك هو الحيُّ حيُّ الفخار وإن لحدّته يد اللاحد

^٥ السبخة: الأرض ذات النز والملح.

^٦ الآبد: النافر.

نحن في بغداد

أيا سائلاً عنَّا ببغدادَ إننا
علتُ أمةَ الغربِ السماءَ وأشرقَت
وهم ركضوا خيلَ المساعي وقد كبا
فنحن أناسٌ لم نزل في بَطَالَةٍ
خضعنا لحكام تجور وقد حلا
كما قامرتنا ساسةُ الأمرِ خدعةً
لماذا خلف الموت جُبناً فلم نقم
إذا كنتَ لا ألقى من الموت موئلاً
وللموت خيراً من حياة تشوبها

بهائم في بغداد أعوزها النَّبْتُ
علينا فظَلْنَا نَنظُرُ القومَ من تحت
بنا فرسٌ عن مِقْنَبِ السعي مُنْبِتٌ^١
كأنَّا يهودٌ كلُّ أيامنا سبتٌ
بأفواهها من مالنا مأكَلُ سُحْتٍ^٢
فتمَّ علينا بالخداع لها الدستُ^٣
إلى الذَّبِّ عنا من أمور هي الموت؟!^٤
فهل نافعِي أن خِفْتَه أو تهَيَّبْتُ؟!
شوائب منها الظلم والذل والمقت

^١ ركض فرسه: غمزه برجله ليعدو ويسرع. كبا: عثر. المِقْنَب: جماعة من الخيل تجتمع للغارة. منبت: منقطع.

^٢ السحت: المكسب الحرام.

^٣ الدست: الخديعة، والدست أيضاً: هو الذي يكون فيه الغلب في الشطرنج، وهذا المعنى أقرب المعاني لينااسب معنى المقامرة.

^٤ الذَّبُّ: المدافعة.

رقية الصريح

يا عدل ضاق الصبر عنك فأقبل
هلاً عطفت على الصريح المعول!
حادت بهنّ عن الطريق الأمثل
ما لم تقل، وتقول ما لم تفعل
للعدل وهي بحكمها لم تعدل
فغدت تُفوّض للغنيّ الأجهل
ومتى انقضى الأجل المسمّى يُعزل
قد عاد من أهل الثراء الأجزل
حتى يعود بمنصب كالأول
دار الخلافة عند مَنْ لم يعقل
خصت برأي مقدّس لم يسأل
مَثَل البناء على نقأ متهيل^١
هَبِّي وفي أمر الملوك تأملي
منصوص في أي الكتاب المنزل؟
مَنْ حاد عن هدي النبيّ المرسل؟!

يا عدل طال الانتظار فعجّل
يا عدل ليس على سواك مُعَوَّلُ
كيف القرار على أمور حكومة
في الملك تفعل من فظائع جورها
ملأت قراطيس الزمان كتابه
أضحت مناصبها تُباع وتشتري
تَعطى مؤجلة لِمَنْ يبتاعها
فيروح يشري ثانياً وبما ارتشى
فيظلّ في دار الخلافة راشياً
سوق تباع بها المراتب سميت
أبت السياسة أن تدوم حكومة
مَثَل الحكومة تستبدُّ بحكمها
يا أمة رقدت فطال رقادها
أَيكون ظل الله تارك حكمه الـ
أم هل يكون خليفة لرسوله

^١ نقأ: القطعة من الرمل. متهيل: متصيب.

كم جاء من مَلِكِ دهاكِ بجوره
يقضي هواه بما يسومك في الورى
ويروم صبرك وهو يسقيك الردى
وقد استكننت له وأنت مُهانة
بات السعيد وبتّ فيه شقيّة
تلك الحماقة لا حماقة مثلها
إن الحكومة وهي جمهورية
سارت إلى نجح العباد بسيرة
فسموا إلى أوج العلاء ونحن لم
حتى استقلوا كالكواكب فوقنا
وعلوا بحيث إذا شخّصنا نحوهم
لبسوا ثياب فخارهم موشية
نالوا وصال مُنى النفوس وإنها
حتى أقيم مجسّمًا تمثالها
تمثال ناعمة الشمائل وجهها
أفبعد هذا يا سِراة مواطني
الغوث من هذا الجمود فإنه
قد أبحرت شمّ الجبال وأجبلت
ما ضرّكم لو تسمعون لناصح
حتّام نبقى لُعبة لحكومة
تنحو بنا طرق البوار تحيِّقًا

ولواك عن قصد السبيل الأفضل!^٢
خسفاً وبنقّم منك إن لم تقبلي
ويريد شكرك وهو لم يتفضّل
حتى صبرت لفتكه المستأصل
تُستخدمين لغيّه المسترسل
حُمقًا فهل هو من صحيح تعقل
كشفت عماية قلب كلّ مُضلل
أبدت لهم حُمق الزمان الأول
نبرح نسوخ إلى الحضيض الأسفل^٣
تجلو الظلام بنورها المتهلل
من تحتهم ضحكوا علينا من عل
بالعزّ وهي من الطراز الأكمل
حرية العيش الرغيد المُخضّل^٤
بين الشعوب على بناء هيكَل
تزداد نورًا منه عين المجتلي
نرضى ونقنع بالمعاش الأردل؟!
تالّه أهون منه صُمّ الجندل^٥
لجج البحار ونحن لم نتبدل
لم يأت من نسج الكلام بهلهل^٦
دامت تجرّعنا نقيع الحنظل؟!
وتسومنا سوء العذاب الأهول

^٢ لواك: صرفك. قصد السبيل: أي السبيل المستقيمة.

^٣ نسوخ: نفوص.

^٤ المخضّل: الندي.

^٥ الجندل: الحجارة، مفردها: جندلة.

^٦ الهلهل: الثوب الرديء النسج.

رقية الصريع

هذا ونحن مُجَدَّلون تجاهها كالفأر مرتعدًا تجاه الخَيْطَل^٧
ما بالننا منها نخاف القتل إن قمنا! أما سنموت إن لم نُقتل؟!
يا عاذلاً فيما نفثت من الرُّقى وعزمت فيه على الصريع المهمَل
انظر لصرعة من رقيت وطولها فإذا نظرت فعند ذلك فاعدلِ

^٧ مجدلون: مطروحون أرضاً. الخيطل: السنور، ويطلق على الكلب أيضاً.

مثنيات شعرية

أشْرُ فعل البرايا فعل منتحر وأفحش القول منهم قول مفتخر
إن التمدُّح من عُجْبٍ ومن أشْرٍ والمرءُ في العجب ممقوت وفي الأشرِ^١

* * *

يا راجيَ الأمرِ لم يطلب له سببًا كيف الرماية عن قوس بلا وتر؟!
ليس التسبب من عجز ولا خورٍ وإنما العجز تفويضٌ إلى القدرِ

* * *

دع الأناسيَّ وانسبني لغيرهم إن شئتَ للشاءِ أو إن شئتَ للبقرِ
فإن للبشر الراقى بخلقته مَنْ قد أنفت به أني من البشرِ

* * *

ألْبِسْ حياتك أحوال المحيط وكن كالماء يلبس ما للظرف من جدرِ
وإن أبيت فلا تجزع وأنت بها عارٍ من الإنس أو كاسٍ من الضجرِ

* * *

إن رمتَ عزًّا على فقر تكابده فاستغنِ عن مال أهل البذخ والبطرِ
فإنما النفس ما لم تنأ عن طمعٍ فريسة بين ناب الذل والظفرِ

^١ الأشر: البطر.

* * *

إذا نظرت إلى الجزئي تصلحه فارقبه من مرقب الكلّي في النّظر
فإنّ نفحك شخصًا واحدًا رُبّمَا يكون منه عموم الناس في الضرر

* * *

قد يقبح الشيءُ وضعًا وهو من حسن كالنعش يُدهشُ مرأى وهو من شجر
فالقبح كالحسن في حكم النّهى عَرَضُ وليس يثبت إلا عند معتبر^٢

* * *

لا تعجبنّ لذي عقل يروح به لينتج الشرُّ خيرًا غير منتظرًا!
فإنما لمعات الخير كامنة بين الشرور كمون النار في الحجر

* * *

سبحان مَنْ أوجد الأشياءَ واحدةً وإنما كثرة الأشياء بالصُّور
هَبْ منشأ القوم يبقَى مبهمًا أبدًا فهل ترى فيه عقلًا غير منبهر؟

* * *

الحب والبغض لا تأمن خداعهما فكم هما أخذًا قومًا على غرر!
فالبغض يبدي كُدورًا في الصفاءِ كما أن المحبة تبدي الصفو في الكدر

* * *

وأشنع الكذب عندي ما يمازجه شيءٌ من الصدق تمويهاً على الفكر
فإنّ إبطال هذا في النّهى عَسِرُ وليس إبطال محض الكذب بالعسر

* * *

قالوا: عشقتَ معيبَ الحسن! قلتَ لهم: كفُّوا الملامَ فما قلبي بمنزجر
ما العشق إلا العمى عن عيبٍ من عشقتُ هذي القلوب ولا أعني عمى البصر

^٢ النهى: العقل.

مثنيات شعرية

* * *

قالوا: ابنُ مَنْ أنت يا هذا؟ فقلت لهم: أباي امرؤٌ جدُّه الأعلى أبو البشر
قالوا: فهل نال مجدًّا؟ قلت: وا عجبِي! أتسألوني بمجدٍ ليس من ثمري؟!^٣

* * *

لا دَرَّ دَرٌّ قصيدٍ راح ينظمه مَنْ ليس يعرف معنى الدَّر والدُّرر^٣
يبكي الشعور لشعر ظل ينقده مَنْ لا يفرق بين الشُّعر والشَّعر

* * *

قالت «نوار» وقد أنشدتها سحرًا: مِمَّنْ تعلمت نَفَثَ السحر في السحر؟
فقلت: من سحر عينيك الذي سحرت به المشاعر من سمعٍ ومن بصرٍ

^٣ الدر بفتح الدال: هو اللبن.

إلى المتقاعدين من ضباط الجيش

هذي صفاتٌ حازها المتقاعد
كي يستريح من الجهاد مجاهد
إن البطالة للرجال مفاسد
عما تقوم به الحكومة حائد
لون الحياة بغير سعي كامد
فالراقد الكسلان فيها بائد
هممٌ مثبّطة وعزم راقد
فيها من السعي الحثيث مشاهد
والسعي نارٌ والبلاد مواعد
نقدًا يصول به عليكم ناقد
أنّ الحياة تعاونٌ وتعاضد
كيلا يكون تباغض وتحاسد
رجل — إذا دعت الدواهي — واحد
في السلم أعمال لكم ومقاصد
منكم أشد من السيوف سواعد
فيها سلاح المرء جهد جاهد
عند اللئام دسائس ومكايد
للناس فيه مصالح وفوائد

عقل وتجربة وجدٌ زائدُ
جعلوا التقاعد للجنود كرامة
ليس التقاعد للرجال بطالةً
لكنه عمل جديد نافع
بالسعي تزدهر الحياة وإنما
إن الحياة ليقظة فعّالة
لن تبلغ العلياء في ساحاتها
انظر تجد شعبَ الحياة كثيرة
فكأنّ أشغال الحياة مراجل
يا أيها المتقاعدون ألا اتّقوا
علمت تجاربكم وأيقن رأيكم
فاستمسكوا بعُرى المودة بينكم
كونوا جميعاً في الحياة كأنكم
في الحرب طاب لكم جِلاٌ فلتطبّ
تركت أكفكم السيوف وعندها
كل الحياة معارك لكنما
ولربما كانت سلاحًا نافذًا
فأتوا من الأعمال ما هو صالحٌ

ديوان معروف الرّصافي

وتتبعوا سُبُلَ الحَيَاةِ ولا يكن
وتصرّفوا في أمرها بمهارةٍ
منكم إلى غير المكارم قاصد
وذروا السيوف فإنهن جوامد
للسيف من بعد التجالد غامد
ما عاب من سَلِّ المهنّد أنه

دار تربية الطفل

حَسَدَتْ أَرْضَهُ عَلَيْهِ السَّمَاءُ
فِيهِ قَدْسِيَّةٌ فَهَذَا الْبِنَاءُ
شَرُفَتْ بِالْمَقَاصِدِ الْأَشْيَاءُ
لِي مِنْ تَحْتِ أَسْهِ الْعُلِيَاءِ
فَالِ فِيهِ حِمَايَةُ عَذْرَاءِ
فَكَّرَتْ فِيهِ قَبْلَنَا الرَّحْمَاءُ
مِنْ سَمُومِ تَذْوِي بِهِ الرُّضْعَاءُ
عَلَى أَنْ أُمَّهُ ثَدِيَاءُ
يَنْهَكَ الْبُؤْسُ جَسْمَهَا وَالشَّقَاءُ
حَ ذَبُولَ بِجَسْمِهَا وَارْتِخَاءُ
وَهُوَ إِنْ عَاشَ فِيهِ الدَّاءُ
وَلَهَا مِنْ حَيَاتِهَا إِفْنَاءُ
فَالِ تَفْنَى لِأَنَّهُمْ فَقْرَاءُ
لَا وَطَاءَ مِنْ تَحْتِهِمْ لَا غِطَاءُ
نِ السَّجَايَا أَنْ تُرْحَمَ الْعَجْمَاءُ
فِيهِ لِلنَّاسِ مَأْمَلٌ وَرَجَاءُ
شَرَفٌ بَاذِخٌ لَنَا وَعِلَاءُ
بِغٍ مِنْهُمْ نَوَابِغٌ أذْكَيَاءُ

أَيَّ قَدْسٍ يَضُمُّ هَذَا الْبِنَاءُ!
إِنْ يَكُنْ فَوْقَ هَذِهِ الْأَرْضِ شَيْءٌ
هُوَ مِنْ هَذِهِ الْبِنْيَاتِ لَكِنْ
كَلِمَا قَدْ رَأَيْتَهُ تَتَجَلَّى
هُوَ بَكَرٌ فِي ذِي الْبِلَادِ وَلِلْأَطْ
لَمْ نَكُنْ قَبْلَ ذَا نَفْكَرْ فِيمَا
كَانَ لِلْبُؤْسِ فِي الْمَوَاطِنِ لَفْحُ
رَبِّ طِفْلِ أَوْدَتْ بِهِ قَلَّةُ الدَّرِّ
أُمَّهُ مِنْ أَبِيهِ أَمَتْ فَأَمْسَتْ
فَحَكَى شَخْصَهَا الْخِيَالَةَ إِذْ لَا
فَهُوَ إِنْ لَمْ يَعِشْ فَمُوتٌ مُرِيحُ
هَكَذَا كَانَتْ الْمَوَالِيدُ تَحْيَا
وَمِنَ اللَّؤْمِ أَنْ تَرَى عِنْدَنَا الْأَطْ
لَا غِذَاءُ فِي جَوْفِهِمْ لَا كِسَاءُ
إِنَّهُمْ غَيْرُ مُعَرَّبِينَ وَمِنْ حَسْ
عَلَّ مَنْ لَوْ يَعِيشُ مِنْهُمْ لِأَضْحَى
رَبِّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ مَاتَ مَعَهُ
لَيْسَ مَوْتُ الْأَطْفَالِ هَيْئًا فَقَدْ يَنْ

إنما هم كمثل أصداف بحر
ولعلّ الطفل الذي مات منهم
شأن هذا البناء شأن عظيم
كلما قد رأيته لمعت لي
ولقد دلّ أن مَنْ شيدوه
شكر الله سعيهم من رجال
سوف يبقى لهم على الدهر ذكرٌ
لست تدري: دُرُّ بها أم خلاء؟
مات عقل بموته ودهاء
لم تطاوله في العلا الجوزاء
فيه من تحت أسّه العلياء
سادة في طباعهم كرماء
بلغوا من فخارهم ما شاءوا
فيه حمد لهم وفيه ثناء

خزانه الأوقاف

كنز يفيض غنى من الأوقاف
لتوجّروا منه الداء الشافي
لتثقفوا منه بخير ثقاف
لأطارهم بقوادم وخوافي
في جانبيه عوامل الإلتاف
تجري الرياح بها وهن سوافي
أهل الحياة به من الإجحاف
وتغافلوا عن حكمة الإيقاف
وتعاملوا فيه بنفع خافي
في كل حال منه بالسّفساف
ماذا التوقّف عند رسم عافي؟
غَيْرُ الزّمان فعاد كالصفصاف
نفع العموم تناقض وتنافي؟
وأمرنا هي للزمان قوافي؟
أمست تعد اليوم بالآلاف
في الحكم واحدة لدى الأسلاف
من كل علم بالزلزال الصافي!
من كل فنّ بالنصيب الوافي

للمسلمين على نزورة وفُرهم
كنز لو استشفّوا به من دائهم
ولو ابتغوا للنشء فيه ثقافة
ولو ارتقوا بجناحه في عصرهم
لكنهم قد أهملوه وأعملوا
فإذا نظرت رأيت ثمة أرضه
قد تابعوا الموتى عليه وما وقوا
وقفوا به عند الشروط لواقف
تركوا له في العصر نفعا ظاهرا
لم يستجدوا فيه شيئا واكتفوا
قل للذين تقيّدوا بشروطه
غرسوه غرسا مثمرا لكن جرت
هل بين شرط الواقفين وبين ما
أنريد أن يقفو الزمان أمورنا
الأرض مسجدا فقيم مساجد
كان الصلاة بمسجد وبغيره
هلا جعلن مدارس فياضة
ينتابها أبناؤكم كي يأخذوا

فيفيضم فيض العلم حتى يرتوي
إن لم يكن شرف البلاد محصّناً
وإذا النفوس تسافلت من جهلها
هذي الخزانة أنشئت فبناؤها
أيظنُّ ذو عقل بأن بناءها
تالله ليس بمُنكرٍ تشييدها
أحيوا بها عصرَ العلوم لدولة
عصر الرشيد أبي الخلائف إذ غدت
في عهد فيصلنا المعظم أنشئت
فإذا هتفتُ بحمده وبشكره
ناديت طلابَ العلوم مؤرخاً
منه بنو الأمصار والأرياف
بالعلم كان مهدّدَ الأطراف
لم يُعلها شممٌ على الآناف
للأمر فيه تدارك وتلافي
أمر لشرط الواقفين مُنافي
إلا امرؤ خالٍ من الإنصاف
خلفاؤها من آل عبد مناف
بغدادُ رافلةٌ بمجدٍ ضافي
علماً يشير لأشرف الأهداف
ردّ الصدى بنيانها لهتافي
حُجّوا بناء خزانة الأوقاف

التعصب الوطني للأدب

تتعمدُ التمييزَ في آدابها
لم تنتحلها مصر في أنسابها^١
متوالي النزغاتِ في أعصابها^٢
في مصر يغضبُ منك أهل جنابها
ما إن ترى فيها لقولك آيها
أن لن يكون له البعيد مشابها
وسواه مفضول وإن يك نابها
مقصورة فيها على كُتابها
من فرطِ ضلَّتها أولو ألبابها
جلَّت عن الأوطان في استنسابها
دار محرمة إجابةً بابها^٣
كمواطن الأعراب في إعرابها؟
صردُ زقى في مصر زقى غرابها^٤

من جور مصر على العروبة أنها
وتحيد عن آداب كل قبيلة
فترى بمصر تعصبًا لأديبها
فانكر أولي الآداب من غير الألى
وأشدُّ بمن في غير مصر منوهاً
تحفى بمنشدها القريب وتدعي
فالشاعر المصري فيها فاضل
وكأنما أمست مواهب ربنا
هذا لعمر الله جور عدّه
آداب كل معاشر كعلومهم
للعلم والآداب في كل الورى
من أين كانت مصر في أقباطها
أبت العروبة أن يفوق هزرها

^١ تنتحلها: تدعيها.

^٢ النزغات: جمع نزغة، وهي الميل مع الهوى.

^٣ إجابة الباب: إغلاقه.

^٤ الصرد: طائر. وزقى: صاح وصوت.

عتاب وولاء

للشاعر الصادق الإحساس نعمان
من القريض رفيع ليس بالداني
فرع الذؤابة من علياء عدنان
كمثل أزهار روض ذات ألوان
حتى اتسقت بأنغام وأوزان
مازجت في الشدو ألحاناً بألحان
ويزدهيك من المعنى بأفنان
ما يفعل الماء في أحشاء ظمان
حيناً وترسب أحياناً بأحزان
كيف ابتدعت نشيداً هاج أشجاني؟!
حسن الفرائد في أسلاك عقيان
قرحاً بقلبي قديماً كان أدماني
فإنه عن شجون اليوم سلّاني
وإن يكن هاج بي شجواً فأبكاني

أقيم راية تحميدي وشكراني
أقيمها رمز تعظيم على نشر
للشهم ذي الأدب الزاكي بمحتده
من جاءني بقوافٍ جدّ زاهية
قد زانهنّ بوشي من بدائعه
لما شدونَ بموسيقى براعته
ينوط بالسمع من ألفاظها درراً
لقد فعلن بنفسي حين أنشدها
فقلت، والنفس تطفو في مسرّتها
يا شاعرًا تطرب الدنيا نشائده
أنشدتنيهِ رُقى تحكي بروعتها
شعر يفيض شعورًا قد نكأت به
إن كان بالشّجن الماضي يذكّرني
هذا لعمرك شعر قد سررت به

* * *

تنبيك عن شغفي في حبّ أوطاني
إلا لأدفع عنها كل عدوان
نفسي وأهلي وأحبابي وخلصني

إليك أرسل يا نعمان قافيةً
أشربتُ حبّ بلادٍ ما نشأت بها
أخلصتُ حبّي لها حتى نسيت به

عش بعد موتي عيش الوداع الهاني
 وكل أبنائك الأعداء إخواني
 أذاك بالمزعجات الدهر آذاني
 إن كنت أنت جليل القدر والشان
 إن لم تكن أنت ذا عزّ وسلطان
 ما كت غير ظلوم فيك خوآن
 أن لا أقابل نعماء بكفران
 بالنصر أول أنصار وأعوان
 بنيت للمجد فيه خير بنيان
 نفس ولا ازدهرت أرض بعمران
 ما كان أفضل منها كل إنسان
 فقربوا من حياتي كل قربان
 مما بكم حل من هون وخسران
 وإن يكن شظفي في العيش أصواني
 فالنعم والبؤس عندي اليوم سيان
 وتترك القصف في ذلّ لمبّطان
 في الهند يمشي وثيّدًا شبه عريان
 والذلّ أقتل من جوع لجوعان
 والجوع يقتل منه جسمه الفاني
 وإنما هو تقويم لأبدان
 عن المطاعم تخليطًا بألوان
 يزول عنه ولو من بعد أحيان
 يحيي الثناء عليه عمره الثاني

يا موطنًا لست منه في موادة
 فكل من فيك تغنيني سعادتهم
 إن سرّك الدهر يومًا سرني وإذا
 ما ضرّني أن كل الناس تحقرني
 وليس ينفعني عزّ ولا شرف
 لو ملّكونيك عن قهر بلا ثقة
 أليت منذ بلغت الحلم في وطني
 وأن أكون له عونًا أوأزره
 إني وإن لم أوفق في تحرره
 لولا التعاون بين الناس ما شرفت
 لولا التعادي الذي تشقى الوحوش به
 يا قوم إني من الدنيا ضحيتكم
 واستنصروا الله وادعوه لينقذكم
 لا تحسبونني منكم جازعًا ضجرًا
 إني ألقت على الأيام مخمصتي
 تختار نفسي الطوى بالعز قانعة
 أعيش عيشة «غندي» وهو ذو جِدّة
 العز أعظم للإنسان من شبع
 فالذلّ يقتل نفسًا منه باقيةً
 وما الطعام بمأكولٍ للذته
 وفي القفار غنى للمستقيت به
 وكل ما يملك الإنسان عاريةً
 وإنّ ذكر الفتى بعد الممات بما

* * *

ناموا على الأمن في أحضان غفراني
 أُحرقتم من لظى هجوي بنيان
 حتى بذيتم بذاء الماجن الخاني

يا لاهجِبِنَ بشتمي في مجالسهم
 لولا ترفع نفسي في سفاهتكم
 جادلتُموني فما أحسنتموا جدلي

شتى الأقاويل من زور وبهتان
 مَنْ ليس يقرع بالبرهان برهاني
 إلى التقوُّل عن زهو وطغيان
 فالغش ديدانكم والنصح ديداني
 عزمًا يؤيده بالله إيماني
 بل أتبع العفو عنها بعض إحسان
 عني الأخلَاء من شيبٍ وشبان
 من كل أحمر هيَّان بن بيَّان
 مستعجم القول جافي الطبع مرطان
 ولستم في السجايا غيرَ غربان؟
 وإن يكن جاء في مسلاخ إنسان
 في أن يُسمَّى ابن آوى باسم سرحان
 وتشمخون إلى آفاق كيوان
 أيدي الأجانِب تلُّ الجارمِ الجاني
 في رعدة بلسان الخائف العاني
 وتضمرون ضمير الفاجر الزاني
 لعاذ بالله من كل شيطان
 شعراً أتى من زكيِّ النفس نعمان
 كل الكواكب من قاصٍ ومن دان
 أهل المكارم من أبناء عدنان
 رِيَّان من شرفٍ بالمجد مزدان!

وخضتم الباطل المبدي بنعرته
 ومن عناء الليالي أن يجادلني
 بل يترك القول من عجزٍ ومن خوَرٍ
 تأبى المروءة إلا أن أخالفكم
 وإن لي في إِبائِي كلَّ شائنةٍ
 ولا أريد قصاصًا من شتائمكم
 تلکم سجيَّة حرِّ النفس يذكرها
 يا منتمين إلى عرب وهم عجمٌ
 سمح الملامح في عثونهِ صهب
 كيف استويتم صقورًا في مجاثمكم
 وما بكم غير قرد في جبلِّته
 إذا تسمَّيتمو عربًا فلا عجبٌ
 تستنثرون صغارًا في معاطسكم
 ورب مستكبر منكم تُتَلِّتُهُ
 فيستكين لهم حتى يكلمهم
 كم تظهرون عفافًا في تدينكم
 لو كان في الجنِّ شيء من خباثتكم
 هذي قوافٍ دعاني أن أبوح بها
 ذاك الأديب الذي باهى بسيرته
 وباهرت في مساعيه مكارمه
 أكرم به يافعًا شرخ الشباب به

مناجاة وشكوى

إلى كم تناعي بالقوافي السواحر؟
يُرَوِّدُ مِنْهَا سَمْعَهُ كُلُّ شَاعِرٍ
فَلَمْ تَلْقَ إِلَّا غَيْرَ وَاعٍ وَذَاكِرٍ
فَتَدْعُو مِنْهُمْ خَاذِلًا غَيْرَ نَاصِرٍ
فَهَلْ أَنْتَ مَغْرُورٌ بِبَيْضِ الْمَسَافِرِ؟
لدى كل ذي علم بما في السرائر
ظواهرهم منقوضة بالضمائر
ومن بطرٍ فيهم بداءِ الضرائر
فساد السجايا وانمساخ العناصر
أنانيّة حَلَّتْ عقود الأواصر
على عكس عيشٍ عند أهل الحواضر
وحسنَ ابتسامٍ من ثغور مواكر
كَأَنَّ لَمْ يَبْهَتُوا مِنْكَ قِيلاً لَزَائِرٍ
فِيَلْقُونَهُمْ بِالْمَنْظَرِ الْمُتَخَاذِرِ
يَدْجُونَ مِنْهَا فِي الدِّيَاجِي الْكَوَافِرِ
يعودون في العقبى بصفقة خاسر
لكل كذوب بينهم متشاعر
لعمركُ منها كلُّ طامٍ وذاخر

أقول لربِّ الشعر مَهْدِي الجواهر:
فترسلها غُرّاً هَوَاتِفَ بِالْعُلَا
وتشدهو بها والقومُ صُمٌّ عن العلا
أترجو من الحسّادِ عَوْنًا وَنَاصِرًا
كأنك لم تبصرَ سِوَادَ قَلُوبِهِمْ
رَويْدِكَ! إِنْ القومُ لیسوا كما ترى
فلا تغترّزُ منهم ببيادٍ فإنما
رمتهم يدُ الأيامِ من جشعِ بهم
بداءين قتّالين حَمَّتْ نفوسهم
وقد فَرَقَتْ أَهْوَاءُهُمْ فِي بِلَادِهِمْ
لذالك ترى كُلاًّ يعيش لنفسه
إذا جئتهم أبدوأ إليك بشاشة
وإن غبت عنهم أوسعوك مَدَمَّةً
وقد ينكرون العار فيهم تجاهلاً
فدعهمُ وما هم فيه من جاهليّة
فسوف تراهم من تمادي ضلالهم
ونزّه بليغ الشعر عنهم بتركه
سكبتُ بحورَ الشعر قبلك خائضاً

وسَيَّرْتُ منْ غُرِّ القِوافي بِلِجِّها
بكِيتْ بها المجدَ المضاعَ بأدمع
ونحتُ على الماضي الذي كان زاهراً
فلم أَلِفِ إلا مُنكرين مكانتي
كما راعني منهم تماسيحُ خِسَّةٍ
فقابلتهم بالصفح عنهم ترفعاً
أنا النوم من هذي الحياة على شفا
سأرحل عنهم عائداً من شرورهم

قصائدَ سارت كالسفين المواخر
من الشعر شروى اللؤلؤ المتناثر
مناحة ربات الجبال الحرائر
يُحيدون عني كالوحوش النوافر
تريد ازدرادي بالحلوق الفواغر
وأعرضت عن شتم السفيه المهاتر
أشارف منه مَرَقدي في المقابر
بربِّ كريم قابل التَّوب غافر

في حفلة الميلاد النبوي

وضح الحق واستقام السبيلُ
قام يدعو إلى الهدى بكتابٍ
طالبًا غايةً من المجد قصوى
ووصولاً إلى مقامٍ رفيع
همةً دونها الكواكب نورًا
واعتلاءً يعلو به ويطول
بعظيم هو النبيُّ الرسول
عربيٌّ قرآنه ترتيل
صدّه عن بلوغها مستحيل
عزٌّ من قبله إليه الوصول
واعتلاءً يعلو به ويطول

* * *

جرّد الله منه للحق سيقًا
فيه عزم للمهلكات قحوم
ودهاء لو ماكرته دواهي الد
تدلهمُ الخطوب والرأي منه
كلُّ أوصافه الجليلة بدع
كل ضدين حده والفلول
واصطبار للنائبات حمول
هر طرًا لاغتالها منه غول
في دجاها كأنه قنديل
فهو من عبقريةً مجبول

* * *

أطلق الناس من تقاليد جهل
وشفاهم بهديه من ضلال
أنهض القوم للعلاء وكانت
فاستقالت به على الدهر يقضي
تلك في الدين نهضة هي للعق
كل فرد منهم بها مغلول
كل فرد منهم به معلول
في دنا القوم رقدة وخمول
هممٌ يعربيةً وعقول
ل انتباه وللهدى تأثيل

نهضة عالمية في وغاها
هنّ كالبرق سرعة والتماعاً
خضعت فارس لها عن صغار
وإلى اليوم قام في الهند منها
يعرف النيل فضلها وعلاها
وبها الأرض والسموات ترضى
من أمام البعير فرّ الفيل
كل أفق بفضلها مشمول
وتداعى إيوانها المستطيل
أثر مثل طودها لا يزول
من قديم ويشهد الدردنيل
وتقر التوراة والإنجيل

* * *

غير أننا عن نهجها اليوم حدنا
حيث عدنا وفي النهوض قعود
واختلفنا في الدين حتى افترقنا
والتزمنا الفروع منه فضاعت
كلّ حزب بما لديه فخور
بدع في حياتنا منكرات
واستحلنا وكل حال تحول
ورجعنا وفي الصعود نزول
فرقاً لا يسيغها المعقول
بالتزام الفروع منه الأصول
ولمّن هم مخالفوه خذول
غضب الله فوقها مسدول

* * *

حالة ساءت الرسول وساءت
لو رأنا والشر فينا كثير
وثغور الضلال مبتسمات
والدعاوى في الحق منا كبار
نعبد الله والعبادة لحن
ونحج القبور كالبيت حجاً
ونعد الركوع للقبر جلاً
ونزجّي إلى القبور نذوراً
ونقول التوحيد قولاً وكلّ
قال مستنكراً لما نحن فيه:
أين دين التوحيد منكم وأي
أنا حرمت كل ما كان فيه
كل من قال منكم: إن هذا
كلّ أي بها أتانا الرسول
مستفيض والخير نزر قليل
ووجوه الهدى عليها محول
طال فيها التزمير والتطبيل
عند بعض وعند بعض عويل
يكثر المسح فيه والتقبيل
وهو في الدين ما له تحليل
فضحايًا مسوقة وحمول
هو للشرك عامد وفعول
ما بهذا قد جاءني جبريل
من الأوب لله وحده والقفول؟
شبه للأصنام أو تمثيل
هو دين الإسلام فهو جهول

في حفلة الميلاد النبوي

لِمَ لَمْ تحفظوا أخوَّةَ دينٍ جاءكم ناطقًا به التنزيل؟
كان حبل الإخاء فيكم وثيقًا كيف أمسى وعقده محلول
لست منكم بيائسٍ بل نهوضٌ منكم بعد فترة مأمول
فاجمعوا الشمل ناهضين فإن الـ كفر في الدين عجزكم والخمول

إلى العمال

ليس إلا نتيجة الأعمال
ة عيشُ فالفضل للعمال
فبفضل الإنتاج والإبدال
لا حياة للعاطل المكسال
قد حوى كل باطلٍ ومحال
لغني مستأثرٍ بالغلال
أرغدته لهم يد الإقلال
لسواهم ما أخرجوا من لآلي
كعبيد والموسرين موالي
قعدوا في قصورهم والعلالي
في شقاءٍ وأبؤسٍ واعتلال
طرقات المخاتل المحتال
من خياناتنا مسوح النُّعال
ها قديمًا من العصور الخوالي
هكذا في عَمَايةٍ وضلال؟!
ة فيما يختصُّ في الأموال
قديمًا في غابر الأجيال
خطوة نحو مبتغاه العالي

كلُّ ما في البلاد من أموال
إن يطب في حياتنا الاجتماعيد
وإذا كان في البلاد ثراء
نحن خلق المقدَّرات وفيها
عندنا اليوم في الحياة نظام
حيث يسعى الفقير سعي أجيرٍ
فترى المكثرين في طيب عيشٍ
وترى الغائصين في البحر أمسى
وترى المعسرين في كل أرض
أكثر الناس يكدحون لقوم
واحد في النعيم يلهو وألفُ
حالةً في معاشنا أسلكتنا
فترانا بعضًا لبعض لبسنا
تلك عادٌ مستهجنات ورثنا
فإلى كم نشقى وحتامَ نبقي
إنما الحق مذهب الإشتراكيـ
مذهب قد نحا إليه أبو ذرُّ
ليس فضل الزكاة في الشرع إلا

مبدأ ذو مقاصد ضامنات
 موصلات إلى السعادة في العيد
 ليس للمرء أن يعيش بلا كدّ
 كل مجدٍ يُبنى على غير سعي
 ليس قدر الفتى من العيش إلاّ
 ما رءوس الأموال إلا أداة
 مثل شدّ الأحمال شدّ المساعي
 صاح ماذا تجدي الدنانير لولا
 أفتأتي من الطعام بديلاً؟!
 حاجة المرء أكلة وكساءً
 إن للعيش حومةً في وغاها
 إنها مثل حومة الحرب ما دا
 وسوى الحدق ما بها من سلاح
 بطل الحرب مثله بطل السعد
 ونشاط منه ببيض المساعي
 أيها العاملون إنّ اتحاداً
 ما لعيش تشقون فيه سقاماً
 فليكن بعضكم لبعض نصيراً
 وإذا قلت: إنكم أنتم النا
 فاعملوا دائبين غير كسالى
 ثم قولوا معي مقالاً رفيع الصب

ما لأهل الحياة من آمال
 ش هوادٍ إلى طريق التعالي
 وإن كان من عظام الرجال
 فهو مجدٌ مههدٌ بالزوال
 قدر إنتاج سعيه المتوالي
 للمساعي كالحبل للأحمال
 ودنانيرها لها كالحبال
 همم الدائبين في الأشغال؟!
 أفتغني عن كسوةٍ ونعال؟!
 وسوى ذاك بسطة في الكمال
 لا تحقّ الحياة للبطال
 رت رحاها إلا على الأبطال
 وسوى الكدّ ما بها من قتال
 ي ومنه الأعمال مثل الصيال
 مثل إشراعه لسلّ العوالي
 بينكم مُرخصٌ لكم كلّ غال
 بسوى الاتحاد من إبلال
 ومعيناً له على كل حال
 س جميعاً فلا أكون مغال
 وارقبوا ما به ستأتي الليالي
 سوت: فلتحياً زمرة العمّال

الفلسفات

خواطر شاعر

تجاه شاعرية الريحاني

لعمرك ما كلُّ انكسارٍ له جبرٌ
لقد ضربت كفُّ الحياة على الحجا
فقمنا جميعاً من وراء سِتارها
حكّت سَرحة فنواء نُبصر فرعها
وقد قال بعضُ القوم: إن حياتنا
فإن كان هذا القول فيها حقيقةً
وروح الفتى بعد الردى إن يكن لها
وإن رَقِيتْ نحو السماء فحبّاً

ولا كلُّ سرٍّ يُستطاع به الجهرُ
سِتاراً فَعَلِمُ القوم في كنهها نَزراً^١
نقول بشوقٍ: ما وراءك يا سِتْر؟
ولم ندر منها ما الأنابيشُ والجذُر^٢
كَلِيلٍ وإن الفجر مَطْلَعُهُ القبرُ
فيا شدَّ ما قد شاقني ذلك الفجرُ
بقاءٌ وحسُّ فالحياة هي الخُسْر
إذا أصبحت مأوى لها الأنجمُ الزهرُ

* * *

وأعجب شأن في الحياة شعورنا
وأعجب شأن في الشعور هو الحجر^٣

^١ يقول بهذا البيت والذي بعده: إن لنا من حياتنا سترًا مسدولًا على عقولنا، فليس لنا من العلم بما وراء ستر الحياة إلا النزر اليسير، ولكن عندنا شوق كبير إلى معرفة ما وراء الحياة.

^٢ السرحة: الشجرة العظيمة. وفنواء: كثيرة الأفنان، واسعة الظل. وأنابيش: أصول الشجرة تحت الأرض، واحدها: أنبوش. بَيِّن في البيتين السابقين جهلنا بما بعد الحياة، أي: بمنتهاهما، وبَيِّن بهذا البيت جهلنا بما قبلها.

^٣ الحجر، بكسر فسكون: العقل.

إذا بَرقت فالفكر في برقها قطر
 قديرٌ على إيضاحه المنطقُ الحرُّ
 وقصّر عن تبيانه النظمُ والنثر
 بيانٌ ولم ينهض بأعبائه الشعر
 فضاقت من النطق الفسيح به الصدر
 إليه من الألفاظ أعينها الخزر^٤
 كفاية معنى فاقد العد والحصر!^٥
 يتيه إذا ما طار في جوّه الفكر
 لما كان في قول المجاز لنا عذر
 تُنظّم أبياتًا كما تنظم الدرُّ
 يكون على فعل اللسان لها قصر
 كما رنّحت أعطافَ شاربها الخمر
 مهيجًا كما يستنُّ في المرح المهر
 على أَيْكَةٍ يُشجي المشوقَ لها هدر^٦
 على الزهر في روض به ابتسم الزهر
 بها قد شكا للوصل ما فعل الهجر
 بنجلاء تسبي القلب في طرفها فتر^٧
 مُفجّعة أودى بواحدها الدهر
 تعاوَرَ مجرى صوته الخفضُ والنبر
 بجُنح الدجى باتت يضحكها البدر

وللنفس في أفق الشعور مخايلٌ
 وما كلُّ مشعور به من شئونها
 ففي النفس ما أعياء العبارة كشفه
 ومن خاطرات النفس ما لم يقم به
 ويا رَبُّ ففكر حاك في صدر ناطقٍ
 ويا رَبَّ معنى دقّ حتى تخاوصت
 أرى اللفظ معدودًا فكيف أسومه
 وأفق المعاني في التصوّر واسعٌ
 ولولا قصور في اللغا عن مرامنا
 ولست أخصّ الشعر بالكلم التي
 وذاك لأنّ الشعر أوسع من لغا
 وما الشعر إلا كل ما رنح الفتى
 وحرّك فيه ساكن الوجد فاغتنى
 فمن نفثات الشعر سجع حمامة
 ومن شذرات الشعر حوم فراشة
 ومن ضحكات الشعر دمة عاشق
 ومن لمعات الشعر نظرة غادة
 ومن جمرات الشعر رنة ثاكل
 ومن نفحات الشعر ترجيع مطرب
 وإنّ من الشعر اثلاق كواكب

^٤ تخاوصت: أي غضت من بصرها شيئًا. والخزر: جمع خزراء، وهي العين الصغيرة الضيقة، ومعنى البيت: أن من المعاني ما يدق حتى تقصر عن بيانه الألفاظ.

^٥ أسومه: أي أكلفه. يقول: إن الألفاظ متناهية، والمعاني غير متناهية، فكيف يحيط المتناهي بغير المتناهي.

^٦ الهدر: صوت الحمام.

^٧ نجلاء: عين واسعة.

وإن لريحانيِّنا شاعريَّةً من الشعر فيها ما يقال هي الشعر
وما الشعر إلا الروضُ أما أمينُنا فريحانة، والخلق منه هو النشر
وإن لم يكن شعري من الشعر لم يكن لَعَمْرُ النَّهْيِ للشعر عند النهي قَدْرٌ^٨

^٨ النهي: جمع نهية، وهي العقل.

وجه ابن آدم

لِلَّهِ سُرٌّ فِي الْأَنْثَامِ مُطْلَسُمٌ
بِرًّا ابْنِ آدَمَ وَهُوَ إِنْ لَمْ تَلْقَهُ
وَإِذَا نَظَرْنَا فِي الْعَجَائِبِ نَظْرَةً
أَمَّا الْعَجِيبُ مِنْ ابْنِ آدَمَ فَهُوَ مَا
وَالْوَجْهَ أَعْجَبُ مَا رَأَيْتَ وَإِنَّهُ
هُوَ مَنْ طَرَّازَ اللَّهَ إِلَّا أَنَّهُ
أَمَّا الْحَوَاجِبُ فَهِيَ فِيهِ كَوَاشِفُ
وَلِرَبِّ خَافِيَةٌ يَكْتُمُهَا الْفَتَى
كُلُّ شَيْءٍ يَشِيرُ إِلَى السَّرِيرَةِ وَجْهُهُ
فَالْوَجْهَ فِيهِ مِنَ الْقُرُونَةِ مَسْحَةٌ
صَرَخَ النَّهْيِ فَالْوَهْمُ فِيهِ تَيَقَّنَ
وَلِرَبِّ وَجْهٍ فِي تَبَسُّمِهِ الْبُكَاءُ
وَالْأَنْفُ فِي وَجْهِ ابْنِ آدَمَ زِينَةٌ

حار الفصيحُ بوصفه والأعجم
في الخلق أقدم فهو فيه مُقَدَّمٌ
ظهر ابن آدم وهو منها الأعظم
نسق الكلام به إذا نطق الفم
ليحار في سحنائه المتوسم
بسرائر النفس الحديثة مُعلم
والعين فيه عن الضمير تترجم
والوجه منه بسرّها يتكلم
فكأنه بضميره مُتَلْتَمٌ
للخافيات بها وضوحٌ مُبْهَمٌ^١
تحت الملامح واليقين توهُمٌ^٢
ولربّ وجهٍ في البكاء تبسم
فالوجه لولا أنفه متجهم

^١ القرونه: النفس، ومعنى قوله: «وضوح مبهم»؛ أنك ترى ما يخفيه الإنسان واضحاً في وجهه، ولكنه مع ذلك لا يزال مبهمًا عنك إذ لا تعلمه يقينًا.

^٢ المراد بكونه صرخ النهي: أنه غلبها، والضمير في صرخ يعود إلى الوجه.

كالهُدْبِ فِي شَفْرِ الْعَيُونِ فَإِنَّهُ لَوْلَاهُ تَنْشَتَرُ الْعَيُونُ وَتَسْجُمُ^٢

* * *

إِنَّ الْوَجْهَ صَحَائِفَ مَطْمُوسَةٍ يَمْحُو كِتَابَتَهَا وَيَثْبِتُهَا الدَّمُ
بَيْنَكَ تَقْرَأُ حَرْفَهَا مَتَفَهَمًا يَبْدُو تَحْرُفُهَا فَلَا تَتَفَهَمُ
فَالْعَقْلُ فِيهَا عَالِمٌ مُتَجَاهِلٌ طَوْرًا وَطَوْرًا جَاهِلٌ مُتَعَلِّمٌ
إِنِّي أَرَى هَذَا الْوَجْهَ نَوَاطِقًا بِالسَّرِّ لَكِنْ نَطَقَهُنَّ مَجْمَعٌ
وَأَرَى لِحَاضِ عَيُونِهَا مُتَحَدِّثًا عَنْهَا وَلَكِنْ الْحَدِيثُ مَرَجَّمٌ
فَكَأَنِّي الْبَدْوِيُّ يَسْمَعُ رَاطِنًا وَكَأَنَّمَا هِيَ أَعْجَمِيٌّ طِمْطَمٌ^٤

* * *

وَلرَبِّ وَجْهِ يَسْتَبِيكُ بِحَسَنِهِ فَتَرْوُحُ مِنْهُ وَأَنْتِ صَبٌّ مُغْرَمٌ
يَبْدُو إِلَيْكَ وَأَنْتِ خَلُوقٌ مِنْ هَوَى وَيَصْدُ عَنْكَ وَأَنْتِ فِيهِ مُتَيَّمٌ
وَإِذَا تَغَيَّبَ فَالْبَدْوِيُّ مُضِيئَةٌ وَإِذَا أَضَاءَ فَكُلُّ بَدْرٍ مُظْلَمٌ
لِلَّهِ فِي وَجْهِ ابْنِ آدَمَ حِكْمَةٌ يَعْنُو السَّفِيهُ لَهَا وَمَنْ يَتَحَلَّمُ

^٢ الهدب: شعر أشعار العينين. وتنشتر: أي تكون شتراء، أي: ذات شتر، وهو انقلاب الجفن من أعلى وأسفل أو انشقاقه أو استرخاؤه. وتسجم: أي تسيل الدمع.
^٤ راطنًا: متكلمًا بالأعجمية، وأعجمي طمطم: في لسانه عجمة لا يفصح.

ما وراء القبر

فينشطُ فيها العقل من عُقْلة الأسر^١
ويترك ما لم يدِرِ منها لِمَنْ يدري
عُزينا معادَ اللّٰه فيها إلى الكفر
كما قد جهلنا قبله أولَ العُمُر
ففي أيِّ أمر نحن بينهما نجري
وفي أيِّ ليلٍ من تشكُّكنا نسري؟
لنعبُرَ والأعمار جسر إلى القبر
وهل من مدى بعد العبور على الجسر؟^٢
ألا هلْ لكسر الموت ويحك من جَبُر؟
غياهبه من سكرة الموت بالفجر
كما قيل: سِتْرٌ والرّدى كاشف السّتر
عروج إلى الأعلى، إلى الأنجم الزهر؟
فتمكثُ منه في السماء على نكر؟
فما من عُروجٍ بل نزولٌ إلى القعر

متى تطلق الأيام حرّية الفكرِ
ويصدعُ كلُّ بالحقيقة ناطقًا
أرانا إذا رمنا بيان حقيقة
جهلنا أشدَّ الجهل آخر عمُرنا
هما ساحلا بحر من العيش مائج
ومن أين جننا أم إلى أين قَصْدُنا؟
كأننا أتينا والمعيشة لُجَّة
وماذا وراء القبر مما نريده؟
تسائلني نفسي وللموت صولة
لعلَّ حياة المرء ليلٌ ستنجلي
فإن كان ذا حقًا فإن حياتنا
وقد قيل: إن الرّوح تبقى فهل لها
وهل تعرف الجثمان بعد عروجها
إذا أرضنا كانت سماءً لغيرها

^١ عقلة: ما تعقل به الرّجلُ وتقيد.

^٢ المدى: الغاية.

وهل عَرَجَتْ أرواحُ مَنْ في عُطارِدِ
خيال به رُحنا نعللُ أنفسًا
وشبَّه بالنهر الحياةَ معاشرُ
ولكنهم أعياء عليهم مَصْبُهُ
فيا ليت شعري أين ينصبُّ جاريًا!
لعمرك ما هذي الحياة وما الذي
نحاول علمًا بالحياة وإنَّ ذا
ونسلكُ منها في مجاهلِ قفرةٍ
على أننا نمضي إلى أمر ربِّنا

إلى الأرض أم هذا الكلامُ من الهدرِ؟
هَزَأَنَ به لَمَّا رَجَعَنَ إلى الحجرِ^٣
فمنبَعُهُ في رأيهم قَدَمُ الدهرِ
وإن رجموا بالظنِّ في منبعِ النهرِ
أَعوُدًا لبدءٍ أم إلى غايَةٍ يجري؟
يُراد بنا فيها من الخير والشرِّ؟
منوطٌ إلى ما ليس يُدركُ بالفكرِ
فنخرج من قفْرِ وندخل في قفرِ
كما أننا آتون من ذلك الأمرِ

^٣ الحجر: العقل.

لو

لو أسكرَ الإنسان باطلُ أمره
لو قاس كلُّ فتى سواه بنفسه
لو أنصف الخصمان ما اصطاد الرُّشا
لو أخلص الإنسان في إحسانه
لو لم يَشْكُ برَّبِّه متفلسفٌ
لو أنَّ عقل المرء يغلب حبه
لولا جمود في الشرائع مُهلكٌ
لو كان قصد الدين غير سعادة الدُّ
لو أخلص الرجل التقيُّ بدينه
لا خير في تقوى امرئٍ لو لم يخفُ
لو كان أمر الحج معقولاً لما

لم تلقَ غير مُعزِّبٍ سكرانٍ^١
فيما أراد لما تعادى اثنان
أهلُ القضا مما ادَّعى الخصمان^٢
لم يرْجُ أن يُجزى على الإحسان
في الدِّين لم يحتجَّ بالبرهان
للنفس لم يلجأ إلى الأديان^٣
لتغيَّرت بتغيُّر الأزمان
نيا لكان الكفر كالإيمان^٤
ما كان ذا طمع بحور جنان
نار الجحيم للجِّ في العصيان
كان استلام القوم للأركان

^١ يريد: لو كان الباطل منكراً كالخمر لرأيت الناس كلهم سكارى.

^٢ هذا البيت قريب في معناه من القول المشهور: «لو أنصف الناس لاستراح القاضي.» غير أن معنى البيت: لو أنصف الناس لما فسدت أخلاق القضاة.

^٣ معنى البيت: أن حب النفس هو الذي يدفع الإنسان إلى التمسك بما تقوله الأديان من الحياة الأخرى؛ لأنه يحب الخلود لنفسه.

^٤ أنه لو صح ما يقوله هؤلاء، من أن غاية الدين أخروية محضة؛ لتساوى الكفر والإيمان في الدنيا.

لو حَكَمَ العَقْلَ الحَجِيحُ بحجهم
لو أخلص الغزى بنصرة دينهم
كذبت قريش لو تقادم عهدُها
لو كان للشيطان مَعْنَى غير ما الـ
لو يجعل الناس التعاون دأبهم
لو أن أخلاق الرجال تهذبت
ومحبة الأوطان لولاها لما
لو كان خيرٌ في المجرة لم يكن
لم تمّ في فلك الثريا سعدُها
لو لم يكن فزعا سهيلٌ لم يبت

أبوا الطواف بتلكم الجدران
ما حلّ سبي حرائر النسوان
في المجد ما خدعت أبا غبشان^٥
إنسان ما آمنت بالشيطان
لتمتعوا بسعادة العُمران
لتكشفت حُجُبٌ عن النسوان
عرف الأنامُ عداوة الأوطان^٦
في الأرض شرٌّ دائم الغليان
لم تُمنّ بالعيوق والدبران
في أفقه متتابع الحفقان

^٥ قوله أبا غبشان: هو رجل من خزاعة كان يلي سدانة الكعبة قبل قريش، فأسكره قصي واشترى منه

مفاتيح الكعبة بزق خمر، ثم أفاق نادماً، فضرب به المثل في الحمق والندم وخسارة الصفقة.

^٦ أراد بمحبة الأوطان هنا: المحبة السياسية، التي يتخذها صاحب السياسة ذريعة إلى تهيج الشعوب

إلى الحروب، ولا شك أن هذه المحبة هي أساس العداوات الوطنية بين الأمم قاطبة.

حقيقتي السلبية

وأكره أن أميل إلى الرياء
ولا أضمرت حسواً في ارتغاء
بإبقاء الحقيقة في الخفاء
بوحي مُنزلٍ للأنبياء
من العقلاء أرباب الدهاء
بأن الروح تعرج للسماء
وما تلك السماء سوى الفضاء
لمفتخر بإهراق الدماء
فعاشوا ينظرون إلى الوراء
سوى الحكام أرباب القضاء
وعند الغيب جاهر بالعداء
يَمْتُّ به الأنام إلى العلاء
بتمتة الدعاء من الوباء
لما وعدوه من حسن الجزاء
على الصلوات بالحور الوضاء
بحيث تكون من عدم هواء
تبدلُ منهما صورُ البقاء
كبيراً للرجال على النساء

أحبُّ صراحتي قولاً وفعلاً
فما خادعتُ من أحدٍ بأمر
ولست من الذين يرون خيراً
ولا ممن يرى الأديان قامت
ولكن هُنَّ وضعٌ وابتداعٌ
ولست من الألى وهموا وقالوا:
لأن الأرض تسبحُ في فضاء
ولست من الذين يرون فخراً
ولا ممن قد ارتبطوا بماضٍ
ولا ممن يرى للناس حُكماً
ولا ممن تودد في حضور
ولا ممن يرى الأنساب مِمَّا
ولا ممن إذا وبئوا استعاذوا
ولا من معشر صلوا وصاموا
ولا ممن يرون الله يجزي
ولا ممن يرى الأشياء تفنى
ولكن هُنَّ في جمع وفرق
ولست من الذين يرون فضلاً

ديوان معروف الرّصافي

ولكن دالت الأيام حتى تهاون هؤلاء بهؤلاء

حياة الورى

عليه الورى يمشون مشية عابر
بلفً ضماد أو بشدً الجبائر
لتدرك فيه تأرُها نفسُ ثائرٍ^١
وكيف أثَّارٌ في السَّهامِ العَوائرِ؟!^٢
ثَووا بين مقبورٍ هناك وقابر
إليها بمسودِّ الدجنَّةِ كافرٍ^٣
تساقط عُمِّي في عماقِ الحفائرِ
رواية رؤيا من كتابِ المقادرِ
فجائعها حتى انتهت في المقابرِ
نذيرًا، ومن يُنذرُ فليس بغادرِ
أكفَّ المنايا داميات الأظافرِ

حياة الورى جسْرٌ مديد وإنما
وللموت كسرٌ ليس يمكن جبره
وقتل الردى قتلٌ جبَّارٌ فلم تكن
فإن منايانا سهامٌ عوائر
أرى الناس طرًّا في الردى غير أنهم
وما الموت إلا هُوَّةٌ أدلج الورى
فهم أبدًا يسَّاقطون لقعرها
أرى كلَّ حي في الحياة ممثلاً
رواية رؤيا قد جرت في ديارنا
لقد قدم الموت الحياة أمامه
فلا عجبُ أنا نرى كلَّ ساعة

^١ القتل الجبار: الذي لا دية معه.

^٢ السهم العائر: الذي لا يُعلم من رماه.

^٣ الإدلاج: السير في الدلجة، وهي الليل كله؛ أي وقت السحر.

حبذا النوم

إلى صاحبة مجلة «الفجر»

عاشقُ نورَ فجرها الوضاحِ
مستنيرًا بأشهر الأوضاحِ
كصياح الديوك في الإصباحِ
عَطرَتنِي بنشرها الفيَّاحِ
ناظر في بنفسجٍ وأقاحي
كلمات بديعة الإفصاحِ
م ارتياحًا لنا وأيّ ارتياح!
قولها في غنى عن الإيضاحِ

قل لنَجَلًا — نجلا أبي اللُّمَع — إني
هو للعلم خير فجر تجلَّى
وصرير الأَقلام في الطرس منه
كم تصفَّحت فيه من صفحات
فكأنِّي في النفس والطرس منها
ثم إني قرأت فيه لأسما
أيقظتنا بها إلى أن في النَّوِّ
صدقت في الذي تقول ففحوِّ

* * *

من عناء الهموم والأتراح
لجسومٍ روازح أطلاح
عالمًا فوق عالم الأشباح
و«تلسكوبنا» إلى الأرواح
تدُّ في الجسم لاصطياد ارتياح
وهو للجسم من دواعي الصلاح
ح به تستضيء كالمصباح
لن تنأى أبعداه والنواحي

حبذا النومُ فهو للروح رُوح
وهو تجديد قوة ونشاط
حبذا النومُ ترتقي النفس فيه
«تَلْفُونُ» به إلى الغيب نُصغي
حبذا النومُ إنه شركٌ يم
فهو للنفس من مراقبي المعالي
حبذا النومُ فهو كالزيت للرو
وهو معراجنا إلى أفق غيب

حبذا النومُ واصلاً بين حيٍّ ذي ثواءٍ وميِّتِ ذي بَراح
حبذا النومُ جامعاً بين معشو قِ مقيمٍ وعاشقِ ذي انتزاح
إنَّ للنَّومِ لذةً هي في الأنثِ فس أشهَى من لذة الأفراح
أدركتها النفوس بالفعل واستغف ننت بإدراكها عن الإيضاح
أيها القومُ إنَّ للنوم سلطا ناً قوياً لا يُتَّقى بسلاح
نافذ الحكم والقضاء على الإنثِ سنان في حزنه وفي الأفراح
وعلى الأسد وهي في الغاب تدأى وعلى الطير وهي في الأدواح^١

^١ دأى له يدأى دأياً ودأواً: إذا ختله، والذئب يدأى للغزال، وهي مشية شبيهة بالختل.

بين الروح والجسد

أرى للروح بالبدن اتصالاً
تطيف به الهواجسُ شاعرات
فإنَّ الروحَ للجثمانِ تَلُوُ
فإنَّ كلاهما هذا بهذا
فلا جسدٌ يقومُ بغيرِ روحٍ
هما متلازمانِ فما لكلُّ
لذلك كانت الأرواحُ منا
ولست أظنُّ أن الروحَ تبقى
ورُبَّما يكون لها دوامٌ
وما هبطت من الخضراء لكن

خفياً لا تبين له رسومُ
وتعجز عن حقيقته الفهومُ
به منها ومنه بها وسومُ
كذلك تمَّ أمرهما القويمُ
ولا روح بلا جسد تقومُ
بغير قرينه أبداً لزومُ
بحيث تهَي إذا وهتِ الجسومُ
إذا مُحيت من الجسد الرسومُ
ولكن غيرَ شاعرةٍ تدومُ
من الغبراءِ أنبتها الحكيمُ^١

* * *

وأما هذه الأجسامُ منا
وترويتها المشاربُ والمحاسي
ويوهنها التقشُّفُ والتضني
وبعض من مطاعمنا غذاء

فتبنيها المآكل والطعومُ
وتذويها اللوافح والسمومُ
ويُحسنها التترُّفُ والنعيمُ
تحاك على العظام به اللحومُ

^١ الخضراء: السماء. والغبراء: الأرض.

وبعضُ من مطاعمنا وَقودٌ تديم به حرارتها الجسوم
له في جوف آكله احتراقٌ تكون رماده فيها الشحوم

* * *

وللأرواح كالأجساد زادٌ به تنمو المشاعر والحلوم
هو النغم الرقيق من المثاني هو الأدب الرفيع، هو العلوم^٢
فإن الروح تغذوها الأغاني ويجلو همها الصوتُ الرحيم
ويصقلها الجمال إذا رأته وتصديها القبائح والهموم
فلا تنفر بسمعك من غناء به غنتك شادية بغموم^٣
ولا تترفعنَّ عن الملاهي ولو شهدت برفعتك النجوم
وكنْ في المطربات فتىً طروباً فإن الناس أطرِبها الكريم
وقف عند الحدود فلا تُعدَّ إلى ما ليس يحمده الحليم
ولا تشتطَّ في طربٍ ولهوٍ فكل مُقارِف شططاً نميم
فإن وافقتني وجريت جريبي وإلا فاتك الطبعُ السليم

^٢ المثاني: جمع مثنى بوزن مفاعل، وهو ما يثنى ويكرر من الكلام في الغناء أو الإنشاد.

^٣ بغموم: صيغة مبالغة من البغام، وهو صياح الظبية إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها.

من نواميس الحياة

كلُّ شيءٍ من عالم الدَّراتِ كلُّ شيءٍ في كونه كالنباتِ
كل شيءٍ في بدئه من صغير ثم ينمو في ذاته والصفات
هكذا تكبر الصغار وتقوى في نواميس حادثات الحياة
هكذا ترسل الأصول فروعًا عاليات يأتين بالثمرات

* * *

إن للفلس في الثراء محلًّا كمثل الجذور في الدوحات
إن أصل الثراء فلسٌ وهل سا لت سيول إلا من القطرات؟!
هو في قدره حقيِرٌ ولكن جمعه موصل إلى العظمت
يتساوى فيه السخيُّ وذو البخـ ل ورب الإقلال والمثراة
هو هَيْنٌ على الذي قال: هاكُم حين يعطيه للذي قال: هات

* * *

إن ترد غرس نخلةٍ من ثراء فسوى الفلس ما لها من نواة
فاقتصد في موارد العيش فلسًا كل يوم من طائل النفقات
واجعل الفلس فوق فلس تجده مسعدًا مسعدًا على الخيرات
واقصد الخير في اقتصادك حتى لا يئول الثراء للآفات
ليس حسن الأعمال في الناس إلا حسن ما يضمرون من نيات
فدع الفعل كيف كان — حميدًا أو ذميمًا — وانظر إلى الغايات

ديوان معروف الرّصافي

حسنات الأنام إن لم تكن ذا ت عموم ضرب من السيئات
يا شباب العراق هبُّوا إليه وتوخوا بجمعه البركات
إن تكونوا اعتزمتم الأمر فيه فالبدار البدار قبل الفوات

الوصفیات

أنا والشعر

ويَبْذُلُ ما قد عَزَّ لي من مَصونِهِ
تَحْرُكُ شجوي ناشئ من سكونِهِ
لدهر أراه مُوغلاً في مُجونِهِ
تميل إلى المُشجي لها من حزينِهِ
إذا أنشدوه أطربوا بلحونه
شفيت صَدَى الراوي ببرد معينه^١
ولم أتحيّر خابطاً في حزونِهِ
أبتُ غَتَّهُ واستوثقت من سمينه^٢
إذا كان في طوعي اختشاب متينه؟!^٣
إذا هي لم تنزع إلى مستبينهِ
إذا لم أفز من دُرِّه بثمانهِ

أرى الشعر أحياناً يجيش بخاطري
ويسكن أحياناً فأشجى وإنما
وقد أتوَّخى الهزلَ منه مُجاريًا
ولكنَّ نفسي وهي نفسُ حزينه
وقد علم الراون شعري بأنهم
وإنني إذا استنبطته من قريحتي
وإنني على علم طويتُ سهوله
وإنني لَمَحَّاصٌ له بسليقة
وهل يخطر الشعر الركيك بخاطري
ألا لا اهتدتُ للشعر يوماً هواجسي
ولا عُصتُ في بحر القريض مخاطرًا

^١ الصدى: العطش. والمعين: الماء الظاهر.

^٢ الغث: المهزول، ضد السمين.

^٣ الاختشاب: افتعال من خشب الشعر يخشبه، من باب ضرب؛ أي: يمره كما يجيئه ولم يتأنق فيه، ولا تعمَل له.

على أن لي طبعًا لبيقًا بوشيه
إذا انتظمت أبياته في قصائدي
وما كان دَوْحُ الشعر يومًا لنجّني
ولم يستقد إلا لذي ألمعيّة^٤
وإنّي قد مارسته بفظانة^٥

نزوعًا إلى أبكاره دون عونه^٤
ترى كل بيت ممسكًا بقيرينه
بغير اليد الطولى ثمار غصونه
يكون كراي العين رجم ظنونه^٥
يلوح سناها غرّة في جبينه

* * *

لعمرك إن الشعر صمصام حكمة^٦
إذا جنني ليلُ الشكوك سلّته^٧
وما الشعر إلا مؤنسي عند وحشتي
تقوم مقامَ الدمع لي نفّثاته
وأجعله للكون مرآة عبّرة^٨
فأبصرُ أسرار الزمان التي انطوت
وللشعر عينٌ لو نظرت بنورها
وأذن لو استصغيتها نحو كاتم^٩

وأن النهى معدودة من قيونه^٦
عليه ففراه بفجره يقينه^٧
ومسلي فؤادي عند وزي شجونه
إذا الدهر أبكاني بريب منونه
فيظهر لي فيها خيال شئونه
بما دار في الأحقاب من منجونه^٨
إلى الغيب لاستشففت ما في بطونه
سمعت بها منه حديث قرّونه^٩

* * *

وليلٍ إلى شعراه أرسلت فكرتي
رسولاً بشعري حاملاً لرقينه^{١٠}

^٤ العون: جمع عوان، وهي من إناث الحيوان ما كانت وسطًا في السن بين الفارض: وهي المسنة، والبكر:

وهي الصغيرة، يقال: امرأة أو فرس أو بقرة عوان.

^٥ استقاد له الأمر: ذل وانقاد.

^٦ الصمصام: السيف. والنهى: [جمع] نهية، وهي العقل.

^٧ فراه: بتخفيف الراء وتشديدها؛ مزقه.

^٨ المنجون: الدولاب، يستقى به الماء لإرواء الأرض.

^٩ القرون: النفس.

^{١٠} الرقين: الكتاب المزين.

أنا والشعر

سَلِ اللَّيْلِ عَنِّي نَسْرَهُ وَسَمَاكُهُ
فَكَمْ بَتُّ فِي نَهْرِ الْمَجْرَةِ فِي الدَّجَى
هُوَ الشَّعْرُ لَا أَعْتَاضُ عَنْهُ بَغْيِرَهُ
وَلَوْ سَلَبْتَنِيهِ الْحَوَاثِ فِي الدُّنَا
إِذَا كَانَ مِنْ مَعْنَى الشُّعُورِ اشْتِقَاقُهُ
وَنَجْمَ سُهَاهِ وَالْجُدِيِّ خَدِينِهِ^{١١}
مِنَ الشَّعْرِ أَجْرِي مُنْشَأَتِ سَفِينِهِ
وَلَا عَن قَوَافِيهِ وَلَا عَن فَنُونِهِ
لَمَّا عَشْتُ أَوْ مَا رُمْتُ عَيْشًا بِدُونِهِ
فَمَا بَعْدَهُ لِلْمَرْءِ غَيْرَ جَنُونِهِ

^{١١} النسر والسماء والسها والجُدِّي — تصغير جدي: أسماء نجوم، يريد بسؤالها عنه أنه طالما سهر في صنع الشعر مراعيًا هذه النجوم، فبينها وبينه ألفة وصحبة.

الغروب

قالها سنة ١٨٩٤ وقد وصف فيها ما شاهده في الأعظمية عياناً من منظر الغروب.

نزلت تجرُّ إلى الغروب ذيولا
تهتزُّ بين يد المغيب كأنها
ضحكت مشارقها بوجهك بُكرةً
مذ حان في نصف النهار دلوكها
قد غادرت كبد السماء منيرةً
حتى دنت نحو المغيب ووجهها
وغدت بأقصى الأفق مثلَ عرارة
عَرَبت فأبقت كالشُّواظ عَقيبها
شَفَقُ يروع القلبَ شاحب لونه
يحكي دمَ المظلوم مازَجَ أدمعاً
رقت أعاليه وأسفله الذي

صفراء تشبه عاشقاً متبولاً
صبُّ تملَمَل في الفراش عليلاً
ويكت مغارِبُها الدماء أصيلاً
هبطت تزيد على النزول نزولاً^١
تدنو قليلاً للأقول قليلاً
كالورس حال به الضياء حُتولاً^٢
عطِشت فأبدت صفرةً وذبولاً^٣
شفقاً بحاشية السماء طويلاً
كالسيف ضُمخ بالدماء مسلولاً
هملت بها عين اليتيم همولاً
في الأفق أشبع عُصفراً محلولاً^٤

^١ دلوك الشمس والنجوم: زوالها على الاستواء، ويستعمل في الغروب أيضاً.

^٢ الورس: نبت أصفر، يزرع باليمن وتصبغ به، أو هو صنف من الكركم.

^٣ العرارة: واحدة العرار، وهو نبت طيب الريح، قيل: هو النرجس البري.

^٤ العصفور: نبت أصفر، يصبغ به.

شَفَقُ كَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ رَفَعَتْ بِهِ
كَالْخُودِ ظَلَّتْ يَوْمَ وَدَّعَ إِلْفَهَا
حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ وَغَادَرَتْ
فَكَأَنَّهَا رَجُلٌ تَخَرَّمَ عِزَّهُ
وَانْحَطَّ مِنْ عُرْفِ النَّبَاهَةِ صَاغِرًا
رُدْنَا بِذُوبِ ضِيَائِهَا مَبْلُولًا^٥
تَرْنُو وَتَرْفَعُ خَلْفَهُ الْمِنْدِيلًا^٦
وَجْهَ الْبَسِيطَةِ كَاسْفًا مَخْذُولًا
قَرَعَ الْخَطُوبَ لَهُ فَعَادَ ذَلِيلًا
وَأَقَامَ فِي غَارِ الْهُوَانِ خَمُولًا

* * *

لَمْ أَنْسَ قَرَبَ «الْأَعْظَمِيَّةِ» مَوْقِفِي
وَعَنِ الْيَمِينِ أَرَى مُرُوجَ مُزَارِعِ
وَتَرُوعَ قَلْبِي لِلدَّوَالِي نَعْرَةَ
وَوَرَاءَ ذَاكَ الزَّرْعِ رَاعِي ثَلَاثَةَ
وَهَنَّاكَ ذُو بَرْدُونَتَيْنِ قَدْ انْتَنَى
وَبِمَنْتَهَى نَظْرِي دَخَانَ صَاعِدِ
مَدَّ الْفُرُوعِ إِلَى السَّمَاءِ وَلَمْ يَزَلْ
وَتَرَاكِبَتْ فِي الْجَوِّ سُوْدُ طَبَاقِهِ
فَوَقَفْتُ أَرْسَلَ فِي الْمَحِيطِ إِلَى الْمَدَى
وَالشَّمْسُ قَدْ غَرَبَتْ وَلَمَّا وَدَّعَتْ
غَابَتْ فَأَوْحَشَتِ الْفَضَاءَ بِكَدْرَةِ
حَتَّى قَضَتْ رُوحَ الضِّيَاءِ وَلَمْ يَكُنْ
وَأَتَى الظَّلَامُ دُجْنَةً فَدَجْنَةً
لَيْلٌ بَغِيهِبِهِ الشَّخُوصُ تَلْفَعَتْ
ثُمَّ انْتَنَيْتِ أَخْوَضَ غَمْرِ ظَلَامِهِ
وَالشَّمْسُ دَانِيَةً تَرِيدُ أَفُولًا
وَعَنِ الشَّمَالِ حَدَائِقًا وَنَخِيلًا
فِي الْبَيْنِ يَحْسِبُهَا الْحَزِينُ عَوِيلًا^٧
رَجَعْتَ تَوَمُّ إِلَى الْمَرَاكِحِ قَفُولًا^٨
بِهِمَا الْعَشِيِّ مِنَ الْكَرَابِ نَحِيلًا^٩
يَعْلُو كَثِيرًا تَارَةً وَقَلِيلًا
بِالْأَرْضِ مَتَّصِلًا يَمُدُّ أَصُولًا
تَحْكِي تَلُولًا قَدْ حَمَلْنَ تَلُولًا
نَظْرًا كَمَا نَظَرَ السَّقِيمُ كَلِيلًا
أَبْكْتَ حُزُونًا بَعْدَهَا وَسَهُولًا
سَقِمَ الضِّيَاءُ بِهَا فَزَادَ نَحُولًا
غَيْرَ الظَّلَامِ هُنَاكَ عِزْرَائِيلًا
يُرْخِي سَدُولًا جَمَّةً فَسَدُولًا
فَظَلَّلْتُ أَحْسَبُ كُلَّ شَخْصٍ غُولًا
وَتَخَذْتُ نَجْمَ الْقَطْبِ فِيهِ دَلِيلًا

^٥ الردن: أصل الكم.

^٦ الخود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة، والجمع خودات، وخود بضم الخاء في الأخير.

^٧ الدوالي: جمع دالية، وهي الناعورة تديرها البقرة، والنعرة بالفتح: المرة من نعر إذا صوت.

^٨ التلة: القطيع من الغنم. والمراح: المكان تروح إليه الدواب وتأوي إليه بعد المراعي.

^٩ الكراب مصدر كرب الأرض كربًا وكرابًا: قلبها للحرث، وأثارها للزرع.

إن كان أوحشني الدجى فنجومه
سبحان من جعل العوالم أنجمًا
كم قد تصادمت العقول بشأنها
لا تحتقر صغر النجوم فإنما
دارت قديمًا في الفضاء رحي القوى
فاقرأ كتاب الكون تلق بمتمنه
ودع الظنون فلا وربك إنها
بعثت لتؤنسني الضياء رسولا
يسبحن عرضًا في الأثير وطولا
وسعت لتكشف سرها المجهولا
أرقى الكواكب ما استبان ضئلا
فغدا الأثير دقيقتها المنخولا
آيات ربك فصلت تفصيلا
لم تغن من علم اليقين فتिला

ليلة في ملهى

لما كان الرصافي في الآستانة سنة ١٨٩٨ أخذه جماعة من فضلاء فلسطين، معهم الأستاذ خليل السكاكيني، إلى مرقص من مرقص الآستانة في إحدى الليالي، واقترحوا عليه أن يصفه، فقال هذه القصيدة:

طرب الشعر أن يكون نسيبا
وتجلت في مسرح الرقص حتى
أقبلت تنثني بقدر رشيقي
قصرت منه كمه عن يديها
حبس الخصر حيث ضاق ولكن
هو زئي يزيد في الحسن حسنا
خطرت والجمال يخطر منها
وعلى أرويس الأصابع قامت
يعبس الأنس أن تروح زهابا
فهي إن أقبلت رأيت ابتساما
نحن منها في الحاليتين ترانا
تضحك الجو في الصباح طلوعا
مذ أجالت لنا القوام الرطيبا
أرقصت بالغرام منا القلوبا
ألبسته البرد القصير قشيبا
وأطالت إلى النهود الجيوباً^١
أطلق النحر بادياً والتريبا
من تزيًا به، وفي الطيب طيبا
في حشا القوم جيئة وذهبوا
تتخطى تبخترا ووثوبا
ويعيد ابتساما أن تئوبا
وهي إن أدبرت رأيت قطوبا
نرقب الشمس مطلعاً ومغيبا
ثم تبكيه في المساء غربوا

^١ المراد بالجيب هنا فتحة الطوق، من عند الرقبة إلى ما بين الثديين.

أظهرت في المجال من كل عضو
 حَيَّرتنا لما أرتنا عجيبًا
 شابَّهت عطفة الغصون انثناءً
 تلفتُ الجيد للرجوع انصياعًا
 تثب الوثبة الخفيفة كالبر
 حركات خلالها سكنات
 وخطًا تفضح العقود اتساقًا
 بَسمت كوكبًا ومرّت نسيماً
 لو غدا الحسن شاعرًا ينظم الحبَّ
 هي كالشمس في البعاد وإن كا
 عمت الناس بالغرام فكلُّ
 زهرةٌ تبهج النواظر حسناً
 هي دائي إذا شكوت من الدا
 وأتت بعدها من الغيد أخرى
 فأرتنا من الجبين صباحًا
 حملت بندقيّة صوّبتها
 واستمرّت رمياً بها عن بنان
 تحسن الرمي تارة مستقيماً
 وانكبّابًا إلى الأمام وإقعاً
 وهي في كل ذا تصيب الرمايا
 لو أرادت رمي الغيوب وأغضت

* * *

تترك الوالة الحزين طروباً
 قد شهدناه ليلّة جعلتْنا
 نحمدُ الدهر غافرين الذنوباً
 مشهد فيه للحياة حياة

بين رهطِ شَمِّ العرانيين ينفى الـ
كرُمُوا أَنفُسًا وطابوا فِعَالًا
كل ذي نجدةٍ تراه لدى الفعل
تلك والله ليلةٌ لست أدري
كدتُ أنسى بها العراق وإن
يا سواد العراق بَيَّضَكَ الدهـ
شَمَلتُ ريحك العقيمُ وقد كا
أين أنهاركُ التي تملأ الأُر
إذ حَكَتْ أرضك السماء نجومًا
لهف نفسي على نضارة بغدا
أين بغدادُ وهي تزهو علومًا
أقفرَت أرضها وحاق بها الجهـ
هَمَّ عَنِّي حديثُهم والكروبا^٢
وسموا محتدًا وعفوا جُيوبًا
كريمًا وفي المقال أديبا
في بلادي قضيتها أم غريبا
أبقى ندوبا بمهجتي فندوبا
ر فأشبهت مقلتي يعقوبا
نت لقوحًا تهبُ فيك جنوبًا
ض غللاً بسيحها وحبوبا؟^٤
ماحياتِ أنوارهنَّ الجُدوبا
د استحالت كدورةً وشحوبا
وزروعًا وأربعًا ودروبًا؟!
ل فجاشت دواهيًا وخطوبا

^٢ أشم العرنين: مرتفع قصبه الأنف؛ كناية عن الإباء والشمم وعلو النفس.

^٤ السيح: النهر يسبح ماؤه على وجه الأرض؛ أي يسيل.

في القطار

قالها لما ركب القطار من الأستانة إلى سلانك سنة ١٨٩٨.

فأرسلت دمعا فاض وابله سكباً
بشاخص طرف في الدجى يرقب الشُّهبا
عدواً فألى لن يهادنه حرباً
إذا ما رمى كرباً رأى تحته كرباً
لتأنف نفسي أن أكلّمه عتّباً
غلامٌ على حب المكارم قد شبّاً
نبا كلُّ غضب عنه أو أنكر الضرباً^١
وإن كان في أحواضه بارداً عذباً
تساقط من أجفاني اللؤلؤ الرطباً
بدت نغمات ترقص الدمع مُنصباً

تذكّرت في أوطاني الأهل والصحبا
وبت طريد النّوم أختلس الكرى
كئيب كأن الدهر لم يلق غيره
يقلُّ كرباً بعضها فوق بعضها
وإني إذا ما الدهرُ جرّ جريرةً
وقد علم القوم الكرام بأنني
وأنّي أخو عزم إذا ما انتضيتُهُ
وأنّي أعاف الماء في صفوه القذى
ولكنّ لي في موقف الشوق عبرة
إذا ضربت أوتارَ قلبي شجونه

* * *

وتملأ صدر الأرض سيرها رعباً
وجوف به صار البخار لها قلباً

وقاطرة ترمي الفضاً بدخانها
لها منخر يبدي الشواظ تنفساً

^١ يقال: انتضى سيفه: إذا سلّه من قرابه، وقد شبه عزمه بالسيف، ونبا السيف عن الضريبة: رجع ولم يقطع.

قطارًا كصف الدّوح تسحبه سحباً
وطورًا رخاءً كالنسيم إذا هبًا
فما استسلهت سهلًا ولا استصعبت صعباً
لتنهب سهل الأرض في سيرها نهبا
ويعترض الوادي فتجتازه وثبا
وقد وجدت من تحت قنّته نقبا
إذا ولجت في جوفه النفق الرحبا
تقول بها: يا طودُ خلّ لي الدربا
تري أفعوانًا هائجًا دخل الثقبأ
فتغلب بالدفع الذي عندها الجذبأ
تسبق قرص الشمس أن يدرك الغربأ
ولا استهجت بعدًا ولا استحسنت قربأ^٢
وتقذف من فيها بوجه الدجى شهبأ^٣
وما قد دعونا من سلانك قد لبى^٤
كأن لم نكن سفرًا على ظهرها ركبا^٥

تمشّت بنا ليلاً تجرّ وراءها
فطورًا كعصف الريح تجري شديدةً
تساوى لديها السهلُ والصعبُ في السرى
تدكُّ مُتون الحزن دكًا وإنها
يمر بها العالي فتعلو تسلقًا
وتخترق الطودَ الأشم إذا انبرى
يرنُّ بجوف الطودِ صوت دويّها
لها صيحة عند الولوج كأنها
وتمضي مُضيّ السهم فيه كأنما
تغالب فعل الجذب وهي ثقيلةٌ
طوت بالمسير الأرض طيًّا كأنها
وما إن شكت أيّنًا ولا سئمت سُرى
عشيةً سارت من فروقٍ تقلّنا
فما هي إلا ليلةٌ ونهارها
فجئنا ولم يُعيّ السفرُ مطينا

* * *

على كل عصر قد قضى أهله نحبا
بها آمن السيفُ الذي كذب الكُتبأ
يذلُّ أدنى فعلها المطلب الصعبأ^٦
لقلت: على كل القوى ته به عجبأ!
ويجعلها كالعلم محمودة العقبأ

تعاليت يا عصرَ البخار مفضلًا
فكم ظهرت للعلم فيك معاجزُ
تظاهرت من فعل البخار بقوةٍ
وأقسم لولا الكهرباء فوقه
هو العلم يعلو في الحياة سعادةً

^٢ الأين: التعب والكلال.

^٣ فروق: اسم القسطنطينية.

^٤ سلانك: بلد باليونان.

^٥ السفار: السفر.

^٦ تظاهرت بقوة: استعنت بها وتقويت.

في القطار

فكلُّ بلادِ جادها العلمُ أمرعت
متى ينشئُ الشرقُ الذي اغبرَّ أفقه
فإن دبورَ الذلِّ ألوتَ بعزّه
تبصَّرَ إذ دارت رحي الشرق هل ترى
رُباها وصارت تنبتُ العزَّ لا العُشبا
سحابة علمٍ تمطرُ الشَّرْفَ العذبا
وكادت سَمومُ الجهلِ تحرقه جدبا^٧
سوى الجهلِ في أثناء دورتها قُطبا

^٧ الدبور: ريح الجنوب، وهي حارة.

الأرملة المرضعة

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها!
أثوابها رثَّةٌ والرَّجُلُ حافيةٌ
بكت من الفقر فاحمَرَّتْ مدامعها
مات الذي كان يحميها ويسعدها
الموت أفجعها والفقر أوجعها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها
كُرُّ الجديدين قد أبلى عباؤها
ومزَّق الدهرُ — ويلُ الدهرِ — مئزرها
تمشي بأطمارها والبرد يلسعها
حتَّى غدا جسْمُها بالبرد مرتجفاً

تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها
والدمع تذرْفه في الخدِّ عيناها
واصفرَّ كالورس من جوع مُحيها^١
فالدهر من بعده بالفقر أشقاها
والهمُّ أنحلها والغمُّ أضناها
والبؤس مرأهٌ مقرونٌ بمراها
فانشقَّ أسفلها وانشقَّ أعلاها
حتى بدا من شقوق الثوبِ جنبها
كأنه عقربٌ شالت زباناها^٢
كالغصن في الريح واصطكَّت ثناياها

* * *

تمشي وتحمل باليسرى وليدتها
قد قمطتها بأهدام ممرّقة
ما أنسَ لا أنسَ أني كنتُ أسمعها

حملاً على الصّدر مدعوماً بيئناها
في العين منشرها سَمج ومطواها
تشكو إلى ربها أوصابَ دنياها

^١ الورس: نبت أصفر يصبغ به.

^٢ شالت: ارتفعت. والزبانة: الذنب.

هذي الرضيعة وارحمني وإياها
 إن مسّها الضرُّ حتى جفّ ثدياها^٣
 كزهرة الروض فقد الغيث أظماها
 والأمّ ساهرة تبكي لمبكاها
 تبكي وتفتح لي من جوعها فاهها
 وبّت من حولها في الليل أرعاها!^٤
 ولست أفهم منها كُنه شكواها
 ولست أعلم أي السقم آذاها
 بالفقر واليتم، آها منهما آها!
 وموت والدها باليتم ثنّاهها

تقول: يا ربُّ لا تترك بلا لبن
 ما تصنع الأمّ في تربيب طفلتها
 يا ربُّ ما حيلتي فيها وقد ذبلت
 ما بالها وهي طول الليل باكية
 يكاد ينقدُّ قلبي حين أنظرها
 ويلمّها طفلةً باتت مروّعة
 تبكي لتشكو من داء ألمّ بها
 قد فاتها النطق كالجماء أرحمها
 ويح ابنتي إنّ ريب الدهر روعها
 كانت مصيبتها بالفقر واحدة

* * *

منها فأثّر في نفسي وأشجاها
 وأدمعي أوسعت في الخدّ مجراها
 أشارك الناس طُرّاً في بلاياها
 في قاله أوجعت قلبي بفحواها
 ما في يدي الآن أسترضي به الله
 دراهمًا كنت أستبقي بقاياها^٥
 بأخذها دونما من تغشّاهها
 ترمي السهام وقلبي من رماياها
 كالنار تصعد من أعماق أحشاهها
 وآها لمثلك من ذي رقّة وآها!
 ما تاه في فلوات الفقر من تاهها

هذا الذي في طريقي كنت أسمع
 حتى دنوت إليه وهي ماشية
 وقلت: يا أخت مهلاً إنني رجل
 سمعت يا أخت شكوى تهمسين بها
 هل تسمح الأخت لي أني أشاطرها
 ثم اجتذبت لها من جيب ملحفتي
 وقلت: يا أخت أرجو منك تكرمتي
 فأرسلت نظرة رعشاء راجفة
 وأخرجت زفّرات من جوانحها
 وأجهشت ثم قالت وهي باكية:
 لو عمّ في الناس حسّ مثل حسّك لي

^٣ تربيب: تربية.

^٤ ويلمها: أصله ويل لأمها.

^٥ ملحفتي: الرداء الذي ارتدي به فوق ملابس.

الأرملة المرضعة

أو كان في الناس إنصافٌ ومرحمة لم تشكُ أرملةٌ ضنكًا بدنياها

* * *

هذي حكاية حالٍ جئتُ أذكرها وليس يخفى على الأحرار مغزاها
أولى الأنام بعطف الناس أرملةً وأشرف الناس من في المال واساها

عهد الصبا أو نهر الحياة

أشبهه شيء بأزاهير الربا
وعُمره واللون منه والشذا
خلف ذاكره بقلبي ومضى!
وكان ريان التصابي والمنى
فإن تولّى فهو هيش مُزدرى

عهد الصبا سقيًا لأيام الصبا
إن الصبا كالورد في نضرته
وأها على شرخ الشباب المشتهى
لقد ذوى غصن حياتي بعده
أطيب عيش المرء في شبابه

* * *

أحوالها مختلفات في الرؤى
أوضاعه في الأرض كلما جرى
مصّبّه تلقاه بحرًا قد طمًا^١
إذا بواديه تمطّى واستوى
في الأرض ينساب وطورًا كالقنا
راجعةً من حيث جاء القهقرى
فيه وقد خرّ خريراً ورغاً^٢
وتارةً منزويًا فوق الثرى

إن حياة المرء ما عاش تُرى
كالنهر الجاري الذي تغيّرت
فهو لدى المنبع ضحّضاً وفي
بيناه يجري في الثرى مُنعطفاً
طورًا كأسياف الوغى مُنحنيًا
وربما عادت مجاريه به
وربما صادف غوطًا فانهوى
والماء فيه قد يرى منبسّطًا

^١ ضحّضاح: ليس عميقًا.

^٢ غوطًا: أرضًا منخفضة. ورغا البعير: صوت.

وتارة تلقاه في مَشَجَرَةٍ
حتى إذا أبحر مجراه به
يجري وأخرى بين أصلاذ الصفا^٢
تجري فتصبُّ إلى بحر الردى^٤
وهكذا أنهار أعمار الورى

* * *

وإنما العمر شبابٌ فإذا
ما كان أحلى العيش لو أن الفتى
زال فحزن وشقاءً وضنى
ليت الفتى كالبدرد في النشأة إذ
لم يجد الشيب إليه مُخْتَطَى^٥
أو ليته كالشجر النبات إذ
أو ليت هذا الشيب إن كان ولا
عاد هلالاً كل شهر فنماً!
شبيبة الإنسان مرآة المني
يورق في الصيف ويعرى في الشتا!
والمراء فيها إن تمرأى راجياً
بُدَّ من الشيب أتى قبل الصبا
شبيبة الإنسان مرآة المني
أبدت له مبتسماً ثغر الرجا
إذ لاح كالسيف عليه مُنتَضَى
ويح شباب فتك الشيب به
بُردان: هذا من وقار ونهى
في طيئه من لوثة ومن ونى
لكن وقار الشيب لا يعيد ما

* * *

يا مُسلياً ذا الشيب عن شبابه
أقصر هذانك عن القول فلا
بأنَّ وخطَّ الشيب أزهارُ النهى
وما الصبا بمانع من الحجا
يُقاس ذِيالك تالته بذان^٦
بل هو في الشيخ يكون والفتى
في معرض سبق كماشي الهيدبي^٧
وليس من أصبح يمشي الخيزلى

^٢ مشجرة: أرض كثيرة الشجر. أصلاذ: جمع صلاذ، وهو الصخر الجلمد. والصفاء: جمع صفاة، وهي الحجر الأملس.

^٤ أبحر مجراه: اتسع كالبحر. والدأماه: البحر.

^٥ مختطى: مصدر ميمي من اختطى، بمعنى خطا.

^٦ هذانك: مشي هذان، أي: هذا بعد هذا، والهذ: القطع، يريد: كف عما تقوله واقطعه ولا تعد إليه.

^٧ الخيزلى: مشية تخاذل وتراجع وتفكك. والهيدبي، والهيدبي: ضرب من مشية الخيل سريعة. استوحى الشاعر هذا المعنى من المنتبي الذي فضل ابنة البادية على ابنة الحاضرة فقال:

عهد الصبا أو نهر الحياة

وما إياة الشمس في تطفيلها
وهل يطيب العيش للهَمَّ الذي
يَبِيْتُ طول الليل في مضجعه
وإنَّ ظهر الأرض يستثقل مَنْ
مثلَ إياة الشمس في رَأد الضحى^٨
إن هَمَّ بالنهضة خانتَه القُوَى؟!^٩
مستأنس السَّعلة وحشيَّ الكرى
أمسى يَدِبُّ فوقها على العصا

ألا كلُّ ماشية الخيزلى فدى كلِّ ماشية الهيدى

^٨ إياة الشمس: شعاعها. والتطفيل: وقت الأصيل. ورأد الضحى: ارتفاعه ورونقه.

^٩ الهم: الرجل المسن البالي، جمعه أهمام.

السفر في التومبيل

طَوَيْتَ أَجْوَاذَهُ طَيِّ الْمَكَاتِيْبِ^١
كَمَا جَرَى الْمَاءُ مِنْ سَفْحِ الْأَهَاضِيْبِ
عَوَامِلُ عَجَلَاتٍ مِنْ دَوَالِيْبِ^٢
تَمْشِي بِأَخْفَافِ أَنْوَاقِ مَطَارِيْبِ
سَوَى حَفِيْفٍ كَنْفَخٍ فِي الْأَنْابِيْبِ
مَا تَعْرِفُ الْخَيْلَ مِنْ حُضْرٍ وَتَقْرِيْبِ^٣
قَدْ زَانَهَا حُسْنُ تَنْجِيْدٍ وَتَقْبِيْبِ
يُزْهِى بِنَاجٍ عَلَى الْفَوْدِيْنِ مَعْصُوْبِ
صَدْرَ الْمَلِيْحَةِ مَكْشُوْفِ التَّلَابِيْبِ
يَرْنُو إِلَى الْفَجْرِ فِي الْحَاطِ مَرْعُوْبِ
كَالْعِقْدِ مَنْفَرَطًا مِنْ جِيْدِ رُعْبُوْبِ^٤
مَا يَنْعَشُ الرُّوحَ مِنْ نَشْرِ وَمِنْ طِيْبِ

وَفَدَفَدِ قَائِمِ الْأَعْمَاقِ مَتَسَعِ
بِتَوْمِيْبِيْلٍ جَرَى فِي الْأَرْضِ مَنْسَرِحًا
يَنْسَابُ مِثْلَ انْسِيَابِ الْأَيْمِ تَحْمَلُهُ
كَأَنَّهَا وَهِيَ بِالْمَطَّاطِ مُنْعَلَةٌ
يَمُرُّ كَالرِّيْحِ لَمْ تَسْمَعْ لِأَرْجَلِهِ
وَتَنْكُرُ الْخَيْلَ إِنْ جَارَتْهُ فِي سَنَنِ
تَظْلُهُ قُبَّةٌ فِيهِ مِنْجِدَةٌ
يَخَالُ مِنْ حَلٍّ فِيهَا نَفْسُهُ مَلَكًا
رَكِبْتُهُ وَبِيَاضُ الصَّبْحِ تَحْسِبُهُ
وَالْبَدْرِ فِي الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ مَمْتَقِعِ
وَلِلنَّجُومِ بَقَايَا فِي جَوَانِبِهِ
وَلِلنَّسِيْمِ هَبُوبٌ فِي مَدَارِجِهِ

^١ الفدغد: الفلاة الواسعة لا شيء بها. والأجواز: جمع جوز، وهو وسط الشيء.

^٢ الأيم: الحية.

^٣ الحضر: السير السريع. والتقريب: ضرب من السير بطيء.

^٤ الرعبوب: الشابة الممتلئة الحسنة الناعمة.

فطار من غير تحليق براكبه
وسار سيرًا دراكًا ملءً مهيعه
فكنت أبصر حولي الأرض جاريةً
يلوح فصل الربا وصلًا فأحسبها
ما زال يجتاز بي ما في البسيطة من
حتى بلغتُ به أقصى مدى عجزتُ
وكم علا بي أنشازًا تسلَّقها
لا يعرف الأينُ منه أين موقعه
وكيف يتعب من لا حسَّ يتبعه
وإنما هو يجري في مسالكه

بل مرَّ يمطر مطرًا فوق مَلحوب^٥
كالويل يتبع شُؤبوبًا بشُؤبوب^٦
كمثل تيار بحر وهو يجري بي
من سرعة المرِّ قد صُفَّت بترتيب
سهلٍ ومن جبَلٍ عالي الشناخيب^٧
عنه العتاقُ من الجرد السراحيب^٨
وشابَ في السير تصعيدًا بتصويب^٩
ولو يواصل إدلاجًا بتأويب^{١٠}
ولا يسير على ساقٍ وظنوب^{١١}
دفعًا بقوة غازٍ فيه مشبوب

* * *

جرَّبته هابطًا أجزاءً أودية
وملهبًا في سهول الأرض ينهبها
فكان أسبقَ مركوبٍ لغايته
تلك المطية لا عوجاء يذكرها
لو امتطاهها لبيدٌ قبلُ تاه بها

وطالعًا في الثَّنَايا والعراقيب^{١٢}
نهبًا ويخلط ألهوبًا بألهوب^{١٣}
وكنت أقرب طَلابٍ لمطلوب
أديب ذبيانٍ من عيرانة النيب^{١٤}
على الحواضرِ قدمًا والأعاريب

^٥ الملحوب: الطريق الواسع.

^٦ دراكًا: متتابعًا. والمهيع: الطريق. والشؤبوب: الدفعة من المطر.

^٧ الشناخيب: جمع شنخوب وشنخابة وشنخاب، وهو رأس الجبل.

^٨ السراحيب: جمع سرحوب، وهي الفرس الطويلة الجسم.

^٩ أنشازًا: جمع نشر بالتحريك، وهو المرتفع من الأرض.

^{١٠} الإدلاج: سير الدلجة في الليل. والتأويب: السير بالنهار.

^{١١} الظنوب: مقدم عظم الساق.

^{١٢} الأجزاء: جمع جزع، بكسر الجيم، وهو حيث ينزع الوادي والطريق، أي: ينعطف.

^{١٣} الألهبوب: العدو الشديد تنتهب منه الأرض الصلبة، فيخرج منها الشرر.

^{١٤} أديب ذبيان: هو النابغة الذبياني. والعيرانة: الناقة تشبه العير — وهو حمار الوحش — في وثاقة

خلقها وقوتها. والنيب: جمع ناب، وهي الناقة المسنة.

السفر في التومبيل

ولم يَهَم لو رأى ابن العبد منظرها من وصف عوجائه في كل أسلوب^{١٥}
ولا أطال ابنُ حُجْرٍ وصف منجرٍ عالي السراة كُميت اللون يَعبوب^{١٦}

^{١٥} ابن العبد: هو طرفة بن العبد، وعوجاؤه: ناقته التي وصفها في معلقته.

^{١٦} ابن حجر: هو امرؤ القيس. والمنجرد: القصير الشعر. والسراة: الظهر. والكميت: الأحمر. واليعبوب: الجواد البعيد الغاية في الجري.

من ويلات الحرب

مرت تقول: ألا يا ربَّ خُذْ روحي
مهزولة الجسم من فقرٍ ومن نَكْدٍ
باتت بغير عشاءٍ وهي طاوية
ضنك المعيشة أضوى جسمها فبدت
وأذبلتها هموم النفس ناصية
ويُلْمُّها عيشةً نكداءٍ يابسة
في طرفها نظراً وان تُردِّده
تلفعت بدريس من تخرُّقه
كي أستريح بموتي من تباريحي^١
مُصفرَّةً الوجه من همٍّ وتتريح
وأصبحت وهي غرثى دون تصبيح^٢
شروى خيالٍ بطرف العين ملموح^٣
فصوَّحت وجنتيها أي تصويح^٤
لم تبقَ من جسمها غير الألويح!^٥
لَمَحَ المريض إذا ما جاد بالروح
تخال طرَّته بعضُ التقازيح^٦

^١ التباريح: كلف المعيشة في مشقة.

^٢ التصبيح: هنا بمعنى الغداة؛ أي ما يؤكل صباحاً.

^٣ شروى: بمعنى مثل؛ أي مثل خياله.

^٤ التصويح: التجفيف؛ أي جففت وجنتيها.

^٥ الألويح: جمع ألواح، جمع لوح، فهو جمع الجمع، وألواح الجسد: عظامه العراض، والمعنى: لم يبقَ في جسمها غير العظام، يقال للمهزول: لم يبقَ منه إلا الألواح.

^٦ التقازيح: جمع التقزح، وهو رأس نبت أو شجرة يتشعب كبرثن الكلب؛ أي تخال جانب ثوبها المنخرق كراس هذا النبت المتشعب شعباً.

فكم ترى العينُ خرقاً غير مرتقع في جانبه وفتقاً غير منصوح^٧
تمشي انخزالاً بعبء الفقر مُثقلة كظالعٍ في الطريق الوعر مكسوح^٨
خارت قواها فمارت في تخذلها يكاد يسقطها هبُّ من الريح

* * *

لمَّا دنوت إليها كي أسائلها والقلب في خطرٍ كالأراجيح
تأوهت أهة حمراء دامية تشفُّ عن كبدٍ بالهم مجروح
وأجهشت ثم أرخت من محاجرها عنان دمع على الخدين منصوح
وأعرضت وهي لم تنبس سوى نظر يغني الألباء عن نطق وتصريح
فرحْتُ من عجبي منها ومن جزعي أبكي لها بين ترجيع وتسبيح
من ليس يبكيه من أبناء جلدته بكاؤهم فهو من جنس التماسيح
ولا يقوم بعبء المجد مضطلعاً من لا يقوم إلى إنهاض مفدوح^٩
وما السعادة في الدنيا بحاصلة إلا بإسعادٍ أطلّح مرازيح^{١٠}
إن المروءة شيءٌ لا تناوشه إلا سواعد أجواد مساميح
أرى كنوز المعالي ما لأففلها غيرُ السماح لعمرى من مفاتيح
والعيش غيهبٌ آمالٍ وليس لنا سوى التعاون فيه من مصابيح

* * *

قامت قيامةُ أهل الغرب فانبعثت هزاهزٌ بينهم عمّت بني نوح^{١١}
واستفحلت فتنة عمياء جائحة تمخّضت في دم في الأرض مسفوح
وقامت الحرب بالأواء شاملة كل البسيطة حتى الأبحر الفيح^{١٢}

^٧ منصوح: أي مخيط، من نصح الثوب إذا خاطه.

^٨ الظالع: الذي يغمز في مشيه؛ أي يميل من رجله، وكذلك المكسوح، يقال: جمل مكسوح؛ إذا كان به ظلع شديد.

^٩ المفدوح: المثقل.

^{١٠} أطلّح: جمع طلح، وهو المعنى والمهزول، وكذلك مرازيح.

^{١١} الهزاهز: الفتن التي تهز الناس.

^{١٢} الأواء: الشدة والمجاعة. والفيح: جمع أفيح، يقال: بحر أفيح؛ أي واسع.

والأرض قد أصبحت من مكر ساكنها
ضاقت على الناس وانسدت مسالكها
والحرب أغنت أناساً غنيّةً عَجَبًا
ومعشرًا أسكنتهم في الذرا غُرْفًا
مُحَمَّرَةَ اللُّوحِ أَوْ مُغَبَّرَةَ السُّوحِ^{١٣}
فَعَادَ كُلَّ طَرِيقٍ غَيْرِ مَفْتُوحِ
وَأَخْرَيْنَ رِمْتَهُمَ بِالْمَجَالِيحِ^{١٤}
وَمَعَشْرًا بَطْنَ مَلْحُودٍ وَمَضْرُوحِ^{١٥}

* * *

أما التي أوجعت قلبي بمنظرها
فغادة عضت الحربُ الضروسُ بها
أمست تكابدُ من فقرِ ألمِّ بها
ترنو إلى الناس بالشكوى فتحسبها
وأوهنته بتبضيعٍ وتقريح
عضًا بناب حديدٍ غيرِ مرضوح^{١٦}
آلامَ عيشٍ بشيعِ الطعمِ مذروح^{١٧}
ظمآن يشكو لآلِ حُرْقَةِ اللُّوحِ^{١٨}

^{١٣} اللوح بضم اللام: الهواء بين السماء والأرض. والسوح: جمع ساحة؛ احمرار اللوح، واغبرار السوح: كناية عن وقوع القحط والجذب.

^{١٤} المجاليح: السنون التي تذهب بالمال، وهي ذات القحط والجذب.

^{١٥} الملحود والمضروح: القبر.

^{١٦} مرضوح: مكسور.

^{١٧} مذروح: مسموم.

^{١٨} الآل: السراب. واللوح: بضم اللام هنا، بمعنى العطش، والمعنى أنها تشكو إلى الناس بلا فائدة كشكوى الظمآن إلى الشراب.

على جسر مود

قالها يصف بها ليلة مقمرة وهو على جسر مود بغداد.

لا تبكِ أَرْبَعَهُمْ ولا الأطلالا
واتركِ سؤالكِ للرسوم فإنها
وانظر إلى حسن الطبيعة إنه
حسن يقيد من رآه بحبه
ويطير في جو السرور مُرْفَرَفًا
أوما ترى البدرَ المنير إذا بدا
واربأً بحبك أن يكون خيالاً
مما يزيدك بالسؤال ضلالاً
حُسن يفيدك في الحياة كمالاً
ويفكُّ من أفكاره الأغلالاً
بالمشتكين كآبة وملالاً
يكسو الدجى من نوره سربالاً

* * *

ولقد وقفت بجسر مودَ عشيةً
والليل يلبس من سناه مطارفاً
أما النسيم فقد جرى متعطراً
وجبين دجلة قد صفا متألّفاً
فحسبت نفسي في السماء مُشاهداً
ورأيت من فوق السّماء حقيقة
فكأنما الجسر الذي أنا فوقه
وكأنما أنا في السماء محلق
والبدر في أفق العلا يتللاً
منها يجرُّ بدجلة أذيالاً
وحكى بطيب هُبوبه الآمالاً
فحكى السماء محاسناً وجمالاً
تحتي بدجلة للسماء مثلاً
ورأيت من تحتي السماء خيالاً
قد مدَّ في جو السماء مشالاً
طوراً أسفً وتارةً أتعالي

* * *

ديوان معروف الرّصافي

لله ما شاهدتهُ من مَنظرٍ يدع الكئيب كشاربٍ جريالا!^١
حُفَّتْ جوانبه بكل بديعةٍ فزها جمالاً واستقلَّ جلالاً
حتى نخيلُ الجانبين جميعها قامت له بحفاوةٍ إجلالا

^١ الجريال: من أسماء الخمر.

على البسفور

وللدّوح ظلّ دونه متقلّصٌ
كجري طموح الخيل إذ يتوقص^١
هضابٌ إلى أطرافها الثلج يخلص
تغنيّ وهذا الموج في البحر يرقص
بها العيش يصفو أو بها يتنغص
بها الناس تغلو أو بها الناس ترخص
تزيد لمن فيه المروءة تنقص
ويُظهر إخلاصًا وما هو مخلص^٢
يروغ أو الكلب الذي يتبصبص
جهولاً على علاته يتعنّفص
بغيضٍ إليّ الكاذب المتخرّص
فإني بأثواب العلا متقمّص
وإني على نا في المغيب لأحرص
إذا كان فيه باطنٌ متلصّص

وقفتُ على البوسفور والريح عاطف
وفي البحر مجرى موجة إثر موجة
ويُزبد أعلى الموج حتى كأنه
كأنّ رياح الجو عند هبوبها
كذا حادثات الدهر تمضي رواقصًا
وفي كل يوم للزمان عجائبُ
وأعجب ما في الدهر أن هباته
وربّ أفيكِ جاء يمدّق وُدّه
ولكنه في وُدّه الثعلب الذي
تعاليتُ عن تبكيتته إذ رأيتَه
وقلت له: لا تدنُ مني فإنني
وإنك عارٍ من سوى العار فابتعد
حرّصت على تكريم محضر صاحبي
وما غرني ذو ظاهر متودّدٍ

^١ يتوقص: يثب في عدوه وهو يقارب الخطو.

^٢ أفيك: كاذب. ويمدّق: يخلط.

ويا رَبِّ وجهٍ لم يَرُقْنِي بياضُه
فيا شعراء القوم كَفُّوا وَغَاكُمُ
دعوا كشف مكنون الصدور لِفَطْنِي
ذكاء لو اجتزتُ الجدار بنوره
ولست على الأعقاب في الرأي ناكصًا
على أن لي في معرض الشكِّ رِبْصَةٌ
إذا أنا لم أنكر على الدهر جورَه
فلمَّا دنا مني إذا هو أبرص
فشرح العلا في بعض شعري مُلْخَص
فإني بذا من دونكم متخصص
لشف لعينيَّ الجدارُ المَجْصَص
إذا كان للمستضعفِ الرأي منكص
وَرُبَّ يقينٍ ناله المتربص
فلا وطئت بي موطئَ العزِّ أَمْخَص

إلى غرة آل سعدون

أراك مَنَاطَ أسباب الرجاء
يلألى من فخارك في سماء
رثاة بزتي وبلَى كسائي
تكاد تذوب من مسّ الهواء
لبست بهنّ أثواب الرياء
لكاسي النفس من حُلل الإباء
إذا ما كان محمود المضاء^١
بثوبٍ منك يا غمر الرداء^٢
ولم أخلعه إلا في المساء
ظلاماً ما تمزق بالضياء
وألجأ في النهار إلى الضراء^٣
ولا من زِيّ أرباب الثراء^٤
فمن ثوبٍ عليّ ومن عبا

أعبد المحسن السعدونَ إني
وأبصر من فعالك بَدَرَ تَمَّ
لذلك قد أتيتُ إليك أشكو
فقد رَقَّتْ ثيابي اليوم حتى
غدت شفافة حتى كأني
وليس العُزّي من ثوبٍ معيباً
وما ضرَّ المهنّدَ فقد جفن
فإن لم تدرك الأيام عُريي
لبست قرار بيتي في نهاري
فإن جاء المساء لبست منه
وصرت أجول كالحفّاش ليلاً
ولست أريد ثوباً أتحمياً
ولكن بزّة البدويّ أبغي

^١ الجفن: قراب السيف.

^٢ غمر الرداء: واسع العطاء.

^٣ الضراء: الشجر الملتف في الوادي.

^٤ الأتحمي: الثوب الصفيق المتين النسيج.

ومن كوفية صَحِبَتِ عِقَالاً
 فذا زِيٌّ يَتَمُّ به رجوعي
 وما صَيَّرْتُ ملبوسي خَفِيفًا
 وكيف وَأَنْتَ أَكْرَمُ من حَبَانِي
 ولكنني رَغِبْتُ عن اِكْتِسَاءِ
 وكيف يَكُونُ مَطْلُوبِي حَقِيرًا
 وهل أَنَا غَيْرُ عَبِيدٍ أَنْتَ مِنْهُ
 لَأَتَّخِذَنَّ إِخْلَاصِي وَصَدْقِي
 وَأَجْعَلُ مَا حَبِيتَ جَمِيلَ شُكْرِي
 ولست أَرَى الحَيَاةَ تَطْيِيبَ إِلا
 وَأَعْلَمُ أَن ما أَشْكَو إِلَيْكُمْ
 وَيَشْمِتُ بي الذِين لَهِم نَفُوسُ
 ولم يَشْمِتْ بِأَحْرَارِ البِرَايَا
 ولكن هَوَّنَ البِرْحَاءَ أَنِي
 شَكُوتُ إِلَى فَتَى جَمِّ المَزَايَا
 فَتَى يُولِيكَ عِنْدَ البُؤْسِ خَيْرًا
 رَحِيبُ البَاعِ مَوْتَلِقُ المَحْيَا
 صَرِيحُ فِي مَقَاصِدِهِ إِذَا مَا
 زَكَتْ أَخْلَاقُهُ فَصَفَتْ وَرَقَّتْ
 تَلَاقِي الزَائِرِينَ بِبِشْرِ وَجْهِ
 إِذَا رَأَسَ البِلَادَ أَبُو عَلِيٍّ
 وَإِنْ وَلِيَ الوِزَارَةَ وَهُوَ أَهْلٌ
 يَكُونُ الرَأْسُ مِنْهَا فِي غَطَاءِ
 إِلَى عَيْشٍ بَسِيطِ ذِي هِنَاءِ
 لِأَنِّي خَفْتُ مِنْ ثِقَلِ العَطَاءِ
 بِأَكْرَمِ مَا رَجُوتُ مِنَ الحَبَاءِ؟!
 يَطُولُ بِهِ مِنَ الدُنْيَا عَنَائِي
 وَأَنْتَ أَجَلُّ مَنْ تَحْتَ السَّمَاءِ؟!
 حَخَّصْتَ أَبَا عَلِيٍّ بِالْوَلَاءِ؟!
 لَكُمْ مِنْ كُلِّ مَوْبِقَةٍ وَقَائِي
 لَمَّا أُسَدِيتُ مِنْ نَعْمِ غِذَائِي
 بِحَسَنِ تَجْمُلِي لَكَ وَالثَّنَاءِ
 يَسُرُّ المَارِدِينَ عَلَى عِدَائِي
 مَرَضُنْ مِنَ العِيُوبِ بِكُلِّ دَاءِ
 سِوَى لَوْمَائِهِمُ وَالأَدْنِيَاءِ
 شَكُوتُ إِلَى جَدِيرٍ بِاشْتِكَائِي
 كَبِيرِ النَفْسِ مَنفَرِدِ السَّنَاءِ
 وَلَا يَنْسَاكَ فِي حَالِ الرِّخَاءِ
 أَصِيلُ الرَّأْيِ وَقَادِ الذِّكَاةِ
 أَسْرُّ القَوْمِ حَسَوًا فِي ارْتِغَاءِ °
 فَهِنَّ لِكُلِّ مَكْرَمَةٍ مَرَائِي
 تَجَلَّلَ بِالمَرْوَةِ وَالحَيَاةِ
 فَقد وَضَحَتْ بِهَا طَرِقَ العِلَاءِ
 فِيهَا حَسَنُ السِّيَاسَةِ وَالدَّهَائِ

° الحسو: الشرب. والارتغاء: شرب الرغوة، وهذا مثل معناه أنه يظهر أنه يشرب الرغوة، وهو يحسو اللبن الذي تحتها، يضرب لمن يظهر غير ما يبطن.

الوسام وفخامة رئيس الوزراء

ويدا عليه كزهرة من سوسن
فاستعصمت منه بأشرف مكمّن
من كل شائنة بأكرم مأمّن
كالنجم في الأفق السعيد الأيمن
أكرم بصدرك للعلا من معدن!
للمخلصين وحسرة المتخوّن
إذ أكرمتك به سياسة لندن
ما تبتغيه من اعتزاز الموطن
ما شئت سير حضارة وتمدّن
شرفاً فيعظم حسنها في الأعين
ذو نسبة في المجد ذات تفنّن
فاعجب لحسن مَعنون بمعنون
يَهدي البلاد إلى المآب الأحسن
وابلغْ بهنّ مدى الرقيّ الممكن
بك يا أصيل الرأي فضل تحسّن

حَسَنَ الوسام بصدر عبد المحسن
صدر به كمنّت سرائر مجده
واستأمنته المكرمات فأصبحت
لاح الوسام بأفقِ صدرك لامعاً
هو للعلا من فوق صدرك شارة
شرف حُببَت به فكان مسرة
جعلته لندن للعراق كرامة
ليكون فيك علامة منها على
فافخر به كل الفخار وسر بنا
تتناسب الأشياء مع أصحابها
وكذاك صدرك والوسام كلاهما
فكلاهما عنوان مجد قرينه
يا أصدق الوزراء معرفة بما
سر بالبلاد إلى معالم عزها
إننا لنرجو للعراق وأهله

نحن

في يوم حادثة الرئيس

شاع كالبرق في العراقيين يوماً
خَبِرُ قُطْرِنَا الْعِرَاقِيِّ قَدْ زُلَّ
شاع أَنَّ الرَّئِيسَ أَهْوَى إِلَيْهِ
إِذْ رَمَاهُ بَطْعَنَةٍ مِنْهُ فِي الرَّزْنِ
فهوى يخبط الصعيد صريعاً
خبر صاح عنده الناس يا لله
واستمر الكرام يرجون أن لو
ويقولون: من أصيب؟ أعبد المح
أسليل الداودي من آل سع
ويحكّم ما الذي تقولون للننا
إن يكن صحّ ما تقولون، لا صحّ

خَبِرُ أترع القلوب كآبه
زل منه حتى خشينا انقلابه
نو اعتداءً بمُدِيَةِ فأصابه
عد وأخرى في رأسه والذؤابه
بدماءٍ قد ضَرَجَتْ أَثْوَابَهُ
للمجد والندى والنجابه
حَقَّقَ اللهُ خُلْفَهُ وكذابه
سن العبقري ليث الغابه؟!
دونَ أربُّ الشمائل المستطابه؟!
س أجدُّ مقالكم أم دُعابه؟!
فقدنا من العلاء لُبابه

* * *

ثم مرت سويعة فتولت
إذ علمنا أن الرئيس بحال
وعلمنا الخطب الذي أكبروه
بيد أن الذين هم أكبروه
فإذا كل ما جرى هو هذا

سُحِبَ الغمُّ والأسى مُنْجابه
غيرِ قَتَّالَةٍ ولا رِيَّابه
غيرِ خطبٍ وإن يكن ذا غرابه
أرجفوا نافخين في الشبَّابه
أسدُّ قد عدتْ عليه ذبابه

ديوان معروف الرّصافي

فهنيئاً لا للرئيس ولكن للمعالي وللنهي والنّجابه

في ملعب كرة القدم

كرة تُراضُ بلعبها الأجسامُ
فتعاورتها منهم الأقدام
للسُّوق مُعترك بها وصدام
بالكف عند اللاعبين حرام
شرعوا الرءوس فناطحتها الهام
فتمرُّ صائتةً لها إرزام
للضرب عَبل الساعدين همام
سقطت فزمرجر دونها الضرغام
أملُّ به تتقاذف الأوهام
نحو الجنوب مُلاعب لطمّام
مرًّا كما تتواثب الأرام
عنها وآخر ضاربٍ مقدام
قلب عليه تَهَاجِمُ الآلام
علمًا تراض بدرسه الأفهام
يَقَعُ مَرير المرفقين غلام

قصدوا الرياضة لاعبين وبينهم
وقفوا لها متشمِّرين فألقيت
يتراكضون وراءها في ساحةٍ
رَفَسًا بأرجلهم تساق وضربُها
ولقد تطلَّق في الهواء وإن هوت
وتخالها حينًا قذيفة مدفع
ولربما سقطت فقام حيالها
فتخالها وتخاله كفريسةٍ
لا تستقر بحالة فكأنها
تنحو الشمال بضربة فيردُّها
وتمر واثبة على وجه الثرى
وتدور بين اللاعبين فمُحجم
وكأنها والقوم يَحْتَوِشونها
راضوا بها الأبدان بعد طلابهم
أبناء مدرسة أولاءٍ وكلهم

* * *

تعبٌ وبعضُ مزاحها استجمام

لا بدَّ من هزل النفوس فجِدُّها

ديوان معروف الرّصافي

فإذا شغلت العقل فآله سُويعةً
والفكر منهكة فباستمراره
إن الجسم إذا تكون نشيطة
هذي ملاعبهم فجسمك رُض بها
فألهو من تعب العقول جِمام^١
تهن العقولُ وتهزّل الأجسام
تقوى بفضل نشاطها الأحلام
واسلك مسالكهم عَداك الذام^٢

^١ جِمام: راحة.

^٢ الذام: العيب.

الإحسان

أنشدت في حفلة افتتاح مدرسة الأيتام التي أسستها الجمعية الخيرية الإسلامية في بغداد، وأنفق في بنائها حضرة المحسن الكبير مناحيم صالح دانييل من أشرف الملة الموسوية وأغنيائها في بغداد، وذلك سنة ١٩٢٨.

لعبدتُ من دون الإله المحسِنَا
سِرًّا وفُهِتْ له بشكري مُعلِنَا
ولكي أكون بشكره متفننَا
غرسًا سوى الإحسان حلو المجتنَى
أعيا اللبيب وأعجز المتفطنَا
بالحب يطلق بالثناء الألسنَا
ويرد بغض المبغضين تحننَا
من بين مُشترك الصوارم والقنَا
إلا أعاد ضحى سناه الموهِنَا^١
إلا أعزَّ الله ذاك الموطِنَا
من حيث تُعمي عن رؤاها الأعينَا
في الغرب لِم نَزرتْ وقلَّت عندنَا

لو كنتُ أعبد فانيًا في ذي الدُّنَا
وجعلت قلبي مسجدًا لتعبدِي
كي لا أكون مُرائيًا بعبادتي
في مُجتنى غرس الخليقة لم أجد
هو في الخليقة ذو عجائب سرُّها
بيناه يغدو للنفوس مُقيَّدًا
يستعبد الأحرار وهو صنيعهم
كم بلَّ نائرة فأطفأ نارها
ما لاح كوكبه بموهِنِ غُمَّة
ما إن تظللَّ موطنٌ بظلاله
نفحاته تمحو معايب أهله
لم أدِرِ والآثار منه كثيرة

^١ الموهن: الساعة بعد منتصف الليل.

أفنحن نجهله وقد علم الورى في الشرق نشأته ربيباً بيننا
أوما أمرنا في عظات كتابنا بالعدل والإحسان أن نتدينا

* * *

ويسرني أني أشاهد موطني قد نال من بركاته بعض المني
وإذا استريب بما أقول فشاهدي هذا البناء ومن حماه ومن بني
قد شيد للأيتام مأوى واهياً يهتم بالأيتام فيه ويعتني
ليكون فيه شفاؤهم من جهلهم ومن الظما ومن الطوى ومن الضنى
جاد ابن «دانيل» الكريم لذا البنا بالمال مشترياً به كل الثنا
فاستوجب الحمد الذي كلماته مستغرقات بالثناء الأزما
فلنكنه بأبي اليتامى بعد ذا إذ لا يخاطب مثله بسوى الكنى
رجل علمنا اليوم من إحسانه أن ليس للإحسان دين في الدنيا
لا يحسن الإحسان إلا هكذا قد صار طبعاً في النفوس ودينا
والمال إن جادت به يد محسن حسن وإلا فهو بئس المقتنى
سعد امرؤ بذل الفواضل للورى عفواً وعود نفسه أن يحسنا
والجهد مني ها هنا هو أنني أدعو إلى الإحسان من حضروا هنا

الجرائد وما كانت عليه في الأستانة

يدوي بقطريها هزيم الرواعد^١
وتعثر في ظلماتها بالجلامد
تروح بها أم للمدى المتباعد
أرى الويل كل الويل بين الجرائد
لهيب خلافٍ بينها غير خامد
أطافت بنقص في الحقيقة زائد
وما بين مجحود عليه وجاحد
فريقين من ذي حجة ومعاند
بتفنيد رأي أو بتزييف ناقد
وأخر رام سهمه نحو ذائد^٢
من الصحف يدعو آتياً بالشواهد
بها مدّ للنديا جباله صائد
وعُقبى ضياع الحق سُود الشدائد
مبادئه منقوصة بالمقاصد

إذا شئت أن تسري بكافرة الصوى
وتذهبٍ محيار الظلام تخبطاً
وتمشي فما تدري إلى قعر هوة
فطالع أراجيف الجرائد إنني
جرائد في دار الخلافة أضرمت
ولم يكفها هذا الخلاف وإنما
فما بين مكذوب عليه وكاذب
ترى في فروق اليوم قرءاً صُحفها
جدال على مرّ الجديدين دائم
فذائد سهم عن رمي يردّه
وهذا إلى هذي وذاك لغيرها
وما هي إلا ضجّة كل صائت
أضاعوا علينا الحقّ فيها تعمداً
ولم أر شيئاً كالجرائد عندهم

^١ كافرة الصوى: كناية عن الصحراء التي لا علم فيها يهتدى به. ويدوي: يكون له دوي.

^٢ الذائد: المدافع عن الشيء. والرمي: الرّامي.

لهم في مجال القول غير المفسد
وكلُّ له في الحق نفثة مارذ
يجر إلى قرصيه نار المواقذ
يَضِلُّ امرؤ عن غيِّهم غيرُ حائد
مقالة محقود عليه وحاقد
فقد أوردتنا اليوم شر الموارد
مع الحق أنى دار بين المعاهد
فتأتى بها مشحونة بالفوائد
وتنوير أفكار وإنهاض قاعد
وتُغضون عن إضرارها ألف واحد؟!
وما جاز في حكم النهى كذب رائد
بها تتجلى رُوحهم للمشاهد
وديوان أخلاق لهم وعوائد
به الصحف في طُرُقِ العلا والمحامد؟!
كما يهتدي الساري بضوء الفراقذ
مع الغرب حتى في شئون الجرائد
فإنى عليكم خائفٌ غير حاقذ
فإن تجدوا منها فلسست بواجد

يقولون: نحن المصلحون، ولم أجد
وكيف يَبين الحقُّ من نفثاتهم
فإياك أن تغتترَ فيهم فكلُّهم
وكن حائدًا عنهم جميعًا فإنما
على رسلكم يا قوم كم تُسمعونا
ألا فارحموا بالصفح عن نهج صُحفكم
وما الصحف إلا أن تدور بنهجها
وأن تنشرَ الأقوالَ لا عن طَماعةٍ
وألا تُعاني غيرَ نشرِ حقائق
أتبغون في تليفيقها نفع واحد
ألا إن صحف القوم رائد نجحهم
لَعْمري إن الصحفِ مرآة أهلها
كما هي ميزانٌ لوزن رقيهم
ألا تنظرون الغرب كيف تسابقت
بها يهتدي القراء للحق واضحًا
ولكن أبى الشرق التعيسُ تقدمًا
فلا تحمِلوا حِقْدًا على ما أقوله
وما هي إلا غيرَةٌ وطنية

وقفه في الروض

ناح الحمام وغرّد الشُّحورُ
في روضةٍ يُشجّي المشوق ترقرق
ماءٌ قد انعكس الصفاء بوجهه
قد كاد يمكن عند ظنّي أنه
وتسلسلت في الروض منه جداولُ
حيث الغصون مع النسيم موائلُ

هذا به شَجَنُ وذا مسرورُ
للماء في جنباتها وخرير
وصَفَا فَلَاحَ كأنه بلّور
بالماس يُوشِرُ منه لي موشور^١
بين الزهور كأنهنَّ سطور
فكأنهنَّ معاطف وخصور

* * *

ماذا أقول بروضةٍ عن وصفها
عُنِيَ الربيعُ بوشيتها فتنوَّعتْ
مَثَلت بها الأغصان وهي منابر
متعطر فيها النسيم كأنما
للنرجس المطلول ترنو أعين
تخذت خزامها البنفسج خدنها
وكأن محمراً الشقيق وحوله

يَعيا البيانُ وَيَعجز التعبير؟!
للعين أنوار بها وزهور
وتلت بها الخطباء وهي طيور
جَيَّبُ النسيم على الشذا مَزُور
فيها وتبسم للأقحاح ثغور
وغدا يشير لوردها المنثور
في الروض زهر الياسمين يمور

^١ شبه الماء في البيت الذي قبل هذا بالبلور، ثم زاد في هذا البيت أنه بلور، وأنه يمكن أن يقطع منه بالماس موشور، وهو قطعة مستطيلة ذات أضلاع.

شمع توقد في زجاج أحمر
وتروق من بعد بها فوارة
يحكي عمود الماء فيها آخذاً
ناديت لَمَّا أن رأيت صفاءه
هل ذاك ذوبُ الماس يجمد صاعداً
تتناثر القطرات في أطرافها
ينحلُّ فيها النور حتى قد ترى
كم قد لبست بها الضحى من روضة
فأجَلت في الأزهار لحظ تعجُّبي
فنظرتهن تحيِّراً ونظرنني
فكأن طرف الزهرِ ثمة ساحر
إن الزهور تُكنهنَّ براعماً
وتضوُّع النفحات منها مثله
وبتلك قلب الجهل مصدوع كما
والزهر ينبتة السحاب بمائه
إن كان هذا في الحدائق بهجة
أو كان هذا لا يدوم فإنَّ ذا

فغدا حوالياه الفَراش يدور
في الجو يدفقُ ماؤها ويفور
صُعداً عمودَ الصبح حين ينير
والنور فيه مغلغلٌ مكسور
أم قد تجسَّم في الهواء النُّور
فكأنما هي لؤلؤٌ منثور
قوس السحاب لها بها تصويرٌ
فيها علتني نضرةٌ وسرور
ولفكرتي بصفاتهن مُرور
حتى كلانا ناظر منظور
لَمَّا رَنا وكأنني مسحور
مثل العلوم تجنهنَّ صدور^٢
تبييئها للناس والتقيرير
ثوب الهموم بهذه مطرور
كالعلم يُنبت غرسه التفكير
يزهو فذلك في النهى تنوير
ليدوم ما دامت تكررُ عصورُ

^٢ تجنهن: تسترهن وتحفظهن.

ما رأيت في بك أوغلي

قالها عندما ذهب إلى حي بك أوغلي في الآستانة سنة ١٨٩٨ وقد كان إذ ذاك معممًا، وذلك قبل أن يستبدل الطربوش.

به الخلقُ حتى قلتُ: ما أكثرَ الخلقا!
إلى التلعاتِ الزَّهرِ في دَرَجِ تَرْقى
بلامعِ نورِ علَمِ السحبِ البرقا
فما أحسنَ المبنى وما أوسعَ الطرُقا!
يمدُّ إلى إدراكِ شرفته العنقا^١
وبين النجومِ الزُّهرِ في حسنِها فرقا
تُضحكُ أبراجِ السمواتِ والأفقا
تدورُ بأفُقِ يجمعُ الغربَ والشرقا
«برانيط» سودًا كالسلاحفِ أو وُرُقا^٢
وتلقى العيونِ السودَ والأعينَ الزرقا
ففيه عقولُ الناظرين من الغرقى
وهبَّ نسيمَ العشقِ من بينها طلقا

ذهبتُ لحيِّ في فَرُوقَ تزاحمتُ
ترى الناسَ أفواجًا إليه وإنما
يضيءُ به ثغرِ الحضارةِ باسمًا
رأيتُ مبانيه وجلتُ بطُرقه
فكم فيه من صرحِ ترى الدهرِ مُتلعا
قصورِ علتِ في الجوّ لم تَلقَ بينها
هنالكِ للأرضين أفقَ بروجِه
بروَجٌ ولكن شارقاتُ شمسها
بحيث ترى حُمُرَ «الطرايش» خالطت
وتلقى الوجوهَ البيضَ حُمُرًا خدودها
خدودٌ جرى ماءُ الشبيبةِ فوقها
محاسنُ كالأزهارِ قد طلَّها الهوى

^١ المتلع: الذي يمد عنقه؛ ليرى شيئًا عاليًا أو بعيدًا.

^٢ الورق: جمع أوراق أو ورقاء، وهي التي لونها لون الرماد، مع حمرة خفيفة.

فمن ذاتِ دَلٍّ أعجزَ الشعرَ وصفُها وإن كان فيها الشعر ممتلئاً عشقا
ومن ذي دلالٍ رنَّحَ الحسنُ عِطفه إلى أن رجا من حسنه عطفه الرفقا

* * *

وكم مسرح فيه الحسان تلاعبت تُمثِّلُ كيف الناسُ تسعدُ أو تشقى
حسانٍ علتْ في الحسنِ خُلُقًا وخِلْقَةً وهل خِلقة تَعلو إذا سفلت خُلُقًا
تُمثِّلُ ما قد مرَّ منا وما حلا وما جلَّ من أمر الحياة وما دقا
فتلقني دروسًا لو وعتها حياتنا لبُدِّل كِذْبٌ في سعادتها صدقا
إذا مثلت شكوى الحزين بكت لها عيونُ البلايا والزمان لها رقا
وإن صَوَّرتَ حقًا هوى كل باطل على رأسه حتى تجدل مُندقا^٣

* * *

وماذا ترى فيه إذا زُرتَ حانَةً؟! ترى الأُس يشدو في فمٍ يجهل النطقا
سَكوتٌ على قرع الكئوس مُغرَّد بلحن سرور يترك الهم منشقا
عليهم سحاب الاحتشام يُظلمهم متى هم أرادوا سَحَّ من قُبُلٍ ودقا
أوانس قد نادمن كل غرانق فمهن من تَسقي ومهن من تَسقى^٤
فمن ذا يراهم ثم لم يك واغلا عليهم وإن أمسى يُعدُّ الفتى الأتقى
ألسْتُ بمعذورٍ إذا أنا زرتهم وساجلتهم شوقًا؟! فقل ويحك الحقا
فقد لامني لَمًا رأني بحبهم فتى منه قحف الرأس ممتلي حمقا
فقال: أفي الحي الذي شاع فسقه تجول ألم تمنع عمامتك الفسقا؟!
فقلت: أجل إن العمائم عندنا لتمنع في لوثاتها الفسق والرزقا^٥
ولكنني ما جئتُ إلا توصلًا لذكرى شقاء في العراق به نشقا

* * *

^٣ تجدل: سقطت على الجدالة، وهي الأرض. والمندق: المنكسر.

^٤ الغرانق: الفتى الشاب التام الحسن.

^٥ لاث العمامة يلوئها لوئًا: لفها حول رأسه، اللوثة: المرة من اللوث.

ما رأيت في بك أوغلي

شقاء تمطى في العراق تمطياً
فإن العراق اليوم قد نشبت به
تمشت به حتى أعادت سواده
فلهفي على بغداد إذ قد أضاعها
جزؤها عقوقاً وهي أم كريمة
أدامت لها الأحداث مخضاً كأنها
سأبكي عليها كلما جلت سائحاً
وأندبها عند الأغاريد شارباً
وألقى جراناً لا يزحزح واستلقى^٦
نيوب الدواهي فهي تعرقه عرقاً
بياضاً ومدت للبور به ربقا
بنوها فسحقا للبنين بها سحقا!
والأم أبناء الكريمة من عقا
قد اتخذتها الحادثات لها زقا^٧
وشاهدت في العمران مملكة ترقى
من الدمع كأساً لا أريد لها مذاقاً^٨

^٦ الجران: مقدم عنق البعير، وإلقاء الجران: أن يمس البعير الأرض بمقدم عنقه عند بروكه، وهو كناية عن التمكن والاستقرار.

^٧ الزق: وعاء من جلد يحفظ فيه اللبن والخمر ونحوهما.

^٨ الأغاريد جمع أغرود، وهو الغناء. والمذق: الخلط، مذاق اللبن بالماء: خلطه، يريد أنه إذا تشاغل قوم بسماع الغناء وشرب المدامة، فإن شغله هو أن يصبح باكياً بلاده، شارباً من فيض دموعه كأساً صرفة غير مشوبة بماء.

السد في بغداد

قال يخاطب حازم بك والي بغداد، بعد خروجه إلى سد «الحريرة» من شاطئ الفرات — الذي انكسر فأغرق بغداد — وهذه هي الحادثة التي قال فيها الشاعر قصيدة سوء المنقلب:

نَجَّيْتَ بالسَّدِّ بَغْدَادًا مِنَ الْغَرَقِ
قَدِ قَمَتَ بِالْحَزْمِ فِيهَا وَالْيَا فَجَرْتُ
لَقَدْ نَجَحْتَ نَجَاحًا لَا يَفُوزُ بِهِ
وِيح الْفَرَاتِ فَلَوْ كَانَتْ زَوَاخِرُهُ
وَلَا غَدَتِ تَجْرِفُ الْأَسْدَادَ قَاذِفَةً
حَيْثُ «الْحَرِيرَةُ» أَمَسَتْ مِنْكَ طَالِبَةً
بَاتَتْ تَجِيشُ بَتِّيَّارٍ وَبَاتَ لَهَا
حَتَّى إِذَا أَيْقَنْتِ أَرْضَ الْعِرَاقِ بِأَنْ
شَمَّرْتَ عَنِ هَمِّ تَعْلُو النُّجُومِ وَقَدْ
فَعَمَّهَا الْأَمْنُ بَعْدَ الْخَوْفِ وَالْفَرَقِ
أُمُورَهَا فِي نِظَامِ مِنْكَ مَتَّسِقِ
مَنْ خَالَقَ الْحَزْمَ إِلَّا حَازِمُ الْخَلْقِ
تَدْرِي بَعَزْمَكَ لَمْ تَطْفَحْ عَلَى الطَّرْقِ
مِنْهَا بِسَيْلِ عَلَى الْأَنْحَاءِ مَنْدَفِقِ
رَتَّقًا لِسَدِّ بَطَامِي السَّيْلِ مُنْفَتِقِ
أَهْلُ الْعِرَاقِيِّينَ فِي هَمٍّ وَفِي قَلْقِ
تَفْنَى مِنَ الظَّمِّ أَوْ تَفْنَى مِنَ الْغَرَقِ^١
أَمْسَى الزَّمَانُ إِلَيْهَا مُتَلِّعِ الْعَنْقِ^٢

^١ الظم: المدة التي يعطش فيها الحيوان بين الشربين، والمراد هنا مطلق العطش.

^٢ متلع العنق: ماد العنق من التطلع إليها.

فكدت تملأ فرغ الواديين بما
لما خرجت وكان الخرق متسعاً
قالوا: نحا شُقَّةً قصوى وما علموا
فصدّق الله ظناً فيك أحسنه
إذ جئت والسدُّ تحت الغمر مكتسحٌ
وئُلْمة السد كالمهواة واسعةٌ
سَلَلت صارم رأيٍ قد أزلت به
فما تموّج ماء النهر من غضب
ثَبَّتَ عزمك في أمرٍ يذلُّ به
تقضي النهارَ برأب الثأبي مجتهداً
حتى بنيت وكان النهرُ منفلقاً
أرسيته جَبلاً قامت ذُراه على
فراحت الناس تمشي فوقه طَرَباً
وصار مَعكس فخر أنت مرجعه
وقد ركزت به الرايات خافقَةً
من كل أحمرَ قان وسطه قمر
فظلَّ حاسدك المغّبون منطويّاً
ودَّ الفرات حياءً منك يومئذٍ

حشرت من طبق يأتيك عن طبق^٣
والناس ما بين ذي شكٍّ ومتثق^٤
بأن عزمك يُدني أبعد الشقِّ^٥
قوم وكذبَ ظنَّ الجاهل الخرق
والنهر يرغو بموج فيه مُصطفق^٦
يهوي بها السيلُ من فوق إلى العمق^٧
ما كان في السيل من طيش ومن نرق
وإنما أخذته رعدة الفرَق
عزم الحصيف لما يحوي من الزلق
وتقطع اليل بالتدبير والأرق^٨
سدّاً عليه رصيناً غير مُنفلق
أصل مع الموج تحت الماء معتنق
والنهر ينساب بين الغيظ والحنق
كالنور يرجع مَعكوساً إلى الحدق
ما بين طاقين مرفوعين في نسق
يتلوه نجم بلون أبيض يقق^٩
على فؤاد بنار الجهل محترق
لو غار يسلك تحت الأرض في نفق

^٣ فرغ الواديين: اتساعهما، والواديان: دجلة والفرات. وحشرت: حشدت وجمعت. والطبق: الجماعة من الناس، وعن طبق: أي بعد طبق. يريد أنه جمع للعمل في إصلاح السد المنكسر جموعاً غفيرة من الناس، يتلو بعضها بعضاً.

^٤ متثق: مفتعل من الوثوق بالشيء.

^٥ الشقة: الناحية، قصوى: شديدة البعد.

^٦ الغمر: السيل الغزير الشديد.

^٧ ئُلْمة السد: الموضوع المتهدم منه. والمهواة: الأرض المنهبة المنخسفة.

^٨ رأب الثأبي: إصلاح الفاسد، وهو من الرؤبة، وهي الرقعة يشعب بها الإناء المكسور من الخزف ونحوه.

^٩ يقق: بفتح القاف الأولى. أي خالص البياض.

لما اقتدحت زناد الرأي مفتكرًا
فأدبرَ الهمُّ وانشقت غياهبه
إن الأمور إذا استعصت نوافرُها
وإن تصاممت الأيام عن طلب
تنحلُّ بالرأي منك المشكلات لنا
وكلما زدت تفكيرًا بمعضلة
فالفكر منك كأبعاد الفضاء بلا
يحكي الأثير إذا أجرى تلاطمه
لك الثناء علينا أن نخلده
تالله لو بلغت زهرَ النجوم يدي
رتبتها حيث كل الناس تقرأها

في الخطب ألهمت منه فحمة الغسق
كما قد انشقَّ سَجْف الليل بالفلق^{١٠}
أخذتهن من التدبير في وهق^{١١}
أسمعتهن بصوتٍ منك صُهْصَلِق^{١٢}
كالنور ينحلُّ ألوانًا من الشرق
زادت وضوحًا لنا حتى على الشفق
حدُّ يسابق خطف البرق في الطلق
أبدى سواطع نور منه مُنبثق
نقشًا على الصخر لا رقمًا على الورق
من كل جرم بصدر الليل مُؤتلق
سَطْرًا بمدحك مكتوبًا على الأفق

^{١٠} السجف: الستر. والفلق: الصبح.

^{١١} الوهق: الحبل المقتول تجعل فيه أنشودة، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان.

^{١٢} الصهصلق من الأصوات: الشديد، ورجل صهصلق الصوت: أي شديده.

الساعة

وخرسَاءَ لم ينطق بحرف لسانها
حكّت لهجة التّمَنَام لفظاً ولم تكن
لها ضَرَبَانٌ في الحشا قد حكّت به
جرت حركات الدهر في ضَرَبَاتِهَا
على وجهها خُطَّتْ علائم تهتدي
مشّت بين آنات الزمان تقيسه
بها يتقاضى الناس ما يُوعِدُونَهُ
غدت كأخي الإيمان تأكل في مَعَى
تدور عليها عقرب دَوْرٍ حائِرٍ
ترك مكان الشمس في دورانها
فأعجب بها مصحوبةً جاء صنعها
بنتها النهى في الغابرين بسيطة
تنادي بني الأيام في نقراتها

سوى صوت عرق نابض بحشاها
لِتَفصَحَ إلا بالزمان لغاها
فوَادًا تغشاه الهوى وحكاها^١
وباتت مواقيت الورى بعمائها
بها الناس في أوقاتها لمناها
وما هو إلا مشيها وخطاها
ويُرشدُ ضُلالَ الزمان هُداها
وما أكلها إلا التواءِ معاها^٢
بتيها غمّت في الظلام صواها^٣
إذا حجت عنك الغيومُ ضياها
نتيجة أفكار الورى وحجاها!
فتمّ على مر الزمان بناها
أن اسعوا بجِدٍّ بالغين مداها

^١ ضربان: أي ضرب وخفق.

^٢ يشير إلى الحديث الذي معناه: «المؤمن يأكل في مَعَى واحد»؛ أي أنه يتقلل من الطعام والشراب.

^٣ تيهاء: صحراء لا يهتدى فيها إلى شيء. وغمّت: سترت وحجبت. والصوى: ما ينصب من الأحجار في الصحاري؛ علامة على الطريق.

ديوان معروف الرّصافي

ولا تهملوا الأوقاتَ فهي بواترٌ تقطُّعُ أوصالَ الحياةِ شباها

ذكري لبنان

هيفاء مُخجلة غصونَ البانِ
مَرَحًا فأجهدَ خَصْرَها الردفانِ
قعدتَ وقام بصدرها النهدانِ
دبَّ الفتور بجفنها الوَسنانِ
فيها وتركع دونها العينانِ
ألا تزال مريضةً الأُجفانِ
بسط الزمان لها يَدَيَّ ولهانِ
عقل الحليمِ وعصمة الصبيانِ
إذ نحن نصعد في ربا لبنانِ
شدو الطيور بأطرب الأُحانِ
فعلَ الزُّلال بغلة الظمَّانِ
غَضًّا يُميد بفرعه الفينانِ
يزهو بنشر غدائر الأعصانِ
يبدي خيال جمالها الفتانِ
تحت البسيطة راسخ الأركانِ
تهفو عليه ذوائبُ النيرانِ
من فوقه دُرُّرٌ على تيجانِ
ضحكت مُغازلةً مع الوديانِ

برزت تميمس كخطرة النشوان
ومشت فحفَّ بها الصبا فتمايلت
جال الوشاح على معاطفها التي
تستعبد الحُرَّ الأبيَّ بمقلة
وإذا بدت تهفو القلوب صبابة
أخذ الدلالُ موثقًا من عينها
تمشي فتنشر في الفضاء محاسنًا
ويلوح للنظر القريب بوجهها
لم أنس في قلبي صُعودَ غرامها
حيث الرياض يهزُّ عطف غصونها
لبنان تفعل بالحياة جنانه
وتردُّ غُصن العيش بعد ذبوله
فكأن لبنانًا عروس إذ غدا
وكأنما البحرُ الخضم سجنجلُّ
جبل سمت منه الفروع وأصله
تهفو الغصون به النهار وفي الدجى
وترى النجوم على ذراه كأنها
لله لبنان الذي هضباته!

يجري النسيم الغض بين رياضه
جَلت الطبيعة في رُباه بدائِعًا
يا صاحبيّ أتذكّران فإنني
لم أنسْ بعدكما سوى النسيان
إذ كان يغبِطنا الزمان ونحن في
وادي الفريكة منبتِ الريحاني^١
في ليلةٍ حسد الضياءِ ظلامها
وعنّا لفضل نجومِها القمران
متجاولين من الحديث بساحة
ركض البيانُ بها بغيرِ عنان^٢
والليل يسمع ما نقول ولم يكن
غيرُ الكواكب فيه من آذان
فكأن جولتنا بصدر ظلامه
سرُّ يجول بخاطر الكتمان

* * *

ما كنتُ أحسب أن أحلَّ ببقعة
لحسن مُنبتةٍ وللإحسان
حتى نزلت من الشّوير بجنة
فيها الحياة كثيرة الألوان
فهصرت أغصان الأمان ولم يكن
غير السرور بهن قطف دان
ولقيت شاعرها الذي ارتفعت له
كف القريض مشيرة ببنان
حتى إذا تمّ اللقاء قصدتُ من
ربوات بكفياً ظلال جنان
يا يوم بكفيا وبيت شبابها
أفديك من يوم بكل زمان
وسقى زمانك يا ديار بحنّيس
صوبُ المَسرّةِ دائم التهتان
فلقد رأيت ضياء مجدك مشرقًا
في وجه كل حُلاحل ديان
أتذكّر اللبكيّ يوم بحنّيس
حيث اجتمعنا في حمى كنعان
أم ليس يعلم أنني أحببته
حبًا أذبتُ بناره سلواني
لبست رُبا لبنان ثوبًا أخضرا
وزهتُ بحيث الحسنُ أحمر قان
نثر الربيع بهنّ زهراً مؤنقًا
يُروى بنظم قلائد العقيان
فبرزن من وشي الطبيعة بالجلى
فكأنهنّ بحسنهن غوان

^١ الرصافي يقصد بالريحان «النبات» وبالريحاني «أمين الريحاني» صديق الرصافي الحميم وفيلسوف الفريكة.

^٢ يتجاولان في مضمار البيان: أي يتسابقان ويتباريان.

يرنو لهن بمقلة الغيران
 فيها وأما أهلها فاثنان
 يسعى وغايتته إلى الخسران
 ومن البلاء تخاذل الأعوان
 ما بين هادمها وبين الباني
 في النائبات تفرق الأديان
 أن التضامن رائد العمران
 تُفدى مواطنكم بكل مكان
 تنحط عنه بدائع الأكوان
 ومن الشبيبة هن في ريعان
 وابنوا بهن كأكرم البنيان
 نحو الفخار كنهضة اليابان
 متهيجين تهيئج البركان
 متكاتفين تكاتف الإخوان
 فالبدر يحق عند كل قران
 أين الحنين إلى ربا لبنان؟!
 وتئن شاكية من الهجران
 لا ترحمون أنين ذي أشجان؟!
 شيئاً يضيع كرامة البلدان
 ضن الزمان بها عن الغفران
 ألا يرضن بها على الأوطان^٣

وكأن صنينا أطل مراقباً
 تلك الربا، أما الجمال فواحد
 رجل يسير إلى النجاح وآخر
 متخاذلين بها وهم أعوانها
 ضعفت مباني كل أمر عندهم
 وتفرقوا دنيا كأن لم يكفهم
 وسعوا فرادى للنجاح وفاتهم
 يا أهل ذا الجبل المنيع مكانه
 أما محاسنها فهن بمنزل
 ومن الفخامة هن في علوانها
 فتبوءوا جناتهن أنيقة
 ماذا يثبطكم بها أن تنهضوا
 إنني لأرجو أن أراكم للعل
 وأود لو تمشون مشية واحد
 لا تفرنوا بتشتت آراءكم
 أمهاجري لبنان طال غيابكم
 هذي مواطنكم تريد وصالكم
 أفرحمون أنينها أم أنتم
 إنني أرى هجر الرجال بلادهم
 وإضاعة الوطن العزيز جناية
 من كان ذا جدة فأحر بمثله

^٣ الجدة: المال والغنى.

لبنان

ولع لبنان بالرصافي، فسارت قصائد شاعر العراق على ألسنة اللبنانيين، وولع الرصافي بلبنان، فجاءته قريحته بقصائد صافية العاطفة كسماء هذه الربوع، عذبة كمائها، عليلة كهوائها، وإلى القراء إحدى فرائد الرصافي بلبنان (الأحرار - بيروت في ٢٦ آب سنة ١٩٣١):

وقارب حتى أمكن الكفَّ لمسُهُ
تنزَّت به في مدرجِ الحبِّ نفسه
وطاب جنِّي فالسوء ليس يمسه^١
فلان بكفِّ العيش منه مَجْسُهُ
بما فيه من عُرِّ المحاسن لبسه
وفي الظهر لم تلفحك بالحر شمسه
وحُرِّرْ أهْلوه وبورك أنسُهُ
فقد جاز في شرع المحبة دَعْسُهُ
فينجاب شؤمُ الدهر عنه ونحسه
فينضحها فوق الرُّبَا الخضر همسه
غناء حبيب يطربُّ النفس جرسُهُ

أرى الحسنَ في لبنان أينعَ غرسُهُ
إذا ما رأته عينُ ذي اللُّبِّ مشرقًا
زكا مَغْرِسًا فالذامُ ليس يؤمُّه
قسا صخره لكن تفجَّر ماؤه
لقد لبس الجوّ اللطيفَ فزانه
ففي الليل لم يزعجك برد نسيمه
وقد عُبِّدَت للسالكين طريقه
فمن كان في طُرُقِ التواصل عَثْرَةً
تضيء نجومُ السعد واليُمن فوقه
ويهمس في أذن الطبيعة جَوْه
كأنَّ النسيم الطلق بين جنانه

^١ الذام: العيب.

كأن جبال المتن حَديبة عابِدِ
فقال عن الأضواء في جوف ليله
تزوِّج صُنَيْنِ الفتى بنتَ جارِه
ونُبُع الصفا والقاع فيه كلاهما
جرى الماء في واديهما متدفقًا
وإن تزُرُ الشَّاعورَ يومًا تَجِدُ به
جرى ماؤُه العذب الزلالُ محاكيًا
ترى طبع واديه رءوفاً بأهله
فمن زاره مستوحشًا فهو أنسه
فيا لائمي في حبِّ لبنان إنني
إذا كان لبنان كليلي مَحاسنًا
وإن تحمدوا منه الأيادي، فإنني
عجبت لمدفون به بعد موته
فمن لم يزره وهو ربُّ استطاعة
ومن زاره مستشفياً زاره الشفا
ولو جاءه مَنْ فيه مَسٌّ وجِنَّة
وما حلَّه مستوحشُ النفس واجمُ
محل اصطياف الأغنياء من الوري
فمن يبذل الدينار فيما يريده
كمثل الذي لا تصرف الفلَس كفه
كتبت كتاب المدح في وصف حسنه
فما كل ما قالت به شعراؤه
ألا إن في لبنان جوًّا مروِّقًا

هوى ساجدًا شكرًا وبيروتُ رأسُه
ببيروتَ إذ يغشى من الليل دَمسُه
فأضواء بيروت الوسيطة عِرْسُه
من الحسن ملأى بالبدائع كأسُه
بأنشودة الإطراب تنطق حُرسه
من الحُسن ما قد خُصَّ بالفضل جنسُه
به الماس صفاً أو هو الماس نفسه
شديدًا على ما يزعج النفس بأسُه
ومن جاءه مستنزهًا فهو قُدسه
أحسُّ لعمرى منه ما لا تحسه
فلا تعجبوا من أنني اليوم قَيْسُه
أنا اليوم من بعد الأيادي قَيْسُه^٢
ولم ينتفض حيًّا وينشق رَمسه
تحتَّم في سجنِ الحماقة حبسه
وإن كان قبلًا يائسًا منه نطسه^٣
لما حلَّه إلا وقد زال مَسُّه
من الناس إلا تمَّ بالضحك أنسه
يعيش عزيزًا فيه من ذلِّ فلسه
فماواه محموذٌ وإلا فعكسه
ولو كان دون الفليس يُقلعُ ضرسه
فضاق ولم يستوعب الوصف طرسه
سوى ثلث ما يحويه بل هو حُمسه
إذا ما شفى المسلول لم يخش نكسه

^٢ قس بن ساعدة الإيادي خطيب جاهلي مشهورٌ وحكيم.

^٣ النُّطس: الأطباء الحذاق المدقون.

في مكتبة الأوقاف

أنشئت في حفلة افتتاح مكتبة الأوقاف التي أنشأها معالي الشيخ أحمد الشيخ داود وزير الأوقاف سنة ١٩٢٨.

فأنقذها من أكَفِّ العَطْبِ
لمن يتناولها من كُتِّب
مكدَّسة في زوايا الشجَب
تعاني الدمار وتدعو الحَرَبِ
ومن تحتها السوس فيها انسَرَب
كما تأكل النار جَزَلَ الحطب
تَحُفُّ الظنون بها والرَّيب
يَدًا دأبها الغوث عند الكَرَب
لأهل الفنون وأهل الأدب
مُرْفرفةٌ فوقها من طَرَب
قد ابتسمت كالتماع الشهب
وإن أخذ الجاهلين الغضب
نَ صُراخًا به يقصدون الشغب!

لقد جمع الشيخ هذي الكتبُ
ورَتَّبها فهَي معروضةٌ
وكانت لعمرك رهن الغبار
يمر بها الدهر مطمورة
نسيج العناكب من فوقها
يعيث بها أَكلاً طرسها
وكانت على علم حرَّاسها
فمد إليها معالي الوزير
فأخرج منها كنوز العلوم
فها إنَّ أرواح من أوقفوا
كما أن أرواح من أَلَّفوا
لقد رضي العلم عن فعله
فما بال قوم غدوا يصرخو

^١ تدعو الحرب: أي تنادي؛ وا حربا، والحرب: النقص والهوان.

يقولون: هذا خلاف لما
 فيا للعقول لهذا الغباء
 ألسُّوس أوقفها الواقفو
 إلى كم نَظَلُّ لأغراضنا
 ونجمدُ في غفلةٍ هكذا
 أرى هؤلاء ضعاف العقول
 تضيق عن الحق أرواحهم
 فهم يقطعون على المصلحين
 فسِرُّ في طريقك مُستعلياً
 فللشرِّ ما صخب الصاخبون
 لقد صنتها من طروق البلى
 وأعددتها لشفاء العقول
 وما كنتَ في الرأي بالمستبدِّ
 وقد كان عزمك فيما أردت
 فمن كان جذلانَ فليبتسمْ
 لدى الناس في وقفها من أرب^٢
 ويا لالفحول لهذا العجب!
 ن، أم للعناكب، أم للتُّرب؟!
 نعارض من دون أدنى سبب؟!
 ونمرح في لهونا واللعب
 وإن قد نراهم غلاظ الرقب
 وإن لبسوا واسعات الجُبيب
 طريق القيام بما قد وجب
 وخلُّ ضفادعهم تصطخب
 وللخير جمعك هذي الكتب
 وخلَّصتها من يد المستلب
 من الجهل وهو أشدُّ الوصب^٣
 ولا كنت في الفعل بالمضطرب
 يفلُّ ظباً المرهفات القُضب^٤
 ومن كان غضبان فلينتحب

^٢ من أرب: من قصد وغاية.

^٣ الوصب: الألم.

^٤ يفل: يكسر. والظبا: جمع ظبة وهي حد السيف. والمرهفات القُضب: هي السيوف المرققة الحادة.

آل الجميل

كُهِفَ الْيَتِيمِ وَمَلْجَأَ الْمَسْكِينِ
وَتَهَابَهُمْ أَسَادُ كُلِّ عَرِينِ
يَدْعُ الْخَصِيمَ مُجَدِّعَ الْعَرْنَيْنِ
فَجَبَاهُمْ أَنْقَى مِنَ النَّسْرَيْنِ
أَرْكَانَ عِزِّ كَالْجِبَالِ مَكِينِ
مِنْهُمْ بِحَبْلِ فِي الرَّجَاءِ مَتِينِ
كَتَفَاخِرِ الدُّنْيَا بِفَخْرِ الدِّينِ
قَدْ زِيدَ تَمْكِينًا عَلَى تَمْكِينِ
لَأَجْلِ نَجْلِ بِالثَّنَاءِ قَمِينِ^١
ظَلَمَ الْحَيَاةَ فَجَدُّ بِمَا يُرُونِي
وَأَظُنُّ فَضْلَكَ نَاجِحًا يَشْفِينِي
مَنْ طَالَ مُعْتَلِجًا إِلَيْهِ حَنِينِي
بِقَرِّ الْعَذِيبِ وَلَا مَهَا يَبْرِينِ
ظَبِّي أَقَامَ بَدَارَ قَسْطَنْطِينِ
فِيكَوْنِ ظَنِّي فِي نَدَاكَ يَقِينِي^٢

آلُ الْجَمِيلِ سُورُورُ كُلِّ حَزِينِ
تَعْنُو لَهُمْ سُرُورَاتُ كُلِّ قَبِيلَةٍ
وَإِذَا تَمَاحَكْتَ الْخُصُومَ فَبِأَسْهَمِ
وَإِذَا تَلَوَّثْتَ الْجِبَاهُ بِخَزِيَةٍ
عَزَّتْ بِهِمْ دَارُ السَّلَامِ فَهَمُّ بِهَا
فَإِذَا تَقَطَّعْتَ الْمُنَى بِكَ فَاعْتَصِمِ
تَتَفَاخِرُ الْآخَرَى بِفَضْلِ دَفِينِهِمْ
ذَاكَ الَّذِي مَجْدُ الْجُدُودِ بِمَجْدِهِ
إِنَّ ابْنَ عَيْسَى بْنِ الْهَمَامِ مُحَمَّدِ
يَا ابْنَ الْأَكَابِرِ قَدْ دَعَوْتُكَ ظَامِمًا
وَأَنَا الْعَلِيلُ بِحَاجَةِ تَدْرِي بِهَا
قَدْ عَاقَنِي الْإِمْلَاقُ عَنِ سَفَرِي إِلَى
وَأَنَا الْمَشُوقُ وَلَسْتُ مِمَّنْ شَاقَهُمْ
لَكِنْ قَلْبِي لَا يَزَالُ يَشُوقُهُ
فَأَرِشْ جَنَاحِي كِي أَطِيرَ بَرِيشَهُ

^١ فلان قمين بكذا: جدير به.

^٢ أَرِشْ جَنَاحِي: أَنْبَتُ فِيهِ الرِّيشَ.

ديوان معروف الرّصافي

واعذر فياني بالحقيقة لم أبحُ إلا إليك وأنت خير فطينِ
إني إذا آوي إليك فإنما آوي إلى ركنٍ أشدَّ ركينِ

البلبل والورد

إِنَّ بليلاً من نَسِيمِ السَّحَرِ
أخبر رِيَّاهُ أَصْحَ الحَبَرِ
إذ هو مُذْ ألقى به ناظرَهُ
صادفَ فيه وردةً زاهرةً
مضمومة أوراقها الناضرة
لما جرى في المربعِ المُخْمَلِ
عما جرى في الروضِ للبلبلِ
من بعد ما ثغر الصباحِ ابتسمُ
والطلُّ كاللؤلؤِ فيها انتظم
مثلَ فمٍ يطلبُ تقبيلَ فَمٍ

* * *

فظلَّ يرنو مستديمَ النظرِ
وهيَ غدت مما بها من حَفَرِ
ثم تمادى غَرْدًا صادقًا
ينطق بالحُبِّ لها بائحًا
وتنشر الطيبَ له نافحًا
حتى غدا البلبلُ منذ الصغرِ
ينشد فيها شعره المبتكرِ
رُنُوَّ ظمآنٍ إلى مَنهلِ
محمرةً من نظرِ مخجلِ
يُعلن للوردة أشواقه
وهي التي تفعل إنطاقه
كأنها تقصد إنشاقه
في حبِّها منطلقِ المقولِ
ولا يَني فمه ولا يأتلي

* * *

أما ترى الأزهارَ كيف اغتدت
لها جناح هي منه ارتدت
فهي إلى الروضة مُذْ وَرَدتْ
فراشةُ الروضِ عليها تطير؟!
مُلاءة مَوْشِيَّةٍ من حريرِ
أرسلها البلبلُ نحو الأميرِ

تحمل للورد أمير الزّهر رسائل الشوق من البلبل
فشاع في الأزهار هذا الخبر واستوجب العطف على المرسل

* * *

حتى إذا الورد مضى وانقضى وعادات الروضة كالبلقعة
مسّت حشا البلبل نار الغضى من حُرقة البين الذي أوجعه
لا تسأل البلبل عما مضى في زمن الورد له من دعه
ولكن اسأل في السماء القمر عن خبر الورد مع البلبل
إذ كان يُصغي منهما للسمر وهو مُطلّ ناظرٌ من علّ

* * *

فراشة الروضة ظلّت لندا تحوم والأزهار من تحتها
تقبّل الزهرة ذات الشذا طائرة منها إلى أختها
وتسأل الأزهار عما إذا مرّ فقيد الورد من سمّتها
لتخبر البلبل بعض الخبر لعلّه غمّته تنجلي
فإنه بات حليف السهر مُذ نرّح الورد عن المنزل

أغرودة العنديلِب

سمعت شعراً للعنديلِب
إذ قال: نفسي نفسٌ رفيعة
عشقت منها حسن الربيع
تلاه فوق الغصن الرطيبِ
لم تهوَ إلا حسن الطبيعه
أحسن بذاك الحسن البديع!

* * *

فالعيش عندي فوق الغصونِ
أطير فيها لفرط وجدي
وفي فروع الأشجار بيتي
لا في قصور ولا حصونِ
من غصن ورد لغصن وردِ
فالظلُّ فوقِي والزهرُ تحتي

* * *

فَسَلْ نسيم الأسحار عني
وسل بشدوي زهر الرياض
فكم زهور لَمَّا أفوهُ
كم هَزَّ عطف الأغصان لحني
إني بحكم الأزهار راضٍ
أصغت وقالت: لا فصَّ فوه

* * *

يا قومِ إني خلقت حرًّا
فإن أردتم أن تؤنسوني
وإن أردتم أن تُنطقوني
لم أرض إلا الفضا مقرا
ففي المباني لا تحبسوني
فأطلقوني، فأطلقوني

الصيف

جاء المصيف فجفت الأنداء
وتوقدت عند الهجيرة شمسه
وعلى الديار تراكمت من شمسه
فعلى من الشمس المنيرة أصبحت
مدت إلينا في الهجير أشعة
فحكّت أشعتها جراباً أشرعت
حتى استجار الليل من لفحاتها
انظر إلى الحسناء في راد الضحى
وتمرر لأغبة وفوق جبينها
إن كان حرّ الشمس لوّح وجهها

وشكت يبوستها به الأشياء
فتلّمّظت بلعابها الصحراء
ملء الفضاء حرارة وضياء
غضبي تجيش بصدورها الشّحناء؟^١
كالكهرباء نارها بيضاء
بيضا، فما بحديدها أصداء
ركب سورا فهدتهم الجوزاء
تمشي فتلفح وجهها الرّمضاء^٢
عرق ووجنة خدها حمراء^٣
فكذلك تؤذى الضرة الورهاء^٤

* * *

إني لأغفر للمصيف ذنوبه ولو أنّ غارة هيفه شعواء

^١ الشحناء: العداوة.

^٢ راد الضحى: وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء.

^٣ لاغبة: متعبة.

^٤ الورهاء: الحمقاء.

فالصيف أَرَأفَ بالفقير من الشتا
قَلَّتْ به الحاجاتُ فالفقراءُ في
من كان أعوزه كساء منهم
والأرض إن طلبوا الرقادَ وطاؤهم
ولئن يكنْ كَدِرَ النهارِ فليله
ولئن قسا عند الهجير فريحُه
أضحى فطابت في ضُحاهِ ظلاله
والصيف أحسن ما به لمُشاهد
وأجل ما يُرتاد فيه جُنينةٌ
فعليك فيه بسرحة في مَنبِعِ
ولذا تحب قدومَه الفقراء
أيامه والأغنياء سَواء
فالصيفِ ملحفة له وكساء
من دون مَنْ والسماء غطاء
طَلَقَ وفي وجه السماء صفاء
هَبَّتْ بحاشيتيه وهي رُخاء
وأتى الأصيل فطابت الأفياء
صبح أغرُّ وليلة قمراء
تَرِفُ الظلالُ بها ويجري الماء
تحنو عليك غصونها الخضراء °

° السرحة: الشجرة الطويلة، أو التي لا شوك لها.

الشتاء

قد كانت الأغصان مخضرةً وكانت الطير بها تسجَعُ
فصارت الأوراق مصفرةً تسقطها الرّادة والززع^١
ثم غدت جرداءً مزورةً^٢ والغيمُ أمسّت عينه تدمع^٣

من أجل هذا المشهد المحزن

والليلُ قد طال على من شتا وصار ليلاً بارداً مُظلماً
لعلّ هذا الرعدُ مُذُّ صوتاً هربَ منه تِلْكُمْ الأنجما
عَلامَ قد غيّم ليلُ الشتا فارتاعت الأنجمُ مذ غيماً

واحتجبت فيه عن الأعين

والريخُ من برد الشتا صرصرُ والجوُّ يبدو عابساً مُطرقاً
قد حار فيه التّربُّ المعسرُ إذ لم يجد فيه له مرفقا^٣
يا أيُّها الناس ألا فانكروا من كان منكم في الشتا مُملقا

وأحسنوا فالفوزُ للمحسن

إن الشتا أرحم للمعدم منكم وإن أوجعه برده

^١ الرّادة: الريح اللينة الهبوب. والززع: الريح الشديدة.

^٢ مزورة: معوجة.

^٣ التّرب: الفقير المعدم.

ديوان معروف الرّصافي

لأنّه بالعارض المسجم ينبتُ زرعًا يُرتجى حصده٤
حتى تفوز الناسُ بالأنعم مما لهم أنبته جوده
ويشبع المعدم والمغتني

^٤ العارض: السحاب يعترض في السماء. والمسجم: الهاطل المطر.

التلغراف أو الأسلاك البرقية

دقيقة مثل دقاق الأوتار
في عمد قد ركزت كالأشجار
تحسها في القفر جنّ البقار^١
ممتدة نحو جميع الأقطار
تنقل في آنٍ كلمح الأبصار
لله من سلكٍ دقيق قد صار
والكهربائيةُ شيء قد حار
أسفر منها الوجهُ بعض الإسفار
في طيها نور مُقاد من نار
تطوي المسافات بهم في الأسفار
ثم تضيء ليلهم بالأنوار
مشرقة مبهجة للأنظار
فالسقم تشفيه بغير عقار
وهي لعمري ذات لفتح سيار^٢

للبرق أسلاك تؤدّي الأخبار
فوق الثرى مُدّت وتحت الأبحار
ما بين كلّ عشرات الأمتار
شاخصة أشباحها للأنظار
الكهربائية فيها تيار
جوائِبَ الأنباء نحو الأمصار
في الأرض مجرى لجليل الأخبار
في كنهه أهل النهى والأفكار
ولم يزل مُحتجبًا بالأسطار
وكم لها بين الورى من آثار
وتنقل الأخبار ذات الأخطار
فتجعل الأصالَ مثل الأبقار
وقد تداوي كل داء ضرّار
والجرح تأسوه بغير مسبار

^١ البقار: اسم وادٍ، واسم موضع في بلاد العرب.

^٢ المسبار: ما يختبر به الجرح.

ديوان معروف الرّصافي

لها نفوذ في جميع الأقطار في الحيوان والثرى والأشجار
وفي رياح الجو ذات الإعصار وفي بحار الأرض ذات التيار
وقد سرت في كل غيمٍ مدرار بها تسُح هاطلات الأمطار
فهي بهذا الكون سرُّ الأسرارُ

بيروت والتباريس

إن لبيروتَ بعمرانها
لا سيما أربُع لبنانها
فكم كِناسٍ قد حوت للظُّبا
وما التباريسُ سوى مَقمر
يشد بالإفلاس أيامه
معرَّسٌ يقصده من نحَا
ومرقص ترقص في بهوه
ما فيه من باريسَ إلا الذي
لكنَّ بيروتَ بلبنانها
أمكنة تَعلو التباريسا^١
تلك التي تحكي الفراديسا
وكم حوت للأسدِ عرِّيسا^٢
يَقضي على اللاعبِ تفليسا^٣
مَنْ حلَّ في مَلعبه الكيسا
في أخريات الليلِ تعريسا^٤
أوانس تحكي الطواويسا
يُؤثر عن غادات باريسا
تكشف عنك الهَمَّ والبُوسا

* * *

عروسَ لبنان أما والذي
ما أنتِ إلا جنَّةٌ، آمِنُ
صَيَّرَ مِرَاتِكَ قاموسا
أدُمُ فيها مَكَرَ إبليسا

^١ التباريس: الأراضي السهلة اللينة، ولعله هنا اسم موضع.

^٢ الكناس: بيت الظبي. والعريس: بيت الأسد.

^٣ مقمر: نادر للقمار.

^٤ المعرس: موضع التعريس؛ أي النزول بالليل.

ديوان معروف الرّصافي

فيك تجلّى الله رب العُلا
لولا جمال فيك مستودعُ
كنيسة للحسن في حبها
ما الحسن في شيءٍ بمستحسن
فأين من هذا تباريسكم
وأين هذا من تباريسا؟!
بالحسن مرثياً ولموسا
ما شرع الحبّ لنا عيسى
قلوبنا صارت نواقيسا
إلا إذا كان له سوسا[°]

[°] السوس: الأصل والطبع.

في المستشفى الملكي

عاد الرصافي صديقه الفاضل عبد المجيد بك الشاوي في أثناء مرضه، وقد طال مكثه في المستشفى الملكي ببغداد، فأنشده هذه الأبيات:

فحتّى متى تبقى مقيماً بمستشفى؟
ففي المجد طبّ ضامنٌ لك أن تُشفى
وقد كاد من صمتٍ تغشاه أن يغفى
يكاد إليك الشوقُ ينسفه نسفا
تداعت به الجدران أو ألقَت السقفا
مجالسَ فيها كنت تملؤها ظرفا
تهزُّ لها الآداب من فرح عطفها!
فأية أذن لا تنوط بها شنفا
فلم ترض يوماً للحقيقة أن تخفى
ولو أغضبت أهل السياسة والصحفا
بمثلك فرداً في النهى يغلب الألفا
بما قد حوى كل اللطائف واستوفى
ولكن بلحنٍ أعجب النحو والصرفا^١

أطلت أبا سعدون مكثك ها هنا
فدعُ عنك طبّاً ها هنا تستطبه
أرى مجلسَ النواب أوحشتَ بهوّه
فها هو مشتاقٌ إليك مزلزل
فإن لم تداركه بوصل معجّل
وما استظرفت بغداد مذ جئت ها هنا
فكم لك في تلك المجالس نكتة
إذا أنت أرسلت الحديث مخاطباً
رأينا صريخَ القول فيك سجية
إذا عنّ تبيان الحقيقة قلتها
هنيئاً لحزب أنت منه فإنه
تلطّفت في آدابك الغر ناطقاً
فتعرب أحياناً وتلحن تارة

^١ الإعراب هنا: الإبانة عن الشيء، واللحن: الكناية عن الشيء أو التورية عنه بغيره، وليس المراد اللحن الذي هو الخطأ في الكلام.

ديوان معروف الرّصافي

أدامك رب الناس للناس معلناً مكارم جلّت أن نحيط بها وُصفا

إلى عبد اللطيف باشا المنديل

خفايا أمور أعجزت كل مُبصرٍ
نظرتَ إليها من ذكاء بمجهرٍ
بأوضح صبح من فعالك مُسفرٍ
بأن بني المنديل أكرم معشرٍ
لكلِّ صديق أنها حال مُقترٍ
أتى بيَ إلا أنني في تحيرٍ
وإن شقيت مني بجثمان معسرٍ
لما جئت إلا ساحبًا فضلَ مُزريٍ
ونفسيَ في قيدٍ من الذلِّ مُقفرٍ
ولكن جرى مجرى القضاء المقدرٍ
لما رضيت نفسي بغيرك مشتري^١
وإنَّ مقالي فيك غير مزور^٢
بعزيمة لا وان ولا متقهقرٍ
وإن كنت أعيا عن تمام التشكُّرِ
ليجعله أحوثة كلِّ مخبرٍ

أبا ماجدٍ إنني عهدتُك مبصرًا
إذا خفيت يوماً عليك حقيقةً
وإن ليلة الخطب ادلهمت كشفتها
وتلك مزايا فيك أعلمت الورى
فهل أخفيت حالي عليك وقد بدا
أتيتك من بغداد لم أدِر ما الذي
وأحمل في جنبِي نفسًا غنيةً
ولو كنت في بغداد أرضي بذلةً
ولكنني قد عفتُ أن أرد الغنى
وما عدل السعدون بي عن وفاته
ولو أنني بعُتُ الثناء بنائلٍ
وإن حديثي عنك غير مرجمٍ
سأرحل عن ديوانك اليوم أو غدًا
وسوف ترى مني مدى الدهر شاكرًا
وأكتب للتأريخ ما أنا كاتبٌ

^١ النائل: العطاء.

^٢ الحديث المرجم: حديث الظنون.

يا دار قسطنطين

في الحسن لولا جوُّ المتقلُّبِ
لكن هواؤك عارم متذبذب^١
فأراه يبسم تارة ويقطُّب
همم الرجال بها تجف وتنضب
فتكاد من أعصابهم تتحلب
وتشيب أرؤسهم وما هم شيب^٢
حتى يروح لعنة يتطبب^٣
صراً تهبُّ وتارة تتلهب^٤
وعن الجنوب وذكراها أتجنب
هذي تجمدهم وتلك تذوب
كهوائك القلب بل هي أعجب
سبب الطباع من الهواء مسبب
من كان يحسنها فذاك مهذب

يا دار قسطنطين أنت فريدة
لقد اجتويتك لا لفقْد محاسن
أبدًا سماؤك وجهها متلون
وأرى هواءك ناضحًا برطوبة
تسري الرطوبة منه بين عروقهم
فتلين شرتهم وليس بهم ضنى
وترى الفتى منهم يعود محوقلاً
ريحان تندفعان فيك فتارة
أما الشمالُ فعقرب لساعة
لا كانتا من ضرتين على الورى
وأرى بك الأخلاق ذات تلون
وطباع كلِّ معاشر كهوائهم
أمسى التصنع في بنيك صناعة

^١ اجتويتك: كرهتك.

^٢ الشرة: الحدة والنشاط.

^٣ المحوقل: الضعيف الذي قل أربه في النساء.

^٤ الصر: البرد الشديد.

فإذا تَلَأَّتْ الثَّغُورُ تَبَسُّمًا فالبرق في تلك المباسم خُلِبُ
ولربما احترم البغيضُ بغيضه كيما يقال بأنه متأدَّب
عجبًا فكم حَمَلٍ رأيت ومذ نضا ثَوْبِي تَصْنَعِهِ إذا هو ثعلب!
حَلَمْتُ نمورك خدعة وتظاهرت بصداقة الجرفان فيك الأذؤب
لم أَلْقَ شيئًا فيك غير مغشش حتى المياه تغش فيك وتكذب
هذي صفاتك يا فَرُوقُ برغم من أثنوا عليك بغير ذاك وأطنبوا^٥

^٥ فَرُوقُ: هي الأستانة، أو دار قسطنطين.

فلکس فارس

إِنَّ فَلَكْسَ بْنَ فَارِسٍ رَجُلٌ
تَمَّ لَهُ السَّبِقُ فِي الْعَلَاءِ بِمَا
مُقَوِّهٌ لَوْ رَأَاهُ يَخْطُبُ فِي الْمَحَدِ
يَنْطِقُ عَنِ فِطْنَةٍ لَهَا حَكْمٌ
لَمْ يُصْغِ مُصْغٍ إِلَى خَطَابَتِهِ
تَعُودُ كُلُّ الْخُطُوبِ هَيِّنَةً
أَتَعَبُ فِي النَّصْحِ نَفْسَهُ فَأَتَتْ
يَطْلُبُ أَنْ تَنْهَضَ الرِّجَالُ إِلَى
سَلِّ عَنْهُ لِبْنَانٍ كَمْ تَطْرَبُهُ
وَسَلِّ دِمَشْقَ الشَّامِ عَنْهُ وَمَا
كَمْ لَيْلَةٍ لِلشُّكُوكِ دَاجِيَةٍ
حَرٌّ يُوَاحِي فِي الْحَقِّ كُلِّ فِتْنَى
إِنْ قَالَ قَوْلًا أَوْ انْتَضَى قَلَمًا
فَارَكْنَ إِلَيْهِ وَخَلَّ حَاسِدُهُ

بِنَا افْتِقَارِ إِلَى غِنَى أَدْبِهِ
أَحْرَزَ يَوْمَ الْفَخَارِ مِنْ قَصْبِهِ
فَلِ قَسُّ جِثَا عَلَى رُكْبِهِ
تَبْرِيءُ قَلْبِ الْجَهُولِ مِنْ وَصْبِهِ^١
إِلَّا وَقَدْ رَاقَهُ فَأَعْجَبَ بِهِ
إِذَا فَرَعْنَا مِنْهَا إِلَى خُطْبِهِ
رَاحَةَ أَهْلِ الْبِلَادِ مِنْ تَعْبِهِ
مَجْدٍ يَجِدُ الْكِرَامُ فِي طَلْبِهِ
مِنْهُ خُطَابٌ فَمَادَ مِنْ طَرِبِهِ
بَعْدَ دِمَشْقِ الشَّامِ مِنْ حَلْبِهِ
أَنَارَهَا بِالْيَقِينِ مِنْ شُهْبِهِ
حَرٌّ وَلَوْ شَطَّ عَنْهُ فِي نَسْبِهِ
فَنَصْرَةُ الْحَقِّ مَنْتَهَى أَرْبِهِ
مَحْتَرَقًا مِنْ جَوَاهِ فِي لَهْبِهِ

^١ الوصب: المرض والوجع الدائم.

مليكة غناء العرب

هَلُمَّ إِلَى ذَوْقِ طَعْمِ الْأَدَبِ
هَلُمَّ إِلَى ذَا الْغِنَاءِ الَّذِي
أَلَيْسَتْ مَنِيرَةٌ فِي عَصْرِنَا
وَلَا غَرَوَ أَنْ مَلَّكَتْ فِي الْغِنَا
فَقَدْ أَدْرَكَتُهُ عَلَى رَسْلِهَا
وَأَيْدِهَا اللَّهُ مِنْ صَوْتِهَا
أَرَى فَمَهَا صِيغَ مِنْ حِكْمَةٍ
تَلُوحُ فَتَبْتِزُّ بَدْرَ الدَّجَى
بَلْحَنِ إِذَا امْتَدَّ هَزُّ الْقُلُوبِ
تَرْفُوفِ أَرْوَاحِنَا تَحْتَهُ
وَتَخْفُقُ أَحْشَاؤُنَا دُونَهُ
نَكَادُ إِذَا هِيَ غَنَّتْ نَطِيرَ
وَإِنْ هِيَ قَامَتْ لِإِنْشَادِهَا

هَلُمَّ إِلَى نَيْلِ أَقْصَى الْأَرْبِ
مَنِيرَةٌ مِنْهُ أَتَتْ بِالْعَجَبِ
مَلِيكَةٌ فَغِنَاءُ الْعَرَبِ
ء [وَأَنْ] أَحْرَزَتْ فِيهِ أَعْلَى الرَّتَبِ
وَنَالَتْ أَقَاصِيَهُ مِنْ كَثْبِ^١
بِأَكْبَرِ عَوْنٍ وَأَقْوَى سَبَبِ
وَأَبْخُسُهُ إِنَّ أَقْلُ: مِنْ نَهَبِ
وَتَشْدُو فَيَعْتَزُّ فَنَّ الْأَدَبِ^٢
وَخَدَّرَ أَبْدَانِنَا وَالْعَصَبِ
كَمَا رَفَرَفَ الطَّيْرَ لَمَّا انْقَلَبِ
كَمَا خَفَقَتْ فِي الرِّيَاحِ الْعَدَبِ^٣
إِلَيْهَا بِأَجْنَحَةٍ مِنْ طَرَبِ
جَبَّوْنَا لَهَا وَثْنَيْنَا الرُّكْبِ

^١ أدركته على رسلها: أي في تمهل ورفق.

^٢ تبتز: تغلب وتفوق.

^٣ العذب: الأطراف من كل شيء، وما يسدل إلى الخلف من العمامة.

ديوان معروف الرّصافي

فلو سمع القوم ألحانها لشقوا عمائمهم والجُبيب
أرى الهمَّ يُتعب قلب الفتى وعنه الأغاني تزيل التعب
فبادر إليها ولا تكثرثُ لما جاء من ذمّها في الكُتب

إلي جميع الغواني

وقفتُ عليكِ قلبي الذي يمرُّ به الحُبُّ مرَّ السَّحابِ
ومنكن أحببت هاتي وذي وألفيتُ عذبًا بكنَّ العذابِ

* * *

فمنكن بيضاء ما مثلها «عدا حمرة الخدِّ» إلا القمر
فتلك التي طاب لي وصلها كما ليلة البدر طاب السمر

* * *

ومنكن حمراء جذابة حكى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها «وهي خلافة» فأمسك بالكف منِّي الضلوع

* * *

ومنكن صفراء في لونها كأن قد تردَّت شعاع الأصيل
إذا ما تمشَّت على هونها أصحَّت هبوب النسيم العليل

* * *

ومنكن سمراء تحكي الدمى وتبعث في القلب ميت الهوى
على شفتيها يلوح اللمى فيضرم في الصب نار الجوى^١

^١ اللمى: سواد الشفة وهو محبوب عند العرب.

* * *

وَمَنكَنُّ مَنْ هِيَ مِثْلَ الرِّيحِ لَهَا فِي ذَرَا كُلِّ لَبِّ هَبُوبِ
تَرِيدُ غِلَابَ جَمِيعِ المَلَحِ وَتَبْغِي عَذَابَ جَمِيعِ القُلُوبِ

* * *

وَمَنكَنُّ مَنْ هِيَ مِثْلَ النُّجُومِ مِنْ البَعْدِ نَاطِرَةٌ تَبْتَسِمُ
فَتَلِكُ عَلَيْهَا فَوَادِي يَحُومِ وَتَلِكُ إِلَيْهَا الرِّدَى أَقْتَحِمُ

* * *

فَفِيكُنْ طُرًّا بَوَادِي الهَوَى أَهِيمِ وَإِنْ لَمْ تَعُدْ عَائِدِهِ
أَلَا إِنْ حَبًّا بِقَلْبِي انطَوَى كَثِيرِ فَلَمْ تَكْفِهِ وَاحِدِهِ

قصر البحر

وقال وقد نزل في فندق قصر البحر في بيروت:

لعمرك إن قصر البحر قصر
وتمتلئ العيون به ابتهاجاً
تروق الناظرين بجانبيه
فمن شمس يصفحها طلوع
ومن سفن تجيء بها شمال
وأخرى حوله خمدت لظاها
أطل على المياه فقابلته
يقبل جانبيه البحر حتى
أحاط به فكان له رقيباً
وما هذا التموّج من هواه
كأنّ الموج في الدّأما رجالٌ
تخاطبهم مبانيه فيعلو

به يسلو مواطنه الغريبُ
إذا نظرت وتنشرح القلوب
مناظرٌ دونها العجب العجيب
ومن شمس يعانقها غروب
ومن سفن تروح بها جنوب
وأخرى في الفؤاد بها لهيب
بوجه لا يمازجه شحوب
كأن البحر مشغوف كئيب
ومغناه الأنيق له حبيب
ولكن من هوى فهو الوجيب
وهذا القصر بينهم خطيب^١
من الأمواج تصفيق مهيب

* * *

تلمّ به المسرات ازدياراً فتعرفه وتجهله الكروب

^١ الدّأماء: البحر.

وما انفردت به بيروت حسناً
تبسمت البلاد بكل أرض
فها هو من تكاسل قاطنيه
إذا تدعو الرجال به لخير
فيا لهفي على بغداد أمست
سأبكي ثم أستبكي عليها
أيا بغداد لا جازتك سحِب
تطاول ساكنوك عليّ ظلماً
وكم نطقوا بالسنّة حِدادٍ
رمانى القوم بالإلحاد جهلاً
ألا يا قوم سوف يجدُّ جدِّي
فمن ذا منكم قد شقَّ قلبي
فعند الله لي معكم وقوف
يقيني شرّاً فريتكم يقيني
ولم تُخفر لكم عندي ذمامٌ

ولكن القصور بها ضروب
وما زال العراقُ به قَطوب
تجرُّ عليه كلكلها الخطوب
يجيبك من تخاذلهم مجيب
من العمران ليس لها نصيب
إذا نضبت من العين الغروب^٢
ولا حلت بساحتك الجُدوب
فضاق عليّ مغناك الرحيب
يسيل لها من الأشداق حُوب^٣
وقالوا: عنده شك مُريب
وسوف يخيب منكم من يخيب
وهل كُشفت لكم فيّ الغيوب؟!
إذا بلغت حَنَاجرها القلوب
بأن الله مطَّلِع رقيب
ولكن عادة الريح الهبوبُ

^٢ الغروب: جمع غرب، وهو عرق في العين، أو جانب العين.

^٣ الحوب: الإثم.

محاسن الطبيعة

إلى حضرة الفاضل ندرة بك المطران

البحرُ رهوٌ والسما صاحيه
والبدرُ في طلعتة الزاهيه
والفخت في الليل شبیه السديم^١
قد ضاحك البحر بثغر بسيم

* * *

والصمت في الأنحاء قد خيما
والبدرُ في مفرق هام السما
فالليل لم يسمع ولم ينطق
تحسبه التاج على المفرق
وأعرق في أنواره الأنجما
وبعضها عام فلم يغرق
والبحر في جبهته الصافيه
قام طريق للسنا مستقيم
لم تخف في أثنائه خافيه
حتى ترى فيه اهتزاز النسيم
وقفتُ والريح سرت سجسجا
في الكون من عالٍ ومن سافلٍ
يا منظرًا أضحك ثغر الدجى
ورد سحبان إلى باقل^٢
ما أنت إلا صحف عاليه
كم حار في حكمتها من حكيم!

^١ رهو: ساكن. والفخت: ضوء القمر. السديم: الرقيق من الضباب.

^٢ الريح السجسج: المعتدلة اللطيفة.

^٣ سحبان: خطيب يضرب به المثل في الفصاحة، وباقل: يضرب به المثل في العي.

إذا وعتها أذنٌ واعيه فقد وعت خيرَ كتابٍ كريم

* * *

وزان عَرَضَ البحر ما قد بدا
عام بِدُوبِ الماسِ أو قد غدا
في صامت الليل جرى مفردا
من غادة في حسنها غانيه
ومن فتى أدمعه جاريه
قابلها والحب قد شَفَّه
وظل يرنو تارة خلفه
ثم تدانى واضعًا كفه
وخرَّ من وجدٍ على الناصيه
وهي غدت من أجله جاثيه
من زورقٍ يجري بمجدافتين
يسبح في لجة ذوب اللجين
وبين جنبيه حوى عاشقين
تبسم عن لألاءِ دُرِّ نظيم
قد صافح العشقَ بجسمٍ سقيم
وقابلت طلعة بدر السما
وتارة ينظرها مُغرما
في كفها يطلب أن يَلثما
وقلبه يركض ركض الظليم^٤
واحتضنته كاحتضان الفطيم

* * *

ثم رمى نظرة مُسترحمٍ
وقال قولَ الكلف المغرمِ
أيتها الأرض قفي واسلمي
حتى أرى ليلتنا باقيه
فإن هذي ليلة حاليه
في الكون عن طرفٍ له حائرٍ
في حب ذات النظر الساحرِ:
من أجل هذا المشهد الزاهرِ
محفوظةً من وصلنا بالنعيم
تزهو ببدرين وطلق النسيم

* * *

وأنت يا بدرُ اللطيف السنا
ما أبهج النور وما أحسنا
كأنه «ندرة» لما دنا
فحاز منها جملة وافيه
وصار يُدعى الرجل الداھيه
في الجوقِ وقفة غير الرقيبِ
إذا دنا منك لوجه الحبيبِ!
نحو المعالي يبتغيها النصيبِ
ما حازها من أحد من قديم
في الفكر والمجد وخلق عظيم

^٤ الظليم: الذكر من النعام.

* * *

يا آل مطران لكم «ندرة» وأكرم الناس هو النادرُ
لكن معاليكم لها كثرةٌ يعجز أن يحصرها الحاصرُ
من أجلها أمست لكم شهرةٌ عمَّ البرايا صيتها الطائرُ
حيث معاليكم غدت قاضيه لكم على الناس بفضل عميم
فراية المجد لكم عاليه و«ندرة» الشهمُ عليها زعيم

* * *

يا من بنى المجدَ فأعلى البنا فكان أعلى الناس في مجده
إقبلُ من العبد جميلَ الثنا وإن يكن قصر عن حده
ومُرّه ثم أحكم به إن ونى ما يحكم السيد في عبده
إذ أنت بالمنقبة الساميه قد خصَّك الله العزيز العليم
فاهناً ودم في عيشة راضيه رغمَ المعادي وسرور الحميم

ليلة في دمشق

من كان يَأرُقُ بالهمو
وطربتُ من صوتِ يجي
صوت كأن الغانيا
ونضحن من ماء الحيا
سرى الهموم عن الفؤا
والعود ينطق باللحو
يرمي به الصوت الرخي
ملاً الظلام توقداً
يحكي الزلال لدى العطا
أصغيتُ منقطعاً إليه
فحسبت نفسي في الجنا
وطفقت أذكر العرا
فرجعت عن ذاك السما
وذكرت من تبكي هنا
تستوقف العجلان ثمَّ
وتقول من ماض الفرا
أبني سِرُّ سير الأما
يا أم لا تخشي فإن

م فقد أرقّت من السرورِ
ءُ إليّ من عُرف القصور
ت أعزّنه هيف الخصور
ة عليه في شنب الثغور
د بجوف حالكة الستور
ن بلهجتني بَمّ وزير
م على الدجى لمعات نور
كالكهرباءة في الأثير
ش أو الثراء لدى العقير
عن المَواطن والعشير
ن بغير ولدان وحوار
ق فعاد صفوي ذاك دور
ع وغبت عن ذاك الشعور
ك عليّ بالدمع الغزير
ة بالرنين عن المسير
ق مقالَ ذي قلب كسير:
ن من الطوارق في خفير
الله يا أمي مُجيري

ديوان معروف الرّصافي

ودعي البكاءَ فإن قلـ جبي من بكائك في سعيـ
أعلمت أني في دمشـ ق أجراً أذبال السرور
بين الغطارفةِ الذيـ ن تخافهم غير الدهور^١
من كل وضّاح الجبيـ ن أغر كالبدر المنير
حرّ الشمائل والفعـ ثل والظواهر والضمير

^١ الغطارفة: جمع غطريف، وهو السيد السخي السري. وغير الدهور: تقلباتها.

حول البسفور

بجانبي البسفور مشهد أسرار
مجال عقول للأنام وأفكار
إذا الشمس تستعلي وفي ماء خنكار^١
مكللة حافاتهن بأشجار
ويشجي بقطريها ترنم أطيّار
تبخر بيضاء الترائب معطار
موشحة فيها برقة أسحار
على منحنى الوادي ذوائب أنوار
يوقع دینارًا لنا جنب دینار
جيوب من الأنوار زرت بأزرار
فتأتي بظل في الجوانب موار^٢
نميل بأسماع إليها وأبصار
فنمت لنا من طيبهن بأسرار
فيفتر منها عن منابت أزهار
تجلت على أطرافها قدرة الباري

خليلي قوما بي لنشهد للربا
أجيلا معي الأفكار فيها فإنها
خليلي إن العيش في ماء شرشر
سفوح جبال بعضها فوق بعضها
يروق بجنبها خريز مياهاها
ويجري النسيم الرطب فيها كأنه
معاهد زرها في الهواجر تلقها
نزلنا بها والشمس من فوق أرسلت
وقد ظل من بين الغصون شعاعها
كأن التفاف الدوح والنور بينها
تميل إذا هب النسيم غصونها
ترانا إذا ما الطير في الدوح غردت
رياض تنسمنها بها الريح ضحوة
يلوح بها ثغر الطبيعة باسمًا
مشاهد في تلك الربا ومناظر

^١ شرشر وخنكار: موضعان بالقرب من البسفور.

^٢ الموار: المضطرب المتحرك.

تأثير التربية

قالها في بيروت بعد أن شاهد مسرح الحيوانات.

في مسرح ماج بين الجدّ واللعبِ
حتى بنوا حاجزًا فيه من الخشب
من الحبال جديد غير منقضب
والنمر يخطر بين الخوف والغضب
منه فيرجع عنه غير مقترب
يرقصن منتصبًا في إثر منتصب
مَشِي المليحة في أبرادها القشب^١
في الكف فرقة كالرعد في السحب
ما كان يُصدِر من أمر ومن طلب
لو يأمر السوطُ يغدو مرسل الذنب
مجرى الكلاب بحكم الخوف والرهب
محدّد الناب قذافيًا إلى العطب
أنّ الغرائز لم تطبع على الشغب
لا بد فيه سوى الأطباع من سبب

إليك ما شاهدت عيني من العجب
خافوا به أن تقوم الأسدُ واثبةً
وحصّنه من الأعلى بمشتبك
به الأسود تمطى في مرابضها
والذئب يبصر جدّي المعز مقتربًا
أما الكلاب فجاءت وهي كاسية
قامت على أرجل تمشي معلّمة
تخشى مؤدبها والصولجان له
ترنو إليه بعين الخوف فاعلة
خضعن للسوط حتى إنّ أعقدّها
وكانت الأسد تجري في إطاعتها
كأنما الليث لم يُخلَق أبا ظُفُر
شاهدته مشهدًا بدعًا علمتُ به
وأنّ خُبث البرايا في طبائعها

^١ القشب: جمع قشيب، وهو الجديد.

وَأَنَّ لَيْثَ الشَّرَى مَا صِيغَ مَفْتَرَسًا
وَكَمْ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَد رَاحَ مَنَدْفَعًا
وَأَنَّ تَرْبِيَةَ الْإِنْسَانِ يُرْجِعُهُ
هَذَا إِذَا حَسُنَتْ أَمَا إِذَا قَبِحَتْ
فَكُلُّ مَا هُوَ فِي الْإِنْسَانِ مَكْتَسَبٌ
إِنِّي أَرَى أَسْوَأَ الْآبَاءِ تَرْبِيَةَ
وَالْمَرْءِ كَالنَّبْتِ يَنْمُو حَسَبَ تَرْبَتِهِ
مَنْ عَاشَ فِي الْوَسْطِ الزَّاكِي زَكَ خُلُقًا
فَاحْرَصَ عَلَى أَدَبٍ تَحْيَا النُّفُوسَ بِهِ
لَكِنْ أَحَالَتَهُ فَرَّاسًا يَدُ السَّغْبِ^٢
بِدَافِعِ الْجُوعِ نَحْوَ الْقَتْلِ وَالسَّلْبِ
إِكْسِيرَهَا وَهُوَ مِنْ تَرْبٍ إِلَى الذَّهَبِ
فَالْمَنْدَلِيُّ بِهَا يَمْسِي مِنَ الْحَطْبِ^٣
فَلَا تَقُلْ: فِيهِ شَيْءٌ غَيْرٌ مَكْتَسَبٌ
لِلْأَبْنِ أَحْرَى بِأَنْ يُدْعَى أَعْقُ أَبٍ
وَلَيْسَ يَنْبَغُ نَبْعُ مَنْبِتِ الْغَرْبِ^٤
حَتَّى عَلَا فِي الْمَعَالِي أَرْفَعَ الرَّتَبِ
فَإِنَّمَا قِيَمَةُ الْإِنْسَانِ بِالْأَدَبِ

^٢ السغب: الجوع.

^٣ المنديلي: عود يتبخر به ينسب إلى المنديل من بلاد الهند.

^٤ النبع: شجر صلب تتخذ منه السهام والقسي. والغرب: شجر تتخذ منه الأقداح.

يقظة الشرق

أنشدت في مأدبة نادي المعلمين؛ لتكريم وفد الجامعة المصرية مساء ٩ شباط سنة ١٩٣١،
في أوتيل «كارلتون» ببغداد.

أرى — بعد نوم طال — في الشرق يقظةً
نُهوضيةً فيها طموحٌ إلى المجدِ
ففي «مصر» شِيدَتْ للعلوم معاهد
على أسس التحليل والبحث والنقد
فلم تتخذ غيرَ التجارب منهجاً
لتحقيقها من جوهر العلم ما يجدي
وفي الأفق «التركي» سارت إلى العلا
جيوش بأعلام التجدُّ تستهدي
وفي «الهند» قامت للتحرُّر ثورة
سياسيةً عزلاء قائدها «غندي»
و«فارس» حَلَّت عقدةً من جمودها
وحنَّت بمسعاها إلى سالف العهد
وفي «الصين» حربٌ نارها وطنية
تزيد بمرِّ الدهر وقدًا على وَقْد
و«بغداد» بين الأجنبي وبينها
مزيدُ صراعٍ في السياسة مشدد

على أن حولَ «النيل» مثلَ صراعنا
ولكنه بين الحكومة و«الوفد»
ولم تخلُ من أعتابها بتجدد
على جذبها أرضَ «الحجاز» ولا «نجد»
زمان أتى من كل قوم بنهضة
سياسية حتى أنت نهضة «الکرد»
تباشيرُ صبح لاح بعد نُحوسَةٍ
مشيرًا إلى ما نرتجيه من السعد
فيا وفدَ مصرٍ أنتم خير شاهد
على يقظة في الشرق ورأية الرّند
لقد جيئتم رؤادَ علمٍ وحكمة
فحُييتمُ أزكى التحيات من وفد
ترودون أهلَ العلم مرعىً ومنزلًا
وتجتنبون الهزل في معرض الجِدِّ
وقد زرتمُ «دار السلام» زيارة
ستذكرها الأقلام بالشكر والحمد
ومن ذكرها في كل عصر وموطنٍ
سَتَسْتَنْشِقُ الأيامَ أطيبَ من ورد
وتمتد بين «النيل» منها و«دجلة»
مدى الدهر أسباب التعارف والودِّ
سلام على «مصر» التي أرسلت بكم
فطاحلَ علم لا تحيد عن القصد
لكم عند أهل «الرافدين» تجلّة
على قدر ما للرافدين من الرّفد

إلى القزويني

هو المرحوم أبو العز السيد محمد القزويني العالم المشهور.

قف بالديار الدارساتٍ وحيِّها
وانشُد هنالك للمتيمِّم مُهجة
وسل المنازل هل علمنَ بأنني
يا قلبُ أيُّ هوى أصابك عندما
رَشاً إذا أبدى ابتسامة شائق
شغلَ القلوب بحبه ولطالماً
من لي بلثم مُقبَّلٍ من شادن
يا عاذلاً صدعَ القلوبَ بلومه
من ذا استطاعَ يردُّ عن غيِّ الهوى
دُع يا عدولُ أخوا الغرام معظماً
كأفاضل «الفيحاء» حيث تفاخرت
واقرَ السلام على جآذر حَيِّها^١
فنيثُ من الأهواء في عُذريِّها
قد شفَّ جثمانِي الهوى بظُّبيها
أصميت باللحظات من نُعلِيِّها^٢
أجرى المدامعَ من عيون عصيِّها^٣
فتكت ضعافُ لحاظه بقويِّها
عذب الثنايا الواضحات شهيِّها^٤
مهلاً فليس خَلِيُّها كشجيِّها
فئة ترى كل الرشاد بغيِّها
لدار يلثمها كرامة ميِّها
بِسريِّها الجَحجاج وابن سريِّها^٥

^١ الجآذر: جمع جؤذر؛ وهو ولد البقرة الوحشية.

^٢ ثعلبيها: رامٍ منسوب إلى بني ثعل وهم حي من طيئ مشهورون بالرمي.

^٣ الرشأ: ولد الظبية.

^٤ المقبل: الفم. والشادن: ولد الظبية.

^٥ هي مدينة الحلة. والسري: السيد الشريف السخي. والجحجاج: السيد المسارع إلى المكارم.

السيد السند الهمام محمد
كم شاع للفيحاء بين بلادنا
ذاك الذي كم من مناهل فضله
يا سيدًا في المجد أحرز شهرةً
والتك نفسي ترتدي بك سؤددًا
لِمَ لا أسود بحبكم في أُمَّةٍ
زهت المكارمُ فيك حيث لبستها
فعشقت منك على البعاد خلأقًا
فإليكها عذراء عزَّ قيادها
وافتُك في «رمضان» تنشر مدحه
لتشدَّ معك عُرا الوداد وثيقة
إنني لأغبطها إذا هي أنشدت
وغدت تجيد المدح منك لسيد

فرع النبوة وابن خير وصيها
شرف حوته بفضل قزوينيها
فازت محلأةً النفوس بريها^٦
ملأت مسامعنا بصوت دويها
وقد ارتدته فكنت خير وليها
فرَض المهيمن حبَّ آل نبيها
شيمًا تزيًا الأكرمون بزيتها
شغلت - وحقك - مهجتي عن حيها
لولا مديحك لم تبُح برويها
عبقت تهانيك الحسان بطيها
بيدٍ، ولاؤك كان خيرَ حليها
بنديَّ عَفَّ النفس منك ذكيها
شهم الغطارفة الكرام أبيها

^٦ المحلاة: العطاش المطرودة عن الماء.

إلى حماة الأطفال

سبق لجمعية حماية الأطفال أن اعتزمت إقامة مهرجان كبير حاولت أن يكون الأول من نوعه، وقد تفضل شاعر العرب الخالد المرحوم الأستاذ معروف الرصافي، فأرسل هذه القصيدة العصماء، ووعد أن يلقيها بنفسه، ونحن ننشرها اليوم ليرى القراء جانباً من إحساس الفقيد العظيم نحو أطفال الوطن.

دار السلام تفاعرت برجالٍ	قاموا بأمر حماية الأطفال
وَعُنُوا بتربية البنين عناية	زادوا بها شَمَمًا على الأجدال
وبنوا لهم دارًا بما جادت به	أيدي أكارمهم من الأموال
صانوا بها الأتسال من أمراضها	ومن الحقوق صيانة الأتسال
دار تعيهم بالأواقي كل ما	يُخشى من الأوجاع والأوجال ^١
ضمنت لأيتام الأرامل طِبَّهم	وغذاءهم وبشائر الأبلال
لم يخش فتك السقم فيها رُضِع	في البؤس قد وُلدوا من الإفلال
لله تلك الدار من متبوءاً	بذّ النجوم بقدرة المتعالي ^٢
هي مفرع للمعسرين وملجأ	يأتيه كل ضنّي من الأطفال ^٣

^١ الأواقي: أصلها الواقي جمع واقية. والأوجال: المخاوف، جمع وجل.

^٢ يقال: بزه وبذه؛ أي فاقه.

^٣ الضنى: المهزول.

أحماءة أطفال الأيامى إنكم
مرت لكم تلك السنون وكلها
كافحتمُ الأدواء في أيتامنا
في حومة الإحسان طال صيالكم
سيدوم مسعاكم ويبقى دأبكم
ولسوف يذكركم ويشكر سعيكم
لله أنتم من أفاضل خُلص
إني أحاول أن أكون مُعينكم
لو أن ذات يدي استطاعت رِفدكم
ولو أن أيامي تجود بصحتي
إن لم أعنكم بالفعال فإنني
فإليكمُ هذا الثناء مخلداً

جُدرءا بالتعظيم والإجلال^٤
عُررَ تزانُ بأنفع الأعمال
دأبا بغير كلاله وملال
حقاً فأنتم أشرف الأبطال^٥
في الدهر غيرَ مُهدد بزوال
من سوف يخلفكم من الأجيال
فاقوا الأنام بأشرف الإفضال
لولا موانع يعترضن حوالي^٦
ما فاق نولُ الرافدين نوالي^٧
ما جال أقوى العاملين مجالي
ما زلت من أعوانكم بمقالي
من مادم في المدح غير مغال

^٤ الأيامى: جمع أيم، وهي التي لا زوج لها.

^٥ الحومة: موضع القتال. والصيال والمصاولة: المنازلة في الحرب.

^٦ حوالي: حولي.

^٧ الرغد: العطاء، والنول والنوال: العطاء.

شاعر البشر

حيّهل يا أخا مُضرٍ نذكر خيرَ مُدكر^١
نذكر شاعر البشر خير من قال وافتكر

* * *

حيّهل أيها المَلَا نحي ذكرى أبي العَلَا
شاعر شعره اجتلى صورًا كلها غُرر^٢

* * *

شاعر يملأ الفضا نفسه صعبة الرضا
دونه كل من مضى دونه كل من غير^٢

* * *

هو بالفكر مُد سما كان من نوره العمى
شاعر الأرض والسما شارف الشمس والقمر

* * *

^١ حيّهل: اسم فعل أمر، معناه: أقبل. وأخا مضر: هو من ينسب إلى مضر، وهم من ولد إسماعيل، أما اليمينيون فأولاد يعرب بن قحطان، ولعل الشاعر هنا يريد جنس العرب مطلقًا.

^٢ من غير: من يأتي في المستقبل، وقد يكون غير بمعنى مضى في غير هذا.

ديوان معروف الرّصافي

حلّ في ذروة الأدب آتياً منه بالعجب
لا تقل: شاعر العرب إنه شاعر البشر

* * *

جعل الصدق ديننا تاركاً هذه الدنيا
إن تناءى أو أدنى فهو للحقّ ينتصر

* * *

عبقري بشعره عالمي بفكره
يعربي بنجره تشرف العُربُ إن دُكر^٢

* * *

جعل الشعر وحيه موقظاً فيه وعيه
ما ورى فيه وزيه قبله كل من شعري^٣

* * *

خطّ سفراً به ابتغى غنية الروح بالرغى^٤
جامعاً أفصح اللغا حاوياً أكبر العبر

* * *

حكم العقل واجتهد وتغابى عن القدر
هو في القول ما اعتمد غير ما ذاق واختبر

* * *

شعره شفّ عن دها ما له فيه مُنتهى^٥
بنظام هو النهى وحروفٍ هي الدرر

^٢ النجر والنجار: الأصل.

^٤ ما روى فيه ورية أي: لم يُقدح زناد فكر، ولا أتى بمثل ما أتى به أبو العلاء من المعاني.

^٥ الرغى: بضم الراء وفتحها، الحديث غير الصريح.

^٦ شفّ عنه: أبان عنه.

شاعر البشر

* * *

شعره شعر مُتَّقِنٍ فيه شك لموقِنٍ
فيه كفر لمؤْمِنٍ فيه إيمان من كفر

* * *

نفسه وهي ثائره تركت «غيرَ خاسره»
كل دنيا وآخره ونفت كل ما استقرَّ

* * *

جعل الحق ذوقه باذلاً فيه طوقه
شاعر ليس فوقه شاعر من بني البشر

* * *

شاعر الأرض والسما هو بالفكر مُذ سما
أبصر الحق بالعمى لم يضره عمى البصر

* * *

هو بالشعر إن شدا يتجلَّى لك الهدى
مدرِّكًا أبعد المدى بالمعالي التي ابتكر

* * *

جانب الناس واعتزل قائلًا: إنهم همل^٧
شرُّهم غير محتمل خيرهم غير منتظر

* * *

دينهم من ريائهم وهو في أغبيائهم
ليس في أنكبيائهم غيرٌ من مان أو مكر^٨

^٧ الهمل من الحيوان: ما ليس له راع يحوطه ويرعاه.

^٨ مان: من المين وهو الكذب.

* * *

ما بهم غير حاسدٍ دائب في المكاييد
مبتغى كل واحد منهم الجورُ إن قدر

* * *

كوكب قد توقّدا في سماءٍ من الهدى
عندما غمّه الردى أظلم الجو واعتكر

* * *

ليس للموت عنده من تقاريع بعده
إن عرا الحيّ رده فاقد الحس كالحجر

* * *

فيه قد يأمن الفتى كل ما راع أو عتا
لا مصيف ولا شتا لا نعيم ولا سقر

* * *

نحن أسرى ذواتنا خشية من مماتنا
كم وكم في حياتنا مُبتدا ما له خبر

ذكرى المآثر التيمورية^١

«لأحمد تيمور» مآثر لم تزلْ
شوامخ كالأطواد عالية الذرا
تزيدُ على كَرِّ الجديدين جِدَّةً
إذا ذكِرَتْ في القوم حُلَّتْ لها الحُبا
هو العالم الحبر الذي كان علمه
إذا لم يزن علمَ الفتى حسنُ خلقه
به فقدت «مصر» العزيزة فاضلاً
أقام بها ما فاق في الفضل نيلها
مناضدها للتائهين معالم

تشيرُ بتعظيم إليها الأناملُ
ولكنها لا تعترِيها الزلازل
وتبلى الدواهي دونها والغوائل^٢
وقام لها جمع من القوم حافل^٣
كأخلاقه فيه النهى والفضائل
فما هو في شيءٍ على الناس طائل
له في مغانيها مَساع فواضل
خزانة كُتِبَ تنتحِيها الأفاضل^٤
وأسفارها للظامئين مناهل

^١ وهي من أواخر شعره.

^٢ الغوائل: جمع غائلة، وهي المهلكة.

^٣ الحبا: جمع حبة، وهو ما يشد به العربي رجليه إلى ظهره من شملة أو عمامة أو نحوها إذا جلس في نادي قومه، وحل الحبا: كناية عن الاهتمام بالأمر، يقال للشيء المهم: هذا أمر تحل له الحبا.

^٤ تنتحياها: تقصدها.

ديوان معروف الرّصافي

إذا غمّ أفق العلم أبدت أنارةً تقوم بها للحائرين دلائل[°]
عليه سلام الله ما هيبَ عالم وعيب بإهمال التعلم جاهل
ولا برحت مصر ينير لها الدُّجى رجال عظام من بنيتها أمائل

الأعظمية - ١٤ كانون الثاني سنة ١٩٤٤

[°] غم أفق العلم: أظلم. والأنارة: البقية من الشيء، كذا في جريدة «البلاد» ولعلها محرفة عن إنارة، يريد إذا غام الأفق بالشبه ظهر منها نور يوضح أمام الحائرين.

أبو الطيب المتنبي

كان أبو الطيب امرأً قَوْلَهُ
صاحب نفس كبيرة شرفت
كان هو الشاعر الذي انتشرت
أوجدت للشعر دولة عظمت
من كل معنًى أغرَّ مؤتلق
وربما رقَّ لفظه فبدت
وربما لم تبُن مقاصده

* * *

فسائلن عن قريضه حلباً
خلد ذكراً لسيف دولتها
فأعجب لسيف لم تبُلُ جدُّهُ
كم قطفت من زهوره خصله
أيام وشئى بمدحه خلله
وشاعر بالمديح قد صقله

* * *

لو حاز موسى مضاء عزمته
وهو الذي اجتازه ببيعمة
قد بات كافور من جراتها
إذ أعجزته بالسير عن طلب
فسلُّ به النيل يوم ناقته
تغمرت منه وانتحت جبله
ما تاه في التيه عندما دخله
تحمل منه الهمام لا التكله
على الموابي بمهجة وجله
لا خيله تختشي ولا إبله
تغمرت منه وانتحت جبله

كيف أتى مصر كالعقاب لكي يبلغ فيها بشعره أمله
وكيف أحيا بالمدح أسودها ثم وشيكا بهجوه قتله

* * *

في شعره حكمة مهذبة وروعة بالذكاء مشتعله
ونغمة بالشعور صادحة وصنعة بالفنون متصله
قدرته في البيان واسعة يتيه فيها السؤال والسأله
إذا المعاني بشعره ازدحمت ما ربكت في انتقائها حيلا
كم شاعرٍ قد قفى له أثرا وناقدر راح يبتغي زللا
فأخفقوا عاجزين عن درك لبعض ما كُله تيسر له

* * *

قل لابن عبّاد: أي منقصة من أجلها كنت مكثرا عدله؟!
أشعره؟ والعصور ما برحت تسعى بكل استجادة قبله
لكنما رمت من مدائحه ما لم تكن سالكا له سبله
طماعة منك غير واعية وهي لعمري حماقة وبله

* * *

أكبر من أكبر القريض به وأكبر القاتلين من قتله
يا قاتليه لو تعلمون به إذن قتلتكم نفوسكم بدله
قتلتكم الشعر والإجادة والإبداع فيه يا الأئم القتله
لستم بذال القتل من بني أسد بل أنتم فيه من بني ورله

* * *

لم يزل الدهر بعد مقتله يضرب في الشعر للورى مثله
كان له عند كل باهية بدائع في القريض مرتجله
يصطاد في الشعر كل شاردة من القوافي بفتنة عجله
فلا تقسه بغيره أدبا! وهل تقاس المعطار بالنفله؟!

* * *

كم شاعر يدعي وليس له من شعره غير منطق الحجله

أبو الطيب المتنبي

إن أنت أنشدت شعره هزواً
ورب شعر إذا لفظت به
الشعر معنًى ألفاظه حسنت
وكلما قصرت قوالبه
حُسْنُ المعاني بلفظها شوه
رجعت منه كأكل البصله
من هجنة فيه تأنف السبله
فنسقت في بلاغة جملة
عن حسن معناه أوسعت خالله
كحسن حسناء ثوبها سمله

* * *

من ذاق في الشعر طعم معجزه
أيُّ مقام هيجاؤه احتدمت
كان عزيزاً يأبى الهوان فما
فأحمد الشاعر الذي أكله
بالشعر يوماً ولم يكن بطله
قرَّ عليه يوماً ولا قبله

إلى الجواهري

ما أوحته إليّ قصيدتك

كتب المرحوم الشاعر معروف الرصافي تحت هذا العنوان القصيدة التالية؛ ردًا على قصيدة للشاعر الأستاذ محمد مهدي الجواهري نشرها في صحيفة «البلاد» وقدم بين يديها هذه الكلمة:

أردنا عندما ناغينا الشاعر العربي العظيم الأستاذ «الرصافي»، أن يكون لنا شرف تذكره وهو في عزلة الموحشة، فكان لنا إلى جانب ذلك أيضًا شرف ابتعاث شاعريته الفذة، التي حالت حوائل المرض والانعزال و«النقمة»، دون تمتع المعجبين في شتى الأقطار العربية بنتاجها.

أما وقد هزنا الأسد الرابض الضائق ذرعًا بعرينه، المنطوي على نفسه ألمًا وغضبًا وكبرياء، فليكن لنا شرف الاستماع إلى زئيره.

فليضم المتغنون بشعر الأستاذ «الرصافي» هذه الترنيمة الجديدة إلى مجموعاتهم، وهذه «الزفرة» الحارة إلى السلسلة «المقطوعة» من أخواتها. وسلام على «عيش» الشاعر المتمرس «بالأولى» والمتفكر في «الأخرى» هذا العيش «الحر الطليق» التي خانتنا كلمه «وفضلت» في التعبير عن مقدار إعجابنا «بطبيعته» واحترامًا لنا ولصاحبه.

وسلام على الشعر «الرصافي» المتفتق نوره عن الذهن المشبوب، والفكر الحائر، والنفس الجائشة والمستجيثة بفيضها، والقلب المرتج بالعواطف الزاخرة والزاج بصاحبه في شتى المهاي.

ذلك «الشعر» الرصافي الذي أعجبنا؛ لأنه لم يكن «حبلاً» مرغمة «أوائله أن تلتقي والأواخر» وذلك «العيش» الرصافي بماضيه وحاضره المتراكم بعضه فوق بعض بدون «تنسيق» ولا اختيار بل بوحى من الفكر الروحي و«الصراحة» و«الجرأة» ومحض الطبيعة، وفي بعض الفترات منه بوحى الضرورة، وهذه هي عناصر عظمته عندنا، وفي هذا جواب «الاستعاب الرقيق».

قال الرصافي:

بك الشعر لا بِي أصبح اليوم زاهرا
فأنت الذي أَلَقْتُ مقاليد أمرها
إذا قلت شعراً قلتَه في بداعةٍ
وإن أنت أطلقت النفوس من الأسي
بلغت من الإبداع أرفع ذرورةٍ
وإنك أرقى الناطقين تكلماً
إذا شيء ظلم قُمتَ للظلم رادعاً
وقد كنت قبل اليوم مثلك شاعرا
إليه القوافي شَرِّدًا ونوافرا
فكان به المعنى بديعاً وباهرا
بإنشاده يوماً أسرت المشاعرا
هوى النجم عنها صاغراً متقاصرا
بحقٍّ وأنقى الساكتين ضمائرا
وإن سيء حق قمت للحق ناصرا

* * *

لئن كنت تنمى للجواهر نسبة
نماك أب بالعلم شيد مجده
ومد من الآداب فيه سُرَادِقًا
فلا عجب أن تنظم الشعر رائعاً
وقد تبصر الماء الزُّلال به القذى
لقد كنت تحلو بالبيان جواهر
وخلد منه في الزمان المآثرا
وأكثر فيه للبنين المفاخرا
أنيق المعاني زاهي اللفظ زاهرا
فتغمض عنه بالغباء النواظرا

ما أوحته إليّ قصيدتك

ألا إنني رغم انتباهي لم أزل
تحدثت عن ماضٍ حديثاً مُجمِماً
وما كنتُ مختاراً كما أنت قائلٌ
ولا اخترت عيشاً بين بين موسطاً
بأكثر ما قد قلتَه أنت حائراً
كأنك فيه لم تكن لي عاذراً
من العيش ما لولاه ما كنت شاعرا
ولا كنت فيما أبتغيه مشاورا

ولكن هي الأقدار تجري بغير ما
فتجعل ليث الغاب يتلو فُرانقًا
وكم أقدرت من كان في الناس عاجزًا
وما المرء إلا مجبرٌ في حياته
وُلدنا وعشنا ثم متنا وكلُّنا
يريد الفتى جريًا على الأمر قاسرا
وتترك صقر الجو يخشى القنابرا
كما أعجزت من كان في الناس قادرا
وإن ظنَّ فيها أنه كان خائرا^١
على غير إذنٍ جاء بل جاء دامرا

* * *

أجل كنت من تَيْنِ الحياتين آخذًا
وجادلني قوم بغيرِ دراية
وَأَسْأَلُ فامننُ بالجواب تفضُّلاً
أأنت الذي فضّلت عيشًا معيّنًا
فصرت به في القوم شاعر مجدهم
إذا كان هذا هكذا منك واقعًا
علامَ إذن تشكو وشكوك كلها
ومن ذا الذي قد عاش في الناس راضيًا
ولو كان عيش الناس وفق اختيارهم
بواحدة تأبى القسيم المغامرا
ولست أبالي ذا العناد المكابرا
سؤالاً عن استعتابي الخُلِّ صادرا
لنفسك حتى كنت فيه المُشاورا
إذا قلت شعراً جئت بالشعر ساحرا؟!
فقد كنت في حسن اختيارك ماهرا
كشكواي تُدمي بالبكاء المحاجرا؟!
ومن ذا الذي قد عاش في الناس شاكرا؟!
لما كنت تلقى شاكياً أو مخاطرا

* * *

لحَا الله دنيا كلنا من جرّائها
ونحن مدى الأيام نشكو بعيشنا
نرى واحداً يقتاد ألفاً لعيشه
ولو وُزنت أعمالهم باقتداره
فما عاش في مَحياه عيشًا مرفّهًا
شقاء على كر الجديدين آخذ
نخوض الرزايا راكبين الضرائرا
فسادَ نظام يجعل الكد بائرا
وينظر للألف المسخّر ساخرا
لكان بها كينونة الصّفر شاعرا
من الناس إلا من تحيّل ماكرا
بأعناقنا إلا القليل المماكرا

* * *

وما الشعر بالحبل الذي قد ذكرته
ولكنه بَرَق تموّج دائرا

^١ خائراً: مختاراً.

ديوان معروف الرّصافي

فما الشعر إلا من بروقٍ دوائر تدور أواليها لتلقى الأواخرا
إذا لمعت فوق الطروس فإنها تردُّ إلى التبر المذاب المحابرا
وقد برأ الله العوالم كلها دوائر فيها حار من ظل فاكرا
نرى كل شيء عائدًا نحو بدئه إذا نحن حكّمنا النهى والبصائرا

* * *

إذن لم أكن في عالم الشعر مُرغمًا لأوّلِهِ حتّى يلاقِي آخرا
نعم كنت في تلك الأماديح شاتمًا زمانًا يوالي كل من كان جائرا
وكنت بذاك المدح للمدح هاجيًا وكنت بذاك الشعر للشعر حاقرا
إذا الدر أمسى كالسّخاب مُحقّرًا شددت به للنابحات سواجرا^٢
وما العار في هذا عليّ وإنما على من أضاعوا مجدهم والمفاخرا

^٢ السّخاب: قلادة تتخذ من قَرْنفَلٍ. السواجر: جمع ساجور، وهو القلادة التي توضع في عنق الكلب.

الثناء المخلد

أبا الماجدِ النجلِ النجيبِ محمدِ
به الناسِ إلا شاكرًا غير مُجْتَدِ
وأكرمَ من يُنمى لأكرمِ مَحْتَدِ
وأرسله نورًا به الناسِ تهتدي
وأطلق فيه الحمد غير مقيد
بصوت كصوت البلبل المتغرد
قوافيه يومًا أسكتت كل منشد
ومثلك أهل للثناء المخلد
وشوهدت بالإحسان في خير مشهد
بمسعك زادت جِدَّة المتجدد

ألا بلغوا عني رسالة مُنْشِدِ
رسالة من لا يُنشد الشعر مادحًا
ألا يا ابن عيسى بنِ الهمامِ محمد
سأقرض في شكري لك الشعر خالدًا
أقيدَه بالمدح والمدح مطلق
أرجع في الإنشاد أنغامَ لحنه
وأجعله شعرًا إذا ما تنوشدت
عليك به أثني ثناءً مخلدًا
وقفَت من العلياء في [خير] موقف
وجددتَ مجدًا غير بالٍ وإنما

* * *

فيا لك في الإنعام من مُتفقد
نويهم ومن يختصُّهم بالتودد
وأقعدهم للشرِّ في كل مرصد
يروح به ذو الاحتكار ويغتدي

تفقدتني في العيشة الضنك منعمًا
على حين قد أنسى الرجال زمانهم
ومدَّ أحابيل القطيعة بينهم
وأغلى غلاء في المعيشة فاحشًا

الرصاصي يقرّظ كتابًا للزهاوي

هذا كتابٌ فيه يتّضح الهدى
يا ظلمة الشبهات والكذب انجلي
علنا فتسطع للعقول حقائق
فلقد بدا للحق «فجر صادق»

الأفول المشرق

عَبْرًا فِي أَفُولِهَا كَالشَّمْسِ
فِي دِيَاجِيرِ طَالِعِ مَنْحُوسِ
تَنْجَلِي مِنْهُ دَاجِيَاتِ النُّحُوسِ
ثُمَّ دَسُوا جِسْمَكُمْ فِي الرَّمُوسِ
هَرَبُوا الْمَالَ مِنْ جِبَاةِ الْمَكُوسِ؟
فَعَلَّةُ السُّوءِ مِنْهُ بِالتَّفْلِيسِ
أَنْ تَكُونُوا فِي رِبْقَةِ الْإِنْكَلِيسِ
خَالِيَاتِ الْقُرُونِ فِي إِبْلِيسِ
شَائِعِ الذِّكْرِ فِي بَطُونِ الطَّرُوسِ

أَيُّهَا الْأَنْجَمُ الَّتِي قَدْ رَأَيْنَا
إِنَّ هَذَا الْأَفُولَ كَانَ شَرُوقًا
وَسَيَّأَتِي مِنْهُ الزَّمَانُ بِسَعْدِ
شَنْقُوكُمْ لَيْلًا عَلَى غَيْرِ مَهْلٍ
أَفْكَانُوا فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ تَجْرًا
هَكَذَا الْخَائِفِ الْمَرِيبِ يُوَارِي
شَنْقُوكُمْ لِأَنَّكُمْ قَدْ أَبَيْتُمْ
فَاسْتَحَقُّوا اللَّعْنَ الَّذِي كَرَّرْتَهُ
سَيِّدِيمِ الزَّمَانِ لَعْنًا عَلَيْهِمْ

* * *

فِي أَسَى مِنْ مَصَابِهَا مَحْسُوسِ
بِأَجَلِ التَّمَجِيدِ وَالتَّقْدِيسِ
هُوَ تَعْظِيمُكُمْ بِخَفْضِ الرِّءُوسِ
شَرَفِ خَالِدِ لَكُمْ قَدَمُوسِ
يَوْمَ بؤْسِ كَحْرَبِ يَوْمِ الْبَسُوسِ
وَتَلَطَّى بِحَرِّ نَارِ الْمَجُوسِ
فِي شُحُوبِ وَغَبْرَةِ وَعَبُوسِ
مِثْلَ تِيَارِ لَجَّةِ الْقَامُوسِ

أَيُّهَا الْأَنْجَمُ الَّتِي تَرَكْتَنَا
فِي سَبِيلِ الْأَوْطَانِ مَتَّمْ فَفَزْتُمْ
وَسَتَبْقَى الذِّكْرَى لَكُمْ ذَاتَ رَمَزِ
وَسَيَجْرِي احْتِرَامُكُمْ فِي مَجَارِي
إِنَّ يَوْمًا بِهِ نَعَيْتُمْ إِلَيْنَا
قَدْ حَكَاهَا طَوْلًا وَشَوْمًا وَبَغْيًا
فِيهِ أَبَدَتْ مَنَا الْوُجُوهَ كُلَّوْحًا
إِذْ سَكْنَا وَفِي الْقُلُوبِ ارْتِجَاجِ

ديوان معروف الرّصافي

وأطلنا عن الكلام سكوتًا
ووجمنا حزنًا وربّ وجوم
معربًا عن نشيجنا المهموس
يتأتى من صاحبات النفوس
برأت ذمة المروءة منا
إن نسي يوم شنقكم أو تُنُوسي

وقال هذه الأبيات مترجمًا

فيك يا أغلوطة الفكر حار فكري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
رجعت حسرى وما وقعت لا على عين ولا أثر

* * *

يا واحد الذات كثير السعي ومن تجلى ظاهرًا واحتجب
أنت لدى الفرس تسمى خذا أنت تسمى الله عند العرب

* * *

أول أنت ولكن أول ما له في سانح الفكر ابتداء
آخر أنت ولكن آخر ما له في راجح الحجر انتهاء

إلى طه الراوي

بأبيّ سلام أم بأبي تحية
فإنك أهل للتحيات كلها
إليك أزين اليوم بدءَ خطابي
وما أنا فيما أدّعي بمُحابٍ

إلى البطل عبد الكريم الريفي

أعبد الكريم وأنت البطل
لئن قرَّ سيفك في غمده
ولكنما دهرنا قُلبُ
تهزُّ البطولة أعطافها
سيخلد ذكرك في الناهضين
وفيك الرجاء وفيك الأمل
فما ذاك من خورٍ أو ملل
وأيامه من قديم دُول
إذا ما جعلناك فيها المثل
وتثني عليك الظُّبا والأسل

بداعة لا خلاعة

مثلت في دلالتها عريانَه
حيث طارحتها الغرام ببيتِ
فكأنني وقد نظرت لمعرا
وتجلى خيالها في المرايا
فتأملت في تقاطيع جسم
ظلتُ أرنو إلى الجمال بعين
فأريها من الغرام فنوناً
ثم أسلمت للمليحة قلباً
وتقحمت موهج الحب حتى

فأرثني محاسناً فتانه
بالمرايا قد زوّقوا جدرانها
ها من النور مبصر أسطوانه
حاكياً من جمالها أعيانه
جعل الحسن كله عنوانه
تشتهيه وتتقي هجرانه
وتريني من حسنها أفنانه
أوجب الحسن بالهوى إيمانه
أصبح القلب صالحاً معمعانه

* * *

هاك من وصفها وإن شئت فاعذر
هي غمّازة اللحاظ لعوبُ
بضة نعمة لميس رداحُ
ناهد النودلين محطوطة المتد
خذلة ساقها مهفهفة الخصب
ذات وجه كأنه بدر تمّ
لو رآها كسرى الملوك لخلّى
عقصت شعرها وقد زينته

أو قلّم مُملك الغرام عنانه
ذات دلّ ظريفة لحنانه
غادة أحورية بهنانه
نين خود رجراجة وركانه
ر كعاب براقه سيفانه
وقوام كأنه خوط باناه
ملكه تاركاً لها إيوانه
بحلّى من نقارس مزدانه

فحكى شعرها على الرأس تاجًا
وتدلى قرط بسالفتيها
فحكى قرطها بقرب المحيا
وأظلت جبينها وهو صبح
فكأن الجبين باقة نسريـ
من تدلت من فوقها ريحانه
وحكت في جلالها خاقانه
رصعت فيه ماسة بجمانه
زهرة الجو قارنت زبرقانه
طرة غيهبية فينانه
من تدلت من فوقها ريحانه

* * *

وقفت لي عريانة فتقدم
فتمشيت تخلعا وتثنت
ثم صدت فأدبرت عن دلال
ولقد راعني وزاد فؤادي
ركبا كعثبا عضوًا مصوصًا
مشرف السطح رابئًا ذا انتصاب
قد حكى كومة من اللؤلؤ الرطـ
نعمة العيش أترفته وأخلت
عطر الريح قد تشممت منه
وشربت الرحيق وهو تجاهي
لو رآه العنين يومًا لأمسي
ت إليها بذلة واستكانه
وتلوت كأنها خيزرانه
ثم عادت فأقبلت عن مجانه
ولها ما رأيت تحت المثانه
ناشزًا ذا بضاضة ورزانه
حامي الجوب ضنكه، ريبانه
ب وإن كان فائقًا أثمانه
أسكتيه من الأذى وعجانه
إذ تشممته شذا أقحوانه
جاثم فاتخذته فنجانه
مبرءًا من رخاوة وعنانه

* * *

شغفتني تلك المليحة حتى
سلست في انقيادها بعد أن قد
فدعتني إلى الكفاح بغمز
وغدت في تجضم واعتلاج
واضعًا فاي [فوق] فيها وكل
فغدت في ارتهازها تتلگًا
ثم قالت وقد نوت مقلتها
أطعن الطاعنين للضاد، من بالضـ
علمتني بكر الهوى وعوانه
أظهرت لي تمنعًا وحصانه
كررته من عينها الوسنانه
بشفاه وردية غيسانه
قد أمص الضجيع منه لسانه
بكلام لا تستتم بيانه
وشكت من فؤادها خفقانه
عاد قد أنطق الإله لسانه

في دار النقيب

أما وقد طلع الرجا ء يشع أنوار السرور
في دار مولانا النقيب ب بوجه مولانا الأمير
فاذهب لشأنك أيها الـ يأس المخيم في الصدور

* * *

ماذا يريد المرجفو ن بكل بهتان وزور
من بعد ما بدت المنى للقوم باسمة الثغور
في دار مولانا النقيب ب بوجه مولانا الأمير؟

* * *

ماذا يخاف القوم من ميل الزعانف للنفور؟
بعد اقتران النيّريـ ن الساطعين بكل نور
في دار مولانا النقيب ب ووجه مولانا الأمير

* * *

مد النقيب إلى الأمير ر يد المعاضد والنصير
فَلْيَخُزْ كل مشاغب في القوم يلهج بالشورور
وليحي مولانا النقيب حياة مولانا الأمير

الحق المغتصب

مما كتبه إلى العلامة عبد الوهاب النائب بعد عودته إلى النيابة بالمحكمة الشرعية:

قد أخذ الحق من الغاصب
عالم بغداد وإنسانها
تختلف الناس إلى فضله
في علمه ووعظه تهتدي
والبشرُ قد لاحت أساريه
ودار شرع الله مزدانة
بعد ظلام دامس أرخوا
وعاد ممنوحًا إلى النائب
والمنهل العذب إلى الشارب
من زاهب منهم ومن آيب
وتقتدي في رأيه الثاقب
بجبهة المطلوب والطالب
في جانب تزهو إلى جانب
أشرق شرع الله بالنائب

تحت تصوير النائب

مذ غاب عنا في المنية شخصه
تلقى المعاني المعربات عن العلا
فانظر إلى تصويره من غائب
في صورة لأبي الحسين النائب

إلى عبد الكريم العلاف

ومحبّ ذي أدبٍ أتى مستنشداً
فأجبتّه عبد الكريم محلق
فلكم سمعت له قوافي جمّة
شعرًا أنوّه فيه بالعلّافِ
من شعره بقوادم وخوافي
كانت لعمر الله خير قوافي

الحريقات

وقفة عند شراغان^١

لرصافي عدة قصائد قالها في وصف ما شاهد في الآستانة من الحريق الذي يكثر وقوعه في تلك المدينة، فرأينا أن نثبت تلك القصائد هنا على حدة تحت عنوان الحريقيات، فمنها القصيدة الآتية:

أصبحتُ أعذِلُ نوابًا وأعيانا	عَدْلًا كَنارٍ تَلَطَّتْ فِي «شِراغانا»
قصر أطلَّ على البسفور مرتفعًا	إليه يشخَّصُ طَرْفُ العَقلِ حيرانا
ذو زخرفٍ يُّهْجُ العَيْنَ التي نظرت	حتى تراه لها نورًا وإنسانا
راقت مبانيه إتقانًا وهندسة	مستوقفًا صُنْعَها من مَرَّ عجلانا
كلُّ القصور عبيد وهو سيِّدها	إذ كان أكرمها صنْعًا وبنيانا
يمشي المهندسُ فيه وهو ينظرُه	مشيَ المقيدِ يستقصيه إمعانا
يضمُّ كَفِّيه للإبطين منبهرًا	مقلِّبًا في الأعالِي منه أجفانا
عرش به تعرف الناس الجلالة إذ	لاح الجمال على مبناه ألوانا
لو كان عرشًا لبلقيس لما خضعت	للأمر حين أتاه من سليمانا

^١ «شراغان»: قصر ملوكي على ضفة البسفور في الآستانة، بناه السلطان عبد العزيز، وهو أعظم القصور فخامة في الآستانة، وأدقها صنعة وأبهجها منظرًا، ولما أعلن الدستور العثماني اتخذ مجلسًا للنواب، وكان ذلك بسعي من أحمد رضا رئيس مجلس النواب، فشب به حريق، وكان الرصافي في الآستانة، فقال هذه القصيدة.

فيه الحوادث أمست وهي ناطقة
فلو رأيتَ وقد شبَّ الحريقُ به
رأيتَ ملكًا كبيرًا ثمَّ محترقًا
طالتُ به ألسُنُ للنارِ تلحسُه
بألسنِ دلّعتها فيه نيرانا^٢
والريحُ تصفّقُ للنيرانِ أردانا
يذيبُ منه لهيبُ النارِ عقيانا^٣
لحسًا يدكُ قوَى البنيانِ إيهانا^٤

* * *

يا دُرَّةً في ضفافِ البحرِ ضيّعها
كم قد أضاعت بوجه البحرِ مشرقةً
يا أيها القصرُ مذ أمسيتَ محترقًا
لم يُبقِ منك لهيبُ النارِ باقيةً
معاولٌ من شواظِ النارِ هادمة
قمنا أمامك والنيرانِ صائلةً
كم هدّةً لك بين النارِ تفرزنا
يهتزُّ فيك لهيبٌ، حين نبصره
فأنت تملأُ صدرَ الجوّ أدخنةً
ما أشرف القومَ لو كانت مدامعهم
ويلٌ لمرّتئسٍ قد قام مجتهدًا
حق إذا كنتَ للنوَابِ مجتمعاً
للنّارِ فيك حسيّسٌ كنتَ أحسبُه
أشكو إلى الله قلبًا لا يطاوعني
يا قوم إنَّ بصدرِ الشعرِ موجدة
ما بال نوَابنا أمسوا نوابنا
أما كفى أنهم لم يعملوا عملاً
هم يطلبون قصورًا ينعمون بها
قوم وكان بها البسفورُ مزدانا
ورصّعت من رءوسِ الهضبِ تيجانا
أبكِيتَ في البحرِ أسماگًا وحيطانا
ولا لدي القومِ أبقى عنك سلوانا
يا للعجائبِ كالأطوادِ جدرانا
تدكُ منك على الأركانِ أركاننا
حتى نخالك منها صرت بركاننا
نهتزُّ بالحزنِ أرواحًا وأبدانا
ونحن نملأُ صدرَ الأرضِ أحزاننا
مطافئًا لك تجري الدمعُ غدّراننا!
يسعى بجعلك للنوَابِ ديوانا
بانّت عواقبُ ذاك السعيِ خسرانا
ضحكًا على من بسوءِ الرأيِ أبكانا
ألا أكون على الأوطانِ غيرانا
لا يستطيع لها سترًا وكتماننا
إن لا يبالون مكروهًا تغشّاننا؟!
حتى أرادوا اجتماعًا في شراغاننا!
ونحن نطلب للأوطانِ عمراننا

^٢ أي أن الحوادث قد نطقت في هذا بألسن النيران.

^٣ العقيان: الذهب الخالص.

^٤ إيهانًا: أي إضعافًا.

ليس الجلوس بهو القصر مفخرة
قد ضيَعوا الحزم حتى إنهم ندموا
يعيش ذو الحزم مسرورًا ومغتبطًا
وأحزم الناس مَنْ إن نام بات له
أين الطريق إلى العلياء نسلكتها؟
لا الشعبُ يخلع أثوابَ الخمول ولا
الناس تسعى لدينا نحن نهملها
لمن هم اليوم أشقى الناس أوطانا
على الذي كان منهم بعدما كانا
وتارك الحزم لا ينفك ندمانا
طرفٌ على حدثان الدهر يقظانا
فإننا لم نزل يا قوم عميانا
نوابه يلبسون الصدق قمصانا
ما أسعد الناس في الدنيا وأشقانا!

أم الطفل في مشهد الحريق^١

ما للديارِ تراءى وَهِيَ أَطْلالُ
كانت بها السُّمْرَاتُ الخضر زاهية
ما بالها وهي أنقاضٌ مبعثرة
هل هددَ بنيانها من فوق صاعقةٌ
بل قد عففتها ولم تترك بها أثرًا
شبَّ الحريقُ بها ليلًا مشيدة
أثارت النار في أطرافها رهجًا
حتى حكّت مغرِّكًا خرَّت بساحته
دار السعادة أمست من تحرقها
هل خَفَّ بالقوم عنها اليوم ترحالُ؟!
واليوم لا سَمْر فيها ولا ضال^٢
تغبر فيهن أبكار وأصال؟
أو هددَ بنيانها من تحت زلزالُ؟!
ريحٌ لها من لهيب النار أذيال
فما أتى الصبح إلا وهي أطلال
من الدخان كأنَّ النار أبطل^٣
صرعى، بيوت وأموال وأمال
دار الشقاءِ وقد ضاقت بها الحال

^١ هذه القصيدة قيلت في حريق شب في حارة الفاتح من مدينة إسطنبول، وهو حريق هائل اجتاح عدة حارات، فتركها قاعًا صفصفاً.

^٢ السمرات: جمع سمرة بفتح فضم، واحدة السمر: وهو شجر من العضاة. والضال: شجر من الدر، والمراد به هنا مطلق الشجر.

^٣ الرهج: غبار الحرب.

ترنو إلى البحر ترجو نَقْعَ غُلَّتْهَا^٤ لحظَّ المهجَّرَ إذ يبدو له الآل^٤
تُهاَل كالرمل بالنيران أدورها حتى تكاد لها الأرواح تَنهاَل
يا رِيحُ مهلاً فلا تذري الرماد بها إن الرماد الذي تذرين أموال

* * *

قد رحْتُ لِلْحَيِّ مذعورًا أَيْمُمُهُ ولي عن الزُّمَرِ الباكين تَسأل
وفي العِراضِ ديارُ القومِ خاويَّةُ وفي الشوارعِ نِسوان وأطفال^٥
جلسن والشمس فوق الرأسِ دانية وللغبارِ بعُرْضِ الحيِّ تجوال
ولا خِمار فيرددن الغبار به ولا يقيهنَّ حرَّ الشمسِ سِرْبِال
حتى وقفتُ وقلبي كُلُّه جزعُ وأدمعي لَجَجٌ طورًا وأوشال^٦

* * *

ما أنسَ لا أنسَ أمَّ الطفلِ قائلَّةُ وفوق وجنتها للدمع تهطال:
إنني تجرَّدت من دنياي حاسرةً ما لي سوى طفلي الباكي بها مال
أي امرئٍ بعد هذا اليومِ نِي جَدَّة يعولني حيث لا زوج ولا آل^٧
أودى الحريقِ بدارٍ كنت أسكنها وكنت من بعضها للقوقت أكتال^٨
واليوم أصبحت لا دارٌ ولا وَرْزُ أوي إليه ولا عمٌّ ولا خال
إن الحريقُ خبت نيرانه ومضت وما خبَّت في فؤادي منه أوجالُ
يا ربِّ رُحماك إنني اليومِ عاجزةُ عما دَهَى وبظهري منه أثقال
يا ربِّ قد ضقت نزعًا بالحياةِ فما أدري، حنانيك ربي! كيف أحتال؟!
وعندما قد شجاني من مقالتها لفظ يقطِّعه في البين إعوال

^٤ المهجر: الذي يسير في الهاجرة، وهي نصف النهار في القيظ خاصة، وتكون شديدة الحر. والآل: السراب.

^٥ العراض: جمع عرصة وهي ساحة الدار، أو كل بقعة ليس فيها بناء.

^٦ الأوشال: جمع وشل، وهو الماء القليل.

^٧ نِي جدة: نبي غنى. الآل: هنا بمعنى الأهل.

^٨ أي: ذهب الحريق بدار كنت أسكن في بعضها، وأكري الناس بعضها الآخر، فأكتال بكرائها قوتي.

دنوت منها قليلاً وهي باكيةٌ
حتى وقفت وإيناساً لوحشتها
وقلت: يا أختُ لا تستيئي سي جزعاً
أتجزعين ابتئاساً بين أظهرنا
ما لي أراك بعين اليأس باكيةً
ألسيت من أمةٍ أيدي الرجال بها
حتى لقد أصبحوا أبناءً واحدةٍ
مستعصمين بحبلٍ من أخوتهم
أمسى التعاضد كالحصن الحصين له
فاستبشري اليوم فيما مس من ظمياً
وإن حقدك عول في مساكنهم

ومن بكأها بقلبي هاج بلبال
حنيتُ رأسي وحنيتُ الرأس إجلال
فإنما الدهر إديار وإقبال
وكلنا عنك لليبأساء حمال
كأن أمرك عند القوم إهمال
قد فُكَّ عنهنَّ بالدستور أغلال؟!
في المُرزئاتِ وهم في الحكم أشكال^٩
يسمو بهم للعلا فضل وإفضال
إذا تصادم بالأهوال أهوال
بأن وردك عند القوم سلسال
وما هم بأداء الحقُّ بخال

* * *

تلك التي قد شجنتني في مقالتيها
فهل يُصدِّق قومي ما ظننت بهم
فالمجد يدرك مرماه البعيد فتى
وأكثر المال حمداً ما يعان به
يا قوم هذي سبيل العُرفِ واضحةٌ
ومن تكُّ الحال فيها لا تساعده

وكم لها في نساءِ الحيِّ أمثال
حتى تقومَ لهم في المجد أفعال؟
رحبُ الذراعين طلق الكف مفضال
من عضهم من نيوب الدهر إقلال
فليمضِ فيها بكم وخذ وإرقال^{١٠}
«فليُسعد النطقُ إن لم تسعِدِ الحالُ»^{١١}

^٩ وهم في الحكم أشكال: أي متشاكلون متساوون.

^{١٠} الوخد والإرقال: كل منهما ضرب من ضروب مشي الإبل.

^{١١} هذا عجز بيت للمتنبي قاله مادحاً، وصدوره: «لا خيَلُ عندك تُهديها ولا مالُ».

ثالثة الأثافي

قالها في الحريق الكبير الذي حدث في حارة إسحاق باشا من مدينة إسطنبول، وكان ثالث حريق كبير حدث هناك في العهد الأخير.

قعدت بقارعة الطريق تنوحُ
تبكي وقد ضحك الحريق بدارها
ضحيت وقد قلص الظلال فوجهها
جرَّ الحريقُ على الديار ذيولَه
ولقد وقفتُ حيالها ومدامعي
فغدا يُلقنني الأسى من عينها
يا أيِّمًا أجرى الغداة دموعها
لا تهلكي جَزَعًا فإنَّ بيوتنا
أعليك أنت تضييق كل ديارنا
فالقني عزاءك فالحيأة وإن أرت
والطفلُ يجذب رُدنها ويصيحُ
كالبرق يضحك في الدجى ويلوح
للشمس في وجناته تلويح
فَجَرِي لذلك دمُعها المسفوحُ
تسخُو سوى أن العزاء شحيح
لحظ برِّقراقِ الدموع سَبوح
بيت بجائحة الحريق مَجوح^١
ما للمُلمِّ بأهلها تسريحُ
هذي وأكثرها ديار فيح؟!^٢
بعض السرور فكلها تتريح^٣

^١ الأيم: المرأة التي فقدت زوجها. والجائحة: النازلة العظيمة التي تجتاح المال؛ أي تستأصله. ومجوح:

أي مستأصل، وهو صفة لبيت، والمراد أنها أبكاهما اجتياح الحريق ببيتها.

^٢ فيح: جمع فيحاء؛ أي واسعة.

^٣ قنى: حفظ وادخر. والتتريح: الأحزان.

قف بالديار فقد أناخ بها البلى
نزل الحريق بها فشتت شملها
بكر الشواظ بها يُنضضُ ألسناً
نشر اللّهب على البيوت ملاءةً
فتعبست منه السماء وأمطرت
وعلا الدخان على البيوت سحائباً
أما الشرار فكان وبلاً مُنبئاً
والشمس قد كُسفت بجون دخانه
وانظر فقد قرعت بهنّ السوح^٤
فغدت عراضاً وهي قبلُ صروح
من هول مطلعها تذوب الروح^٥
حمرأً تصفق جانبيها الريح
ناراً وقد أخذ اللهب يسبح
برق المهالك بينهن لمُوح
نوباً برائحة الدمار تفوح
وبدت عليها سفعة وكلوح^٦

* * *

يا قومُ ساء مصيركم فإلى متى
هلاً أخذتم للخطوب عتاتها
هذا الحريق وكل يوم ناره
فالنار ما برحت تفوه بألسن
لم تم تعوا ما قلن قبلُ مكرراً
نتمم إلى نوب الزمان فإن أتت
وأهمكم أدنى الأمور وفاتكم
كم في الحوادث من نذير قد أتى
أما الحريقان اللذان تقدما
قد أنذراكم بالخراب وأنبأاً
لا تسمعون لما يقول نصيح
كي لا يكون لها بكم تبريح؟!
تغدو عليكم تارةً وتروح
ذُربٍ وإن كلامها لفصيح
أوما كفاكم ذلك التصريح؟!
قتمتم كما يتململ المذبوح
نظر إلى الأمر القصي طموح
فيكم بأسرار الزمان يبوح!
فكلاهما شق لكم وسطيح^٧
أن التراخي في الأمور قبيح

^٤ السوح: جمع الساحة، وقرعت السوح: أي خلت من الغاشية.

^٥ بكر الشواظ: أي أتى بكرة، والشواظ لهب النار الذي لا دخان فيه. وينضض ألسناً: يحركها، والمراد بألسن الشواظ: ما يمتد في شكل اللسان.

^٦ بجون دخانه: أي بدخانه الأسود. وقوله سفعة: أي لون أسود مشرب بحمرة. وكلوح: أي عبوس واكفهرار.

^٧ شق بدون أل: علم لكاهن من كهان العرب، كان في أيام سطيح، وسطيح: لقب كاهن اليمن المشهور، واسمه ربيع الذئبي.

ثالثة الأثافي

عَجَبِي إِلى تَلِكِ المِصائِبِ كِيفِ قَدِ
سُرْعانِ ما تَنْسَوْنَ عُظْمَ مِصابِكُمْ
نُسيْتُ وِلْمِ تَبْرأَ لَهِنِ جِروحِ؟!
وَلَوْ أَنَّ شُقَّةَ مِنتِهاهِ طَروحِ^٨
خَلَسَ وَقوسِ الحادِثاتِ ضِروحِ^٩
لا تَسْتَنيموا لِلزِمانِ فِأَخْذِهِ

^٨ شقة منتهاه: أي مسافة منتهاه. وطروح: بعيدة.
^٩ قوس ضروح: أي شديدة الدفع والحفز للسهم.

الجزء الثاني

المراثي

واصديقاه!

قالها وهو في الأستانة، عندما بلغه منعى صديقه الشيخ محي الدين الخياط في بيروت.

تفكّرت في كنه الحياة فلم أكن
وكم بتُّ فيها أخبط الليل رامياً
فلا أهتدي من أمرها لمقدّم
على أنني مهما تقدمت نحوها
وهبها كما قد قيل أحلام نائم
تأملت آثار الحياة فلم يُلح
سوى أنني أنستُ شعلةً قابس^١
فبينما سناها يُبهج العين لامعاً
فما هي إلا خبوةٌ ترتمي بها
كذلك محي الدين إذ غاله الردى
عليك العفا بيروتُ هل لك بعدما
فتى كانَ ركناً فيك للعلم والحجا

لأزدادَ إلا حيرة في تفكّري
إليها بلحظ الطارق المتنور
ولا أنتهي من أمرها لمؤخر
رجعت رجوع الناكص المتقهقر
أما في بني الدنيا لها من معبرٍ
لعينيّ منها وجه ذاك المؤثر
توقد في مُستنّ هُوْجاء صرصر^٢
أتته كقطع الليل هموةٌ معصر^٢
إلى ظلماتٍ صُبْحها غيرُ مُسفر
فأطفا منه نيراً أي نيراً!
قضى فيك محي الدين من متصبرٍ!
وغرّ القوافي والكلام المحبر

^١ القابس: طالب النار. والمستن: الطريق الواضح. والهوجاء: الريح العاصفة. والصرصر: الشدید البرد أو الشدید الهبوب.

^٢ الهموة: الغبار تثيره في الجو. والمعصر: الريح ذات الأعاصير.

فقدنا به صَلَّتَ الجبين مهذبًا كريم سجايا النفس عَفَّ المؤزَّر
لقد عاش شيخًا في العلوم مقدَّمًا فما ضرَّه أن مات غيرَ معمرٍ
وما مات من أبقى له طيبُ الثنا لدى الناس من بادٍ ومن متحضرٍ
نعاه لي الناعي فكان كأنه لدى نعيه أهوى إليَّ بخنجرٍ
ولو لم يكن شديَّ الحيازيمِ دونه خَرَّتْ كما خرَّ الصريعُ لمنخرٍ^٣
خليليَّ عوجا بي على قبر ماجد ببيروت يحوي كل فضل ومفخر
قفنا نحتقر دمعَ العيون تجلَّة لمن فيه من ذاك الجليل الموقر
ونندبُ في مَلحوده المجد والعُلا ونسقيه غيثَ الدمع من كل محجرٍ
عسانا بذا نقضي له بعض حقه وإن حلَّ أن يُقضى بدمعٍ محقَّر

^٣ الحيازيم: جمع حيزوم، وهو وسط الصدر.

^٤ الملحود: المدفون؛ أي الميت. ومحجر العين: العظم الدائر بها.

في الملكوت الأعلى

قالها وهو في الآستانة يرثي بها محمود شوكت باشا الصدر الأعظم، الذي قتله أناس من حزب المخالفين.

تقبلني فوق الفراش يدُ الوجدِ
ويقدح في قلبي الأسي واري الزند
ترقرقُ فيها الدمع منفرطاً العقد
يدبُ دبيب السم في العظم والجلد:^١
أليس قميص الليل عنه بمنقذ؟!
كما أسلت السيف الجراز من الغمد^٢
لدى العالم العلوي في ربوة الخلد

لقد بتُّ مطروف النواظرِ بالسُّهد
تساورني رَقشاء من لاعبي الجوى
فأرقبُ تغويرَ النجوم بمقليةٍ
أقول، وفرعُ الليل أسحم والأسي
متى يُسفر الصبح الذي أنا راقبُ
إلى أن رأيت الفجر قد لاح خيطه
فما أنا إلا غفوة فخيالة

* * *

من النور مرفوع الدعائم ممتدُّ
وَخَطُّوا على حافاته سورة الرعدِ
قناديل خُصِرُ تستنير بلا وقد
به فوق كرسيِّ الجلالة والمجد

رأيت كأنني قمت حول سُرادقِ
أقاموا لواء الحمد فوق عماده
وقد أشرقت ملء السموات حوله
وقد لاح لي محمود شوكت جالساً

^١ الفرع: الشعر. والأسحم: الأسود.

^٢ الجراز: السيف القطاع.

وفي يده سيفٌ أجيدٌ صقاله
وفي الرأس تاج بالثناء مرصّع
وقد جلّلته بردة سندسيّة
وبين يديه زهرة من ملائِك
تهنئه بالفوز طورًا وتارة
وقد قام من حول السرادق موكب

على أنه من صنعة الله لا الهند
فُوِّقَ جبين مشرق بسنا الحمَد
ومن تحتها درع إلهيّة السرد
مجنّحة الأيدي غرانقة مُرد^٣
تحويه بالغض الطريّ من الورد
عظيم به اصطفت ألوف من الجند

* * *

فلما رأيته واقفًا بحياله
أشار أن أقرب يا رصافي ما لنا
فجئت وجسمي قد تغشّته رجفة
فقمتم لديه وانحنيت أمامه
فقال: لقد آنست إذ جئت إننا
ولا ترتجف هونٌ عليك فإنما
فأبلغ تحياتي إلى الوطن الذي
وقل لبنية: إنني لست حاقداً
وإنني لمّا أن تمثلت قائماً
طلبت لهم عفواً من الله سابغاً
ويا ربّ إنني قد قصدت نجاحهم
وإنني لأرجو منك مرحمةً لهم
فإنني أرى موتي بخدمة أمّتي
ألا فاهداهم يا رب للمجد والعلا
وقال: أتدري من هم الجند؟ إنهم
ألم ترهم داميين حتى كأنما

وقد كنت بين الجند معتزلاً وحدي
نراك وحيداً قد وقفت على بُعد؟!
كما يرجف المقرور من شدة البرد
فقبلت بالتعظيم حاشية البرد
عهدناك في زوارنا مخلص الودّ
نزلت قرين الأمن في منزل السعد
سعيّت إلى إعلائه بانذاً جهدي
عليهم فمثلي لا يميل إلى الحقد
بديوان ذي العرش الذي جل عن ند
وقلت له: يا ربّ لا تخزهم بعدي
فحقق لهم يا رب ما كان من قصدي
وإن قتلوني ظالمين على عمّد
حياة به طعم الشهادة كالشهد
فما من مُضِلٌّ في الأنام لمن تهدي
من استشهدوا في حرب أعدائنا اللدّ
تسربل كلُّ لبدّة الأسد الورد؟^٤

^٣ الغرانقة: جمع غرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل.

^٤ الورد: الأحمر من الأسود.

فسوف بحول الله أرأب صدعهم
وأذّن في الحيّ المؤذّن غُدوةً
فقمّت وبني من خشية الله رعدة
وأصبحت لم أملك بوادرَ عبيرة
سأبكي وأستبكي الجيوش على فتّى
فتّى كان في أفق الوزارة كوكبًا
وقد كان في وجه الخطوب تبسُّمًا
وما مات محمودُ الخصال وإنما
لئن عُيِّبَتْ عَنَّا مَرائيه في الثرى
وما هو إلا السيف قد كان مُضَلَّتًا
سيبقى له الذكر الجميل مُؤَبَّدًا

وأغزو العدا فيهم على الضمّر الجرد^٥
فأيقظني التكبيرُ من سنّة الرقد
وأحسست من رؤياي بردًا على كبدي
تخطُّ سطور الدمع في صفحة الخدّ
فقدناه فقد الغيث في الزّمن الصلدا^٦
به في دجى الخطب الخلافة تستهدي
إذا عبست يومًا بأوجُها الرُّبْد^٧
تنقل من هذا الفناء إلى الخلد
فما عُيِّبَتْ عَنَّا معاليه في اللحد
على الدهر وهو اليوم قد قرّ في الغمد
تمرُّ به الأيام حالية الأيدي

^٥ رأب الصدع: أصلحه. والضمّر: الخيل اللطيفة الجسم الهضيمة البطن. والجرد: القليلة الشعر.

^٦ الصلدا: الصلب الأملس، أو الأرض التي لا تنبت شيئًا، ويعني به الزمن الشديد.

^٧ الربد: جمع أربد، وهو المغبر اللون.

وا محمداه!

قيلت في رثاء محمد فوزي باشا العظم وكان موته فجأة.

أَيُّ حَظِّ دَهَى رُبُوعِ الشَّامِ
وَبَأَيِّ الأَسَى رَمَتَهَا اللَّيَالِي
إِنْ تَكُنْ أَفْجَعْتُ بِشَهْمِ بَنِي العَظْمِ
ذَلِكَ المَاجِدُ الَّذِي أَدْرَكَ المَجْدَ
سَلَّ دَمَشَقًا تَجْبِكُ عَنِ شَيْمٍ فِيهِ
قَدْ بَكَتَهُ شَجْوًا بِسَبْعِ عَيُونٍ
وَرَثْتَهُ بِالأَسْنِ مِنْ مَعَالِي
فَقَدْتِ مِنْ مُحَمَّدٍ خَيْرَ نَدْبٍ
وَعَدْتِ تَشْتَكِي إِلَى بَرَدَاهَا
لَهْفَ نَفْسِي عَلَيْهِ سَاعَةَ أودَى
إِنْ قَلْبِي قَدْ اسْتَطِيرَ بِمَنْعَاهُ
فَكَأَنَّ النَّاعِي لَدَى النَّعِيِّ أَهْوَى

يَوْمَ أَمَسْتَ تَبْكِي بِطَرْفِ دَامٍ
فَاكْتَسَتْ لِلْحَدَادِ ثَوْبَ ظَلَامٍ
مِمَّا فَاعِظِمُ بِخَطْبِهَا المِتْرَامِي!
سَدَّ بِأَيْدٍ إِلَى العِلَاءِ سَوَامٍ
مَهْ تَعَالَتْ عَنِ أَنْ تَزْنَ بِذَامٍ^١
فِي رَبَاهَا تَجُودُ بِالتَّسْجَامِ
مَهْ حَدَادٌ تَفْلُ حَدَّ الحَسَامِ
ذَائِدٌ عَنِ حِيَاضِهَا وَمُحَامٍ^٢
مِنْ أَحَرِّ الأَسَى أَحَرُّ الأَوَامِ^٣
مِنْ كَرِيمِ عَمْرِ الرِّدَاءِ هُمَامٍ
اِخْتِطَافًا بِمَنْسَرِ الأَلَامِ
نَحْوَ قَلْبِي بِمُرْهَفِ صَمِصَامٍ

^١ تَزْنَُ بِشَيْءٍ: تَتَّهَمُ بِهِ. وَالذَّامُ: العَيْبُ.

^٢ النَّدْبُ: السَّرِيعُ إِلَى الفَضَائِلِ.

^٣ الأَوَامُ: العَطْشُ.

قد فقدنا منه خلائق تحكي زَهَرَ الروضُ غِبًّا صَوَّبَ الغمامُ^٤
يا أبا خالدٍ وما هذه الدنـ يا بدارٍ معدَّةً لمُقام
إن تكن هالكًا فكم لك ذكر في العُلا خالد مدى الأيام
خطفُتْ عمرك المنون اختلاسًا كاختلاس المنى يدُ الأوهام
فكأنَّ المنونَ خافت على تلـ لك المعالي ذبولها بالسقام
فلذا أحرزتك غصًّا طريًّا وكذاكم يكون موت الكرام
فسقى الله تربةً أنت فيها ثوبَ وطفاءٍ من غَوادٍ هَوامٍ^٥

^٤ غب: بعد وإثر. والصوب: المطر.

^٥ الوطفاء: السحابة المسترخية لكثرة مائها. والغوادي: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة. والهوامي:

جمع هامية، وهي المطرة.

واشيخاه!

لما رأيتَ مُنَاخَ القومِ أوحالا
صبحُ فشمَّرتَ للترحالِ أذبالا
بحيثَ تبصرنا للحقِ خُذالا
لسنا نوُكِّدُ بالأفعالِ أقوالا
في معشرِ صحبوا الأيامِ جهالا؟!
حتى أقارِبِكَ الأذنينِ والآلا
ولا أردتَ بها جاهًا ولا مالا
تهدي به من جميعِ الناسِ ضلَّالا
للمشكلاتِ بحسنِ الرأيِ حلَّالا
إذا تقسَّمَ فيها كانَ أجبالا
تقاذفَ الدرُّ في لُجِّيهِ مُنْهالا
نغصتَ بالحزنِ شهرَ العيدِ شوالا^١
هرَّزتَ عليَّ به الأيامِ عسَّالا^٢
أما القلوبُ فقدَ أجفلنَ إجفالا

أزمنتَ عنَّا إلى مولاكَ ترحالا
رأيتنا في ظلامٍ ليس يعقبُهُ
كرهتَ طولَ مُقامٍ بينَ أظهرنا
ولم ترقُ نفسكَ الدنيا ونحنُ بها
وكيف تحلو لذي علمِ إقامته
لذاك كنتَ اعتزلتَ القومَ منفردًا
وما ركنتَ إلى الدنيا وزُخرفها
لكن سلكتَ طريقَ العلمِ مجتهدًا
«محمودَ شكري» فقدنا منك حَبْرَ هُدَى
قد كنتَ للعلمِ في أوطاننا جبالًا
وبحرَ علمٍ إذا جاشتَ غواربُهُ
يا من بشوألٍ قد شالتَ نعمته
أعظمَ برزئِكَ في الأيامِ من حدِّثٍ
أمستَ لروعته الأبصارِ شاخصةً

^١ شالتَ نعمته: مات.

^٢ العسال: الرمح المهتز ليئًا.

وكل ميزان علم بالأسى شالا
 جئنا «أبو الهول» يشكو منه أهوالا
 وأوجس «الركن» من مَنعك زلزالا
 سَطرين للدمع في خَدَيْهِ قد سالا
 أقواله ضربت في العلم أمثالا
 كأنهم نضحوا فيهن جريالا
 لم نَقُصْ من حَقِّكَ المفروض مثقالا
 إلا علومًا أضاعت منك مفضالا
 يا أكرم الناس أعمامًا وأخوالا
 عن أوجه العلم أستاذًا وأسدالا
 أهلُ البسيطة أجيالًا فأجيالا
 دمع الأنام وإن يبكوك أحوالا
 وكن في سَبْرٍ جُرح الجهل أميالا^٣
 تهدي إلى العلم رُحالا وقفالا
 نحتُّها لك بعد الموت تمثالا
 ألا نرى لك بين الناس أنجالا
 قمنا لذكراك تعظيمًا وإجلالا
 وإن حملتُ من الأحزان أثقالا
 وأبكيَنَّك أبكارًا وأصالا
 بها اكتسيتُ من الآداب سربالا
 شفتُ من الجهل داء كان قتلاً^٤
 من علة الجهل أوجاعًا وأوجالا
 ولو ملأتُ عليك الدهر إعوالا
 شمسٌ وما ضاء بذر الليل أو لالا

طاشت حصة العلاما نُعيت لها
 إذا نُعيكُ وافي «مصر» منتشرا
 وإن أتى البيت «بيت الله» رُجَّ به
 أما «العراق» فأمسى «الرافدين» به
 بكى الورى فيك حَبْرًا لا مثيل له
 بَكوك حتى قد احمرَّت مدامعهم
 ولو لفظنا لك الأرواح من كمدٍ
 ولا نُخَصِّص في رزءٍ بتعزية
 فإن رُزك عمَّ الناس قاطبة
 شكرًا لأفلامك اللأى كشفت بها
 كتبين في العلم أسفارًا سيدرسها
 أمددتها بمدادٍ ليس يعقبه
 وكنت أنت نطاسي العلوم بها
 يا مطلعًا في سماء الفكر أنجمه
 لو أنني بلغت زهر النجوم يدي
 ما ضرَّ من بعد ما خلدت من كتبٍ
 إذا ذكرناك يومًا في محافلنا
 إنني أخفُ لدى ذكراك مضطربًا
 لأشكرنك «يا شكري» مدى عمري
 فأنت أنت الذي لقنتني حكماً
 أوجرتني من فنون العلم أدويةً
 فصحَّ عقلي وقبلاً كنتُ مشتكياً
 أنا المقصر عن نعماك أشكرها
 فاغفر عليك سلامُ الله ما طلعت

^٣ الأميال: جمع ميل بكسر الميم، وهو عويد صغير من زجاج يسبر به عمق الجرح.

^٤ أوجرتني: سقيتني.

في موقف الأسي

أما خشيت عليها من يد العطب
خلوًا من الدرس والطلاب والكتب
ولا لمنتابها في الدرس من أرب
لاقاك «محمودُ شكري» خفة الطرب
يُبدي الحفاوة خيرُ ابنٍ لخير أب
فانصبَّ مضطربٌ في جنب مضطرب
علّمتا هذه الأزمان والحقب
تكفيك أدمعُها السقيا من السحب
بل كلُّ من سادَ من صُيابة العرب^١
بل قد رزأت صميم المجد والحسب
بل عمَّ مبتعدًا من بعد مقترب
إلى الحجازِ إلى مصرٍ إلى حلبِ
حوادث الدهر فيه شرٌّ منقلب
فصار رأسًا و صار الرأسُ في الذنب
من كان يشرب رنق الماء بالعلب^٢

لمن تركت فنون العلم والأدب
نلك المدارس قد أوحشتها فعدت
ما إن تركت لها في العلم من وطّر
إن «الألوسي» محمودًا عرته لدن
فاهتنز لابن أبّ قبي قبره وغدا
بحرين في العلم عجّاجين قد ثويا
من فخر أزماننا في العلم أنهما
عليك «شكري» غدت شكري مدامعنا
ما كنت فخر «الألوسيين» وحدهم
ولا رزأت النهى والعلم وحدهما
ولم يخصّ الأسي دارًا نُعييت بها
من العراق إلى نجدٍ إلى يمن
لقد ترحلت في يوم بنا انقلبت
حتى تقدم ما في القوم من ذنب
وبات يحسو الطلا بالكأس من ذهب

^١ صيابة القوم: لبايهم وخيارهم.

^٢ الطلا: الخمر. ورنق الماء: الماء الكدر.

من عاش فيه دعا بالويل والحرب
 وتُطرب القومَ فيه رنةً الكذب
 لم يلقَ منه سوى المسطور في الكتب
 فيهم وهم بين نفاخٍ ومحتطب
 لكن تُراوغ بين الجدِّ واللعب
 تلقى القوارض فيها ذات مُصطخب
 ما شدَّ منها بهم عن حُطة الأدب
 كأنما الشتم مدعاة إلى الطرب
 كما استلذ بحكِّ الجلد ذو جرب
 كأنهم غيرُ مخلوقين من عصب
 كأنما القوم منجورون من خشب
 يذرفن منسكبًا في إثر منسكب
 وأي نفس لداعي الموت لم تُجب!
 من فاته السيف منهم مات بالوصب
 لكنهنَّ بلا نقع ولا لجب
 فيه قضى ربنا للداء بالغلب
 ينجون من عَطِبٍ إلا إلى عَطِبٍ^٢
 من سدَّ كلَّ طريق عنه للهرب
 دمُ الحياة بلا أمٍّ له وأب
 ولا يُعيش بلا كدٍّ ولا تعب
 عن أن يُزجَّ بنا في قبضة الشجب^٤
 لكل أمرٍ بها لا بد من سبب

فاذهب نجوتَ رعاك الله من زمن
 تستثقل الصدقَ فيه أذنُ سامعه
 والخير قد ضاع حتى إنَّ طالبه
 أما الرِّجال فنارُ الشرِّ مُوقدة
 أفعالهم لم تكن جدًّا ولا لعبًا
 إذا جلست إليهم في مجالسهم
 أرقى الصحائف فيما عندهم أدبا
 قد يطربون لشمِّ المرء صاحبه
 ويستلذون من قومٍ سبابهم
 لا يغضبون لأمرٍ عمَّ باطله
 وليس تندى من النكراء أوجههم
 يا راحلاً ترك الآماق سائلةً
 أجبت داعيَ موتٍ حمٍّ عن قدر
 والناس أسرى المنايا في حياتهم
 هذي جيوش الردى في الناس زاحفة
 بين الدواء وبين الداء معتركُ
 والناس فيه عتاد للحمام فلا
 وإن للموت أسبابًا يسببها
 لا يخلق الله مخلوقًا يجول به
 ولا يُميتُ بلا داء ولا سقم
 وليس ذلك من عجز بخالقنا
 لكنه جعل الدنيا مسببة

* * *

^٢ الحمام: الموت. والعطب: الهلاك.

^٤ الشجب: الهلاك.

يا من إذا ما ذكرناه نقوم له
لقد تركت يتيم العلم منتحبًا
إن كنت في هذه الدنيا لمنقطعًا
أعرضت عنها مُشيحًا غير ملتفت
أولعت بالعلم تنميه وتجمعه
فعلت دهرًا حليف العلم تنصره
على الأخمص أو نجثو على الركب^٥
والكُتب راثيةً منه لمنتحب
إليه عن كل موروث ومكتسب
إلى المناصب فيها أو إلى الرتب
منذ الشباب وما أولعت بالنشب^٦
حتى قضيت فقيد العلم والأدب

^٥ الأخمص: جمع أخمص، وهو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

^٦ النشب: العقار أو المال الأصيل.

ذكرى الرجال من حياة الأهم

أراد شبان فلسطين أن يقيموا حفلة تأبين لروحي بك الخالدي، وكان الرصافي إذ ذاك في القدس، فطلب إليه أحد أصدقائه، وهو عادل أفندي جابر، أن ينشدهم في الحفلة المذكورة ما يناسب المقام، فقال هذه القصيدة:

لأبْلته من كَرِّ الليالي مَبَارِدُ
جوارحنا هذي الدماءُ الجواسد؟^١
وغايتها هانت علينا الشدائد
من الموت إذ كلُّ على الموت وارد
فيقرب من آجالنا المتباعدُ
إذا حييت بالذكر منه المحامد
وليس له من بعده الدهر حامدُ
فلم يتفقد من الناس فاقد
فأثار روعي الخالديَّ حَوالد
وأبي حُسام ما لهُ الدهر غامد!
على أنه في الألمعيَّة واحد
مناقب غُرِّ دونهن الفراقد^٢

لعمرك لو كانت حديدًا جسومنا
فكيف ولسنا بالحديد وإنما
إذا ما افتكرنا في الحياة وأصلها
وماذا عسى يُجدي التوجُّع والأسى
تُعين منايانا علينا بحزننا
وليس برزءٍ أن نرى المرءَ هالكًا
بل الرزءُ كل الرزءِ أن يذهب الفتى
ويُدفن في التراب اسمه دَفنَ جسمه
ومن تَفنَ بعد الموت آثار مجده
فتى أغمدت منه المنون مهتدًا
يُعدُّ بألفٍ من رجال زمانه
لقد بقيت للخالديين بعده

^١ الجواسد: الدماء اليابسة.

^٢ الفراقد: يقصد بها الفرقد، وهو نجم قريب من القطب يهتدى به.

وكم حَبِرتَ أقلامه من صحائفٍ
 نماه إلى المجد الصراع متمّمًا
 دعانا ابن جبرٍ أن نُلَمَّ بذكره
 فقمنا لذكرى مجده بعد موته
 ونستشهد الدنيا على حسناته
 وإنّي وإن لم أحظْ منه برؤيةٍ
 ألا يا ابن جبرٍ أنتَ أيقظتَ للعلا
 فقلت: اذكروا يا قومُ فضلَ رجالكم
 وسيروا على آثارهم واهتفوا بها
 ففي الغرب أمواتٌ أقيمتَ لذكرهم
 أعادلُ قد أنهضتَ للعلم جُنْمًا
 أقيمتَ لذكرى الخالديّ مَقامةً
 وجاهدتَ في إنهاض حيٍّ بميتٍ
 ذكرتَ مزاياه وذكّرتنا به
 فسعيك مشكور ورأيك صائبٌ
 بجيد العلا من دُرهن قلائد
 به فخره السيف الإلهي خالد
 لدى محفلٍ قد ضمنا وهو حاشد
 نباهي به أحياءنا ونماجد
 وقد كثرتَ فيها عليها الشواهد
 ليشهد لي من «عادل» فيه شاهد
 عواطف كانت وهي فينا رواقد
 ففي ذكر فضل الغابرين فوائد
 لينشطَ كسلانٌ وينهض قاعد
 تماثيل في كل البلاد أوابد^٣
 فأنتَ لنا في نهضة العلم قائد
 بها حسنتَ للقوم منك المقاصد
 فجهدك في إنهاض قومك جاهد
 وهل يذكر الأمجاد إلا الأمجاد
 وفعلك محمود وسيرك راشد

^٣ الأوابد: الغرائب التي لا مثيل لها.

ذكري الشيخ الخالصي

أنشدها في الحفلة التأسيسية التي أقامها نادي الإصلاح في بغداد عند منعي الشيخ محمد مهدي الخالصي، أحد علماء الجعفرية بعدما أخرجته الحكومة العراقية إلى إيران.

أدهق الدهر بالمنية كاسه
كيف يُرجى طول البقاء لحيي
تَعَسْتَ هذه الحياة وإن كا
قَصَرَتْهَا يدُ الحوادث لكن
غير أن السعيد من بانَ عنها
والذي عاش مؤنسًا وحشة النا
مثل ذاك الشيخ الذي مذُفقدنا
نُعيَ الخالصيُّ فارتجَّت الأند
هو ذاك «المهدي» أحرز سَبْقًا
هو ذاك الحَبْرُ الذي كان للشر
كان في الدين آية الله أفنى الـ
أفق العلم قد بدا مكفهرًا
إن بكاه الدين الحنيفيُّ شجواً

من قديم وطافَ يسقي أناسه^١
جعل الله عمره أنفاسه
نت لعمري خلايةً حسَّاسه!
قد أطالت بها على الحييِّ باسه
وهو مستثمر بها أغراسه
سِ مُمَدًّا بفضله إيناسه
هُ فقدنا به النهي والكياسه
فاس حزنًا مضرِّجًا بحماسه
حين أجرى إلى الهدى أفراسه
ع مقيمًا دليكه وقياسه
عمر فيه رعايةً وحراسه
عندما أطفأ الردى نبراسه
فلأن كان ركنه وأساسه

^١ أدهق الكأس: أي ملأها.

كان رذءاً للحق مرتدي التقى سوى فكانت طول الحياة لباسه^٢
ولقد كان في العلوم إماماً حيث فيها انتهت إليه الرياسة

* * *

أنا أبكي عليه من جهة العلـ م وأغضي عن خوضه في السياسة
لا لأنني أراه فيها ملوماً بل لأنني أعيب فعل السّاسة
ليس في هذه الهنّات السياسيـ ات إلا ما ينجلي عن خساسة
قد أبت هذه السياسة إلا أن تكون الغشّاشة الدّسّاسه
رأيت أن تصافح الناس إلا بيدٍ من خديعةٍ فرّاسه
كلما مسّت الأمور بكفّ لوثتها بما بها من نجاسه
إنّ في هذه السياسة سهماً جعل الله باطلاً قرطاسه
ما تعاطى غير الخداع «غلايسـ تون» فيها كلّاً، ولا «دلكاسه»
إن أحسّت بقوةٍ من خصيم كانت الظبي لم يُزايِلُ كِناسه^٣
وهي إن أنست من الخصم ضعفاً كانت الليث مبرزاً أضراسه
لو أردنا إفاضة في هجاها لكتبنا لكم به كراسه
فلهذا أجلُّ عنها رجالاً شغلتهم علومهم بالدراسه

* * *

رحم الله شيخنا إنه كا ن بعيداً عما تريد السياسة
ليت تلك العلوم قد شغلته عن أمور لا تُشتري بنُحاسه
أنتجت بعده فأوحش أرضاً في العراقيين عُودت إيناسه
فقضى بعد نأيه عن أناسٍ طلبوا علمه وراموا اقتباسه

* * *

أيها القوم إن هذا لرأيي في فقيدي لم تشهدوا إرماسه^٤

^٢ الرذء: المناصر والعون.

^٣ الخصيم: الخصم. وكناس الظبي: بيته في أصل شجرة ونحوها.

^٤ الإرماس: الدفن.

ذكري الشيخ الخالصي

فإذا كنت قد أصبت وإلا
لست بالشاعر الذي يرسل اللف
أنا لا أبتغي من اللفظ إلا
إنما غايتي من الشعر معني
فانبذوا ما أقوله في الكناسه
ظ جُزافا لكي يصيب جناسه
ما جرى في سهولة وسلاسه
واضح يأمن اللبيب التباسه

على ضريح النائب

هي دنيا بقاؤها مستحيلٌ
ليس يُغني فيها عن المرء شيئاً
إنما الراحة المُرجّاة فيها
كل شيء في أهلها مستعار
ليس ما قد جنى علينا بها الإفـ
رتلت ألسن اللذائذ أي الـ
فرجونا طول البقاء وإن كُنـ
وطلبنا تعلّة لنفوس
قد قتلت الحياة خُبراً ولكن
كل ما قيل في الحياة ظنونٌ
قد وهمنا في البدء منها وأما
إن يك العقل في دجى الشك نجماً
ويك إنَّ المعقول ما صحَّ عندي
كلنا خابطون في ظلماتٍ

فَلْيَقِفْ عند حدّه التأميل
شرف باذخ ومجد أثيل
تعبٌ والهدى بها تضليل
من سواه وكل حالٍ تحول
قار أدهى مما جنى التمويل^١
عيش فيها فغرنا الترتيل
أعلمنا بأننا سنزول
ليس يُشفي غليلها التعليل
أنا منها بحيرتي مقتول
جرّها في افتكارنا التخيل
منتهاها فستره مسدول
فخفيّ مثل السها وضيئل^٢
فمتى صح عندك المنقول
حائر بائر بهن الدليل

^١ التمويل: الغنى.

^٢ السها: كوكب خفي من بنات نعل الصغرى.

موت نومٌ تحت الثرى لا يطول
 قد بناها من الزمان عمول^٣
 عامرات ما دام فيها النزول
 فيسمّى بالموت ذاك الرحيل
 موحشات بعد الردى وطُلول
 بسقوط البلى لهن مُثول^٤
 خَلْفُ صالح وذكر جميل
 رُفسالت من الدموع سيول
 قدر فَرَدًا ومات وهو جليل
 ما لمنعاه في الخطوب مَثيل
 حش منها حُزونها والسهول^٥
 فكثير الأسى عليه قليل
 فلهذا بكت عليه الفحول
 رجل باعُه بهنَّ طويل
 هو فيها المدرّس المسئول
 وعلوم إلى الكتاب تئول
 وبكاه التفسير والتأويل
 جُدَّ عنها بموته التنويل
 ر حُسامًا فذكره مسلول
 فمعاليه ما بهنَّ فلول^٦
 فَذَرَاها بفضلِه مأهول^٧

إِنَّ حَبَّ الحِياة أُوهم أن الـ
 إنما هذه الجسوم مَبان
 نزلتها الأرواح حينًا فأضحت
 ثم لا بدَّ أن ترَحَّل عنها
 إنما هذه الجُسوم رسومٌ
 ما بِسِقْطِ اللّوى مَثُنَّ ولكن
 ليس يُسْلي الفتى عن الموت إلا
 مثلما مات شيخنا «النائب» الحَبُّ
 إن «عبد الوهاب» عاش جليل الـ
 وقضى عادم المثيل فأمسى
 حادث أظلمت به الأرض واستو
 إن أسينا أسى عليه كثيرًا
 كان فحل الفحول علمًا وفضلًا
 كيف لا تجزع العلوم لمنعَى
 قد بكته مدارس عامرات
 وبكاه الكتاب ذو الذكر شجواً
 وبكته أيُّ به محكمات
 وبكته أراملٌ ويتامى
 إن يكن أعمد الردى منه في القبـ
 أو رمى حدّه الردى بفلول
 أو خلت منه دُوره موحشات

^٣ العمول: المطبوع على العمل.

^٤ سقط اللوى: موضع، ويشير هنا إلى بيت امرئ القيس الذي ذكر فيه هذا الموضع.

^٥ الحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع.

^٦ الفلول: جمع فل، وهو الثلمة في الحد.

^٧ يقال: فلان في ذرا فلان؛ أي في ظله.

كيف لا؟! هؤلاء أبناؤه الغرُّ
كلهم في العلاء مثل أبيه
هل تطيب الفروع في الناس إلا
عذرة يا أبا الحسين بماذا
وإذا طاشت الحلوم بيوم
أُخرسَ الشعْرُ يوم منعك لكن
وإذا أسكت المقاويلَ حزنٌ
فصلتك المنون عنا ولكن
لك في العلم رتبةٌ لن تُسامى
ومحياً صلتُ الجبين طليق
ويدُّ يجمع الشفاهَ عليها
إنما قد ذكرت بعض مزا
وإذا القول لم يفده اختصار

شهودٌ بما أقول عُدول
حسن الخلق فاضل بُهلول^٨
حيث طابت فيهم لهن أصول
نصفُ الرُّزءِ وهو رزء جليل
فيه فارقتنا فماذا نقول؟
ناب عنه تأوُّهٌ وعويل
ترجمت عنهم دموع تسييل
أنت بالحمد والثنا موصول
فاضل القوم عندها مفضول
يتللا كأنه قنديل
كلما قد مددتها التقبيل
ياك وإلا فشرهن يطول
لم يفده الإطناب والتفصيل

^٨ البهلول: السيد الجامع لكل خير.

دموع الصداقة

أنشدت في المأتم الذي أقيم في بغداد للمرحوم عبد المجيد بك الشاوي.

عبدُ المجيد قضى فَوْأَ أسفا
قم وَيكَ نَبِكَ المجدَ والشرفا
فلقد فقدنا سيِّدَ الظرفا
لم يتخذ غيرَ العلا هَدَفا
خبر طويتُ حشاي مرتجفا
ألقي بوجه حياتنا كلفا
فالدمع من عيني إذا وَكفا
صاحبت منه أختا نَهَى ووفى
فسمعتُ من أقواله طُرفا
ساء المكارمَ كونه دِنفا
الداء أذهب نفسه تَلفا
بيروت منه أحرزت شرفا

ماذا يُفيد تأسُفي جَزَعاً؟!
وَنُعَزُّ طَرْفَ العين ما دمعا
وأجلُّ ساعٍ للعلاء سعى
عن قوس همته إذا نَزَعاً^١
من هوله وسقطت مُنصديعا
أو عاد لون العيش ممتقعا^٢
جَلَلٌ وإن أرسلته دفعا^٣
يزهو النديُّ به إذا اجتمعا
ورأيتُ من أفعاله بدعا
يشكو إلى عُوَّاده الوجعا
بُذِلَ الدواء له فما نجعا
لَمَا عدت لِعلاه مُضطجعا

^١ نزع: رمى بالسهم.

^٢ الكلف: جمع كلفة، وهي اغترار لون الوجه.

^٣ وكف الدمع: سال قليلاً قليلاً.

لكنما قلب العراق هفا حزناً عليه إذ به فُجعا
وكفى بسعدون له خلفا لفعاله في المجد مُتبعاً
يمشي على آثاره الخطفى ويقوم بالأعباء مضطلعاً

* * *

«عبدُ المجيد» قضى فوا حرباً ماذا يرد إليّ وا حربي؟!
إن الرزايا قد قضت عجباً مما رُزئنا من ذوي الحسبِ
رزءٌ أثار الحزن ملتهباً في كل قلب أي ملتهب
وأسال غرب الدمع منسكباً من كل عين إثر منسكب
وأمرٌ حلو العيش فانقلباً بمحاوليه شر منقلب
فبكاه من بغداد مُنتحباً في جانبيها كل ذي أدب
يا راحلاً بالداء مغترباً يبغي الشفاء له من الوصب
أوتيت فضلاً في النهى عجباً يأتي من الآراء بالعجب
كم كنت تكشف فيه محتجباً وتنال أقصى الأمر من كذب
فبنيت مجداً منك مكتسباً من بعد آخر غير مكتسب
وبك العروبة قد زهت نسباً يُزهي بغبطة كل ذي نسب
قد كنت من عريّة عصباً والحسُّ مصدره من العصب
إنا فقدنا الظرف والأدباً وفقدت يا سعدون خير أب
يا أكرم المتهذبين أبا صبراً لفقدك أكرم العرب
إذ كنت أنت لمثله عَقباً أكرمٌ بمثلك أنت من عَقب

هلم نبك

فقد قضى من بهذا كان مُتَّصِفا
كمثل قطر الغواذي رِقَّةً وَصفا
بالخير إلا رآه فوق ما وصفا
فتت مصيبتهم أكبادنا أسفا
بدر التمام بأعلى أفقهم خُسفا
كالرمح دُق على الصفواء فانقصفا^١
لما رأوه مجداً يطلب الترفا
قد سال فاكتسح الآمال واجترفا
ومدّوا من دواهيهم له كِففاً^٢
وكان يبني له من سعيه رصفا
إن عطل الموت منه الكف والكتفا
بأنهم قد أصابوا المجد والشرفا
كمغرق اليم بعد الانتفاخ طفا
لكان أسقط منها فوقهم كسفا

هلم نبك النُّهى والعلم والشرفا
هلم نبك الذي كانت شمائله
هلم نبك الذي لم يغلُ واصفه
عطا الخطيب الذي آل الخطيب به
نبكي لمبكاهم حزناً بحيث نرى
قد فاجأته المنايا وهو معتدل
قامت بحساده الأطماع هائجة
فعارضوه بسيل من مكايدهم
وعرقلوا بدعاويهم مساعيه
فظلَّ يرُسف في مسعاه مرتطمًا
حتى قضى راسبًا في مكرهم غرقًا
وبعدما قتلوه هكذا علموا
والمرء تظهر بعد الموت قيمته
لو عجل الله للحساد لعنته

^١ الصفواء: الحجر الصلد الضخم.

^٢ الكفف: جمع كفة، وهي حبال الصائد وشبكته.

لكن يؤخّرها عنهم إلى أجلٍ
هم جاوزوا العدل والإنصاف في رجلٍ
فَتَى رزئناه بالأخطار مضطلعًا
لمّا رمى عن قسيّ الرأي مجتهدًا
ما شبَّ إلا على التّقوى وكان له
مهذب الطبع عفُّ النفس ذو خلقٍ
إذا تصوّرت في يوم خلأئقه
وإن نظرت بإمعانٍ مساعيه
بيناه يدرك من دنياه زهرتها
أعظم به طودَ مجدِّ طال طائله
قد شرّفت بقعةَ الجيليِّ حفرته
يُخزي به كل من قد جار واعتسفا
ما كان قطُّ عن الإنصاف منحرفا
بالمجد مشتملاً بالفضل ملتحفا
لم يتخذ غير أسباب العلا هدفا
قلب سليم بحب الخير قد شغفا
قد شابه الورد مشمومًا ومقتطفًا
فقد تصوّرت منها روضةً أنفا^٣
فقد نظرت بعيني رأسك الشرفا
إن جاءه الموت يمشي نحوه الخطفَى^٤
فكيف في ساعة بالموت قد نسفا!
كما ضريح عليّ شرّف النجفا

^٣ الروضة الأنف: الجديدة النبات لم يرها أحد.

^٤ الخطفَى: مشية سريعة.

دمعة على صديق

قالها في رثاء صديقه الحميم عبد الوهاب المحمد أغا.

فَلِلَّهِ مِنْ ماضٍ إِلَى رَبِّهِ حُرٌّ
له عندنا آثار أخلاقه الغُرُّ
نديم له ذكراه بالحمد والشكر
نجله في السر منا وفي الجهر
فأمسى الأسي فينا له مالى الصدر
فننشق من تذكراها أطيب النشر
ونفزع من بعد البكاء إلى الصبر
وإن كان منك الشخص غيب في القبر
تحدثنا عمًا أهم من الأمر
إلى الجدِّ تُغري بالحقيقة من تغري
فتطرب من ذكر الحقيقة في شعري
بذكراك بعد الطيِّ متصل النشر
مدى العمر نصب العين في سانح الفكر
فلا فرق عندي بين شخصك والذكر
وأنظم شعري في رثائك من درِّ
وإن كان لا يُقضى بنظم ولا نثر

مضى عبدٌ وهَّابِ الهبات لربِّه
مضى وهو محمود الخصال مخلِّقًا
مضى وله في كل قلب مكانةٌ
كذلك كنا معه قبل وفاته
وما زادنا إلا أسي بفراقه
إذا ما ذكرناه تفوح خلَّاه
ونلجأ عند الإدِّكار إلى البكا
أخا سالم ما زلت عندي سالمًا
تمثلك الذكرى لعيني جالسًا
وتمزح طورًا ثم تنصاع ذاهبًا
فتغضب أحيانًا وتطرب تارة
طواك الردى عني وشخصك لم يزل
فما أنت ميتًا إذ خيالك سانح
ولا عجب، إن الحياة خيالة
سأنثر دمعي فيك نثر لآلي
لعلِّي بذا أقضي إخاءك حقه

ميتة البطل الأكبر

أنشدت في دار المرحوم عبد المحسن بك السعدون في اليوم الثالث من انتحاره.

هكذا يُدرك في الدنيا الكمالُ
هكذا يشرف موت المبتغي
من كعبد المحسن الشهم الذي
ما بعبد المحسن السعدون إذ
بل رأى أوطانه يُرهقها
فانتضى الهمة كي ينقذها
مارس الأحوال حتى إنه
أعمل الرأي وقد جادله
خذلوه فاغتدت آراؤه
كم غدا ينصحهم حتى إذا
ورأى أن الذي يرجوه من
جاد للأوطان منه بدمٍ
والفتى الحر له في موته

هكذا في موتها تحيا الرجالُ
شرفاً ليس إذا ريم ينال
حفه بالموت عزُّ وجلال؟!
رام قتلَ النفس مَسُّ أو خيال
من بني الغرب انتدابٌ واحتلال
كانتضاء السيف ما فيه كلال
شاب في إصلاحها منه القَذال^١
فيه بعض القوم واشتد الجدال
كسهم كسرت منها النصال
راء أن الداء في القوم عُضال^٢
طلب استقلالهم شيء محال
لسوى أوطانه ليس يُسال
سَعَةٌ إن ضاق بالنفس المجال

^١ القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.

^٢ راء: رأى.

إنه لما أرادت نفسه
ميتة الأبطال فيها شممٌ
نال بالموت حياةً ما لها
هو حيٌّ أبد الدهر فما
إن يكن قد زایل القوم فما
أو يكن عن أعين القوم اختفى
وإذا التاريخ أجرى ذكره
فاندبوا يا قوم منه بطلاً
وأقيموا عاليًا تمثاله
واقصدوا مرقده حَجًّا فلا
واتركوا الغرب وأهليه ولا
وعلى أنفسكم فاتكلوا
فالمواعيد التي قد وعدوا
كلما قال لنا ساستهم
هكذا كونوا وإلا فاعلموا

ميتة حمراء ما فيها اعتدال
طأطأت من دونه الشم الجبال
أبد الدهر فناء وزوال
ضره من هذه الدنيا انتقال
لمساعيه عن القوم زيال
فله في أنفـس القوم خيال
أخذ التاريخ بالفخر اختيال
هو للأبطال حُسن وجمال
فهو للأوطان عز وجلال
غرو إن شدت لمتواه الرجال
تسمعوا منهم إلى ما قد يقال
خاب من فيه على الغير اتكال
كلها منهم خداع واحتيال
نقضت أقوالهم منهم فعال
أنما استقلالكم شيء محال

منظر الرافدين

شب الأسي في قلوب الشعب مُستعرا
يوم به كل عين غيرٌ مبصرة
يوم به البرق رجّ الرافدين أسي
فلو ترى القوم قاموا في ضفافهما
خلت العراقين خديّ ثاكل وهما

يوم ابنُ سعدون عبد المحسن انتحرا
إذ كان إنسانها في الدمع منغمرا
غداة أدّى إلى أقصاهما الخبرا
واستنزفوا من شئون الدمع ما غزرا
سَطران للدمع في الخدين قد سَطرا

الشعر والدمع

بالأمر يُمعن في تدبيره النظرا
كما قد انهلَّ فيه الدمع منتثرا
وبالقوافي بكت في يومه الشعرا
والدمع قد قرَّح الأَجفان منحدرًا
كلاهما حَكيا في يومه الدررا
تسابقا في انسجام عندما انهمرا
والدمع من هذه الأوطان بلَّ ثرى

لِلَّهِ يوم فقدنا فيه مُضطلعًا
يوم قد انهلَّ فيه الشعر منتظماً
فبالدموع بكت في يومه شَيْعُ
فالشعر قد قرَّط الأسماع مندْفِقًا
والدمع والشعر ممَّن قد بكى بهما
كلاهما انسجما حتى كأنهما
فالشعر من هذه الأكباد بلَّ صدَى

أبو علي وعزائمه

لو رام بالعزم دحرَ الجيش لاندحرا
سهلاً ولكنه صعب إذا زخرا^٢
بكالنسيم جرى في روضةٍ عطراءُ
بكالعواصف هبَّت تقلع الشجرا
من الأجانِب ما قد عمه ضررا
بالعزم متشخَّحًا بالحزم مؤتذرا
وفي الأمانِي ما يستوجب السهرا
والشعب كان لما يرجوه منتظرا
ولم يجد عن بلوغ العز مُصطبِرا
لا تعرف الضعف في المرمى ولا الخورا
قد مات منها ولكن بعدها نُشرا
واليوم يحيا حياة تملأ العُصرا

أبو علي قويُّ في عزائمه
أخلاقه كالخضمِّ الرهو تحسبه
إذا أتاه شكِّي القوم قابله
ويهزم الجمع مجتثًا مكايده
لما رأى الوطن المحبوب محتِملاً
سعى لإنقاذه بالرأي مجتهدًا
كم بات سهران في تحقيق مُنيته
وكم سعى راجياً تخليصَ موطنه
حتى إذا لم يجدْ للأمر متَّسعًا
أرْمى مسدسه في صدره بيد
فيا لها رمية حمراء دامية
قد كان يحيا حياة غيرَ خالدةٍ

^٢ الخضم: البحر العظيم. والرهو: البحر الساكن.

^٤ الشكي: المشتكي.

عمن يساويه في الدهر الذي غبرا^٥
ولا وجدنا وزيرًا مثله انتحرا
في نفس كل فتى من غبطة أثرا
بها الطريق إلى استقلالنا ظهرا

لو نَقْتري صحفَ التاريخ نَسألها
لما رأينا كبيرًا مات ميتته
ما كان أشرفها من ميتة تركت
كنا نقاسي ضلالًا قبلها فإذا

يا أهل لندن

أهل العراقيين لا بدوا ولا حَضرا
جُرح نداويه لكن لم يزل غبرا^٦
تخيف صورته الأشباح والصورا
للغش خلف ستار النصح مستترا
حتى غدا يقتل الآراء والفكرا
وإن رأى فتنة مشبوبة نعرًا
وكم بذور من التفريق قد بذرا!
نزداد منها على أوطاننا خطرا
حتى إذا ما مَسنا عودها انكسرا^٧
كأنما نحن منكم ننقرُ الحجرا
عن مِين مَنْ مان أو عن غدر مَنْ غَدرا^٨
لا فخر للصقر في أن يقتل النغرا^٩
فكم ذبابة غابٍ أزعجت نَمرا!
ثم اقطفوا من جناها ودنا ثمرا

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم
إن انتدابكم في قلب موطننا
وللمشورة في أوطاننا شبح
يجول في طرقات البغي محتقبا
لم يكفه أنه للحكم مغتصب
إذا رأى نهضة للمجد أقعدها
فكم ضغائن بين القوم أوجدها
في كل يوم لنا معكم معاهدة
جَفَّت بها سرحة استقلالنا عطشا
تقسو قلوبكم لما نفاوضكم
أما مواعيدكم فهي التي انكشفت
لا تفخروا أن كسرتم غرب شوكتنا
لا تستهينوا بنا من ضعف قوتنا
هذي البلاد اغرسوا فيها مودتكم

^٥ اقترى: تتبع واستقصى.

^٦ الجرح الغبر: الذي اندمل على فساد ثم انتقض.

^٧ السرحة: الشجرة الطويلة، أو التي لا شوك بها.

^٨ المين: الكذب.

^٩ الغرب: الحدة. والنغر: البلبل أو فرخ العصافير.

نمشي إلى الموت من جرائكم زُمرًا
ولو جرى الدم حتى أشبه النهرًا
ولو لبسنا المنايا دونهم أزرًا
ونحن أرفعهم في المكرمات ذُرًا^{١٠}

نكن لكم حلفَ صدقٍ في سياستكم
لسنا بقومٍ إذا ما عاهدوا نكثوا
ولا نحالف أحلافًا فنخذلهم
فنحن أوفى الورى بالعهد شنشنةً

سعد وسعدون

هذا بمصر وهذا ها هنا اشتها
لكنَّ سعدون لا سعدًا قد انتحرا
في الشرق أعظم مذكورين ما ذكرا
وإن سعدًا بمصرٍ قارن القمرًا
وذا هناك سعى للمجد مقتدرا
ما قلتُم عندما أعلمتم الخبرا؟!
فإن سعدوننا قد أرخص العُمرًا

سعد وسعدون محمودٌ مقامها
كلاهما قد فدَى بالنفس أمته
فكان بينهما بونٌ وإن غدوا
فإن سعدون دانى الشمس منزلة
هذا هنا قد سعى للمجد مُبتدِرًا
يا أهل مصر وأنتم مثلنا عرب
إن كان قد أرخص الأموال سعدكم

أيها البطل

أوطانه نومةً تستيقظ العبرا
بها لنهضة أهل الشرق مدكرا
إن كان شعبك بعد اليوم معتبرا
ماذا ستفعله من بعدك الوُزرا؟
أم هم سيقضون من مطلوبك الوطرا؟
وليس يقبل عذرا ممن اعتذرا
لا غرو أن قلتُ فيك الشعر مبتكرا

نم أيها البطل الفادي بمهجته
نم نومة تجعل التاريخ محتفيا
فليعتبر بك هذا الشعب مفتديا
فسوف تحمدك الأوطان شاكرا
أيتركون الذي قد كنت تطلبه
فالشعب منهم مريدٌ ما أردت له
يا من له ميتة بكر معظمة

^{١٠} الشنشنة: الخلق والطبيعة. والذرا: جمع ذرورة، وهي القمة.

ذكري فتى السعدون

إذا ما الفتى في دهره أحسن الظنًا
فما أدرك المَغزَى ولا فهم المعنى
وما الحزم إلا أن نرى الدهر هاجمًا
فنبني من تدبيرنا دونه حصنا
وما الدهر إلا مُبهرٌ في طباعه
يغرر بالآقوام يفتنهم فتنا^١
يروع بنيه صائلًا بنباته
فقد ضلَّ مَنْ من دهره يطلب الأمانا^٢
يذفُّ عليهم بالظبا من خُطوبه
فكم جدعت أنفًا وكم صلمت أذنا!^٣
وما شُهبه إلا مخالب كيده
تُمدُّ بجوف الليل داميةً حجنا^٤

^١ المبهز: اسم فاعل من أبهر؛ إذا جاء بالعجب.

^٢ بنات الدهر: حوادثه.

^٣ ذف عليه: أجهز عليه. والظبا: جمع ظبة، وهي حد السيف أو سنانه.

^٤ الحجناء: العوجاء، جمعها: حجن.

إذا ما تشمّمت الزمان وطبعه
تشمّمت من أعماق طينته نتنا

* * *

إليك فتى السعدون جيئتُ مهنئًا
بما نلّته عند الإله من الحسنى
إذا ما نممنا الدهر يومًا وأهله
فإنك من تلك المذمّات مُستثنى
أتى يومك الدامي بذكراك حافلًا
فجدد في كل البلاد لنا حُزنا
ففي مثل هذا اليوم بتّ مضرّجًا
وبتنا نحاكي في مدامعنا المزنا
وفي مثل هذا اليوم في حفرة البلى
جعلنا بك الآمال مدفونةً هنا
عشية أطلقت المسدس ناره
على قلبك الخفاق من يدك اليمنى
فله نارٌ قد بردت بحرّها
وإن سال منها دمعا بالجوى سُخنا
لئن أفقدت بالموت قلبك نبضه
فكم أنبضت بالحزن أفئدةً منا
وكم أنطقت دمع المحاجرِ بالأسى
على أنها بالهول أخرست اللسنا
فيا طلقةً ريع العراق بصوتها
فبانّت به الآفاق عابسةً دُكنا
وردّد مجرى الرافدين لصوتها
صدى الحزن من أقصى العراق إلى الأدنى
لقد جمع الأموال باسمك معشر
لتخليدهم ذكراك في معهد يُبنى

وما علموا أن المباني كلها
وإن قويت تفنى وذكرك لا يفنى
وأعظم تخليدًا لذكراك منهم
فعائلُك الغراء والخلق الأسنى
سعت إلى استقلال قومك مخلصًا
وما كنت في يوم على القوم ممتنا
وقمت بأعباء السياسة ناهضًا
بهمة لا وإن ولا ناكص جبننا
وأبديت في تلك المواقف كلها
أصالة رأيٍ قط لم يعرف الأفتنا^٥
فإن كنت لم تنجح فليس لعل
سوى أن خصم القوم في كيده افتننا

* * *

زكت لك نفس بين جنبيك حرة
فلا أظهرت كبرًا ولا أضمرت ضغنا
لنا المثل الأعلى بحلمك والندى
فكم بهما أثنى عليك الذي أثنى
فأحنف ربَّ الحلم بالحلم فقتة
وفي الجود قد فتَّ ابنَ زائدة مَعنًا
ألسن الذي قد رام قتلك قاتل
فأطلقته عفواً وأوسعته مَنًا
سيبقى على الأيام ذكرك خالدًا
به صحف التاريخ قاطبة تُعنى

* * *

^٥ الأفتن: ضعف الرأي.

فيا بطلًا بالنفس ضحَى وإنما
بِذَلِكَ لاسْتِقْلَالِنَا سُنَّةً سَنَّا
فَعَلَّمَنَا أَنَّ التَّفَادِيَّ وَاجِبٌ
على كل قوم حاولوا شرف المَعْنَى
سنسعى إلى ما قد سعيت من العلا
بصادق عزم ينكر الضعف والوهنا
وإنَّا لِقَوْمٌ مَسْتَقْلُونَ فِطْرَةً
إذا أنكر استقلالنا منكرُ ثرنا
فلو جُعِلت تَبْرًا سَبِيغًا بِيوتِنَا
ولسنا بحكام أبينا بها السُّكْنَى
يهون علينا في السياسة أننا
نصلَّب في الأعواد أو ندخل السجنا
ولسنا نبالي دون إحياءِ مجدنا
أعشنا على وجه البسيطة أم مُتْنَا
إذا أدرك المجدَ المؤثِلَ معشرُ
أُحَادَ، فإننا نحن ندركه مَثْنَى
نفوسًا ورثناها كبارًا أْبِيَّة
أبت في الدنا أن تحمل الضيم والغَبْنَا

ابن جبران

على الريا الخضر من جنات لبنان؟
بالحسن يصبو إليه كل إنسان
والشمسُ تعنو لوجهٍ منه نوراني
يفترُّ عن عقْدِ دُرٍّ وسط مرجان
أو انثنى ينثني من عطفِ نشوان
من صبغةِ المجد قد زينت بألوان
والدر منتثرًا في الجانب الثاني
جادت بها ريشة في كفِّ فنان
كما تفواح أزهار ببستان
أن الغرام الذي يخفيه رُوحاني
توحي إلى كل قلب وحي أحزان
تهفو بأفئدةٍ منا وآذان
نهتزُّ منهنَّ أرواح بأبدان
بغير وزن وأحيانًا بميزان
بروعة الحزن أشجاني فأبكاني
مستعبرين وكلُّ نحوه ران^١

من سامع قصة لي كنتُ شاهدها
فقد رأيتُ غلامًا صيغَ منفردًا
البدرُ يبدو حقييرًا عند طلعتته
في عينه حورٌ في ثغره شنبُ
إذا رنا ناظرًا يرنو بساحرة
عليه ثوب بديع النسج طُرته
في جانبٍ منه تلقى الدرَّ منتظمًا
وللعواطف في أثنائه صور
تفواح الطيبُ من أردانه عبقًا
تستخلص النفسُ من فحوى ملامحه
أبصرته واقفًا يبكي وأدمعه
يبكي وألحانُ موسيقاه مُشجية
يبكي وأنغام موسيقاه مطربة
يبكي فيرفضُ عقد الدمع منتثرًا
لما أراني جلال الحسن ممتزجًا
فقمتم بين أناسٍ حوله وقفوا

^١ المستعبر: الباكي.

وكلهم وقفوا مستسلمين إلى
حتى سألت عن الباكي وقصته
أبوه جبران أفناه الردى فغدا
فقلت: لم يفن جبران بميتته
بل أصبحت بابنه ذكراه خالدة
إني أرى روح جبران مُرفرفةً

تنهديات وأهات وإرنان
فقيل: هذا هو الشعر ابن جبران
من بعده رهن يتم جلف أشجان
من خلف ابناً كهذا ليس بالفاني
ما دام لبنان مأهولاً بإنسان
على الربا الخضر من جنات لبنان

جبر ضومط

وليس لكسر الموت في طبنا جبر
لغز المساعي كان في عيشه نشر
تبسم فيها العلم والفضل والفخر
يطيب له مد الزمان بها ذكر
وأثاره في نشر آدابها غر
ولكن له الإبداع والفكرة البكر
ولكنه في العلم كان له فكر
كما شق بُرد الليل مذ طلع الفجر
تلاميذه من بعده فهم كثر
ومن لفظه درٌ ومن علمه بحر
يضيء به للعلم في أفقها بدر
ويرثيه من أبنائها النظم والنثر
وأفجعها أن يفقد العالم الحبر
يمثلها في كل يوم لنا الدهر
ممثلة ما كان آخرها القبر

بكي الفضل لما أن قضى نحبه جبر
طوى الموت من جبر بن ضومط فاضلاً
مضى بعدما أمضى حياة سعيدة
وخلف آثاراً خوالد بعده
على اللغة الفصحى أياديه جمّة
وما كان يبدي الرأي فيها مُقلداً
وما كان في استقراءه العلم جامداً
يشق حجاب المشكلات برأيه
ومن شكّ فلينظر بكل مدينة
ليبصر منهم من جاه مثقف
رزئناه في كلية العلم هادياً
سيبكيه في كلية العلم منبر
فواجعنا في ذي الحياة كثيرة
ألا إنما هذي الحياة رواية
ولو لم تكن للفاجعات فصولها

أبو الملوك

بدا وجه العروبة في حُلوكِ
قضى متنازلاً بعد اعتلاءِ
قضى في المجد ليس بذي نظير
مليكٌ وإصل الإقدام حتى
لقد سلك الطريق إلى المعالي
وجدد للعروبة غرس مجدٍ
وأحدث نهضة في العرب هزّت
وأثبتت بالسيوف لهم حقوقاً
ولكن غشّه الحلفاء حتى
وخانوا لم يفوا بعد انتصار
خطبنا ودّهم فتقبّلونا

غداةً قضى الحسين أبو الملوك
كذاك الشمس تجنح للدلوك^١
وفي العزّات ليس بذي شريك
أتاه بهلكه يوم الهلوك
إلى أن مات محمود السلوك
قديمٍ كان كالعذق التريك^٢
جنوب الأرض كالريح السهوك^٣
مؤيدة بكل دم سفيك
أتوه من الثعالب في مسوك^٤
بما كتبوه في بطن الصكوك
بعاطفةٍ كعاطفة الفُرُوك^٥

^١ الدلوك: الغروب.

^٢ العذق: عنقود العنب، أو ما يشبهه من النخلة. والتريك: المتروك؛ أي الذي أكل كل ما عليه أو بقي فيه شيء قليل.

^٣ الريح السهوك: العاصفة الشديدة.

^٤ المسوك: جمع مسك بفتح الميم، وهو الجلد.

^٥ الفرُوك: المبغضة للناس عامة، أو التي تبغض زوجها.

وكم وعدوا بني قحطان وعدًا
لقد ستروا شنيع الغدر منهم
فساستهم إذا وقعوا بضنك
وأبدوا في الرخاء لنا عبوسًا
ونحنُ العُزْبُ نأبى غيرَ عزٍّ
ويومَ الروع تنتظم المنايا
ونمضغ في الهياج الموت دون الـ
وما عاب الفتى جسمٌ هزيل
وما الشرف الحميد سوى فعّالٍ
قرينَ القبلتين عليك نبكي
فقدنا منك خير زعيم قوم
لقد ناح العراق عليك حزنًا
لقد نُزّهت من غمزٍ ولمزٍ

به انقلب اليقين إلى شكوك
بثوبٍ من سياستهم مَحوك
أرونا الودَّ في وجه ضحوك
وهذا عُدٌّ من شيم الهلوك^٦
ونطمح في الحياة إلى السُّموك^٧
ولم تكن السيوف سوى سلوك
عُلا مضغ الأوانس للعلوك^٨
إذا ما كان ذا شرفٍ وديك^٩
حميد من معادننا سبيك
دمًا بالدمع من طَرفٍ مَسِيك^{١٠}
وخير نضيج تجربةٍ حنيك
وضجَّ من الخليج إلى تبوك
كما نُزّهت من شعرٍ ركيك

^٦ الهلوك: الفاجرة ذات الشهوة الشديدة.

^٧ السموك: جمع سمك، وهو السقف أو أعلى الشيء.

^٨ العلوك: جمع علك، وهو اللبان.

^٩ وديك: سمين.

^{١٠} الطرف المسيك: العين التي لا تدمع كثيرًا.

الشيخ قاسم مدرس جامع النعمانية

جواهرُ فضلٍ ما لها الدهرَ قاسمُ
وحسن السجّايا والعُلا والمكارم
فماجت لمنعاه البحارُ العيالمُ^١
من العلم منشور على الدهر دائم
به اتضحت للسالكين المعالم
وكانت به منها تقام الدعائم
بإثمٍ ولا مرت عليه المحارم
تضيء من الدنيا بهن المواسم
ويحيي الليالي وهو لله قائم
دلائل من نور الهدى وعلائم
«لقد بات في أعلى الفرديس قاسم»

على قاسمٍ شيخ الطريقة قد بكت
بكاها التقي والعلم والحلم والنهي
فقدنا الذي قد كان في العلم عيلاً
لئن قد طواه الموت عنا فذكره
رُزئناه حبراً في الطريقة مرشداً
عفت أربُع الإرشاد بعد ارتحاله
حليف التقي ما دنس الدهر ثوبه
ترحل للأخرى وأبقى مناقباً
يصوم نهار الصيف لله طائعاً
إذا ما بدا للقوم لاحت بوجهه
ولما مضى للخلد قلت مؤرخاً:

^١ العيلم: البحر، أو البحر الزاخر.

غريق دجلة

أذكى فراقك في القلوب حريقا
تَخَذَ الحِمَامُ لك المياه طريقا^١
ما دام ذكرك في الحياة عريقا
لله في أعلى السماء رفيقا^٢
من بعد ما ملأ السماء شروقا
أُسْكِنْتَ طي قلوبنا موموقا^٣
لله دُرُّكَ عاشقًا معشوقا
تهتز في رَوْضِ العلاءِ وريقا^٤
أمسى بفقْدك يابِسًا معروقا
أعيا البليغَ وأخرس المنطيقا
فجميل ذكرك لا يزال طليقا

يا من قضى بين المياه غريقًا
قد كنتَ فينا دُرَّةً فلأجل ذا
سَعْدَيْكَ يا «توماس» إنك لم تمت
لكن رَقِيتَ إلى السماء لتُجْتَبَى
يا كوكبًا عجل الردى بأفوله
إن كنت غبت عن العيون فإنما
عشقتك كل فضيلة وعشقتها
هَصْرَتِكَ أيدي الموت غصنًا ناضرًا
إن العراق على بضاضة قطره
لله مَنعاك الجليلُ فإنه
إن كان شخصك بات في قيد الثرى

١ تخذ: اتخذ.

٢ اجتباه: اصطفاه واختاره.

٣ ومقه: أحبه.

٤ الوريق: المورق.

شهداء الطيران

قضوا شهداءً ليس لهم بواءٌ
قضوا لعزیزِ موطنهم ضحايا
لهم في موتهم هذا حياة
تباشرت الجنانُ بهم فأمست
وحيًا «جعفر الطيار» منهم
فتَمَّ لهم على الدهر البقاء^١
فهم لعزیزِ موطنهم فداء
مخلدةً يجلُّها التُّناء
بها من حَسَنِ مقدّمهم بهاء
نسورًا في الجنان لها اعتلاء

* * *

وطائرة مرفعة الذنابى
يجول بها من البنزين روحٌ
بعصر الكهرباء أتت فأمسى
تمرُّ كأنها في الجوِّ نَسْرٌ
وتختبئ الهواء بساعديها
فتمضي في السماء مُضِيَّ سهم
فيبصر كالنجوم لها علوٌّ
وقد ترمى الصواعق محرقات
بأجنحة الرياح لها ارتقاء
كما جالت بأوردية دماء
لعصر الكهرباء بها ازدراء
إلى زُهر النجوم له انتماء
فتعصف منهما الريحُ الرخاء
عن القوس الشُّروح له ارتماء^٢
ويسمع كالرعود لها رغاء
بها في الأرض يندكُّ البناء

^١ البواء: المثل والند.

^٢ الشروح: الشدید الدفع للسهم.

قد امتطوا الرياح بها فطاروا
سَمَوْا فتضاءلوا فحكوا نجوماً
إلى حيث احتفت بهم السماء
يُصغرها بأعيننا السَّناء
وفي أوطانهم منهم رجاء

* * *

ألا يا طائرين قد استقلت
لقد نزل القضاء بكم أليماً
بهم في الجوّ ريحُ جَرَبِياء^٣
ولا مَنجاة إن نزل القضاء
بأعيننا قد اسودَّ القضاء
تنوح بها الحرائر والإماء
ولطّمت الخدود لكم نساء
وَشَقَّقت الجيوب لكم رجال
غبطنا ميتةً قد أعقبتمكم
لعمركم شرفٌ ففيه
لموطنكم نهوضٌ واعتلاء
ففي شَبَّانه لكم الكِفَاء
ولولا ذَلِكُمْ عَزَّ العزاءُ
فهم خلفٌ لكم فيما أردتم

^٣ الريح الجربياء: ريح الشمال أو بردها.

إلى أمين نخلة

حُقَّ للدمع أن يكون نشيدا
ألمعِيّ تبوّعَ المجدَ حتى
وتعالى إلى أعاليه حتى
أنجبتَه أصولُ «نخلة» حتى
فنما في بواسقِ المجدِ فردًا
في رثائي أبا أمينٍ رشيدا
حاز منه قريبَه والبعيدا
نال منه قديمه والجديدا
أطلعتَه للمجدِ طَلْعًا نضيدا
مستظلًّا منهن ظلًّا مديدا

* * *

كان شهماً، إن جئته في المُلما
وشجاعاً إن جئته يوم هيّجِ
وكريمًا زكت سجاياه حتى
وفصيحًا إن أنشد القوم شعراً
كان أطروفة الزمان ظريفًا
رقة فاقت النسيم إلى شد
إن شدا بالقرىض لم تبصر الأد
ت وقيدًا، أويتَ ركنًا شديدًا
تلقَ في الهيّجِ بُهمةً صنديداً
كان بدعا في المكُرّمات فريدا
كان في الشعر مفلحًا ومجيداً
فكهاً مازحًا رقيقًا سديدا
ةٍ بأسٍ نُفتت الجُلُمودا
مع إلا مستحسًا مستفيدا

١ الوقيد: الشديد المرض، المشرف على الموت.

٢ الهيّج: الحرب. والبهمة: الشجاع.

٣ الشاعر المفلح: المبدع.

ساد في الناس يافعًا ثم كهلاً
جُبلت نفسه من المجد حتى
بلغ المنتهى من المجد حتى
يا سليل الفقيد أعظمُ بمجد
أنا شاطرتك الأسي بدموع
وتأملتُ منك حرًّا كريماً
عازماً في الفعال أن يتسامى
فلهذا أقول قول مُعَزِّ
يا أمين الرشيد أودعك الوا
كيف لا نرتجي وأنت أمين
إن يكن مُبدئين أبائك الغرُّ
ثم شيخاً في التجربات عميدا
لم نجده إلا لخيرٍ مريدا
ليس في المستطاع أن يستزيدا
قد رزئناه في أبيك مَجيدا
كنَّ للحزن في الفؤاد وقودا
خَلْفًا للفقيد ضاهي الفقيداء
قادرًا باجتهاده أن يسودا
لك يرجو عمراً طويلاً سعيدا
لد مجدًا في الماجدين تليدا
أن تعيد المجد القديم جديدا؟!
فكن أنت يا أمين مُعيدا

٤ ضاهي: شاكل ومائل.

في يوم أبي غازي

القصيدة العصماء التي ألقاها شاعر العرب الكبير الأستاذ معروف الرصافي في حفلة تأبين فقيد العرب العظيم المغفور له الملك فيصل الأول طيب الله ثراه.

أبو غازي قضى فأقيم غازي
وأطلقنا المدائح والمراثي
وجئنا حاشدين بصدر يوم
غداةً قلوبنا امتلأت سرورًا
فهنَّ بعاملي فرح وحين
فكنَّ من ابتهاج في هدوءٍ
فأنطقنا التهاني والتعازي
بإنشاءٍ لهنَّ وبارتجاز^١
حكى يومٍ عكاظ وذو المجاز
وحزنًا يجريان على التوازي
خوافق في جوانحنا نوازي^٢
وكنَّ من اهتياجٍ في اهتزاز

* * *

قضى بدرُ المكارم والمعالي
فيا لَّله يوم نعاه ناعٍ
رزئنا ابن الحسين فنحن منه
فما مئز المحرَّم من جُمادى
وحيذرة المعارك والمغازي
لمرزةً محت كل المرابي
برزء للحسين أولو اجتياز
يفرِّق في البُكاء ولا امتياز

^١ الارتجاز: قول الرجز.

^٢ النوازي: الواثبة الخافقة.

له كَفُّ تَفِيضِ نَدَى وَنَبَلًا لها بهما غَنَى عن حَزْوِ حاز^٣
 بنى مجدًا عِرَاقِيًّا جَدِيدًا فأَسَّسه على المجد الحجازي
 وسار من السياسة في طريق بحسن الرأى مُعَلِّمة الطراز
 فما ترك الجهود بلا نِجَاحٍ ولا فُرْصًا تمر بلا انتهاز
 إذا اعتزمَ الأُمُورَ مَضَى وَأَمْضَى وإن سَلَ المهند قال ماز^٤

* * *

أبا غازي فقدنا منك قرمًا يُنَاجِز دوننا يوم النجاز^٥
 حللت من العراق وأنت ركزٌ بحيث الأرض جيدة الركاز^٦
 فَحَلَّ اليُمن منذ حللت فيه وقبلًا كان عنه ذا انحياز
 لقد وفقت بالقلم المسلي كما وفقت بالسيف الجُراز^٧
 ومهدت الأمور لنا ففزنا من الآمال بالغرر العِراز
 ودرت ذات أيدينا وكانت كحلب النوق أيام الغراز^٨
 ولولا سعيك المشكور كنا كذي سفرٍ يسير بلا جواز
 إذا المكَاء أوتى منك حظًا يطير إلى العلا بجناح باز^٩

* * *

لأهل الرافدين عليك حزنٌ له بقلوبهم فضل ارتكاز
 فأنت هديتهم سبَل المعالي كما جنَّبَهم طرق المخازي

^٣ حزو حاز: تبصر متبصر، والحازي الخبر بالأمور.

^٤ المهند: السيف من صنع الهند. وماز الشيء: فرزه عن غيره.

^٥ القرم: السيد. ويناجز: يقاتل.

^٦ الركز: الرجل الحكيم الكريم، والركاز: ما ركزه الله؛ أي أحدثه ودفنه في المعادن من ذهب وفضة وغيرهما.

^٧ السيف الجراز: القاطع.

^٨ درت ذات يده: اتسعت حاله واغتنى. وأيام الغراز: التي لا لبن فيها.

^٩ المكاء: طائر من القنابر، له تصعد وهبوط في الجو، أبيض اللون وله صفير حسن. والبازي: من الطيور الجارحة.

في يوم أبي غازي

لئن لبسوا الحداد عليك حزنًا
وما هو بالبكاء جزوك شيئًا
فقد ألبستهم ثوب اعتزاز
ولكنَّ الإله هو المجازي

* * *

لقد قوَّيتنا من بعد عجزٍ
وكنا كالبغاث فقمتمَ فينا
به كنا نحيد عن البراز^{١٠}
بما صرنا به مثل البوازي^{١١}
فنحن اليوم إذ دهمت خطوب
نظرنا للخطوب بطرف هازي
نقوم إلى الهياج بلا توانٍ
ونبتدر الأمور بلا احتراز
فلسنا من صروف الدهر نخشى
عوادي ذات سلب وابتزاز
ونحن من الألى في كل عصر
عزا لهم المكارم كلُّ عاز
نراعي الحق في سلم وحرب
ونترك في مغارمنا التجازي
ولو شكت الحقيقة لانتزعنا
شكايتها بتضحية المجاز
وقد علمت بنو آثور أنا
أولو بأس يعرقب كل ناز
فنحن بسيفك الماضي جَززنا
نواصي جمعهم أيَّ اجتزاز

* * *

أفَيْصَلُ نَمَ بِقَبْرِكَ مُسْتَرِيحًا
فإن الملك بعدك ملكُ غازي

^{١٠} البراز: المبارزة والقتال.

^{١١} البغاث: طائر أغير أصفر من الرخم، بطيء الطيران، يضرب به المثل في الضعف.

ذكري الكاظمي

أنشئت في حفلة أقيمت في بغداد سنة ١٩٣٥ لتأبين شاعر العراق الشيخ عبد المحسن الكاظمي، وكان قد توفي بمصر.

ليس في غاية الحياة البقاء
غير أن الحياة بالعز عند الرّ
أبي فخرٍ للناعمين بعيش
حسب من رام في الحياة خلودًا
وكفى المرء بعد موتٍ حياةً
قد قضى الكاظمي وهو جديرٌ
عاش منسيّ عارفيه ولمّا
ذكرته نعاته بنعوتٍ
فلئن كان ما يقولون حقًا
كيف ينسون في الحياة أديبًا
أفيُنسى حيًّا ويذكر ميتًا
إن هذا أمرٌ يتيه ضلالًا
ضحكوا منه في الحياة ومذ ما
فلذا خاب في الخلود الرجاءُ
جل الحرّ غايةً غراء
لم تجلُّه عِزة قعساء؟!
أنه بعد موته علواء
أنّ ذكراه حلوة حسناء
أن تعزّي في موته الشعراء
مات فاضت بنعيه الأنبياء
قبله حاز مثلها العظماء
أفهم بالذي نسوا لؤماء؟
عبقريًا عننت له الأدياء
إن هذا ما تنكر العقلاء
في بوادي تفسيره الحكماء
تَ تعالي نحيبهم والبكاء

أيها النادبون

أيها النادبون غيري غرُّوا
يُكرم الميت بالثناء وتحيا
كلُّ من يخبر الأناسيَّ خبري
أنا جرَّبْتهم إلى أن تساوى الـ
غرِّي الناسُ بالهوى فضلالٌ
قد تمادى في القائلين غلوُّ
أيها الكاظميُّ نَمْ مستريحًا
عشت في مصر باحترام يؤدِّيـ
إنَّ للنيل من جزائك شكرًا
لم تعش عيشة الرفاه ولكن
أيُّ حر في الشرق عاش سعيدًا
وهنيئًا إذ لم تعش في العراقـ
من شقاء العراق أنَّ ذوي النعمـ
إن جفتنا بلادنا فهي جبُّ
لم نحل عن عهدنا مذ جفتنا
قد بكينا شجواً عليها ومنها
كم أردنا سخطاً عليها ولكن
إنما هذه المواطن أمُّ
إن خدَمنا فلا نريد جزاء

بَرَحَ اليَوْمَ لِلْبَيْبِ الخفاء^١
عندكم في المهانة الأحياء
لا يبالي أأحسنوا أم أساءوا
يَوْمَ عندي سبَابُهم والثناء
كلُّ ما يفعلونه أو رياء^٢
وتوالى في الفاعلين رياء
حيث لا مبعض ولا إيذاء
هـ إليك الأمثال الفضلاء
ستؤدِّيهِ دجلة اللسنة
لك في العيش عزة وعلاء
لم تشب صفو عيشه الأقداء
من مضاعاً تنتابك الأرزاء
مة فيه أجانب غرباء
ومن الحبِّ يُستلذُّ الجفاء
بل لها الودُّ عندنا والوفاء
وعنانا سقامها والشقاء
غلب السخطُ في القلوب الرضاء
مُستحق لها علينا الولاء
ومن الأم هل يُراد جزاء؟!

^١ برح الخفاء: زال اللبس والغموض.

^٢ غري الناس بالشيء: أولعوا به.

رثاء شوقي شاعر مصر الأكبر

ألقيت في الحفلة التأبينية الكبرى في نابلس سنة ١٩٣٢.

الشعر بعد مصابه بكبيره
بيناه يبكي حافظاً بشهيقه
لم يقض بعض حداده لنصيره
ما إن خبت في الأفق شعلة نوره
بالأمس ظل مرزاً بمبينه
أخذت فرزدقه المنون وضاعفت
رزآن ملتهبان قد نضحتهما
فالشعر بعدهما استطال بكاؤه
وهزاره ترك الصداح وليثه
في مصر جل مصابه بأميره
إن قام يبكي أحمدًا بزفيره
حتى أهدأ أسى لفقد مجيره
حتى انطوت في الجو لمعة نوره
واليوم بات مفاجئاً بمنيره
جلى مصيبته بأخذ جريره
عين العلا من دمعا بغزيره
وتموجت بالحزن كل بحوره
أمنت أعاديه سماع زئيره

* * *

يا نيراً فجع القريض بموته
وخلت سماء الشعر بعد أفوله
ومؤمراً لم تنتفض بوفاته
إن لن يقوم نظيره من بعده
لك في الخلود مكانة ما نالها
إن الدفين مضمخاً بحنوطه
إن المتوج فوق عرش نكائه
فبكته عين وزينه وكسيره
من مشرقات شموسه وبدوره
في الشعر بيعته على تأميره
هيهات أن تأتي الدنا بنظيره
فرعون في ديماسه وحفيره
دون الدفين محنطاً بشعوره
يعلو المتوج فوق عرش سريره

صورًا خوالد من بنات ضميره
حتى يقمن لنا مقام نشوره
حيّ يعيش بحزنه وسروره
متكلم بنظيمه ونثيره
وحيّ أتى من جبرئيل شعوره
بذكائه فأصاب كشف ستوره
كالصبح مفتلقًا أوانَ ظهوره
من وشي سندس لفظه وحريره
إذ موت شوقي كان نفخة صوره
محتاجة المحيا إلى تفكيره
يتطرب الأرواح لحن صريره
فمن المسامر بعد فقد سميره
فبدت فنون الحق في تحريره
ليطيع غيرك قط في تسخيره
ولكم صدحت بنغمة من زييره
طربًا وليس يمل من تكريره

ما مات من تركت لنا أقلامه
صورًا تمثل ذاته وصفاته
فكأنه وهو الدفين بقبره
وكأنه في القوم ساعة حفلهم
لأبي عليّ من قريحة شعره
كم قد رمى الغيب الخفي فؤاده
وتصور المعنى الدقيق فردّه
يأتيك بالمعنى الجميل قد اكتسى
فالشعر قد دكت جبال فنونه
يا راحلاً ترك القوافي بعده
لهفي على ذيّالك القلم الذي
الشعر كنت أميره وسميره
حرّرته من رق كل تصنع
سخرت من أوتاره ما لم يكن
ولكم شدوت بنغمة من بُمّه
تتمايل الأبدان في إنشاده

* * *

أمر قضاه الله في تقديره
بوفاة سيده وموت أميره
يتنازعان السبق في تحبيره
والنيل مدّ أنينه بخيريه

يا أهل مصر عزاءكم فمصابكم
الشعر قد تُلّت بمصر عروشه
علمان من أعلامه كنا به
لكليهما الهرمان قد خشعا أسى

نسائيات

المرأة في الشرق

يعيشون في ذلِّ به وشقاء^١
بمنزلة الأقياد للأسراء^٢
حياة تخطت حُطّة السعداء
أَبَوْا أن يسيروا سيرة العقلاء
عليهن في حبسٍ وطول ثواء
عليهن إلا خَرْجَةً بغطاء
يغارون من نورٍ به وهواء
فما هن في أمرٍ من الخُلطاء
لغير قرارٍ في البُيوت وباء^٣
وأن صِنَّ عن بيعٍ لهم وشراء
بما فعلوا من الأم اللؤماء
لكانوا بما أبقوا من الكرماء
على الذلِّ شَبُّوا في حجور إماء

ألا ما لأهل الشرق في بُرَحَاءِ
لقد حَكَّموا العادات حتى غدت لهم
إذا تختبرهم في الحياة تجدُ لهم
وما ذاك إلا أنهم في أمورهم
لقد غمطوا حق النساء فشدَّوا
وقد ألزموهن الحجاب وأنكروا
أضاقوا عليهن الفضاء كأنهم
قد انتبذوا عنهنَّ في العيش جانبًا
وقد زعموا أن لسنَّ يصلحن في الدُّنا
فما هنَّ إلا متعة من متاعهم
أهانوا بهنَّ الأمهات فأصبحوا
ولو أنهم أبقوا لهن كرامةً
ألم ترهم أمسوا عبيدًا لأنهم

^١ البرحاء: الشدة والأذى، أو الشر.

^٢ الأقياد: القيود.

^٣ الدنا: جمع دنيا.

تَحْمُلُ جور الساسة الغرباء
سواكم من الأثوام حَبِل بقاء
وهل سعدت أرضٌ بغير سماء؟!
تمثل حالي عِزَّةً وإبَاء
على مسرح التمثيل زِيَّ نساء
وإن كان قولي مُسَخِّط السفهاء
فبُعْدًا لهم في الشرق من كبراء
يسمُون أهل الجهل بالعلماء
فقد يدَّعيه أجهل الجهلاء
لصَبِّ عليهم منه سَوَطَ بلاء
ونادى عليهم مؤذنا بفناء^٤
فعاشوا ولو في ذلة وشقاء
وخاطوا لهم منها ثيابَ رياء
إلى كل شغبٍ بينهم وعداء
رمت جهلاء العلم بالقُوباء^٥
لداعٍ فهل من يستجيب دعائي
لإدراك مجدٍ وابتغاء علاء
وقلِّ اصطباري واستطال بكائي
من اليأس مسدودًا طريقُ رجائي
وإن كنت معدودًا من الشعراء

وهان عليهم حين هانت نساؤهم
فيا قوم إن شئتم بقاءً فنازعوا
أيسعد محياكم بغير نساءكم
وما العار أن تبدو الفتاة بمسرح
ولكنَّ عارًا أن تزيًا رجالكم
أقول لأهل الشرق قول مؤلَّب
ألا إن داء الشرق في كبرائه
وأقبح جهل في بني الشرق أنهم
وأكبر مظلوم هو العلم عندهم
لو اقتصَّ أهل العلم للعلم منهم^٥
ولاستأصل الموتُ الوحيُّ نفوسهم
ولكنَّ حلم الله أبقى عليهم^٤
لقد مزَّقوا أحكام كل ديانة^٤
وما جعلوا الأديان إلا ذريعة^٤
فما علماء الجهل إلا مساقم^٤
ألا يا شباب القوم إني إلى العُلا
أما آن للأوطان أن تنهضوا بها
فقد بَحَّ صوتي واستشاطت جوانحي
على أن لي فيكم رجاءً وإن يكن
وما أنا في وادي الخيال بهائم^٤

^٤ الموت الوحيُّ: السريع.

^٥ القوباء: داء معروف.

نساؤنا

إلى صاحبة مجلة الخدر

ولا تجريا في القول إلا على الطبع
وإلا فما يجدي لسمعكما قرعي
لمستمع إلا لتغرب في السمع
أكان بخفض لفظ ما قلت أم رفع^١
به فضل عقل كان أجدر بالصفع
ففيمَ اهتمامي بعد ذلك بالفرع
أكان بجذب ذلك السير أم دفع
وما الأرض إلا من سمواته السبع
على خلقه جورًا إلى الحزن يستدعي
وإن لم نعد اليوم منها سوى تسع
رمى الدهر منها هضبة المجد بالصدع
تعيش بجهل وانفصالٍ عن الجمع
يعدون تشديد الحجاب من الشرع
وإسكانها فوق الغصون عن السجع؟!

ألا خلياني في الكلام من السجع
وإن أنا أرسلت الحديث فأصغيا
فإني ما أطلعتُ شمسَ حقيقة
ولست أبالي بعد إفهام سامعي
وإني إذا قبّلت رأسًا ولم أجد
إذا كان علم الأصل عندي حاصلًا
فإن بان لي سير الكواكب لم أبل
شكوت إلى ربّ السموات أرضه
فقد جار في الأرض البسيطة خلقه
وإن السموات العلا لكثيرة^١
وإني لأشكو عادةً في بلادنا
وذلك أنا لا تزال نساؤنا
وأكبر ما أشكو من القوم أنهم
أفي الشرع إعدام الحمامة ريشها

^١ الخفض والرفع: من مصطلحات النحو ومراد الشاعر أنه لا يتأنق ولا يعرب في عبارته.

وعلمها كيف الوقوع على الزرع
بكاء إذا ما اشتد أذى إلى الصرع
شديداً بكى من غير صوتٍ ولا دمع
لعل مقالي فيه شيءٌ من النفع
وإنّي في إدراكها باذلٌ وسُعي
وأحذر من أن ينقشعن بلا همع^٢
وإن كان فيه البرق متصل اللمع
ويُدلون فيما هم يقولون بالسمع
وما أنا في إنكار ذلك بالبدع
ضعيفاً فليس اللوم عندي على الطلع^٣
بمنبت سوء فالنقيصة في الجذع
ولكنما قد ضاق من فعلهم ذرعي
ولو أنها كانت من الدين في درع
ترين من الآراء في الرد والردع
من العلم أسباباً تجلُّ عن القطع
على من نَمى نقص النساء إلى الطبع

وقد أطلق الخلاق منها جناحها
فتلك التي ما زلت أبكي لأجلها
بكيّت بلا دمع ومن كان حزنه
فيا ربّة الخدر اسمعي ما أقوله
أيا ابنة «فندي» إن للمجد غايةً
وإني أرى في القوم بعض مخايل
فقد لا يُروينا السحاب بمائه
يقولون لي: إن النساء نواقصُ
فأنكرت ما قالوه والعقل شاهدي
إذا النخلة العيطاء أصبح طلعا
ولكن على الجذع الذي هو نابئ
ووالله ما أن ضقتُ ذرعاً بقولهم
أمزق دعواهم إذا ما طعننها
ألا فاصدعي يا ربّة الخدر بالذي
فأنت مثالٌ للكمال الذي حوى
أدامك ربُّ الناس للناس حجة

^٢ المخايل: جمع مخيلة وهي السحابة المبشرة بالخير، ضربها مثلاً للصفات التي تنبئ عن حسن

الاستعداد في الإنسان، والهمع: الأمطار.

^٣ العيطاء: المرتفعة. والطلع: الثمر.

حرية الزواج عندنا

إذ أكرهوك على الزواج بأشيبا
بفضول هاتيك المطامع أشعبا
من سعد أخبية الغواني كوكبا
عارٌ وإن هاج الولي وأغضبنا
والحر يأبى أن يعيش مذذبنا
بالمال لكن بالمحبة يجتبي^١
بعض المتاع وهن في عهد الصبا
من عاش ذا شرف وكان مهذبنا
بالمال لا بالحب عاد مخربنا
ويميل في أمر الزواج إلى الحبا^٢
من منزل الرجل الغني بها نبا
بسوى المحبة كان شيئاً متعبا
فحببها كان القران محببنا
مهرًا وأكثرها إليه تحببا

ظلموك أيتها الفتاة بجهلهم
طمعوا بوفر المال منه فأخجلوا
أفكوكبٌ نحسٌ يقارن في الورى
فإذا رفضتِ فما عليك برفضه
إن الكريمة في الزواج لحرّة
قلب الفتاة أجلُّ من أن يُشترى
أتباعُ أفئدة النساء كأنها
هذا لَعَمْرُ الله يأبى مثله
بيت الزواج إذا بنوه مجددًا
يا من يساوم في المهور مغاليًا
أقصرُ فكم من حرة مذ أنزلت
إن الزواج محبة فإذا جرى
لا مهرَ للحسنة إلا حبّها
خير النساء أقلُّها لخطيبها

^١ يجتبي: يختار ويصطفى.

^٢ الحبا: المهر، وأصله: الحباء، ممدود.

وتحبُّبٍ فالخير أن نترهبها
 أتصيب أخبت أم تصادف أطيبا
 أيدوسُ أفعى أم يلامس عقربا
 زدتُ افتكارًا فيه زدت تعجبا
 وقَضُوا عليها بالحجاب تعصبا
 أفتعلمون بما جرى تحت العَبا؟
 وحجابها في الناس أن تهذبها
 أغنى فتاة الحي أن تتنقبا
 مثل النعاج وأن نكون الأذوبا
 تعلقوا إذا ربَّى البنات وهذبها
 فيها وعلمها العلوم وأدبا
 أدنى النساء من الرجال وقربا
 جاء التأخر في النساء مكذبا
 يشكو السقام بفالج متوصِّبا؟^٣
 والدهر خصص بالبقاء الأنسبا؟!
 حتى يكون عن الحقيقة مُعربا
 ولها أقيم من القوافي موكبا

وإذا الزواج جرى بغير تعارفٍ
 هو عندنا رمي الشباك بلجة
 أو مثل محتطب بليل دامس
 ولقومنا في الشرق حال كلما
 تركوا النساء بحالة يرثى لها
 قل للألى ضربوا الحجاب على النساء:
 شرف المليحة أن تكون أديبة
 والوجه إن كان الحياء نقابه
 واللؤم أجمع أن تكون نساؤنا
 هل يعلم الشرقي أن حياته
 وقضى لها بالحق دون تحكُّم
 فالشرق ليس بناهض إلا إذا
 فإذا ادَّعيت تقدماً لرجاله
 من أين ينهض قائماً من نصفه
 كيف البقاء له بغير تناسب
 والشعر ليس بِنافع إنشاده
 تلك الحقيقة للرجال أزفها

^٣ المتوصب: المريض.

المرأة المسلمة

لم أرَ بين الناس ذا مظلِمه
منقوصه حتى بميراثها
قد جعلوا الجهل صوانًا لها
والعلم أعلى رتبة عندهم
ما تصنع المرأة محبوسه
ضاقت بها العيشة إذ دونها
أحق بالرحمة من مسلمه
محجوبة حتى عن المكرمه
من كل ما يدعو إلى المآثمه^١
من أن تلقاه وأن تعلمه
في بيتها إن أصبحت معدمه!
سدت جميع الطرق المعلمه

* * *

كم في بيوت القوم من حرّة
قد لوّحت نارُ الطوى وجهها
عاب عليها قومها ضلّة
من أيّ وجه تبتغي رزقها
وكيف والقوم رأوا سعيها
تبكي من البؤس بعيني أمه
وأعمل الفقرُ به ميسمه
أن تكسب القوت وأن تطعمه
وطرقها بالجهل مستبهمه
في طلب الرزق من الملامه

* * *

وكم فتاة فقدت بعلاها
من بعد ما قد ولدت توعمه

^١ الصوان، بتثليث الصاد: ما يسان به الشيء ويحفظ.

ديوان معروف الرّصافي

فانقطعت في العيش أسبابها وأصبحت للبوّس مُستسلمه
تبيت لم تحمد لفرط الجوى لا قمر الليل ولا أنجمه
من حيث لا تملك من دهرها ما جلّ أو دقّ ولو سمسمه
جفّ على مُرضعها ثديها فاضطرها ذلك أن تفيطمه
فعاش عيش الأمّ لم يوفيه ملبسه الدهر ولا مَطعمه
فشب منهوك القوى مثلها يشكو من الدهر الذي أيتمه

* * *

فهذه حالة نسواننا وهي لعمرى حالة مؤلمه
ما هكذا يا قوم ما هكذا يأمرنا الإسلام في المسلمه
فهل بكم من راحم للنسا فهنّ أولى الناس بالمرحمه؟

التربية والأمهات

إذا سُقيتُ بماءِ المَكْرُماتِ
على ساقِ الفضيحةِ مُثْمِراتِ
كما اتسقتِ أنابيبُ القناةِ^١
بأزهارِ لها مُتضوُّعاتِ
يُهدَّبُها كحِضنِ الأمهاتِ
بتربيةِ البنينِ أو البناتِ
بأخلاقِ النساءِ الوالداتِ
كمثُلِ ربيبِ سافلةِ الصفاتِ
كمثُلِ النبتِ ينبتُ في الفلاةِ

هي الأخلاقُ تنبتُ كالنباتِ
تقومُ إذا تعهدتها المُربِّي
وتسمو للمكارمِ باتِّساقِ
وتنعشُ من صميمِ المجدِ رُوْحًا
ولم أرَ للخلائقِ من محلِّ
فحِضنِ الأمِّ مدرسةَ تسامتُ
وأخلاقُ الوليدِ تقاسُ حسنًا
وليس ربيبُ عاليةِ المزايا
وليس النبتُ ينبتُ في جنانِ

* * *

فأنتِ مَقْرُ أسنى العاطفاتِ
يفوقُ جميعَ ألواحِ الحياةِ
تساوِيرُ الحنانِ مصوِّراتِ
كما انعكسَ الخيالُ على المِراةِ
لتلقينِ الخصالِ الفاضلاتِ

فيا صدرَ الفتاةِ رَحُبَتَ صدرًا
نراكِ إذا ضممتِ الطفلَ لَوْحًا
إذا أَسْتندَ الوليدُ عليكِ لاحتِ
لأخلاقِ الصبِيِّ بكِ انعكاسُ
وما ضَرَبانُ قلبكِ غيرَ درسِ

^١ القناة: الرمح وكل عصا مستوية.

فأولُ درس تَهذيب السجايا
فكيف نظنُّ بالأبناء خيراً
وهل يُرجى لأطفالِ كمالٍ
فما للأمّهات جهلنَ حتى
حنونٌ على الرضيع بغير علم
يكون عليك يا صدر الفتاة
إذا نشئوا بحضن الجاهلات؟!
إذا ارتضعوا تُدِيّ الناقصات؟!
أتين بكل طيَّاش الحِصاة؟!^٢
فضاع حنوّ تلك المرضعات

* * *

أمّ المؤمنين إليك نشكو
فتلك مصيبة يا أمّ منها
تخذنا بعدك العادات ديناً
فقد سلكوا بهنَّ سبيلَ خُسْرٍ
بحيث لزمنَ قعرَ البيت حتى
وعدّوهن أضعف من ذبابٍ
وقالوا: شرعةُ الإسلام تقضي
وقالوا: إنَّ معنى العلم شيء
وقالوا: الجاهلات أعفُ نفساً
لقد كذبوا على الإسلام كذباً
أليس العلم في الإسلام فرضاً
وكانت أمناً في العلم بحرّاً
وعلمها النبيُّ أجلُّ علمٍ
لذا قال: ارجعوا أبداً إليها
وكان العلم تلقيناً فأمسى
وبالتقرير من كتب ضخامٍ
ألم ترَ في الحسان الغيد قبلاً
مصيبتنا بجهل المؤمنات
«نكاد نغصُّ بالماءِ الفراتِ»
فأشقى المسلمون المسلمات
وصدّوهنَّ عن سبل الحياة
نزلنَ به بمنزلة الأداة^٣
بلا جنح وأهون من شذاة^٤
بتفضيل «الذين على اللواتي»
تضيّق به صدور الغانيات
عن الفحشا من المتعلمات
تزول الشمُّ منه مزلّلات
على أبنائه وعلى البنات
تحل لسائلِها المشكلات
فكانت من أجلِّ العالمات
بثلثي دينكم ذي البنات
يُحصّل بانتياب المَدْرَسات
وبالقلم الممدّ من الدواة
أوانس كاتباتٍ شاعراتٍ

^٢ الطيَّاش: الذي لا يقصد وجهها واحداً لخفة عقله. والحِصاة: العقل والرأي.

^٣ الأداة: الآلة، يريد بها ما يستعمل في البيوت كالألآنية، والشاعر يقرع بذلك بعض من لا أخلاق لهم.

^٤ الشذاة: كسر العود.

وقد كانت نساء القوم قَدَمًا
يكنّ لهم على الأعداء عونًا
وكم منهن من أُسرت وذقت
فماذا اليوم ضرٌّ لو التفتنا
فهم ساروا بنهج هُدًى وسرنا
نرى جهل الفتاة لها عَفَافًا
ونحتقر الحلائل لا لجرِّمٍ
ونلزمهن قعر البيت قهراً
لئن وأدوا البنات فقد قَبِرنا
حجبناهن عن طلب المعالي
ولو عَدمت طباع القوم لَوَمًا
وتهذيب الرجال أجلُّ شرط
وما ضرَّ العفيفة كشفُ وجهِ
فَدَى لخلائق الأعراب نفسي
فكم برزت بحبِّهم الغواني
وكم خَشِفَ بمربعهم وظبي
ولولا الجهل ثمَّ لقلتُ مَرَحَى

يُرْحَنَ إلى الحروب مع الغزاة
ويضمِّدن الجروح الداميات
عذاب الهون في أسر العُدَاة
إلى أسلافنا بعض التفات!
بمنهاج التفرق والشتات
كأنَّ الجهل حصن للفتاة
فنؤذيهن أنواع الأداة
ونحسبهن فيه من الهنات^٥
جميع نساءنا قبل الممات
فعشن بجهلهن مُهتَّكات
لما غدت النساءُ محجَّبات
لجعل نساءهم مُتهذبات
بدا بين الأعفَاء الأباة
وإن وُصفوا لدينا بالجفاة
حواسرَ غير ما مترئِّبات
يَمُرُّ مع الجداية والمهابة^٦
لمن أَلفوا البداوة في الفلاة

^٥ الهن: كناية عن كل جنس، ومعناه شيء ومؤنثة هنة، وجمعها هنوات وهنات، يريد بذلك أننا نحسب المرأة من جهلنا شيئاً من أشياء البيت.

^٦ الخشف والظبي: الغزال. الجداية والمهابة: الغزاة، وفي الكلام مجاز لا يخفى.

المهجور أو مشهد الحسد في الحزن

بِسْمَطِينَ مِنْ دَرِّ مُضِيِّينَ فِي الثَّغْرِ^١
فَعُدْنَا مِنَ الْأَمَالِ فِي أَنْجَمِ زُهْرٍ
بِصَبْحِينَ مِنْ ثَغْرِ وَضِيٍّ وَمِنْ نَحْرِ
ذَوَائِبَ تُرْخِي مِنْ أَشْعَتِهَا الصَّفْرُ
وَأَمَّا مَحْيَاهَا فَكَالْكَوْكَبِ الدَّرِّيِّ
يُغْضُ عَلَيَّ وَجِدٍ وَيُفْتَحُ عَنِّي سِحْرَ
غَدَاةٍ أَمِيطِ السَّجْفُ مِنْ جَانِبِ الْخَدْرِ^٢
وَلَا عَجَبَ أَنَّ الدَّجَى مِنْ جِلَى الْبَدْرِ
فَمَنْ لَوْلُو تَبْدِي وَمَنْ لَوْلُو تَذْرِي^٣
بِقَايَا ظِلَامِ اللَّيْلِ فِي غُرَّةِ الْفَجْرِ
تَمَوْحُ بَحْرُ الْحَبِّ مِنْ عَاصِفِ الْهَجْرِ
فَيَبْعَثُ بِي شَجْوًا يَمُوجُ بِهِ صَدْرِي
كَمَا ذَبَلَتْ فِي بَيْتِهَا بَاقَةُ الزَّهْرِ

وبيضاءَ أغناها عن الحلي ثغرُها
إذا ابتسمت في ظلمة اليأس أشرقاً
نرى وجهها بدرًا محاطًا من السنا
يذكرني من مطلع الشمس شعرُها
تراءت فأما نفسها فحزينة
بدت في جِداد ترسل الطرفَ وانياً
رأيت بها بدرًا تردى دُجْنَةَ
فكانت لها سوْدُ الجلابيبِ حلية
تَبَسَّمُ حيناً ثم تجهش بالبكا
كأنَّ تلاميخَ الأسي في جبينها
وكم أبصرت عيناى لما تنهدت
فقد كان منها الصدرُ يعلو ويرتمي
ومما شجا نفسي ذبولٌ بخدِّها

^١ السمط: العقد.

^٢ الدجنة: الظلمة.

^٣ أذرى الدمع: أسقطه.

أسائل عما ناب من نُوبِ الدهر
تشد ضلوعًا يَنْطوين على جمر:
شكت هجر بَعْلٍ لم يكن بالفتى الحر
ولم أدِرْ أن الحب ضرب من الخمر
صحا قلبه من حيث لم أضح من سكري
وإذ مال بعلي في هواي إلى الغدر
كما فزعت قُمرية الروض من صقر
ألا لا أمالَ الله قلبي إلى الصبر
وإن جنَّ ليلي بت منه على ذِكْرِ
لأقنع منه بالخيال الذي يسري
ترقرق دمع العين في خدها يجري
فأحسبها الياقوت رُضع بالدرِّ
تكفكف أسرابًا من الدمع بالعشر
عن القول إلا عن كلام لها نَزْر:
من الوجد حتى يحملوني إلى القبر
على كل حكم جاء من ظالم الدهر
وعاقبت منهم من يميلُ إلى الهجر

ولما انقضى صبري وقفت تجاهها
فقالت وقد أَلقت على الصدر كَفَّها
لك الخير من حُرِّ يسائل حرَّة
سقاني بكأس الحبِّ حتى شربتها
فلما رأني قد سَكرتُ بحبه
ألا إنَّ قلبي اليوم إذ مسَّه الجوى
ليفزغُ ممن يدعي الحب قلبه
على أن قلبي لم يعد عنه صابراً
إذا أشرقت شمسي تناسيت ذكره
وإني على ما نابني من جفائه
ولما شكت لي حُرقة في فؤادها
أرى قطراتِ الدمع في وجناتها
هنالك أَلقت راحتها بوجهها
وقالت وقد كان النشيحُ يصدُّها
سأحمل ما قد حمَلتني يد الهوى
فقلت: أما والله لو أنَّ لي يدًا
لشدَّدت في زَجْرِ المحبين إن جَفَّوا

إلى الحجابيين

لمناسبة كتاب «السفور والحجاب» للآنسة نظيرة زين الدين.

قل للحجابيين كيف ترونكم
كشفتُ به ما كان من حُجْب العمي
سفر أقام على السفور أدلَّة
يا لاجئين إلى العناد خصومة
هل من نظير بينكم لنظيرة
هدمت «نظيرة» ما بنت عاداتكم
أفتمكثون على العناد وقد بدا
نحن – السُّفوريين – أعلم بالذي
أ يكون ما شرع النبيُّ محمد
إنَّ اعتزالكم النساء ترفعاً
حتى رجال الصين تحترم النساء
كلا ولكن عادة همجية
من بعد سفر للسُّفور مبین؟
عنكم «نظيرة» بنت «زين الدين»
تركت ذُبابكم بغير طنين
ما كان حصن عنادكم بحصين
أو من فقيهه مثلها وفطين
من كل سجن للنساء مهين
من بعد ليل الشك صبح يقين؟!
شرع النبيُّ محمد من دين
شيئاً يخالف شرعة التَّمدين؟!
أمرٌ يناقض حكمة التكوين
أفنحن ننقص عن رجال الصين
جعلتكم حرباً لكل حَسين^١

^١ الحَسين: الحسن.

هوان المرأة عندنا

ما أهون الأُنثى على ذُكراننا!
ضَعُفَتْ فحجتها البكاء لخصمها
فلقد شجاني نلُّها وخضوعها
هي مُتَعَةُ المستمتعين ولأيتها
وسلاحها عند الدفاع دموعها
فوليُّها عند الزواج يبيعها
كانت لزامًا لا يجوز مبيعها!
وكلاهما متحكِّمٌ في أمرها
وحليها عند الطلاق يُضيعها
هذا يعرِّيها وذاك يُجيعها

التاريخيات

ضلال التاريخ

أقول، وطرفي في المحال مُحَدَّقٌ: أما لِالْغَيْزَاءِ الزمان مفسَّرٌ لقد خامرتني في الزمان وأهله أرى الدهرَ في أمرين يعمل دائماً يُجدد للموتى مناقبَ لم تكن فكم من قبور عظم الناس أهلها ورُبَّ امرئٍ قد عاش يستقطر الثنا سقى الدهر للأموات غرس مناقبٍ أرى كلَّ ميِّتٍ ما تقادم عهده فأقربهم عهداً أقلُّ غِضاضةً

أبالدهر مسُّ أم بأهليه أولقُ؟^١ فقد حار فيها الألمعي المدقُّ؟^٢ شكوكٌ عليها يُعدَّر المتزندق صنَاعَ اليدين فيهما يتأنقُ^٣ لديهم وللأحياء يُبلي ويخلق بما لم يكن عند النهى يتحقق فلما قضى سال الثنا يتدفق بمينَ فظل الغرس ينمو فيبسقُ^٤ تُقام له سوقُ الثناء فتنفقُ^٥ وأقدمهم عهداً أغضُّ وأسمقُ^٦

^١ الأولق: الجنون.

^٢ لغيزاء: تصغير لغز.

^٣ رجل صنع اليدين وصناع اليدين وصنيع اليدين: حاذق ماهر في العمل بهما.

^٤ المين: الكذب.

^٥ تنفق: تروج.

^٦ الغضاضة: مصدر الغض، وهو الطري من النبات واللحم ونحوها.

كأن كرامات الفقيد بواسق
 إذا شطَّ جيلٌ خط من جاء بعده
 فما كتب التاريخ في كل ما روت
 نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا
 وما صدقتنا في الحقائق أعين
 وهل قد خصصنا دون من مات قبلنا
 يؤبّرها كـ القرون فتعذق!^٧
 أكاذيب عنه بالثناء تزوّق^٨
 لقرّائها إلا حديثٌ ملفق
 فكيف بأمر الغابرين نصدّق!
 فكيف إذن فيهن يصدق مُهرق!^٩
 بخُبت السجايا؟ شدّ ما نتحمق!^{١٠}

* * *

لعمرك أقصاني الزمان المفرّق
 خليلي هل من بالرصافة عالم
 بلادٌ إذا ما هبّت الريح نحوها
 أبيت على شوقٍ وقلبي موثّق
 إذا ما تذكّرت العجوزَ بكيئتها
 وما شرقي بالدمع يا أمّ وحده
 ويهفو بقلبي الشوق حتى كأنما
 فيا أمّ صبراً إن لابنك همّة
 تضايقٌ عنها الدهر مستعظماً لها
 أكلفَ منها الدهر ما لا يطيقه
 لقد صُغرت بغداد عن أن تضمّها
 فهل أنا من بعد التشاؤم مُعرق!^{١١}
 بأنّي إلى من بالرصافة شيق^{١٢}
 تمنيت لو أنّي بها أتعلق
 بهميّ ودمعي فوق خديّ مُطلق
 بدمع به الأهداب تطفو وتغرق^{١٣}
 ولكن بروحي عند ذكراك أشرق
 تخطّفه من بين جنبيّ سوّدق^{١٤}
 إلى المجد ترمي أو إلى المجد تسبق
 وأهلوه عنها يا أميمة أضيّق
 فليس بعار أنني فيه مخفق
 وما وسعتها بعد بغداد جلق^{١٥}

^٧ يؤبّرها: يلقحها. وتعذق: تثمر.

^٨ تزوّق: تخلط وتموه.

^٩ المهرق: نوع خاص من الصحف، كانوا يكتبون عليه كتب المعاهدات ونحوها.

^{١٠} شدّ ما نتحمق: ما أشد حماقتنا!

^{١١} التشاؤم هنا: الذهاب إلى الشأم، ومعرق: داخل العراق، ويقال: أشأم: فهو مشئم، وأعرق: فهو معرق.

^{١٢} شيق: مشتاق.

^{١٣} يريد بالعجوز أمه.

^{١٤} السوّدق: الصقر أو الشاهين.

^{١٥} جلق: دمشق.

ومنها:

أبت كتب التاريخ للحق مُلتقى
فإن شَرِّقت في الحق فهو مغرَّبٌ
تجور بها الأهواء جورًا وإنما
فيا أيها التاريخ أغرقِ مُغاليًا
قتلت الورى خُبرًا فليس بخادعي
ولي في بني الدنيا حِصاةً رزينة

فبينهما من زُخرف القول مَوْبِقٌ^{١٦}
وإن غرَّبت في الحق فهو مشرِّقٌ
على مُزَلِّقات المَين تمشي فتزَلُّقُ
فما ضرَّ بعد اليوم أنك مُغرِقُ
حديثٌ مُطرَى أو كلامٌ مُنمَّقُ
إذا طاشَ حِلْمٌ لا تطيشُ وتُنزَقُ^{١٧}

ومنها:

هذاذِيكَ لا تجفِلَ مقالَ مؤرِّخٍ
كذابٌ على وجه الطروس مسَطَّرٌ
فدع عنك لغوَ الناطقين وخذ بما
فإن ذكروا النعمانَ يومًا فلا تثقُ
فأصدقُ منهم في المسامع لهجةً
تنورَتْ وجهَ الحق في ظلماتهم
ملكْت من الدنيا حقيقةً أهلها

ولا يستفزَّنك الكلامُ المشقق^{١٨}
يَغصُّ به العقل السليم ويشرِّقُ
رواه من الآثار ما ليس ينطِقُ
بأكثرُ مما قال عنه الخورنق^{١٩}
ضفادع في المستنقعات تُنقِنُقُ
فلم أرَ نورًا غيرَ ذا يتألقُ
وإنني على الدنيا بها أتصدَّقُ

^{١٦} الموبق: الحاجز بين الشئئين.

^{١٧} حِصاة: عقل. وتنزق: تطيش وتضل.

^{١٨} هذهذ: أسرع، وهذاذيك: إسرَاعًا بعد إسرَاع. الكلام المشقق: الفصيح الذي ذهب فيه القائل مذاهب

التجميل والتحسين.

^{١٩} الخورنق: من آثار ملوك الحيرة، يريد لا تثق بأخبار الكتب، وعوّل على ما ينطق به البناء من عظمة صاحبه.

جالينوس العرب أو أبو بكر الرازي

فَنَغِيْطُ مِنْ أَسْلَافِنَا كُلِّ مَفْضَالٍ!
وَكَمْ عِبْرَةٌ فَيَمُنُ تَقَدَّمَ لِلتَّالِي!
فَقَدْ دَرَسْتَ إِلا بَقِيَّةَ أَطْلَالِ
بِجَهْلِ، وَهَلْ تَصْفُو الْحَيَاةَ لَجُهَّالِ
تَحَسَّى مِنْ الصَّهْبَاءِ عَشْرَةَ أَرْطَالِ^١
يَقُومُ وَأُخْرَى يَنْهَوِي فَوْقَ أَوْحَالِ
فَتَقْذِفُهُ الْجِدْرَانُ قَذْفَةَ عَذَالِ

أَلَا لَفْتَةٌ مَنَا إِلَى الزَّمَنِ الْخَالِي
تَلَوْنَا أَنَا سَا فِي الزَّمَانِ تَقَدَّمُوا
أَلَا فَانْكَرُوا يَا قَوْمَ أَرْبَعِ مَجْدِكُمْ
تَطْلَبْتُمْ صَفْوَ الْحَيَاةِ وَأَنْتُمْ
وَمَا أَنْتُمْ إِلا كَسُكْرَانَ طَافِحِ
مَشَى بَارْتَعَاشٍ فِي الطَّرِيقِ فَتَارَةٍ
يَمْدُ إِلَى الْجِدْرَانِ كَفَّ اسْتِنَادَةٍ

* * *

وَأَوْسَعْتَهُمْ عَذْلًا فَلَمْ يُجِدِ تَعْدَالِي^٢
بِدَمْعِي حَتَّى بَلَّ دَمْعِي سِرْبَالِي
كَأَنَّ عَلَى أَمَاقِهَا نَضَحَ جَرْيَالِ^٣
عَلَى أَفْقٍ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَنِ الْخَالِي^٤

رَمَى الدَّهْرُ قَوْمِي بِالْخُمُولِ فَلَمْتَهُمْ
فَهَاجَ الْبُكَاءُ يَا سَيِّ فَلَماً بِكَيْتِهِمْ
نَظَرْتُ إِلَى الْمَاضِي وَفِي الْعَيْنِ حُمْرَةٌ
فَشَمْتُ بِرُوقِ الْأَوَّلِينَ مَنِيرَةٌ

^١ تحسى: شرب. الصهباء: الخمر.

^٢ العذل والتعدال: اللوم.

^٣ الآماق: جمع مؤق، وهو طرف العين مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع من العين. النضح: رشاش الماء

ونحوه. الجريال: صبيغ أحمر.

^٤ شمت: نظرت، والوشيم: هو النظر إلى البرق خاصة.

«تَنورَتْها من أذْرِعَاتِ وأهلها
وقلَّبْتُ طرفي في سماءِ رجالها
فأنست آثارًا وهم سلك درّها
ولما طويّت الدهر بيني وبينهم
قعدت بأوساط القرون فجاءني
فتّى عاش أعمالًا جسامًا وإنما
حكيمٌ رياضي طبيبٌ منجمٌ
أتى فيلسوفًا للنفوس مهذبًا
لقد طبَّب الأرواح من داءِ جهلها

بيثرب أدنى دارها نظرُ عالٍ^٥
وهم فوق عرش للجلالة محلل^٦
وأبصرت أعمالًا وهم جيدها الحالي
على بعد أزمان هناك وأجيال
«أبو بكر الرّازي» فقامت لإجلال
تقدر أعمار الرجال بأعمال
أديب وفي الكيمياء حلّال إشكال
بأفضل أفعالٍ وأحسن أقوال
كما طبَّب الأجسام من كل إعلال

مولده

تولد عامَ الأربعينَ الذي انقضى
إلى زكريا ينتمي، إنه له
على حين كانت بلدة الرّيّ عادةً
مدارسُ بالشُّبان تزهو ودونها
بها جُلُّ درس القوم طبُّ وحكمةٌ
وكانت نفيسات الصنائع عندهم
وما كان هذا الحال في الرّيّ وحدها
فإنّ هُدَى الإسلام أنهى فتوحه

لثالث قرنٍ ذي مآثر أزوال^٧
أبٌ تاجرٌ في الرّيّ صاحب أموال^٨
إلى العلم تعطو جيدها غير معطل^٩
كتاتيب للتعليم تزهو بأطفال
وفلسفةٌ فيها لهم أيُّ إيغال
يحاولها ذو الفقر منهم وذو المال
بل الحال في البُلدان طُرًّا كذا الحال
وأصلها للحد أحسن إيصال

^٥ تنورتها: تبصرتها. أذرعَات: بلد بالشام. يثرب: اسم المدينة المنورة.

^٦ المحلل: المكان الذي يحل كثيرًا، وهو صفة لعرش.

^٧ أزوال: جمع زول، وهو العجب.

^٨ الرّي: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن.

^٩ تعطو: ترفع، المعطل: التي ليس في جيدها حلي.

وبدلاً أبطال الحروب من الورى
فدارت رحى تلك العلوم وقطبها
وكانت يد المأمون في ذاك أخلت
بأبطال علم للجّهالة قتال^{١٠}
بيغداد مركزاً بريوة إجلال
لسان العُلا في شكره أيّ إخال

منشؤه

تدرّج في تلك المدارس ناشئاً
تعلم فنّ الصوت بادئ بدئه
فكانت بموسيقى اللحن دروسه
وقد جاوز العشرين سنّاً ولم يكن
فرام أبوه منه تحويل عزمه
فقال له: دعني مع العلم إنني
وهل يستطيع المرء شغلاً إذا غدا
هناك استقى الرازي من العلم شربه
ثنى سعيه نحو التعلم بادئاً
وقد كان مفتاح العلوم تفلّسُفُ
فزاوّل أنواع العلوم تنقلاً
نضا همّة في العلم مشحودة الشبا

مُترجمُنّا يسعى بجِدٍ وإقبال^{١١}
ومارس تفصيلاً به بعد إجمال
تَغَنَّى بإهزاج وتشدو بإرمال^{١٢}
لشيءٍ سوى فنّ الغناء بميال
بجذب إلى شغل التُّجار وإدخال
إذا ما أمتُّ الجهل أحييتُ آمالي
له شاغل بالعلم عن كل أشغال؟!
فجاد بإعلالٍ له بعد إنهال^{١٣}
بعلم لدى أهل التفلسف ذي بال
تُفكُّ به من جهلهم كلُّ أغلال
بأبين أوضاع لها غير أغفال^{١٤}
جلت ما لحرب الجهل من ليل قسْطال^{١٥}

^{١٠} قتال: جمع قاتل.

^{١١} مترجمنا: يعني أبا بكر الرازي.

^{١٢} الإهزاج: مصدر أهزج المغني إذا أتى بالهزج. الإرمال: مصدر أرمل المغني إذا أتى بالرمل، وهو لحن من ألحان الموسيقى.

^{١٣} الإعلال: السقي بعد السقي. الإنهال: السقي الأول.

^{١٤} الأوضاح: جمع وضح، وهو الضوء، وبياض الصبح. الأغفال: جمع غفل، وهو ما لا علامة فيه توضحه وتبينه، طريقاً كان أو غيره.

^{١٥} نضا: جرّد. مشحودة: مسنونة. الشبا: جمع شباة، وهي حد السيف. القسْطال: الغبار، أو هو خاص بغبار الحرب.

وقد أكمل الطب المفيد قراءةً على الطبريِّ الحبر أحسنَ إكمال^{١٦}

سياحته

ومذ جاوز الرازي الثلاثين واغتنى رأى من تمام العلم للمرء أنه وما العلم إلا بالسياحة إنها فقام وشدّ الرحل والغرز وامتطى فجاء بلاد الشام تَوًّا وجازها وخاض عُباب البحر للغرب قاصدًا ففيها احتلاه العزم مذ لاح طالعا وحلّ حلولَ البدر في السعد نائلا وهبَّ هبوبَ الرِّيحِ ثَمَّةَ ذكره وودّعها من بعد ذلك راجعا ومنها إلى بغدادَ سافر قاطعا فألقى عصا التسيار من عرصاتها وبغدادُ كانت وهي إذا ذاك جنة كأن رجالَ العلم في عُرفاتها فكم محفل للكتب فيه خزانة

مُدلاً على أقرانه أيّ إِدلال^{١٧} يسيح بضربٍ في البلاد وتجوال لمن عملوا في علمهم درسَ أعمال لقطع الفيافي متنَ هُوَجا شملال^{١٨} إلى مصر في وخذٍ حثيثٍ وإرقال^{١٩} مواطنَ للإسلام لم يسألها السالي لها كهلالٍ يُجتلى عند إهلال بقُرطبةِ آماله ناعم البال يطيرُ على صيتٍ من العلم جَوَّالٍ إلى مِصرَ لا توديعَ مُستكرهٍ قال^{٢٠} إليها الفلا ما بين حلٍّ وترحال بمغرس عرْفانٍ ومَنبِتِ إفضال بها العلم أجرى منه أنهارَ سَلَسال بَلابلُ تشدو غُدوة بين أدغال وكم مرصد دانٍ وكم مرّقب عال^{٢١}

^{١٦} الحبر: العالم.

^{١٧} أدلّ على أقرانه إِدلالاً، فهو مدل: بمعنى تاه عليهم وتعال.

^{١٨} الرحل: مركب للبعير. الغرز: ركاب الرحل من جلد، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب. امتطى: ركب. الفيافي: الأراضي المقفرة. المتن: الظهر. الهوجاء: الناقة السريعة السير. الشملال: الناقة السريعة الخفيفة.

^{١٩} الوخذ: سير البعير السريع، حثيث: سريع. الإرقال: الإسراع، أو هو نوع من سير الخبب.

^{٢٠} قال: مِبغض.

^{٢١} المراد بالمرصد والمرقب هنا: المكان الذي ترصد فيه النجوم وترقب.

ولما غدا الرازي ببغدادَ باسطاً
أقيمَ لمارستانها عن كفاية
فرتب مرضاه وأصلح شأنه
وظل به يسعى طبيباً مُمرّضاً
ويُلقي السريريّات وهي مسائلٌ
فقد كان يلقيها على القوم ناطقاً
من العلم أبوعاً له ذات أطوال^{٢٢}
رئيساً بتطبيبٍ وتدبير أحوال
بما كان لم يخطر لسابق أجيال^{٢٣}
ويبذل جهداً لم يكن فيه بالآلي^{٢٤}
لدى سُرر المرضى تقرّر في الحال
بأوضح تبيانٍ وأحسن إملال^{٢٥}

مآثره العلمية

لقد أشغل الرازي ببغدادَ شغلُهُ
فَقَضَى بها أيّامه في تجاربٍ
فَلُقِبَ فيها بالمجرّبِ حرمةً
وأصبح مشهوراً بأسنى مآثرٍ
فإن أبا بكرٍ لأولُ مفصحٍ
وأولُ من أبدى لهم كيف يُبتنى
وألّف في المستشفيات مؤلّفاً
ولا تنس للرازي الكحول فإنه
ومن عمل الرازي انعقاد لسكّرٍ
عدا الطب في الكيمياء أعظم إشغال
وواصل أبقاراً لهنّ بأصال^{٢٦}
تفرّدَ مخصوصاً بها بين أمثال
من العلم لم يُسبَق إليها وأعمال
إلى الناس بالدرس السريريّ مقوال
ويُفرش مارستانهم قصد إبلال^{٢٧}
تقصى به في وصفها دون إغفال
يجدّد طول الدهر ذكره في البال
وما كان في محصوله غير سيّال

^{٢٢} الأبواع: جمع باع، وهو قدر مد الذراعين، ويكنى به عن الشرف والفضل، كما هنا. ذات أطوال: ذات

أفضال، وهو جمع طول.

^{٢٣} إن أبا بكر الرازي هو أول من وضع نظاماً لترتيب المستشفيات وبنائها.

^{٢٤} الآلي: المقصر.

^{٢٥} الإملال: الإملاء.

^{٢٦} الإيكار: هو من طلوع الشمس إلى الضحى.

^{٢٧} مصدر أبل المريض بمعنى شفي من مرضه.

أخلاقه

وليس سوى حُسن الخلاق من جالِ
وذو الجهل إن أخلاقه حسنت غالِ
له حسنُ خلقٍ لم يزن وزنَ مثقالِ
لأقبح منها وهي في خلقِ جهالِ
بأحسن أخلاق وأشرف أفعالِ
بدأت بحرف الحاء والميم والداالِ
بكل هزِيل الجسم من سُقم إقلالِ
ويفتقد المرضى بفحص وتسألِ
لتطبيب أوجاع وتأمين أوجالِ^{٢٨}
لتعليم علم أو لإعطاء سُؤالِ
بدحض خصوم العلم من كل هزالِ
سعى كاذبًا في طِبِّه سَعْيِ إضلالِ
بعيدًا عن الإلحاد ليس بختالِ
لزيغٍ فقد أغناك عنهن إجمالي

أرى العلم كالمرآة يصدأ وجهه
أخو العلم لا يغلو على سوء خلقه
ولو وازن العلم الجبال ولم يكن
وإن المساوي وهي في خلق عالم
ولكننا الرازي قد ازدان علمه
خلائق غرٌّ إن أردت بيانها
فتى كان مملوء الجوانح رحمة
يزور بيوت البائسين بنفسه
ويأتيهم بالمال والعلم مُسعدًا
وما كان يقنو المال إلا لبذله
وكان حليف الجد لم يأل جهده
فكم راح مخذولًا به متطببٌ
وكان سليمًا في العقيدة قلبه
وخلّ تفاصيل الألى ينسبونه

عودة إلى الريّ

مضى قافلًا للريّ شوقًا إلى الآلِ
طبيبًا لدى المنصور صاحبها الوالي
كتابًا حوى في الطب أحسن أقوالِ
وعاد أخوا همّ شديدٍ وبلبالِ
يجول من الفقر الشديد بأسمالِ

ولما قضى الرازي ببغداد برهة
فلما أتى تلك البلاد غدا بها
وألف للمنصور إذ ذاك باسمه
ولم تصف للرازي أواخر عمره
فقد عميت عيناه من بعد واغتدى

^{٢٨} الأوجال: جمع وجل، وهو الخوف.

وإن عداة الدهر شنشنة له
ولما انتهى نحو الثمانين عمره
ولكنه في الناس خَلَّف بعده
فكم كتب أبقى بها الذكر في الورى
وما ضرَّ من أحياء له العلم بعده
وإني وإن طنَّبت في بحر علمه
وها أنا أنهى القول لا لتمامه
وأجعل هذا الشعر مسكًا ختامه
«لعمري وما أدري وقد آذن البلى
«وأيّن محل الروح بعد خروجها

يصول بها قهراً على كل مفضل^{٢٩}
قضى نحبه من غير مالٍ وأنسال
من العلم آثاراً قليلة أمثال
وألفها نسجاً على خير منوال
على الدهر ذكراً أنه مَيِّتٌ بال
لمقتصر منه على بعض أوْشال^{٣٠}
ولكن بعجزي عن نهوضٍ بأجيال
بما قال في بيتين معناهما حال:
بعاجل ترحالٍ إلى أين ترحالي»
من الهيكل المنحلّ والجسد البالي»

^{٢٩} الشنشنة: العادة.

^{٣٠} الأوشال: جمع وشل، وهو في الأصل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.

الحرب في البحر أو وقعة توشيما بين الروس واليابان

تأكل المال نارها والنفوسا
لان أردى اليابان فيه الروسا
س قتالاً وكان يوماً عبوسا
ر وقاراً طوراً وطوراً بوسا
عها خضخت به القاموسا^١
تخذت كل مدفع ناقوسا
قد حكت في احتشامها بلكيسا
فتهادت على العباب عروسا^٢
ر فيها تخالها الطاوسا
أطلع الكهرباء فيها شموسا^٣
لان درعاً لجسمها ولبوسا
صادقاً ليس يعرف التدليسا

سَعروها في البحر حرباً ضرّوساً
قرب «جوشيم» قد تصادم أسطو
يوم «طوغو» دها بأسطوله الرو
فحداها بوارجاً تملأ البحر
كل مخّارة إذا حرّكت دُفا
مذ بنوها لهم كنيسة حرب
عرش بلكيس في المناعة لكن
ألبسوها من الحديد وشاحاً
وإذا تنشر البنود النص
وإذا جنّها على البحر ليل
قد أبى بأسها الشديد سوى الفو
سيّروا البرق بينهن رسولاً

^١ الدفاع: الشيء العظيم يدفع به مثله؛ وأراد به ما يكون في مؤخرة الباخرة ليدفعها للسير. خضخت:

هيجت وحركت. القاموس: البحر.

^٢ العباب: معظم الماء.

^٣ جنّها: سترها.

فهو فيها لسان صدق يؤدّي دون سلكِ كلامها المأنوسا
 إنما سلّكه الأثير الذي را حَ بطيٍّ اهتزازه مَدسوسا
 جَهزوها مَدافعًا فغرت أفـ واه نار قد التقمّن الشّوسا^٤
 دلّعت ألسنًا من النار حُمرا ويلَ من قد غدا بها ملحوسا
 ترسلُ الموتَ في قنابلٍ كالشّـهـ بـ ذريعًا مستأصلاً عتريسا^٥
 طالما بانفجارها انقلقَ البحـ ر انفلاقًا مُذكّرًا عهدَ موسى

* * *

بث أسطوله فلبّسه «طو غو» بأسطولِ خصمه تلبيسا
 حيث قد أجفّلت من اللجج الحيـ تان تخشى من اللهب مَيسا
 وعلا البحرَ مكفهزُ غمام من دُخانِ همى ولكن بوسى^٦
 ثارَ طرادهم يجيشُ بنسا فات سُفنٍ لهم سجرنَ الوطيسا^٧
 كجبالٍ قرى البراكينَ فيها تقذف الموت جارفًا والنحوسا
 فأباحوهم هُنالك قتلاً واغتنامًا نفوسهم والنفيسا
 فسلّ اليمّ كم تضمّن منهم مُغرّقًا في عُبابه مغموسا!
 هاجموه وللهاج سعيـر ملأت واسعَ الخضمّ حسيسا
 فكسوهم من الهوان لبوسًا وسَقوهم من المنون كُوسا
 صرعت في الوغى ليوث من اليا بان أسطولَ خصمها مفروسا
 فانقضوها عزائمًا ماضيات طأطأ الروسُ دُونهنّ الرءوسا
 وجلوها في الروع بيضَ فعالٍ أقرأتهم كُتّبَ الفخار دروسا
 إنَّ يومًا لهم تقضى بجوشيـ ما ليومٌ بالذكر زان الطروسا

^٤ الشّوس: جمع أشوس. يطلق على الذي ينظر بمؤخر عينه تكبرًا أو تغيظًا، وعلى الجريء على القتال الشديد.

^٥ الذريع من الخيل: الخفيف السير والواسع الخطو، ويقال: موت ذريع: أي قاسٍ. العتريس: من معانيه: الجبار الغضبان، والغول الذكر، والداهية، والضابط الشديد.

^٦ البوسى: ضد النعمى.

^٧ سجرن: أشعلن.

الحرب في البحر أو وقعة توشима بين الروس واليابان

بات «طوغو» يجني الأمانِي إذ با
قائد لم يرد لظى الحرب إلا
تاه أسطوله على اليمِّ عَجَبًا
إنَّ شهماً تقلد العقل سيقًا
ومليگًا ولى الأمور نويها
وسل البر عنهم كم سعوا فيـ
رَجَلَةٌ يملأ الفضاء وخيالًا
صَوَّبوها بنادق تطلق المو
هكذا شيّدوا بناء المعالي
ت قنوطًا عدوّه ويئوسا
مُصدرًا رأيه لها جاسوسا
حين أضحى لمثله مرءوسا
لحريُّ بأن يكون رئيسا
لجدير بملكه أن يسوسا
ه خميسًا عرمرمًا فخميسا^٨
حملت للوغى الكمأة الشُّوسا^٩
ت رَصاصًا به أبادوا النفوسا
هكذا أحسنوا لها التأسيسا

^٨ الخميس: الجيش.

^٩ الكمأة: جمع كمي، وهو الشجاع.

هولاكو^١ والمستعصم^٢

ولم يتنَّد إما تمخض بالخطبِ
فيظهر في بُردين لِالجِدِّ واللُّعْبِ
ولا هو في حرب فنقعد للحربِ
فيهجم زحفًا في زعازعة النكبِ
ويهبط بالموزون ذي الثمن المرابي^٣
أدالَ بني عباسها من بني حرب^٤
لعمرك من ملك العلوج على العرب^٥
زمانًا وعادت بعدُ مخلبة الشرب^٦

هو الدهر لم يرحم إذا شدَّ في حربِ
يُزمر أحيانًا ويضحك تارة
فلا هو في سلْم فنامن بطشه
يسالم حتى تأخذ القومَ غرةً
أرى الدهر كالميزان يصعد بالحصى
أدالَ من العُرب الأعاجم بعدما
ولم أرَ للأيام أشنع سُبَّة
صفت لبني العباس أحواضَ عزهم

^١ هولاكو: هو الذي أسر المستعصم بالخديعة، ثم قتله وامتلك بغداد بعد أن قتل ما لا يحصى من العلماء والصلحاء وعامة الأهلين.

^٢ المستعصم: هو آخر خلفاء بني العباس وكان ضعيف الرأي، قد غلب عليه أمراء دولته؛ لسوء تدبيره.

^٣ المرابي: الزائد.

^٤ يقال: أدال الله بني فلان من عدوهم؛ أي جعل الكرة لهم عليهم، وأدال الله زيدًا من عمرو؛ أي نزع الدولة من عمرو وحولها إلى زيد.

^٥ السببة: العار. العلوج: جمع علج، وهو الرجل الضخم من كفار الأعاجم.

^٦ مخلبة: فاسدة ذات حمأة.

بعدل أضاء الملك في سالف الحُقب
فكانوا طفاح الأرض عزّاً ومنعة
لقد ملكوا مُلكاً بكت أحرّياته
تشاغل بالذات عن حَوط ملكه
أطال هجوداً في مضاجع لهوه
لقد غرّه أنّ الخطوبَ روابضُ
فكان كمروانَ الحمارِ إذ انقضت

* * *

جرت فتنةً من شيعة الكرخ جَلّحت
فقامت لدى ابن العلقميّ ضغائنُ
فأضمرَ للمعتصم الغدر وانطوى
وخادعه في الأمر وهو وزيره
فأبعد عنه في البلاد جنوده
ودسّ إلى الطاغي هُلاكو رسالةً
وقال له: إن جئت بغداد غازياً
فثار هُلاكو بالمغول تؤمه
وقاد جيوشاً لم تمرّ بمخصب
جُيوش ترد الهضب في السير صفصفاً
فما عتّمت حتى بنت بغبارها
ولما أبادت جيشَ بغدادَ هالگًا

على شيعةٍ في الكرخ بالقتل والنهب^٨
تَحجّرَن من تحت النياط على القلب^٩
على الحقد مدفوعاً إلى الغش والكذب
مواربة إذ كان مستضعفَ الإرب
وشتتهم من أوب أرضٍ إلى أوب^{١٠}
مُغلغلةً يدعوه فيها إلى الحرب^{١١}
تملكتها من غير طعن ولا ضرب
كتائبُ خضُرُ تضربُ السهلَ بالصعب
من الأرض إلا عادَ ملتهبَ الجذب
وتعركُ في تسيارها الجنبَ بالجنب
سماءً على أرض العراق من الترب
على رَغَم فتح الدين قائده الندب

^٧ مروان الحمار: وهو رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم.

^٨ جلع عليه: أي أقدم عليه إقداماً شديداً وكاشفه بالعداوة.

^٩ النياط: الفؤاد، وعرق نيط به القلب إلى الوتين، فإذا قطع مات صاحبه. وابن العلقمي هذا وزير

المعتصم: هو الذي كاتب هولاء بأن يحضر ويغزو بغداد انتقاماً من الخليفة وابنه أبي بكر.

^{١٠} الأوب: الجهة.

^{١١} الرسالة المغلغلة: المحمولة من بلد إلى بلد.

أقامت على أسوار بغداد بُرهةً
فضاق عليها بالحصار خناقها
وقد حُمَّ فيها الأمن بالرعب فانبرت
هناك دعا المستعصم القوم باكيًا
فأبدى له ابن العلقمي تحزنًا
وقال له: قد ضاق بالخطب ذرعنا
فكم نحن نبقى والعدو محاصرٌ
وماذا عسى تجدي الحصون بأرضنا
فدع «يا أمير المؤمنين» قتالهم
ولسنا «وإن كانت كبارًا قصورنا»
فهاينه واخرج في رجالك نحوهُ
وإلا فإنَّ الأمر قد جدَّ جدّه

* * *

فلما رأى المستعصم الخرقَ واسعًا
مشى كارهاً والموتُ يُعجل خطوه
وراح بعقد الصُّلح يجمع شمله
فأمسكه رهناً وقتلُ صحبه
وأغرى ببغداد الجنودَ كما غدا
فظلَّت بهم بغدادُ تكلى مُرنةً
وجاسوا خلال الدور ينتهبونها
وأمسى بهم قصر الخلافة خاشعًا
وباتت به من واكف الدمع بالبكا

وأن ليس للداء الذي حلَّ من طبِّ
يوماً لفيقاً من بنينَ ومن صحب
كمن راح بين النون يجمع والضَّبَّ! ١٢
هُلاكو ولم يسمع لهم قط من عتب
بأدماء يغري كلبه صاحب الكلب
تفجَّع بين القتل والسَّبي والنَّهبِ
وصبوا عليها بطشهم أيما صبَّ
مهتكة أستاره خائف السُّرْبِ
عيون المها شتراء منزوعة الهدبِ

١٢ الرخصاء: عرق يتصبب عقيب الحمى، ومعنى البيت: أن الأمن لما صار محمومًا بالرعب، كانت رخصاؤه الدموع المنسكية من عيون المرعوبين.

١٣ النون: الحوت. والضَّبُّ: حيوان يعيش في البر، والمعنى أنه راح يجمع بين الضدين.

وراحت سبايا للمغول عقائل
لقد شربوا بالهون أوшал عزها
من اللآء لم تمدد لهن يد الثلب
وأملص ظلّ كان في الملك وارفاً
وما أسأروا شيئاً لعمرك في القعب
وأملح ملك كان مغلوب العشب

* * *

لقد بات إذ ذاك الخليفة جائماً
وخارت قواه بالسُّعار لمنعه
على الخسف مرقوباً بأربعة غلب
فقال، وقد نقت ضفادع بطنه:
ثلاثة أيام عن الأكل والشرب^{١٤}
فقال هلاكو: عاجلوه بقصعة
ألا كسرة يا قوم أشفي بها سغبي؟
من الذهب الإبريز واللؤلؤ الرطب
وقولوا له: كل ما بدا لك إنها
لألي لم تعبت بهن يد الثقب
ألست لهذا اليوم كنت أدخرتها؟
فدونك فانظر هل تنوب عن الحب!
وكنت بها دون الممالك معجباً
وفاتك أن المقت من ثمر العجب
ولو كنت في عز البلاد أهنتها
وأنزلت منها الجند في منزل خصب
لما أكلتك اليوم حربي وإن غدت
تذيب لظاها عنصر الحجر الصلب
سأبذلها دون الجنود أزيدهم
صيالاً بها فوق المطهمة القب^{١٥}
وسوف وإن لم يبق إلا حديثنا
تميز ملوك الأرض دأبك من دأبي

* * *

هنالك والطوسي أفتى بقتله
أشار هلاكو نحو علج فتله
فأدرج في لبدي وديس بأرجل
فأدرج في لبدي وديس بأرجل
وقد أثخت بغداد من بعد قتله
وما اندملت تلك الجروح وإنما
فروه بقتل أدب أفجع الأدب
فخر صريعاً لليدين وللجنب
إلى أن قضى بالرّفس ثمة والضرب^{١٦}
جروح بوار جاء بالحجج الشهب^{١٧}
ببغداد منها اليوم ندب على ندب

^{١٤} السعار: الجوع.

^{١٥} صيالاً: شدة واستقالة. والمطهمة: يريد الخيل المطهمة، وهي الخيل البارعة الجمال. والقب: جمع أقب، وهو الضامر، وهو من صفات جياد الخيل، وخاصة جياد الحرب.

^{١٦} أدرج: لف.

^{١٧} الحجج: السنون. والشهب: جمع شهباء، وهي البيضاء، كناية عن سنة الجذب والقحط والجوع.

أبو دلامة والمستقبل

وَأَبَيْنَ إِلَّا باطلاً وَمِحَالاً^١
باسم السياسة تستجيش قتالا
كانوا على طلب الوفاق عيالاً^٢
بعضاً ليدرك غيرنا الآمالاً
قتلوا الرجال وَيَتَّمُوا الأطفالا
بدم هريقً على الثرى سيالا
وتوهموها الروضة المحللاً^٣
سبقاً ولا ترةً ولا أُنحالا^٤
دارت لتغتصب الحقوق ألالاً^٥
أبدًا لهنَّ سوى الخمر مئالا
ورست مآثمها الكبار جبالا
تحسو النفوس وتأكل الأموال!

قضت المطامع أن نطيل جدالا
في كل يوم للمطامع ثورة
ما ضرَّ من ساسوا البلاد لو أنَّهم
أمنَ السياسة أن يقتل بعضنا
لا درُّ درُّ أولي السياسة إنهم
غرسوا المطامع واغتدوا يسقونها
نثروا الدماء على البطاح شقائقاً
تفنى الجيوش ولا ضغائن بينها
قالوا: كرهت الحرب؟ قلت: لأنها
وأجلت فكري في الحروب فلم أجد
طاشت منافعها الصغار عن الورى
ما أجشع الحرب الضروس، فإنها

^١ المحال: المكر والكيد والاحتيال.

^٢ عيالاً: جمع عيل، يريد متكلمين.

^٣ الروضة المحلال: التي يحلها الناس كثيراً، ويطلبونها.

^٤ الأُنحال: جمع نحل، وهو بمعنى الترة؛ أي الثأر والحقد والعداوة.

^٥ الألال: كسحاب؛ الباطل، وهو هنا نائب عن المفعول المطلق؛ أي اغتصاباً باطلاً.

كم سَحَّ من رهج الحروب على الرُّبَا
ولولا الحروب ومحرقات صواعق
وَبِلِ الدَّمَاءِ فَزَادَهَا إِحْصَالًا
مِنْهَا لِأَبْقَلَتِ الرُّبَا إِبْقَالًا
فِي غَيْرِ مَا زَمَنِ الْفِطْحَلِ جَمَالًا^٦

* * *

أَبْنِي السِّيَاسَةَ إِنْ سَلَكَتُمْ بِالوَرَى
إِنْ جَرَتِ الْحَرْبُ الْكَمَالَ لِأُمَّةٍ
إِنْ الْحَيَاةُ كَثِيرَةٌ أَعْمَالُهَا
وَتَقَحَّمُوا حَرْبَ الْحَيَاةِ فَإِنَّهَا
وَاسْتَلْتُمُوا زَرَدَ الْوَفَاقِ وَأَشْرَعُوا
وَاقْنُوا لَكُمْ بِيضَ الْمَسَاعِي شُرْبًا
وَاعْلُوا عَلَى صَهَوَاتِهِنَّ رَوَاكُضًا
وَدَعُوا صِيَالًا فِي الْمَلَا حِمِّ إِنْ فِي
أَوْكَلَّمَا طَمَعِ الْقَوِيِّ شِرَاهَةً
لَا غَرَوْ أَنْ يَلِدَ الزَّمَانُ بِمَرِّهِ
إِذْ رَاحَ يَقْتُلُ بِالْعَوَاطِفِ قِرْنَهُ
إِذْ جَهَّزَ «الْمَنْصُور» جَيْشًا قَادَهُ
فَمَضَى وَفِيهِ أَبُو دُلَامَةَ مُكْرَهًا
حَتَّى إِذَا التَّقَتِ الْجِيُوشُ وَعُغِبَّتْ
بَرَزَ الْكَمِيُّ مِنَ الشُّرَاةِ مُجَرَّدًا
فَأَجَالَ رَوْحٌ فِي الْجُنُودِ لِحَاظَهُ

طُرُقُ الرِّشَادِ فَعَلِمُوا الْجُهَّالًا
فَالْعِلْمُ أَحْرَى أَنْ يَجْرَ كَمَالًا
فَدَعُوا الْأَنْثَامَ وَحَارَبُوا الْأَعْمَالَ
لِلْحَرِّ أَضْيِيقَ مَازِقًا وَمَجَالًا
فِيهَا تَعَاوَنَكُمْ قَنًا وَنِصَالًا^٧
تَجْرِي رِعَالًا لِلْمُنَى فَرِعَالًا^٨
لِلْمَكْرَمَاتِ تُسَابِقُ الْأَجَالَ
هَذِي الْحَيَاةُ مَلَا حِمًّا وَصِيَالًا
أَكَلِ الضَّعِيفَ تَحِيْفًا وَاغْتَالَ؟!^٩
كَأَبِي دُلَامَةَ مِنْ بَنِيهِ رَجَالًا
قَتَلَا أَدَامَ حَيَاتِهِ وَأَطَالَ
«رَوْحٌ» يَرِيدُ مِنَ «الشُّرَاةِ» قِتَالًا^{١٠}
لِلْحَرْبِ أَخْرَجَ كَيْ يُصِيبَ نِكَالًا
صَفًّا وَصَفًّا يَمْنَةً وَشِمَالًا
لِلسَّيْفِ يَطْلُبُ مِنْ يُطِيقُ نِزَالًا
وَالْقَوْمِ يَنْتَظِرُونَ مِنْهُ مَقَالًا^{١٠}

^٦ زمن الفتح: زمن قديم قبل أن يخلق الناس على الأرض.

^٧ استلتموا: البسوا اللأمة، وهي الدرع.

^٨ شزبا: جمع شازب، وهو الضامر من الناس أو الخيل من غير هزال. والرعال: جمع رعيل، وهو الجماعة من الخيل.

^٩ الشراة: هم الخوارج، وروح: قائد من قادة أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي.

^{١٠} لحاظه: نظره بلحاظ عينه، وهو في مؤخرها.

فدعا إليه أبا دلامة قائلاً: يا ليثُ دونك ذلك الرئبِالا^{١١}
فجرى إليه أبو دلامة هازلاً ثم استقال فلم يكن ليقالا
فشكا لروح جوعه فأزاده بدجاجتين، وحثه استعجالا
فانصاع عن عجلٍ وسمطُ زاده ومضى يُخبُّ لقرنه مختالاً^{١٢}

* * *

فأتى وقد شهر الكميُّ بوجهه سيفاً يروع غراره الأغوالا^{١٣}
فدنا إليه أبو دلامة قائلاً: مهلاً فأغمد سيفك القصالا
إني أتيت وما أتيت مقاتلاً من لستُ أطلب عنده أنخالا
فاسمع مقالة من أتاك ولم يكن فيما يقول مُخادعاً محتالا
واعلم بأني لا أخاف منيَّتي جُبناً ولا أتهيب الأبطالا
لكن أرى سفك الدماء محرماً وأعيذ رأيك أن تراه حلالا
أمن المروءة أن نريق دمانا سَفهاً لمطمع طامع وضلالا؟!
هل كنتَ من قبل اللقاء رأيتني يوماً؟ وهل مني لقيتَ نكالا؟
أم هل طرقتُ خيام قومك جانياً؟ أم هل خربتُ بحيهم آبالا؟^{١٤}
ماذا جرى بيني وبينك قبل ذا مما يجزُ خصومة وجدالا
حتى شهرت عليَّ سيفك تبتغي ضرباً يُقطع مني الأوصالا؟
فأرأى الكميُّ مقاله متعالياً زحفوا جنوباً للوغى وخبالا
فرأى الكميُّ مقاله متعالياً حقاً وكل حقيقة تتعالى
فعنا وأذعن للحقيقة مغمداً سيفاً أجادته القيون صقالا^{١٥}
ولوى العنان من المطهم قائلاً: رُح بالأمان فلا لقيتَ وبالا

^{١١} الرئبال: الأسد.

^{١٢} انصاع عن عجل: انفتل راجعاً. وسمط زاده: من التسميط، وهو التعليق، يريد أنه علق الزاد على حصانه. والخبب: ضرب من السير متقارب الخطو في سرعة خفيفة. والقرن: الذي ينازك في الحرب.

^{١٣} الكمي: البطل. والغرار: حد السيف. والأغوال: جمع غول، وهو حيوان منكر الخلقة.

^{١٤} خربت: سرقت، والخارب: اللص.

^{١٥} القيون: جمع قين، وهو صانع السيوف وكل شيء من حديد.

فمشى إليه أبو دلامة مُخْرِجًا زَادًا تَعَلَّقَ بِالسُّمُوطِ مِثَالًا
ودعاه يا ابنَ أُولِي المَكَارِمِ رَاشِدًا أَكْرَمَ أَخَاكَ بِوَقْفَةِ إِمْهَالًا
إِنِّي لِأَرْجُو أَن تَكُونَ مَوَاكِلِي فِي ذَا الشَّوَاءِ أَلَا تَحِبُّ إِكَالًا
فَتَدَانِيَا مُتَخَالِفِينَ وَأَقْبِلَا وَهَمَا عَلَى فَرَسِيهِمَا إِقْبِلَا
حَتَّى إِذَا أَكَلَا شَوَاءً أَدْبِرَا بَعْدَ الْوَدَاعِ وَوَلِيَا الْأَكْفَالَا^{١٦}

* * *

رَجَعَا فَسَارَ أَبُو دَلَامَةَ ظَافِرًا وَالمَهْرُ يَجْفَلُ تَحْتَهُ إِجْفَالًا
حَتَّى إِذَا وَفَى الْأَمِيرَ وَقَامَ عَنِ كَثَبِ تَرْجَلٍ دُونَهُ إِجْلَالًا
وَعِدَا يَقُولُ وَكَانَ رَوْحٌ ضَاحِكًا: إِنِّي كَفَيْتُكَ قِرْنِي الرُّئْبَالَا
وَقَتَلْتَهُ بِالقَوْلِ لَا بِمَهْنَدِي وَالحَرْبُ أَحْرَى أَن تَكُونَ مَقَالَا
وَأَخَذْتُ فِي الهِجَا عَلَيْهِ مَوَاتِقًا أَلَا يَعُودُ يُنَازِلُ الْأَبْطَالَا

* * *

إِن الهَوَاتِفَ لَا تَزَالُ بِمَسْمَعٍ مَنِّي تَقُولُ إِذَا شَكُوتَ الحَالَا:
لَا تِيَأَسَنَّ فَلِلزَّمَانِ تَنفُسُ فَارْقِبْهُ أَن يَتَبَدَّلَ الْأَبْدَالَا
وَالدَّهْرُ طَاهٍ سَوْفَ يُنْضِجُ أَهْلَهُ بِالحَادِثَاتِ يَزِيدُهَا إِشْعَالَا
إِن الدَّهْرُ وَهَنٌ أَمَّهْرُ سَابِكٍ سَتَرْدُ أَضْدَادِ الوَرَى أَشْكَالَا
حَتَّى كَأَنِّي بِالطَّبَّاعِ تَبَدَّلْتُ غَيْرَ الطَّبَّاعِ وَزُلْزَلْتُ زِلْزَالَا
وَكَأَنَّنِي بِنَبِيِّ المَلَا حَمِ أَصْبَحُوا لِأَبِي دُلَامَةَ كُلِّهِمْ أُمْتَالَا

^{١٦} الأكفال: جمع كفل، بتحريك الفاء، وهو مؤخر الحصان عند ذيله.

أطلال العلم أو المدرسة النظامية في بغداد

قَوَّضَ الدهرُ بالخرابِ عمادي
كم أنادي وليس لي من مجيبٍ
ضعضع الدهرُ من بنائي أركا
طالما رفرفت من العلم رايا
كنتُ للعلم روضةً باكرت أز
وجميع الأنام تضرب أكبا
فالعزاليُّ سَلُهُ بي، وأبا إسـ
سَلُهُ إذ في طلابي الإبلُ النُّجـ
فرمتني صواعق الدهر فانهـ
فبكتني من السماء دَراريـ

وَرَمَتْنِي يدها بالأُنكادِ
وا ضياعاها جهرةً كم أنادي!
نَا شِدَادًا طالت على الأطوادِ
ت فخارٍ مني على بغدادِ
هارها الغرَّ بالعِهادِ الغوادي^١
د المطايا كي تجتني أوراـ^٢
حاق عما حويت من إرشاد^٣
بُ تُحَقِّى مَضْرُوبَةَ الأكبـ
بنائي وصرت بعض الوهادِ
ها وكانت تَعُدُّ من حُسـادي

* * *

أهل بغدادَ ما لأعينكم تغـ مِضْ عني كأنكم في رُقـادِ؟!

^١ العهاد: جمع عهد، وهو المطر بعد المطر.

^٢ الأوراد: جمع ورد، والمراد به هنا: الجزء الذي يقرؤه العالم من العلم، أو القارئ من القرآن في المرة والواحدة.

^٣ أبو إسحاق: كان من مشيخة بغداد، وإمام المذهب الشافعي بها.

أهلَ بغداد هل ترقُّ قلوبُ
رقَّ حتى قلبُ الجمادِ لفقدي
أفلا تنجدون مدرسة العـ
أين ما شيدَ من نظامي رُبعي؟
أين تلكِ العلومِ وهَي التي كا
كيف قضتْ خيامها زعزُعُ الدهـ
أقفرتْ سُوحها وقد نعي العـ
وتوارت بالجهل ظلمًا وكانت
أيها الدهر كلما شئت فافعل
ورعاني من راح من ظلمه العـ
فرّقوا جمع أمة قبلهم كا
منكم راعها انقضاصُ عمادي؟!
فلتكوننَّ قلوبكم من جماد
م وعهدي بكم أولي إنجاد؟!
فلقد كان نُجعة المرتاد
نت ربوعي تُذيعها في البلاد؟
ر وكانت رصينة الأوتاد؟!
م فلاحت تجرُّ ثوبَ الحداد
خافقًا فوقها لواء الرشاد
إن حدا في ركائب غير حاد
ل فقيدًا ميعاده في المعاد
نت لعمرى وحيدة الإتحاد

في سلانيك

قالها عندما زحف جيش سلانيك إلى الآستانة بقيادة محمود شوكت باشا؛ وذلك لقمع الحركة الرجعية التي حدثت في ٣١ مارس سنة ١٩٠٨.

لقد سمعوا من الوطن الأتينا
وناداهم لنُصرتِه فقاموا
وثاروا من مرابضهم أسودًا
شبابٌ كالصوارم في مَضاءِ
سلانيك الفتاة حوت ثراءً
لقد جمعوا الجموع فمن نصارى
فكانوا الجيش أُلْف من جنود
تراهم فيه متَّحدين عزمًا
هي الأوطان تجعل في بنيتها
وتتركهم أولي أنفٍ كبارًا
وأن الموت خير من حياة

فضجُّوا بالبكاء له حنينا
جميعًا للدفاع مسلَّحينا
بصوت الإتحاد مُزمجرينا
يُرُون، وكالشموس مُنورينا
بهم فنَضَّت عن الوطن الديونا
ومن هود هناك ومسلمينا
مجنَّدة ومن متطوعينا
وما هم فيه متحدين دينًا
إخاء في محبتها رصينا
يرون حياة ني ذل جنونا
يظل المرء فيها مستكينا

* * *

مشوا والوالدات مشيَّعات
يقلنَ وهن من فَرَحِ بَواكِ
على الباغين منتصرين سيروا
ولا تبقوا الذين قد استبدوا
خرجن وراءهم والوالدينا
وهم من حزنهم متبسمونا
وعودوا للديار مضفرينا
وراموا كيدنا وتخونونا

فإن لم تنقذوا الأوطان شرًّا بدارِ الملك كي يستعبدونا
هم الأشرار باسم الدين قاموا فعاثوا في المواطن مُفسدنا
فما تركوا من الدستور «شورى» ولا أبقوا لنعْمته «طنينا»^١

* * *

وكم قد قلن من قول شجِّي لهم فتركْنهم متهيِّجنا
ومذ حان الوداع دنون منهم فقبَّلن الصوارم والجفونا^٢
وما أنس التي برزت وقالت وقد لفتوا لرؤيتها العيونا:
ألا يا راحلين لحرب قوم لئام ضيعوا الوطن الثمينا
خذوني للوغى معكم خذوني ممرضة لجرحاكم حنونا
وإن لم تفعلوا فخذوا ردائي به سُدوا الجروح إذا دميना

* * *

ولما جدَّ جدُّهم استقلُّوا على ظهر القطار مسافرينا
فطاروا في مراكبه سراعًا بأجنحة البخار مرفرفينا
وظل الجيش صُبْحًا أو مساءً تسير جموعه متتابعينا
فلم يتصرَّم الأسبوع إلا وهم برُّبا فرُّوق مخيِّمونا^٣
هنالك قمتُ مرتحلًا إليهم لأبصر ما أوْمَل أن يكونا

* * *

وباخرةٍ علت في البحر حتى حكّت بعُبابه الحصن الحصينا
يؤثر جريها في البحر إثرًا تكادُ به تظنُّ الماء طينا
فتترك خلفها خطًّا مديدًا بوجه البحر يمكث مستبيننا
ركبت بها على اسم الله بحرًا غدا بسكون لجَّتِه رهيْنَا
فرحنا منه ننظر في جمال يعز على الطبيعة أن يهونا

^١ يشير إلى ما حل بجريدة طنين إذ ذاك وبمحل إدارتها من الهدم والتخريب في تلك الحادثة.

^٢ الصوارم: السيوف. والجفون: جمع جفن، وهو الغمد.

^٣ لما حدثت حادثة ٢١ مارس في الآستانة، كان الرصافي في سلانك؛ فلذلك قال: هنالك قمت ...

ومرأى البحر أحسن كل شيءٍ إذا لبست غواربه السكوناء^٤
كأنك منه تنظر في سماءٍ وقد طلعت كواكبها سفينا

* * *

أتينا دارَ قسطنطين صُبْحًا وقد فَتِحَتْ لهم فَتْحًا مبينا
وظل الجيش جيش الله يشفي بحدِّ سيوفه الداء الدفينا
فأزهق أنفُسَ الطاغين حتى سقاهم من عدالته المنونا
وردَّ الخائنين إلى جزاءٍ أحلَّهم المقابر والسجونا
وحَطُّوا قَصْرَ يلدزَ عن سماءٍ له فانحطَّ أسفل سافلينا
وأصبح خاشع البنيان يُغضي عيونًا عن تطاوله عمينا
خلا من ساكنيه وحارسيه فلم ترَ فيه من أحدٍ قطينا^٥
هوى عبدُ الحميد به هويًا إلى دركِ الملوك الظالمينا
وأُنزل عن سرير الملك خَلْعًا وأفرد لا نديمَ ولا قرينا
فَسِيقَ إلى سلانك احتباسًا له كي يستريح بها مصونا
ولكن كيف راحة مستبدٍّ غدا بديار أحرار سجيننا؟!
يراهم حول مسكنه سياجًا ويعجز أن ينيمَ لها عيوننا
وموت المرء خير من مقامٍ له بين الذين سَقَوْه هُونًا

* * *

لقد نقض اليمينَ وخان فيها فذاق جزاءً من نقض اليمينا
وقد كانت به البلدان تشقى شقاءً من تجبُّره مهينا
فكم أنكى بها نيران ظلمٍ وكم من أهلها قتل المئينا
وكان يُديرُ من سَفِّهِ رَحَاها بجعجةٍ ولم يُرها طحينا
وقد كانت به الأيام تمضي شهورًا والشهور مضت سنينا
ولمَّا ضاق صدر الملك يأسًا وصار يردُّه الوطن الأئينا

^٤ الغوارب: جمع الغارب، وهو في زوات الخف ما بين السنام والعنق وفي الكلام استعارة.

^٥ قطيئًا: أي قاطنًا وساكنًا.

ديوان معروف الرّصافي

أتى الجيش الجليل له مغيثاً
وأضحى سيف قائده المفدى
حماه من العداة فكان منه
وأسقط ذلك الجبّارَ قهراً
فقرت أعينُ الدستور أمناً
فصدّق من بني الوطن الظنونا
على الدستور محتفظاً أميناً
مكانَ الليث إذ يحمي العرينا
وأنبأه بصارمه اليقيناً
وشاهت أوجه المتمرّديننا

وقفة عند بلدز

قالها عقب خلع عبد المجيد وإرساله إلى سلانك سجيناً.

لِمَن القصر لا يجيب سؤالي
مشمخراً البناء حيث تراءى
لم تصبه زلازل الأرض لكن
وكسته الأيام بالصمت لَمَّا
فتراءت أبكاره شاحبات
أهلاتُ رُبوعه أم خوالي؟
باليًا مجده بلى الأطلال
قد رمته السماء بالزلازل
نطقتُ فيه حادثات الليالي
باكيات بأعين الأصال

* * *

أيها القصرُ إليه بعضُ جواب
ليت شعري والصمتُ فيك عميق
ما تداعى منك البناءُ ولكن
كنت كل البلاد في الطول والعز
كنت مأوى العُلا، مثار الدنايا
كنت جُبًّا وأيُّ جُب عميق
مورد الخائنين كنت وكانت
قصرُ عبد الحميد أنت ولكن
أين خاقانك الذي كان يُدعى
ما أرى اليوم ذلك المجد إلا
هل وقوفي على مبانيك إلا
لا تكن ساكتًا على تسألني
ذاكرًا أنت عهدهم أم سال؟
قد تداعى بناء تلك المعالي
ض وكل العباد في الأعمال
مهبط العز، مصدر الإذلال
بالعًا للنفوس والأموال!
منك تدلي مطامع العمال
أين يا قصر أين عرش الجلال؟
قاسمَ الرزق، باعث الآجال؟
كخيال يمر بعد خيال
كوقوفي على الطلول البوالي؟!

* * *

قد تخوّنتنا ثلاثين عامًا جئت فيها لنا بكل محال^١
تلك أعوام رفعة للأداني تلك أعوام حطة للأعالي
يَثبُّ العدل طافرًا كلما مرَّ عليها مشمّر الأذيال
ملأت خطة الزمان شنارًا فأبتها كلّ العصور الخوالي
وكأنّي أرى اضطراب نفوسٍ كنت تغتالها وأيّ اغتيال!
أسمع الآن فيك ما كان يعلو من أنين لها ومن إعوال
حائطات على الذي فيك أبقى من دفينًا على الرُفات البالي
تلك يا قصر أنفست منذ فك فطارت إلى سماء المعالي
وترقّت إلى نؤابة أعلى كوكب في سمائه جوال
وهي اليوم أحرقتك بشهبٍ قذفتها عليك ذات اشتعال
لم يضع مجدها وإن هي أمست ضائعات الأشلاء والأوصال

* * *

كيف ننسى تلك الخطوب اللواتي لقيت منك حربها عن حيال؟!^٢
يوم كنّا وكان للجهل حكم خاذل كل عالم مفضل
أمر من عتوه كلّ أمر يغرس البغض في قلوب الرجال
أفأصبحت نادمًا أيها القص رُ تبالي بالقوم أم لا تبالي؟
لم تفدك الندامة اليوم شيئًا قُضي الأمر فاصطبر باحتمال
وعزاءً فلسست أول قصر نكّس الدهر من ذراه العوالي
قد تداعى من قبلُ إيوان كسرى بعد أن طال شاهقات الجبال
وكأيّن من قصر ملك ترامي ساقطًا بالملوك والأقيال^٣

^١ تخوّنتنا: تعهدتنا.

^٢ لقيت الناقة: ضربها الفحل فحملت. والحيال: عدم الحمل، يريد إنك هيجت تلك الحرب بعد أن كانت ساكنة.

^٣ الأقيال: جمع قيل، وهو الملك الصغير يتبع الملك الكبير، كبعض ملوك الولايات في إمبراطورية كبيرة.

فابق يا قصر عابس الوجه كيما
وتعتّر فلا لعا لك الحق
إنما نحن أمة تدرأ الضيـ
أمّة سادت الأنام وطابت
فإذا ما غلا الغشوم نهضنا
نملاً الأرض إن مشينا لحرب
وإذا ما غلا المليك رددنا
نحن من شعلة الجحيم خلقنا
يا ملوك الأنام هلا اعتبرتم
ليس عبد الحميد فردًا ولكن
فاتركوا الناس مُطلّقين وإلا
هل جنيتم من التجبر إلا
يصبح الملك باسم الآمال
ينهض العدل ناشطاً من عقال
م وتأبى أن تستكين لوالي
عنصرًا من أواخر وأوالي
فقدفناه سافلاً من عال
بزئير الغضنفر الرئبال
هُ نليلاً يقاد بالأغلال
لأولي الجور لا من الصلصال
بملوك تجور في الأفعال!
كم لعبد الحميد من أمثال
عشتّم مُوثقين بالأوجال
كل إثم عليكم ووبال؟!

٤ لا لعا له: لا أنعشه الله إذا سقط.

تموز الحرية

واحفل بتمُّوز إن أدركت تمُّوزا
قد كان للشرق تكريمًا وتعزيًا
مَنْ رَقَ مَنْ كان يقفوا إثر جنكيزا
يومًا به كان مشهودًا لباريزا
بسالة هَدَّتِ البستيل مبزوزا^١
على البقاع لواء العزُّ مركوزا
بيض الصوارم بالدستور تنجيزا
فضلاً لبعض على بعض وتمييزا
حُكْمًا وكانت على عِلَّاتِها ضيزى^٢
من قائدين ولم نملك عكاكيزا
عصابة برَّزت في المجد تبريزا
أو هَجَّتْهم للمنايا هجت راموزا
قصاصهم من قحوف القوم لا الشيزى^٣

إذا انقضى ما رُت فاكسرُ خلفه الكوزا
أكرم بتمُّوزَ شهرًا إنَّ عاشره
شَهْرٌ به الناس قد أضحت محررة
سَلْ أهل باريز عن تمُّوز تلقَّ لهم
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم
وإن تمُّوز شهر قام فيه لنا
في شهر تموز صادفنا لما وعدت
هي المساواة عمَّتنا فما تركت
أمست لنا قسمة بالملك عادلة
كنا من الجور عميانًا وليس لنا
حتى نهضنا إلى العلياء تقدمننا
إن تلقهم تلق منهم في الوغى جبلاً
قوم إذا طعموا في حومة تخذوا

^١ مبزوزًا: مغلوبًا، وفي المثل: من عزَّ بزَّ: أي من قوي تغلب وانتصر.

^٢ قسمة ضيزى: أي جائرة.

^٣ القحوف هنا: عظام الجماجم. والشيزى: نوع من الخشب تصنع منه الجفان.

قمنا على الملك الجبار نفرعه
 حتى تركناه في هَيْجَاءٍ معضلة
 إنا لنأبى على الطاغى تهضمنا
 ونأكل الموت دون العز نمضغه
 لا عاش من لا يخوض الموت مرتضياً
 راعت سلانك دارَ الملك فانتبعت
 حتى غدت وهي في تموز ناكسة
 فالشاه في شهر تموزِ هوى وكذا
 يا شهر تموز لا راعتك رائعة
 يا شهر تموز قد زينت رايتنا
 من لي بأنجم هذا الأفق أنظمها
 أو أنحتُ الماس أقلماً مُعْرِضَةً
 وأجعل الجو في تموز أمدحه
 بالسيف مُنصلتاً والرمح مهزوزاً^٤
 أَلقت ضراماً على الطاغين مأزوزاً
 حتى نهوِّز في الهيجاء تهويزاً^٥
 كمضغنا التمر برنياً وسهريزاً^٦
 بقاءه بعصيّ الذل موكوزاً^٧
 من ذاك طهران تخشى أمر تبريزا
 رايات شاهِ رماه الخلع مجنوزاً^٨
 عبد الحميد هوى في شهر تموزا
 ولا لقيت من الأحداث إرزيزاً^٩
 بالعدل توشية فيها وتطريزاً
 قصائدًا فيك مدحاً أو أراجيزاً؟
 أمدها ذهباً في الطرس إبريزا
 طرساً أجادته كف النور ترزيزاً^{١٠}

^٤ نفرعه بالفاء: نعلو فرعه، وهو رأسه، وفي الأصل: نقرعه.

^٥ هوز تهويزاً: مات موتاً.

^٦ البرني: ضرب من التمر أصفر مدور. والسهريز بالسین والشين، بضمهما وكسرهما: نوع من التمر،

معرب.

^٧ موكوزاً: مدفوعاً مطعوناً.

^٨ المجنوز: المحجوز المستور.

^٩ الإريز: الرعدة.

^{١٠} يقال: رززت لك الأمر ترزيزاً: أي وطأته لك.

المجلس العمومي

وزال عنك وعن آفاقك الحلُّ
من النجاة بحبلٍ ليس يَنْهتك^١
والحق متبع والأمر مشترك
لهنَّ يمتد من نسج النهى شرك
كالماء يصطاد في ضحاحه السمك
ما لم يكن للقوى فيهن مُعترك
قوم بمستنقع الآراء قد بركوا
أحكامه الناس من عاشوا ومن هلكوا
تبدو من العدل في آفاقها حُبك^٢
حرية العيش برج والنهى فلك
على الرعية لا يستأثر الملك
أديانهم، ما بهم حقد ولا حسك^٣
وحياً من الله مبعوثاً به الملَك

يا شرق بُشراك أبدى شمَسك الفَلَكُ
أضحى بك القوم أحراراً قد اعتصموا
نادٍ به القولُ عن أهليه مستمَع
نادٍ إذا نفرت عنا الأمور به
يصطاد فيه شروءُ الحق عن كُثب
إن السحائب لم تظهر بوارقها
وللتدابير حرب لا يخيب بها
هذا هو المجلس الرحب الذي وسعت
هو السماء التي نعلو السماء بها
دارت بها شمس عزُّ الملك حيث لها
قد أصبح الأمر شورى بيننا فبه
وأصبح الناس في قُربى وإن بعدت
هذا الذي جاءنا الدين الحنيف به

^١ ينهتك: ينقطع.

^٢ حبك جمع حبيكة، وهي الطريقة.

^٣ حسك الصدر: حقد العداوة، يقال: إنه لحسك الصدر.

من قبلُ إذ قامَ يستولي ويمتلك
 ممن بكم سَخِرُوا من قبلُ أو ضحكوا
 يحيا امرؤ لم يكن في السعي ينهمك
 كلُّ به سائرٌ طَلَقًا ومُنسلِك
 ولم تجدْ حُرمة للعلم تنتهك
 مَنْ في القبور فهل في سمعكم سَك؟^٤
 حجابها عند أهل الغرب منتهك
 ولا أحاول منكم ترك ما تركوا
 ثم اسلكوا في المعالي أيَّة سلكوا
 سبغًا على قالب العلم الذي سبكوا
 إن لم يتمَّ له من شأوه الدرك^٥
 في حومة العيش تبلى دونها الشك^٦
 حتى تقوم وطود الجهل مؤتفك^٧
 فاضت بسيل الدواهي حولها برك
 سجنًا لمن أفسدوا في الأرض أو فتكوا
 تَهطالهنَّ دم في الأرض منسفك
 هذا الفسوق وذاك الفوز والنسك
 وهل تُرى يتساوى النورُ والحلْك؟!
 يا قومُ ساهون حيث الأمر مرتبك
 حتى لقد ملَّ من مضغ لها الحنك
 للناس قد وضحت من رشدهم سلك
 «حرية المُلْك أهدى شمسها الفلك»

هذا به نهض الإسلام نهضته
 يا قوم قد حان حينٌ تسخرون به
 مات الزمان الذي من قبلُ كان به
 هلا نظرتم لما في الغرب من سَنَن
 لم تُلَقَّ للحق وجهًا فيه محتقرًا
 في الغرب أصوات علم يبعثون بها
 فشمروا يا رجالَ الشرق عن همم
 ولست أطلب منكم فعلَ ما فعلوا
 بل فانذكروا أو ليكم كيف قد سلفوا
 واستخلصوا عسجد المجد الذي بلغوا
 لا عذر للشرق عند الغرب بعدئذٍ
 واستنجدوا العلم إنَّ العلم شِكته
 أما المدارس فلترفع قواعدها
 منابع العلم إن غاضت بمملكة
 من شاد مدرسة للعلم هدَّ بها
 وكم أثارت رياح الجهل من سُحبٍ
 فالعلم والجهل كل البون بينهما
 ضدان ما استويا يومًا ولا اجتماعا
 نادوا: البدارَ البدارَ اليوم إنكم
 كم رُدِّدت كلمات الناصحين لكم
 يا قوم قد طلعت شمس الهدى وبها
 وأنشد الشرق مسرورًا يؤرِّخها:

^٤ السك، بوزن سيب: الصمم.

^٥ الدرك: اللحاق.

^٦ الشك: جمع شكة، وهي السلاح.

^٧ مؤتفك: منقلب، يقال: اتفكت بهم الأرض: انقلبت.

يوم العروس

زفت إيلنا العروسُ وزوجُها الأنكليس^١
زفت إيلنا زفأفاً فيه الشقا والنحوس
المهر منا دماء والعرس حرب ضروس
كم مُزَّقت حرُمات وكم أضيعت نفوس
وكل هذا لتحظى بالبعل تلك العروس
يوم العروس لعمري يوم كرية عبوس

^١ الأنكليس والأنقليس، بفتح الهمزة: سمك شبيه بالحيات رديء الغذاء.

السياسيات

إلى الأمة العربية^١

هو الليلُ يغريه الأسي فيطولُ
أبيتُ به لا الغارباتُ طوالُ
وينشر فيه الصمتُ لبداً مضاعفاً
ولي فيه دمع يلذع الخدَّ حرُّه
بكيت على كل ابن أروع ماجدٍ
يليح من الضيم المذلُّ بغرة
من العرب: أما عرضه فموفر
له سلفٌ عزُّوا فبزُّوا نباهةً
ويُرخي وما غيرُ الهموم سُدولُ؟^٢
عَلِيٍّ ولا للطالعات أفول
فتَّطويه منِّي رنةً وعويلُ^٣
وحزن كما امتدَّ الظلامُ طويل
له نَسَبٌ في الأكرمين جليل
لها البدر ترَبُّ والنجوم قبيلُ
مصون، وأما جسمه فهزيل
ولم تعتورهم فترة وخمولُ^٤

^١ مثلُ شبان العرب في الأستانة رواية وفاء السموءل في مسرح «نبه ماشي» الكبير، الكائن في حي «بك أوغلي»، وطلبوا إلى الرصافي أن يحضر وينشدهم شعراً، فقال هذه القصيدة يعارض بها لامية السموءل المشهورة، وقد أنشدهم إياها في المسرح المذكور، وكان المكان غاصاً بمن كان في الأستانة من رجال العرب، وكثير من رجال الترك.

^٢ يغريه: يحضه؛ أي أن الأسي يحض الليل على الطول فيطول.

^٣ اللبد، بكسر فسكون: كل شعر أو صوف متلبد.

^٤ يليح: أي يخاف ويحاذر، والباء في قوله بغرة للمصاحبة، أو هي للتعدية، على تضمين يليح معنى يحمي ويعدل، فيكون المعنى: يحمي مليحاً من الضيم بغرة.

^٥ عزُّوا فبزُّوا: أي غلبوا فسلبوا.

وساروا بنهيج المكرّمات تقلُّهم
 وكانوا إذا ما أظلم الدهر أشرقت
 أولئك قوم قد ذوى روض مجدهم
 وقد أعطشته السحب حتى لقد علت
 رعى الله من أهل الفصاحة معشرًا
 ترامى بهم ريب الزمان كأنما
 فأمست من العمران خلوا بلادهم
 وعادت مغاني العلم فيها دوارسًا
 وقوِّضت الأيام بنيان مجدها
 قلائص من سَعِي لهم وخلول
 به غرر من مجدهم وحجول
 ولم تَسرِ فيه نسمة وقبول
 على الزهر منه صُفرة وذبول
 لهم كان فوق الفرقدين مقيل
 له عندهم دون الأنام نحول
 فهنَّ حُزون قفرة وسهول
 تجرُّ بها للرامسات ذيول
 فربّع المعالي بينهن محول

* * *

نظرت إلى عرض البلاد وطولها
 ولم تبدُ لي فيها معاهد عزها
 نظرت إليها من خلال ذوارفٍ
 فكنت كراءٍ من وراء زجاجة
 ولم أتبيّن ما هنالك من عُلا
 هناك حنيت الظهر كالقوس رابطًا
 وأوسعتُ صدري للكآبة فاغدت
 وأرسلت دمع العين فانهلّ جاريًا
 أأمنع عيني أن تجودَ بدمعها
 فإن تعجبوا أن سال دمعِي لأجله
 وما عشتُ أني قد تناسيت عهده
 وإن امرءًا قد أثلّ الهَم قلبه
 فما راقني عرض هناك وطول
 ولكن رسوم رثّة وطلول
 من الدمع طرفي بينهنّ كليل
 بعينيه كيما يَسْتَبِينُ ضئيل^٦
 لكثرة ما قد دبّ فيه نحول
 بكفي على قلبٍ يكاد يزول
 بأرجائه تحت الضلوع تجول
 له بين أطلال الديار مسيل
 على وطني؟! إني إذن لبخيل
 فإن دمي من أجله سيسيل
 ولكنّ صبري في الخطوب جميل^٧
 كقلبي ولم يلق الردى لَحْمول

^٦ شبه نفسه وهو ناظر إلى الديار من خلال الدموع الذوارف برجل وضع على عينيه زجاجة ينظر من ورائها، والمراد بالزجاجة ما تسميه العامة اليوم بالمنظرة أو بالعينيات.
^٧ وما عشت أني: أي لأنني، فحذف الجار، وحذفه قبل إن وأن قياس.

وما ليَ عنها في البلاد بديل؟
تهيج به أشجانه فيقول:
فتذهبَ عنكم غفلةً وذهول؟!
فيسكتَ عنكم لائمٍ وعذول!
إليها وأنتم جاهلون سبيل؟!
على الكون فيكم والحياة دليل
يَجُودُ على تشييدها ويطول؟
أَكول شروب للحياة قتول
ولكن كثير الجاهلين قليل
لهان عليكم للمَرام وصول
تلقَّاه منكم بالعِناد جهول
فريق طلبوب للمحال خذول
فعول وألفُ في مداه قَتُولُ
إلى اليأس أحيانًا أكاد أميلُ
به كل جهل في الأنام قَتيل؟
وإن كان منها في الطبابة فلولُ
فتنعش أرواح بها وعقول؟
وينشط للمسعي الحثيث كسول
فعتبي عليكم والملام فضول

أفي الحق أن أنسى بلادِي سلوة
أقول لقومي قول حيران جازع
متى ينجلي يا قوم بالصبح ليلكم
وينطق بالمجد المؤثل سعيكم
تريدون للعليا سبيلًا؟ وهل لكم
أناشدكم أين المدارس؟ إنها
وأين الغنيُّ المرتجى في بلادكم
بلاد بها جهل وفقر كلاهما
أجل إنكم أنتم كثير عديدكم
ولو أنَّ فيكم وحدة عصبية
ولكن إذا مستنهض قام بينكم
وأَيُّ فريق قام للحق صده
وإن كان فيكم مصلحون فواحد
على أنَّ لي فيكم رجاءً وإن أكن
ألستم من القوم الألى كان علمهم
لهم هممٌ ليس الطبابة تفلُّها
ألا نهضة علمية عربية
ويشجعٌ رعديدٌ ويعتزُّ صاغر
فإن لم تقم بعد الأناة عزائم

شكوى إلى الدستور^١

إلى قائم الدستور والعدل والحق
لها الحكم دون الناس في الفتق والرتق^٢
مطيغًا ولو من أجلها ضربت عنقي
بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق؟
علينا طلوع الشمس من منتهى الأفق
لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
هتفنا جميعًا بالوفاق وبالرفق
ولكن تراخي الأمر متسع الخرق
لديهم فيا لله للمسعد المشقي
وأنت عليهم حُجة لا على الخلق
وسدُّوا على من حولهم منبع الرزق
وكم مخضوا وأطاننا مخضه الزق^٣

شكاية قلب بالأسى نابض العرق
ملوك على كل الملوك ثلاثة
وأقسم أنني لا أكون لغيرها
فهل أيها الدستور تسمع شاكيًا
لقد جئت من أفق الصوارم طالعًا
فصادفت منا أمة قد تعشقت
ولم نبدِ عنفًا حين جئت وإنما
وظلنا نرَجِّي منك للخرق راقعًا
بك اليوم أشقانا الألي أنت مُسعد
نراك بأيديهم على الخلق حُجَّة
قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به
كأننا لهم شاء فهم يحلبوننا

^١ نشرت هذه القصيدة في المؤيد بمصر سنة ١٣٢٧ هجرية، قالها لما سقطت وزارة حلمي باشا، وقامت بعدها وزارة حقي باشا، ينتقد خطة الاتحاديين عقب الدستور.

^٢ أي لا طاعة إلا لهذه الأمور الثلاثة: الدستور، والعدل، والحق؛ فهي الملوك ولها الحكم في كل أمر.

^٣ قوله: «مخضوا وأطاننا»: أي استغلوا خيرها بمخضها.

ولم يتركوا للسّاكِنِيهَا سوى المذق^٤
 وتصبح للباقيين حبرًا على ورق؟!
 سوى نغبة من بعض سؤرهـم الرنق^٥
 كساقٍ يُرينا الماء عذبًا ولا يسقي
 نسابق أهل المجد في حلبة السبق؟!
 أنحن من الأحرار أم نحن في رق؟!
 وتألّف أخرى مثل تلك بلا فرق
 وساروا بمنهاج التبصر والحدق؟
 فإن طريق العدل من أوضح الطرق؟
 إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق
 كما جريًا حقي فمثلهما حقي^٦
 وإن كان يشجيني ويدعو إلى الزعق
 تزحزح من شاءت عن الأمر أو تبقي
 لبختُ بسر كالشجا هو في حلقي^٧
 وأبرق ولكن لا تكن خلْب البرق
 ولكن نناديهم وندعو إلى الحق
 وبينكم في الجِلّ منه وفي الدقّ^٨
 وإلا فيا سُحق المعاند من سحق
 وشيب وشبان على ضمّر بُلُق
 بعزم من السيف المهند مشتق
 بوجه يُلاقي الموت مبتسم طلق
 بدمع معاني الحسن في الخلق والخلق

وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها
 أترضى بأن تختص بالحكم معشرًا
 وهم يردون الصفو منك ولم نرد
 فما نحن إلا كالظماء وإنهم
 ألم تر أننا طولَ عهدك لم نقم
 ولم نك ندري لاهتضام حقوقنا
 ولم نستفد إلا سقوط وزارة
 وما ضرهم لو أسقطوا نهج سيرهم
 ألم يُبصروا للعدل غير طريقهم
 وماذا عسى يُجدي سقوط وزارة
 مضى كاملٌ من قبل حلمي وإن جرى
 وما الهمُّ عندي بالذي قد نكرته
 ولكن وراء الستر كفُّ خفية
 ولولا يدُ شدت لساني بنسعة
 فيا أيها الدستور فاقض بما ترى
 ولسنا نريد اليوم حُكمًا عليهم
 تعالوا إلى أمر نساويه بيننا
 فإن يفعلوا هذا فيا مرحبًا بهم
 سنطلب هذا الحقّ بالسيف والقنا
 بكل ابن حرب كلما شدّ هزها
 تراه إذا ما عبّس الموت وجهه
 من العُرب مطبوع الطبايع على العلا

^٤ المذق: هو اللبن الممزوج بالماء، المستخرج منه زبده.

^٥ النغبة: بفتح النون وبضمها: الجرعة. والسؤر بالضم: بقية الماء التي يبقّيها الشارب في الإناء.

^٦ كامل وحلمي وحقي: أسماء وزراء في الدولة العثمانية.

^٧ النسعة، بالكسر: حبل من أدم. والشجا: عظم يعترض في الحلق، وهو عندهم مثل للأمر المزعج.

^٨ الجِلّ والدق، وكلاهما بالكسر: الجليل والدقيق؛ أي العظيم والحقير.

في معرض السيف^١

هي المُنَى كَثُغُورِ الْغَيْدِ تَبْتَسِمُ
دَعِ الْأَمَانِيَّ أَوْ رُمَهْنَ مِنْ ظُبِيَّةٍ
وَالْمَجْدَ لَا تَبْنِيهِ إِلَّا عَلَى أُسُسٍ
لَوْ لَمْ يَكُ السِّيفُ رَبَّ الْمَلِكِ حَارِسَهُ
مَنْ سَلَّهُ فِي دُجَى الْأَمَالِ كَانَ لَهُ
وَالْعِلْمُ أَضْيَعُ مِنْ بَدْرِ بِمَسْبُخَةِ
إِنَّ الْحَقِيقَةَ قَالَتْ لِي وَقَدْ صَدَقْتَ
وَالْحَقُّ لَا يُجْتَنَى إِلَّا بِذِي شُطْبِ

إِذَا تَطَرَّبَهَا الصَّمصَامَةُ الْخَدِيمِ
فَإِنَّمَا هُنَّ مِنْ غَيْرِ الظُّبَا حُلْمِ
مِنَ الْحَدِيدِ وَإِلَّا فَهُوَ مِنْهَدَمِ
مَا قَامَ يَسْعَى عَلَى رَأْسِ لَهُ الْقَلَمِ
فَجَرًّا تَحَلُّ حُبَاهَا دُونَهُ الظُّلْمِ^٢
إِنْ لَمْ تُجَلِّلْهُ مِنْ نَوِّ الظُّبَا دِيمِ^٣
لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ إِلَّا فَوْقَهُ عِلْمِ
مَاءِ الْمَنْيَةِ فِي غَرْبِيهِ مَنْسَجِمِ^٤

^١ لما قام الإصلاحيون في بيروت يطالبون الدولة العثمانية بالإصلاح، قال الرصافي هذه القصيدة يؤيدهم بها.

^٢ «تحل حباها» بضم الحاء: جمع حبة، وهي اسم بمعنى الاحتباء، وتطلق على ما يحتبى به الرجل من ثوب أو عمامة، ويقال: «حل فلان حبوته»؛ إذا قام، كما يقال: عقد حبوته؛ إذا قعد، والمراد بكون الظلم في هذا البيت تحل حباها، أنها تزول دون ذلك الفجر.

^٣ قوله: «بمسبخة»: صفة لمحذوف؛ أي بأرض مسبخة وهي الأرض التي تحرث ولا ينمو فيها زرع.

^٤ «بذي شطب»: صفة لمحذوف؛ أي بسيف ذي شطب، والشطب: جمع شطبة، وهي طريقة السيف في متنه، وقوله: «في غربيه»: أي في حديه.

إن أسمعَتْ ألسُنُ الأَقلامِ ظالمها
فللحسام صليل يرتمي شرراً
هَبِ اليراعة رِءء السيف تَأزره
فالعلم ما قارنته البيض مفخرة
وإنما العيش للأقوى فمن ضعفت
والعجز كالجهل في الأزمان قاطبة
والمجدُ يَأثُلُ حيث البأس يَدعمه
وإنَّ شأوَ المعالي ليس يُدرکه

* * *

أها فأها على ما كان من شرف
أيام كانوا وشملُ المجد مجتمع
كانوا أجلُّ الورى عزاً ومقدرة
وأربط الناس جأشاً في موافقة
قومٌ إذا فاجأتهم غمة بدروا
على الحصافة قد ليثت عمائهم
قضوا أعاريبَ أقحاحاً وأعقبهم
جار الزمان عليهم في تقلُّبه
دب التباغض في أحشائهم مرضاً
فأصبح الذل يمشي بين أظهرهم
فأكثر القوم من ذلٍّ ومَسكنة
كم قد نحتُ لهم في اللوم قافية
وكم نصحتُ فما أسمعْتُ من أحدٍ

* * *

^٥ بدروا: أسرعوا. وأوفزتهم: أعجلتهم.

^٦ ونم الذباب ينم: إذا سلح، ومصدره الونيم.

يا ركبًا مَتَن مُنطاد يطيرُ به
يمرُّ فوق جَنَاح الرِّيح مخترقًا
يعلو إلى حيث يستجلي العيانُ له
حتى إذا حط منقضًّا على بلدٍ
أبلغ بني وطني عني مُغلغلةً
ما بالهم لم يُفبقوا من عمايتهم
إلى متى يخفرون المجدَ ذمته
ومن يَعِشْ وهو مضياعٌ لفرصته
وكل من يدَّعي في المجد سابقة

كما يطير إذا ما أفزع الرِّخْم^٧
عرض الفضاء ويعدو وهو مُعتزم
ما غمه الأفقُ أو ما وارت الأكم
ينقض والبلد الأقصى له أمم
في طيها كلم في طيها ضرم
وقد تبلَّج أصباح المنى لهم؟!
أليس للمجد في أنسابهم رحم؟!^٨
ذاق الشقاء وأدمى كفه الندم
وعاش غير مجيد فهو متهم

^٧ الرخم: طائر أبقع يشبه النسر في الخلقة، والواحدة منه رخمة.

^٨ خفر فلانًا: أي نقض عهده وغدر به.

ما هكذا^١

أصبحتُ أوسِعُهُم لومًا وتثريبًا
وألهبتُ منهم الأهواءَ جاريةً
وأرسلوهنَّ مُرخاةً أعنتها
فأرهبوا الشر حتى إن هَبوته
راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحةً
قد كلّفوا شططًا فيها حكومتهم
عدّوا النصارى وعدّوا المسلمين بها
قد حكّموا الدين فيها فهي مُعربة
من مُبلِّغُ القوم أن المصلحين لهم
لما امتطوا غارب الإفراط مركوبًا
إلى التفرق ألهوبًا فألهوبًا^٢
يُوغلن في الأمر إحضارًا وتقريبًا
مدت سرادقها في اللوح مضروبًا^٣
خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبًا
وخالفوا الحزمَ فيها والتجاريبا
ونحن نعهدُهُم طرًّا أعاريبًا
عما يكون لدعوى القوم تكذيبًا
أمسّوا كمن لبس الجلباب مقلوبًا؟

^١ لما اطلع الشاعر على لائحة الإصلاحيين في بيروت ورأى فسادها، قال هذه القصيدة يؤنبهم ويفند رأيهم في ذلك، وفي عقدهم مؤتمراً في باريس.

^٢ ألهبت منهم الأهواء: في الكلام استعارة بالكناية، حيث شبّه الأهواء بالخيل العادية، ومعنى ألهبت: اجتهدت في عدوها حتى أثارت الغبار، والألهوب: اسم بمعنى الإلهاب.

^٣ أرهبوا الشر: أي أثاروا رهج الشر؛ أي غباره. والهبوة: الغبرة، واللوح بضم اللام: الهواء بين السماء والأرض.

ما بالهم وطريق الحق واضحة
 أو في مصالح دنياهم وهم عربٌ
 ما ضرهم لو نحوًا في الأمر جامعةً
 لكنهم أمة تآبى مشاربهم
 قد حاولوا الحق واشتطوا بمطلبه
 قد يطلب الحق طيَّاش فيبطله
 قاموا يريدون إصلاحًا فقامت لهم
 ورحت أحنثهم حدوا بقافية
 حتى إذا محضوا آراءهم ظهرت
 ساروا وسرت فكان السير مختلفًا
 كانوا أحق البرايا مطلبًا فغدوا
 راموا انشقاق العصا بالشغب ملتهبًا
 إني لأبصر في بيروت قائبة
 أو أكره من «ديناميت» إذا انفجرت
 وقد رأيت أناسًا واصلين بها
 وآخرين بمصرٍ يطلبون لها
 ويترك الناس في دهياء مظلمة
 قل للعريسي، والأنباء شائعةٌ
 علامَ تعقد في باريز مؤتمراً

لا يسلكون إلى الإصلاح ملحوباً؟^٤
 جاءوا على حسب الأديان ترتيباً؟
 تنفي الكنائس عنها والمحاربا
 إلا التعصب للأديان مشروبا
 حتى بدا وجهه كالليل غريباً^٥
 ما كل طالب حق نال مطلوباً
 أستنطق الشعر تأهلاً وترحيباً
 غازلت في صدرها الآمال تشبيبا
 للناس زبدتها ثأياً وتخبيبا^٦
 يرمي لوجهين تشريقاً وتخريباً
 من أبطل الناس في الدنيا مطاليباً
 والحدق مضطرباً والضغن مشوباً
 للشمر موشكةً أن تخرج القوباً^٧
 فنارها تنسف الشبان والشيبا
 وهم بباريز ملبارود أنبوباً^٨
 تفرقها يجعل المعمور مخروباً
 يرتد منها بياض الشمس حلوباً^٩
 والصحف تروي لنا عنه الأعاجيبا:
 ما كنت فيها برأي القوم مندوباً؟

٤ ملحوباً: أي واضحاً، وهو صفة موصوف محذوف، أي: طريقاً ملحوباً.

٥ الغريب: الأسود.

٦ الثأى: الضعف والركاكة. والتخيب: الغش والإفساد.

٧ القائبة: البيضة. والقوب: الفرخ.

٨ ملبارود: أصله: من البارود، فحذف نون من الجار، واتصلت بالمجرور خطأً، وقد جاء استعمالها كذلك في شعر الأقدمين. وجملة: «وهم بباريز» معترضة. وأنبوباً: مفعول لواصلين. وملبارود حال من أنبوباً.

٩ الحلوب: الأسود الحالك.

وهل تعمّد «حقي العظم» فعلته
إذا راح يستنجد الإفرنج منتصفاً
لما نمى خيراً «للطان» مكذوباً؟^{١٠}
كأنه حملٌ يستنجد الذيبا

* * *

خافوا التذبذب في أعمال دولتهم
وكان خوفهم حقاً لو أنّهم
لكنّهم جاوزوا نهج الصواب إلى
ولم يُبالوا بما أبدوه من جنفٍ
فهم كمن فرّ من قطرٍ يبُلُّه
لو كان في غير باريزٍ تألّبهم
لكنّ باريز ما زالت مطامعها
ولم تزل كل يوم من سياستها
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم
من أن يُجرّ على الأوطان تخريبا
لم يعدلوا عن طريق الحق تنكيبا
وادي تُهلّك فاستقصوا به الحوبا^{١١}
أن يمسي الوطن المحبوب محروبا
ثم انتحى السيل أو جاء الميازيبا
ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا
ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا
تلقي العراقيل فيها والعراقيبا
جيش يدك من الشام الأهاضيبا؟

* * *

يا أيها القوم لا يغزركم نفر
جاءت رسائلهم بالشر مغرية
فطالعوهنّ بالأيدي مطالعة
إن يصدقوا إنهم لا يلبسون سوى
فسوف يقرع كلُّ سنّه ندمًا
ضجّوا بباريز إفسادًا وتشغيبا
تفتنّ في المكر أسلوبًا فأسلوبا
تسطو عليهن تمزيقًا وتأريبًا
محصّ النصيحة في الدعوى جلابيبا
ويُسبّلُ الدمع في الخدين مسكوبا

^{١٠} لما عقد المهوسون من العرب في باريز، أرسل حقي العظم إذ ذاك بمصر تلغرافًا إلى جريدة الطان الباريزية، يطلب فيه من الحكومة الفرنسية أن تتدخل في أمر سورية، ففي هذا البيت وما بعده إشارة إلى هذا التلغراف الذي أرسله حقي العظم.

^{١١} وادي تهلك، بضم التاء والهاء وتشديد اللام المكسورة: هو الباطل، ويستعمل ممنوعًا من الصرف.

في ليلة نابغية^١

خاض الدجى وظلام الليل مختلطُ
يَبُثُّ في الليل حزنًا لو أحس به
أبديه منقبضًا منه على شَجَن
أرسلت منه أنينًا فات أوله
والليل أرسل وحفًا من غدائره
والنجم في القبة الزرقاء تحسبه
كم قلت والليل جتُّ الشعر فاحمه
ينجاب ليل العمى عن قلب سامعه

صوت به الوجدُ مثلُ السيف مخترطُ^٢
لبان في لمتيه الشيبُ والشمطُ^٣
فيملأ الليل إرنانًا وينبسط
سمعي وآخره بالقلب مرتبط
كأنه بثريًا الأفق يمتشط^٤
فرائدًا وهي من فيروزج سَفَطُ^٥
شعرًا به كاد فرع الليل ينمعط^٦
كالفجر إن لاح فالظلماء تنكشط

^١ لما نشر الرصافي قصيدته «ما هكذا» ضج له ضجيج القوم، وأخذت صحفهم تشنع عليه الأمر، وترميه بما هو براء منه وخلاء، فبلغه الخبر وهو إذ ذاك في الآستانة فبات له قَلِق الحشا، فكتب هذه القصيدة وكأنه كان في ليلة نابغية.

^٢ مخترط بصيغة المفعول: أي مسلول.

^٣ الشمط: بياض الشعر، فعطفه على المشيب من قبيل عطف التفسير.

^٤ الوحف، بفتح فسكون: الشعر الأسود الحسن.

^٥ السفت بفتحتين: وعاء مقعر مستدير كالقفة، أكثر ما تستعمله النساء لوضع حليها.

^٦ الجتل من الشعر: الكثير اللين. والفرع: الشعر التام. وينمعط: يتساقط ويتمرط، والمراد بفرع الليل: ظلامه، وبانمعاطه: انجلاؤه وإضاءته.

لهفي على حِكْمٍ ما زلت أنثُرُها ذرّاً ثميناً وما في القوم ملتقطاً!
ضاع الدواء الذي قد كنت أوجره مَنْ ليس يشرب أو من ليس يَسْتَعِطُ^٧
تقول لي - إن غبِطُ القومَ - تجربتي: لا تغبِطَنَّ فما في القوم مغتبط

* * *

قُلْ لِلأَلَى نطقوا بالضاد مُدَّغَمًا: لم يدغِمِ الضادُ آباءَ لكم فرطوا^٨
أَيَحْسُنُ اللحنُ إذ آباؤكم فصّحوا أم يحسن العجزُ إذ آباءكم نشطوا؟!
فيكم غلوٌ وتقصيرٌ وبينهما ضاع المراد أنتم أمة وَسَطٌ؟!
إني ابتليت بقوم يبعرون على أعقابهم، وإذا عنفتهم ثلّطوا^٩
شطّوا بأقوالهم حتى لقد غضبوا إذ قلت: يا قومُ في أقوالكم شطط
فبدّلوا القول إن صحّت عزائمكم فعلاً وإلا فإنني يائس قنِط
قد جرت في الأمر؛ إني حين أسخِطهم يرضون عني وإن أرضيتهم سخطوا
فاز الذي كان في أحواله وَسَطًا فالمرُّ يُعقى وإن الحلو يُسَترط
قل للأعاريب: قد هانت مكارمكم حتى ادّعاها أناس كلهم نَبِطُ^{١٠}
برأت للعرب العرباء من فئّة ينمون للعُرب إلا أنهم سَقط
أين المكارم إن هم أصبحوا عَرَبًا فإنها في طباع العرب تشتط؟
إن يغمِطوني لأني جئت أنهضهم فأني مستنهض ذي نجدة غمطوا
هم كالضفادع فاسمعهم إذا رطنوا فما هنالك إلا اللغو واللغظ
يستنثرون صغارًا من معاطسهم ولا يبالون أن قالوا وأن ضرطوا
العارُ يرحل مَعهم أينما رحلوا والخزي يهبُ معهم أينما هبطوا
من كل أشوه لاحت من مغامزه

^٧ قوله: «أوجره» نقول: أوجرت المريض الدواء؛ إذا صببته في فيه، ويستعط: يُدخل السعوط في أنفه.

^٨ فرطوا: أي سبقوا وتقدموا.

^٩ يبعرون: أي يرمون رجيحهم بعراً، وهو رجيح ذات الخفّ. وقوله: «ثلطوا» أي: سلحوا سلحاً رقيقاً، يقال للإنسان إذا رق نحوه: هو يثلط ثلطاً. ومعنى البيت: إني إذا لمتهم على خطئهم الصغير، فبدل أن يكفوا عنه يأتون بخطأ أكبر.

^{١٠} النبط بالتحريك: جيل من العجم، ويستعمل أيضاً في أخلاط الناس وعوامهم.

في ليلة نابغية

قد رثَ عرضاً وإن جدت مآزره
تراه يشخر عند الأكل من جشع
الخلق كالخَطِّ لا تقرأ لئامهم
إن رُمت تشيع من مجد فكلُّ همماً
نفسي تجيش لأمر لو صدعت به
من كلِّ مخزية في وجهه شَرَط^{١١}
كأنما هو عند الأكل يمتخط
واشطب عليهم بنعل إنهم غلط
كأكلك السمن ملبوگًا به الأقط
لزلزلت دونه البلدان والخطط

^{١١} الشرط، بالتحريك: العلامة.

إلى السلطنة

هم يَعُدُّونَ بِالمئاتِ ذكُورًا
ولهم أَعْبُدُ بها وإماء
تركوا السعي والتكسب في الدنـ
يتجلى النعيم فيهم فتبكي
يأكلون اللَّبَاتَ من كدِّ قوم
فكأنَّ الأنامَ يشقونَ كدًّا
وكأنَّ الإله قد خلق الننا
نعموا في غضارة الملك عيشًا
فإذا صاولَ العدوَّ خرجنا
وإذا هم جرُّوا الجرائرَ يومًا
وإذا ما استهلَّ فيهم وليد
قد رضينا بذاك لولا عتوُّ
ما بهم ما يميزهم عن بني السو

وإنَّا لهم قصور مُشاله
ونعيم ورفعة وجلاله
يا وعاشوا على الرعية عاله
أعين السعي من نعيم البطاله
أعوزتهم سَخِينة من نخاله^١
كي تنال النعيم تلك السُّلاله
س لَمَحْيا آل السلاطين آلـه
وحملنا من دونهم أثقاله
دونهم للوغي نردُّ صياله
فعلينا تكون فيها الحماله^٢
فعلينا رِضاعُه والكفاله
أظهروه لنا على كل حاله
قة إلا رسوخهم في الجهاله

^١ سخينة: طعام أو حساء يتخذ من دقيق وتمر، ويؤكل أيام الجهد. والنخالة: ما يبقى في المنخل بعد الدقيق من قشر الحب.

^٢ الحمالة: ما يتحملة المحاربون من ديات القتلى.

هم من الناس حيث لو غُرِبِلِ النّا
ومن الجهل حيث لو صوّر الجهـ
حملونا من عيشهم كل عبءٍ
فكفينا أصهارهم مؤنة العيـ
تلك والله حالة يقشعُرُ
هي منهم دناءة وشنارُ
ليس هذا في مذهب الإشتراكيـ
وهو في الملة الحنيفية البيـ
س لكانوا نفايةً وحثاله
ل لكانوا بين الوري تمثاله
ثم زادوا أصهارهم والكلاله^٣
ش فكانوا ضغثًا على إباله^٤
الحقُّ منها وتشمئز العداله
وهي منا حماقة وضلاله
ة إلا من الأمور المُحاله
ضاء كفرُ برّبنا ذي الجلاله

^٣ الكلالة: ذو القرابة غير الوالد والأولاد؛ يريد من ليسوا شديدي القرابة.

^٤ الضغث: ما يملأ الكف من قضبان أو حشيش أو شماريخ. والإبالة: الكومة الكبيرة منه.

الوطن والأحزاب^١

متى نرجو لغمّتنا انكشافا
ملأنا الجو بالجدل اصطخاباً
وما زلنا نهيم بكل وادٍ
ونرجف في البلاد بكل رعبٍ
ونتهم الحكومة باعتسافٍ
وكم من ناعبٍ في القوم يدعو
تباكيننا على الوطن اختداعاً
أجاعتنا المطاعم فاختلفنا
ولكننا من الوطن المُفدّى

وقد أمسى الشُّقاق لنا مطافاً؟!
وكنا قبلُ نملؤه هُتافاً
من الأقوال نرسلها جُزافاً
يهزُّ فرائص الأمن ارتجافاً
ونحن أشد ظلمًا واعتسافاً
بوشك البين تحسبه الغدافاً
فأنبتنا بأدمعنا «الخلافا»
لنملاً في موائدنا الصحافاً
نخيط على مطامعنا غلافاً

* * *

أرى أنف الحوادث مشمخراً
ويوشك أن يمزق منخريه
غداً يتشمّم الحدّث الجرافاً^٢
عطاس يملأ الدنيا رعافاً

^١ قال الرصافي هذه القصيدة عندما سقطت وزارة الاتحاديين، وقامت وزارة أحمد مختار باشا الغازي، وذلك قبل الحرب البلقانية، وكان الخلاف بين الاتحاديين والائتلافيين في أشد حالاته.

^٢ الجراف: الجارف.

فهل لوزارة «الغازي» اقتدارٌ تردُّ به الهزاهز والنّقافا^٢

* * *

أقولُ، ولو يسوء القومَ قولي
قد اختلف البرية واختلفنا
فلا تغررك أحزاب شداد
فإن بواطن القوم احتراضٌ
وما اختلفوا لمصلحة ولكن
هو الدينار مُنية كل راجٍ
نَحُجُّ لأجله بيت المخازي
ترى كل الأنام به سُكاري
فحبُّ سواه في الأفواه جارٍ
هو الحرب التي زحفت إليها
وكم قد رنَّ في أمل مُخافٍ
إذا خطب الوضيع به المعالي
أرى الأحزاب من طمع وحرصٍ
يجانف بعضهم في الرأي بعضًا
لئن خطأت من راموا «اتحادًا»
فإن مشارب العدوان منها
وهم كأولي الديانة كل حزب
وماذا نفع أقوال سمانٍ
وأنى يُصلِح الأوطان قومٌ
فكن منهم على طَرْفٍ بعيدًا
فهم كالبحر يهلك راكبوه

بيانًا للحقيقة واعترافًا:
فكنا نحن أسوأها اختلافًا
بأن لهم أقاويلًا لطافًا
وإن أبدت ظواهرهم عَفافًا
ليأكلَ أقوياؤهم الضّعافًا
وَبُغية كل من دأب احترافًا
ونكثر حول كعبته الطوافًا
وغيرَ هواه ما ارتشفوا سلافًا
ولكن حبه بلغ الشغافًا
كتائب كل من طلب الزحافًا
فأمّن صوته الأمل المُخافًا
أقام له بنو الشرف الزفافًا
قد اخترقوا إلى الفتن السّجافًا
ويئس الرأي ما التزم الجنافا
فما صوّبت من راموا «ائتلافًا»
كلا الحزبين يرتشف ارتشافًا
يراه أحقّ بالحق اتصافًا
إذا أفعالهم كانت عِجافًا؟!
بها أشتى تدابرهـم وصافًا؟!
وحاذر أن تكون لهم مضافًا
ويسلم منه من لزم الضّفافًا

^٢ الهزاهز: الحروب والفتن التي تهز الناس. والنقاف: هو المضاربة بالسيوف على الرؤس. ووزارة الغازي: هي وزارة أحمد مختار باشا الغازي.

عند سياحة السلطان^١

قل للحكومات في البلقان: هل علقت
إن الذي تضمرون اليوم من طمع
لم تعرفوا مُدَّ لَمَسْتَم عرق نخوتنا
إنا لنعرف لغزاً في سياستكم
ألم تروا أننا مستوفزون لكم
زار المليك بلاد الروم حيث غدا
فزال كل فساد كان منتشراً
حتى اطمأنت قلوب الناس هادئة
وأصبح المترجّي من مطامعكم

آمالكم من مواعيد بإنجاز؟
أمسى لأشعب يعزو مثله العازي
إذ قد لمستم بكفّ ذات قفّاز
وما السياسة إلا بيت ألغاز
إذ نحن منكم على جذر وأوفاز^٢
يُلقي الدسائس منكم كل همّاز^٣
من عندكم بين إغراء وإيعاز
وكل قلب لكم من غيظه نازي^٤
يرنو إليكم بطرف ساخر هازي

^١ لما أخذت حكومات البلقان تشتغل بإيقاد الفتنة السياسية في مقدونيا وبلاد الألبان، وخرج السلطان رشاد إلى البلاد المذكورة سائحاً سياحة سياسية، قال الرصافي هذه القصيدة، وقد رفعها إلى السلطان فأجازها عليها بساعة من ذهب، ذات سلسلة ذهبية.

^٢ مستوفزون: متهينون للوثوب عليكم، نحن على أوفاز: أي حد عجلة، أو على سفر قد أشخصنا، والأوفاز: جمع وفز وهو العجلة.

^٣ الهمّاز، كشدّاد: العيّاب الطعان.

^٤ نازي: أي واثب.

ولاعبتْ نسماتِ الحبِّ ألويةً
يا أيها الملك السامي بحكمته
قد عَيَّ في وصف ما أوتيت من حكم
غزوت غزوّ سلام دون غايته
ملكْت بالعفو والإحسان أفدّةً
وأنت لو شئت إرهابًا لجئتهم
لكنما جئتهم بالعفو تأخذهم
فاغمد سيوفك إن العفو منصلتُ
بالترك بالروم بالألبان قاطبة
أما بنو العُرب فالإخلاص يرفعهم
إذ هم عمادٌ لعريش أنت ماسكه
ورض بهم كل صعب، إنهم فئة
وهم ركاز العُلا لو زرت أرضهم
إن يعجز الأمر عن مشي فهم سندٌ
وإن خشيت على البلدان جنتها
وسيفٌ مُلكك إن رثت حمائله
زر أيها الملكُ المحبوب موطنهم
وانظر إليه بعين منك شافيةٍ
أشتمُّ وأعرقُ ورُح من بعد محتجزًا
ماذا على ملك الدستور من وطن

من الرشاد أقيمت فوق أنشاز^٥
والمبدل الناس من ذلّ بإعزاز
كلا كلامي: إطنابي وإيجازي
غزو الحروب فأنت الفاتح الغازي
كانت إلى السيف فيها بعض إعواز
بصارم لنواصي القوم حزار
والعفو أفضل ما يجزي به الجازي
واهناً بشعبٍ مُحبٍّ غير منحاز
بالأرمنيين بالبلغار باللاز
إلى مقامٍ على الأقوم ممتاز
فاضرب بغاث العدا منهم بأبواز
تبغي الصدور ولا ترضى بأعجاز
يومًا لأركزت فيها أيّ إركاز^٦
لو كنت مُسنده منهم بعُكاز
فنطُ بها من نُهاهم بعض أحرّاز^٧
أغنوك في رأبها عن كلّ خرّاز^٨
ولو زيارة عجلانٍ ومجتاز
ما نابه اليوم من جهل وإعواز
وأيمننّ بعزم غير هزهاز^٩
لو جال منه بأطراف وأجواز

^٥ أنشاز: جمع نشز بالتحريك، وهو المكان المرتفع.

^٦ الركاز: ما ركزه الله في المعادن من ذهب وفضة.

^٧ الأحرّاز: مفردها الحرز؛ ما يتخذ لدفع الشر والجنون.

^٨ في رأيها: أي في إصلاحها. والخرّاز: فعال من الخرز، وهو خياطة الجلود.

^٩ احتجز الرجل: أتى الحجاز، وأيمن: أتى اليمن. وقوله: «بعزم غير هزهاز»؛ أي غير مضطرب.

الحق والقوة

مشى ضاربًا في الأرض تلفظه الطُّرُقُ
وحييدًا فما يتوَّيه غربٌ ولا شرقُ
إلى حيث لا إنس ولا طائر يزقو
ويظهر أحيانًا كما أومض البرق
وهم من قديم الدهر أعداؤه الزُّرق
إذا ظهرت ينسدُّ من دونها الأفق
قذائف من نارٍ كما أمطرَ الودق^١

أرى الحقَّ لم يغش البلاد وإنما
فيصبح في أرض ويُمسي بغيرها
توطنَ قفرَ الأرض مبتعدًا بها
وقد يهبط الأمصارَ وهو محجَّب
ومن عجبٍ أن الوريَّ يدعونه
أعدُّوا له في البر والبحر قوةً
وطاروا بطياراتهم يُمطرونه

* * *

تُذل لها الأعناق قهراً وتندق
ولا يتحاشى عن ظلامته الخلق؟
تعارض في أوصافها الكذب والصدق
بأشياء من بطلانها ضحك الحقِّ
أجازوا لهم أن يشمل الأمم الرقُّ
من الأسر مشدودًا بأعناقها ربق؟
من العنف لم يمرر بساحتها رفق

يقولون: إن الحق في الخلق قوة
فما باله يُمسي ويصبح شاكيًا
إلى الله نشكو الأمر من مدنيَّة
وكم قد سمعنا ساسة الغرب تدعي
فهم منعوا رقَّ الأسير وإنما
ألم تر في القطر العراقي أمة
قد اختط فيه السيف للقوم خطة

^١ الودق: المطر كله؛ شديده وهينه.

وأوجرهم سَمًّا من الذلّ ناقعًا
فدجلة من وقع الشوائب أصبحت
وإن الفرات الغمر أمسى وماؤه
بكأس من العُدوان ليس لها مذق
تُعاف؛ لأنّ الماء في حوضها رنق
من الضيم غورٌ ما لأوشاله عمق

* * *

رعى الله بين الواديين مَواطنًا
قضيت بها عصر الشباب فلي بها
فلا تعجبوا من أنني عند ذكرها
وإني إذا أبصرتها مستضامة
ألم ترها قد أصبحت من إسارها
تجر قيود الذلّ راسفَةً إلى
ويحلب شطريها العدو ضرائبًا
سلامٌ على وادي السلام الذي به
سنفديه حتى لا حياة عزيزة
وندرك فيه ثأرنا بكتائب
وإن الليالي بالخطوب حوامل
فتنتج حربًا ما يبوخ سعيها
بكل أخي عزم كأنّ مضاءه
تلقّف رايات العلا بسواعد
فإما المنايا نستطبُّ بطبها
إذا نحن لم نملك على الدهر أمره
إذا ذكرت يهتز بي نحوها عشق
خاطر لم يسمح بإفشائها النطق
أنوح عليها مثلما ناحت الورق^٢
يكاد لها قلبي من الحزن ينشق
تليح بطرف في لواظله العتق؟
تكاليف حكم في سياسته المحق
ويمخضها درًا كما يُمخض الزق
تفاقم هول الخطب واتسع الخرق
ونبذل حتى لا نفيس ولا علق
لها نسب من صلب يعرّب مشتق
ولا بدّ يومًا أن سيأخذها الطلق
وتستنّ في ميدانها الدُّهم والبُلُق
مشطّبة بيض ومسنونة زُرُق
لهنّ بتصريف القنا في الوغى حذق
وإما مُنَى فيها يتم لنا السبق
فلا دام فينا نابضًا للعلا عرق

^٢ الورق: الحمام، مفردها الورقاء.

صبح الأمانى^١

وكشَّر عن صبح الأمانى مُفْتَرًا^٢
وبزَد حَزًّا كان في كبدي الحَرَى
بحاشية الزرقاء كالدم مُحمراً
بحسن ولكن قد تجهم وازوراً
ضئلاً كمنهوك غدا يشتكى الضراً
أأطمع أم أستشعر اليأس مضطراً؟
تسرَّى عن النفس الكئيبة ما سرَّى
فزادت شكوك النفس من أجل ما ورَّى
كأن هُوَ يخشى أن أذيع له سرّاً
وإن أسفرت أوضاحه الغرُّ مُغْتَرًا
ولا كل ليل مظلم يُضمّر الشرّاً
بوعدٍ فحيا الله طلعتك الغرّاً

تبلِّج أفقُ الشرق من بعد ما اغبرّاً
ولو كان صُبْحًا ناصع اللون سرنى
ولكنه صُبْحٌ يلوح لناظري
أراه كوجه الغادة الخود راقنى
لمحت تباشير المنى من خلاله
ولم أدِرِ لما استبهمت أخرياتهُ
ولو كنتُ أدري ما وراء احمراره
ولكنه ورَّى عواقب أمره
يهامسني بالوعد قولاً مجمجماً
وإني لأخشى أن أكون بوعدهِ
وما كل صبح يرتجي الناس خيرهِ
فإن كنت يا صبح الأمانى صادقاً

^١ نشرت الجرائد مقالاً لشكري غانم بباريس صرح فيه بالتهرؤ من الأمة العربية، قائلاً: إننا — معاشر السوريين أو اللبنانيين — لسنا بعرب، وإن تكلمنا بالعربية، وإنما نحن فينيقيون، فقال الرصافي هذه القصيدة؛ يرد على شكري غانم.

^٢ يشير بقوله: «تبلج أفق الشرق» إلى حكومة دمشق، وكنى عنها بافترار الشرق عن صبح الأمانى.

* * *

خليليّ هل من عاذرٍ في قصيدةٍ أقول بها حقًا وإن قلته مُرًّا!^٣
أرى هُبوةً سوداءٍ في الجو أسبلت حجابًا بأفاق العراقين مُمتَرًّا^٣
وأرخت بأرض الشام منها على الربا سُدولًا بها جو السماء قد اغبرًّا
ومدت على بيروتٍ منها غيابةً بها عاد وجه الأفق أسفَع مُكدرًّا^٤
وما هي إلا عارضٌ من تناكرٍ به مربع الآمال أقفر واقورًّا^٥
ترى القوم فيه نوّهم متخاذلٌ وآمالهم أمست كتيبتهَا فُرِّي^٦

* * *

عجبت لقوم أصبحوا يُنكروننا وقد عرفونا في الزمان الذي مرًّا
همُ أسمعونا نعرةً عربيةً فدوّى صداها في المسامع مُضطَرًّا
فكم من خطيب قام فيها مثرثرًا فطرّى لنا من يابس القول ما طرّى
وكم شاعرٍ قد أرخص الشعرَ دونها وكم قلم فوق الطروس بها صرًّا
وكنّا أجبناهم إليها إجابةً بها قد تركنا جانب الدّين مزورًّا
رجاء اتحادٍ في طريقِ سياسةٍ تعمُّ مراميهَا بني يعربٍ طرًّا
فمذ حان أن يخضلَّ غصن اعتزازنا ويرجع بعد البُيس رطبًا ويخضرًّا
نصبنا خياشيم الرجاء لريحهم فهبت لنا نكباء عاتية صرًّا

* * *

لعمرى لقد ساء الكرام ابنُ غانم بباريس إذ قد قال ما يُخجل الحرًّا

^٣ يقال: امتَرَّ به؛ أي مرَّ به.

^٤ الغيابة: كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه، كالغبرة والسحابة ونحو ذلك. وأسفع: ذو سواد وشحوب. ومكدرًا: أي كدر.

^٥ اقورًّا: ذهب نباته.

^٦ قوله: «نوّههم متخاذلٌ»: أي ضعفاء. وقوله: «أمست كتيبتهَا فُرِّي»، بضم الفاء وتشديد الراء: أي منهزمة.

نَفَى عن مَنَامِيهِ العَرُوبَةَ وَاذَّعَى
وَهَلْ حَسِبُوا أَنْ العَرُوبَةَ فِي الوَرَى
كَأَنْ لَمْ يَقُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ نَاعِرٌ بِهَا
فَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ وَفَى بعهوده
وَكَانَ غَرُورًا كُلِّ مَا حَالَفُوا بِهِ
وَعَادَ الَّذِي كُنَّا نَوْمُلُ مِنْهُمْ
وَقَدْ صَوَّحَتْ تِلْكَ الأَمَانِيَّ كُلُّهَا
وَأَصْبَحَ فِينَا شَامِتًا كُلُّ مَنْ غَدَا
جُزَافًا وَخَلَّى مِنْهُجَ القَوْمِ وَابْتَرَا^٧
مِنَ العَرِّ حَتَّى أَنْكَرُوا ذَلِكَ العَرَا؟!^٨
وَلَمْ يَكْ ضَرَانَا بِهَا أَمْسَ مَنْ ضَرَا^٩
وَلَا أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَا قَالِ قَدْ بَرَا
وَشَرَّ الحَلِيفِينَ الَّذِي خَانَ أَوْ غَرَا
إِلَى غَيْرِ مَا كُنَّا نَوْمُلُ مِنْجَرَا
فَحَاكَتْ نَبَاتَ الأَرْضِ إِذْ هَاجَ مَصْفَرَا
لأَبْنَاءِ قَنْطُورَاءَ يَغْضِبُ مَمْقَرَا^{١٠}

^٧ نفى عن مناميه: أي عن مناميه. ابتر: من الابتزاز، وهو الاعتزال والانفراد عن الأصحاب.

^٨ العر بالفتح: العيب.

^٩ قوله: ضرانا بها: أي أغرانا، يقال: ضراه بكذا تضرية؛ أي ألهجه به وأغراه وعوده إياه.

^{١٠} أبناء قنطوراء: الترك. وقوله ممقرا: أي ناتئا عرقه، ويكون ذلك عند الغضب.

نواح دجلة

قالها بعد سقوط بغداد في أثناء الحرب العامة؛ جوابًا عن قصيدة الشاعر التركي الشهير سليمان نظيف.

كُلُّ حُزْنٍ لِمَائِهَا يَمْتَا حُ
بِيدِ الذَّلِّ هَالِكٌ مَجْتَا حُ؟!
جَلَلٌ مَا لَلَيْلِهِ إِصْبَا حُ
ظُلُمَاتٌ تَخْفَى بِهَا الْأَشْبَا حُ
شَرَفٌ فِي مِوَاطِنِي وَضَا حُ
يَمُّ عَنِّي وَلَا ظُبًّا وَرِمَا حُ
لَا شِرَاعٌ لَهَا وَلَا مَلَا حُ
قَيْدٌ شِبْرٌ لِي الْفِجَا حُ الْفِسَا حُ
أَلْسُنُ الدَّمْعِ فِيهِ ذُلُّ قِصَا حُ
وَاعْتِرَانِي مِنَ الْعَوِيلِ بُحَا حُ
وَخَرِيرِي هُوَ الْبِكَاءُ وَالنُّوَا حُ
خَفَقْتُ فِي جِوَانِبِي الْأُرُوَا حُ؟!
هُوَ مَنِّي تَنْهَدُ وَصِيَا حُ
أَدْمَعِي أَحْرَقْتَنِي الْأَتْرَا حُ
مَنْ أَسَى جَفَّ مَأْوُهُ الضُّحْضَا حُ
هُوَ بَاكٍ وَدَمْعُهُ سَفَا حُ

هِيَ عَيْنِي وَدَمْعُهَا نَضَّا حُ
كَيْفَ لَا أذْرُفُ الدَّمُوعَ وَعِزِّي
قَدْ رَمْتَنِي يَدُ الزَّمَانِ بِخَطْبِ
حَيْثُ غَمَّتْ عَلَيَّ وَجْهَ سَمَائِي
وَتَوَارَى عَنِّي مِزْمَحَلًّا
يَوْمَ أَمْسَيْتُ لَا حُمَاةَ تَدُودِ الضِّ
فَأَنَا الْيَوْمَ كَالسَّفِينَةِ تَجْرِي
ضَقْتُ ذَرْعًا بِمِحْنَتِي فَتَرَا حُ
أَخْرَسَ الْحُزْنَ مَنَاطِقِي بِنَحِيْبِ
نُحْتُ حَتَّى رَثَى الْعَدُوَ لِحَالِي
فَمِيَاهِي هِيَ انْسِكَابُ دَمُوعِي
أَوْ مَا تَبَصَّرُ اضْطِرَابِي إِذَا مَا
لَيْسَ ذَا الْمَوْجِ فِيَّ مَوْجًا وَلَكِنْ
إِنْ وَجَدِي هُوَ الْجَحِيمُ وَلَوْلَا
لَوْ دَرَى مَنبَعِي بِمَا أَنَا فِيهِ
عَلَّهْ قَدْ دَرَى بِذَلِكَ فَهَذَا

* * *

أين أهل الحفاظ هل تركوني
برحوا وادي السّلام عجالاً
ما لهم يبعدون عني انتزاحاً
أوما يعلمون أن حريمي
فلئن يبعدوا فإن فؤادي
تركوني من الفراق أفا سي
لو رأوني سبياً بأيدي الأعداي
لا مسائي بعد البعاد مساءً
أتمنى بأن أطيّر إليهم
أنا أدرى بأنهم بعد هجري
بل هم اليوم عازمون على الزح
إن تأنوا فربضة الليث تأتي
كيف يُغضون عن إغاثة وإد
فعليه من فخر عثمان تاج
أنا باقٍ على الوفاء وإن كا
فإليهم ومنهم اليوم أشكو

نهبةً في يد العدو وراحوا؟
أفجدُّ برآحهم أم مُزاح؟
وعزيز منهم عليّ انتزاح؟
للمُعادين بعدهم مستباح؟
لأليهم بوّده طمّاح
ألما ما تطيقه الأرواح
لبكوا مثلما بكيت وناحوا
يوم بانوا ولا الصباح صباح
بجناحٍ وأين مني الجناح!
لم يذوقوا غمضاً ولم يرتاحوا
ف بجيشٍ به تَغصُّ البِطاح
بعدها وثبةٌ له وكفاح
زانه من وداهم أوضاح؟!
وله راية الهلال وشاح
نت بقلبي ممن أحبُّ جراح
بلّغيهم شكايّتي يا رياح

بعد براح الشام

قد صحَّ عزمك والزمان مريضُ
ما بال همك في الفؤاد كأنه
كم بتَّ مُعتلجَ الهموم بليلة
طننتَ بمسمعك الهواجس في الدجى
تنبو جُنوبك عن فراشٍ ناعمٍ
وكأن جنبك بالجوى متقرَّحٍ
كَبُرَتْ لنفسك في الحياة لُبانة
ما زلتَ تقتحم المهالكَ دونها
لله أنتَ فأَيُّ هولٍ تمتطي

حتَّامَ تذهبُ في المنى وتئيضُ؟!^١
عَظْم يقلقل في حشاك مَهيض؟!
ما للظلام بفجرها تقويض!
فنفتَ كراكَ كما يَطنُّ بَعوض
فكأن مضجعك الدميثَ قضيض
وكأن قلبك بالهموم رضيض
ضاقت سموات بها وأروض
فالهول يركب والصعابَ تروض
أم أي معترك الخطوب تخوض؟!^٢

* * *

ولربَّ قافيةٍ كمؤتلق السنا
صرَّحتُ في إنشادها بحقيقة

يجلو الشكوكَ يقينها المحوض^٢
فات الأنامَ بمثلها التعريض

^١ آض يئيض أيضًا: رجع.

^٢ المحوض: من المحض، وهو الخالص.

ولقد أَجْرَنِي القريضُ عِنَانَهُ
 وأتى المدى يوم السباق مجليًّا
 قد كنتُ أنبط للقريضِ قريحةً
 ولكم وقفت من السياسة موقفًا
 مستنهضًا بالشعر قومي للعلا
 أيامَ لم ينطق بذلك شاعر
 حتى إذا دار الزمان مداره
 وغدا ينازعني الحرورة شاعرٌ
 ويبزني ثوب الأمانة خائنٌ
 كم مدّع دعواي في وطنيَّة
 من كل عبد في السياسة باعُه
 تَعَسَّ المخاصم إنَّ لي لقصائدًا
 فإذا ادّعتُ فهن في دعواي لي
 وسلّ اليراع يُجِبُّكَ عني ناطقًا

ونحا بي المِضمار وهو مَرِوضٌ^٢
 يجري سَبوحُ خلفه وركوض
 بمفاخر العرب الكرام تَفِيضُ
 مَحْيَايَ فيه على التوى معروض^٤
 إذ كان فيهم فترة وربوض
 قبلي ولم ينشد هناك قريض
 خاب القريضُ وعاد وهو جريض^٥
 ما كان حرًّا شعره المقروض^٦
 كأبي براقش طبعه المرفوض^٧
 أنا كنت أبنيتها وكان يَقْوُضُ!
 وشَرَاهُ هذا الدرهم المقبوض
 طَرَفُ المعاندِ دونهنَّ غضيض^٨
 حُجج دوامغُ ما لهنَّ دُحوض
 بمقال صدق ليس فيه غموض

* * *

لَمَّا تَكَرَّهَنِي الأرانلُ سَرَّني
 ولقد برئت إلى الوفاء من امرئ
 وجزيتُ كلَّ صنيعة بمثالها
 أني إليهم يا أميمَ بغيض
 عهد الصداقة عنده منقوض
 إن الصنائع في الرجال قروض

^٢ أجرتني الفرس عنانه: أسلس لي قياده. والمضمار: الميدان الذي يضم فيه خيل السباق. والمروض:

المدرّب على الجري في السباق.

^٤ توى يتوي توى من باب فرح: هلك، يريد: وقفت في السياسة مواقف كثيرة تعرّضت فيها حياتي

للحمام.

^٥ الجريض: غصص الموت.

^٦ الحرورة: بفتح الحاء، كالحرية والحرورية، والحرارة والحرار، وهي العتق والنفاسة.

^٧ يبزني: يسلبني. وأبو براقش: حيوان لا يزال جلده يتلون ألواناً في ضوء الشمس.

^٨ غضيض: مغضوض؛ أي مكسور.

لا تطلبين من الزمان حقيقة
وإذا مخّضت من الليالي صرفها
وحوادث الأيام مثل نساءها
ولربّما أنتجن كلّ كريهة
قد ساء منقلب البلاد بأهلها
ذهب الحياء فكم رأينا صاغراً
وقح تعامى عن مدانس عرضه
غلب الشقاء على الأنام فخيرهم
كيف السعادة في الحياة وللورى
أم كيف تبتدع المعالي أمّة
لن تعدم الدنيا الشقاء بأهلها
ويح الذكاء فقد تأخر أهله
أخزى البلاد مفاصدًا بلدً به
وإذا الفتى قعدت به أفعاله
والمرء إن عدت سجيته العُلا

ما للحقيقة في الزمان وميض
أبدى العجائب صرفها الممخوض^٩
في الحكم تطهر تارة وتحيض
سوداء تقناً في وَاغَاها البيض^{١٠}
فانحطّ أَوْجُ واشمخّر حضيض
قد جاء وهو لمذرويه نفوض^{١١}
فزهاه عُجْبًا ثوبه المرحوض^{١٢}
دثّ وقطر شرورهم إغريض^{١٣}
في قوس كل ضغينة تنبيض؟!^{١٤}
في العلم قلّ نصيبها المفروض!
ما دام ملك في البلاد عضوض
حتى تقدّم من قفاه عريض
مُقت الأديب وأكرم العريض
أعياه بالنسب الرفيع نهوض
لم يبتعثه إلى العلا تحريض

^٩ وضع اللبن في السقاء وتحريكه لاستخراج الزيت منه.

^{١٠} تقناً: تحمر. والوغى: الحرب. والبيض: السيوف، جمع أبيض.

^{١١} المذروان: مثنى مذرى، وهو طرف الألية. ونقوض: محرك؛ أي كم حقيق ذليل جاء يستطيل على غيره ويهدده.

^{١٢} زهاه: ملاء. والمرحوض: المغسول.

^{١٣} الدث: أضعف المطر وأخفه، جمع دثاث. والإغريض: قطر كبار.

^{١٤} التنبيض يقال: نبض قوسه نبضًا؛ إذا جذب وترها.

تجاه الريحاني

شكواي العامة

هذه هي القصيدة التي أنشدتها الرصافي في حفلة أقامها المعهد العلمي؛ تكريماً لأمين الريحاني عند قدومه بغداد في أيلول سنة ١٩٣٣.

وبرافديه وباسقات نخليه
ويَبْشُ مبتسماً بوجه نزيله
ومؤهلاً والحمد في تأهليه
بكبير معشره، بفخر قبيله
بأديب أمته، بداهي جيله
في فكره وبفعله وبقبيله
تبجيل كل الفضل في تبجيله
ما فيه من عُزْر العلاء وحجوله
والقوم مُحْتَرِبُونَ بعد أُوله
قد فاق مُقْفِرُهُ على مأهوله
لكنْ مَسِيلُ الماء غير مَسِيلِهِ
من جهل ساكنه اشتداد مُحوله
عن قطر مصر وعن موارد نيله
برغيد عيشٍ تحت ظل نخيله
يشفي من المشتاق حَرَّ غليله

إن العراقَ بعرضه وبطوله
يهتزُّ مبتهجاً بمقدم ضيفه
ومُرحَّباً والشكر في ترحيبه
بربيبِ لبنان، بريحانيِّه
بالعبقريِّ، بفيلسوف زمانه
بأصحِّ أحرار الأنام تحرُّراً
إننا نبجلُ منه خيرَ مَبْجَلٍ
أأمينُ جئتَ إلى العراقِ لكي ترى
عفوًا فذاك النجم أصبح أفلًا
أوما ترى قطر العراق بحسنه
أما الحيا فيه فذياك الحيا
وربيعه ذاك الربيع وإن شكا
فأقم به ولك الغنى بفراته
وانزل على وادي السلام ممتعًا
والتُّمُّ به ثغَرَ الطبيعة باسمًا

وترقَّبَنْ أَسْحَارَهُ حَتَّى إِذَا
وانظر محاسن أرضه وسمائه
فالجوُّ فيه مُنِيرَةٌ أَوْضَاحُهُ
والليل فيه مَكْلَلٌ بِمِرْصَعٍ
وترى النَّهَارَ بِهِ كَذَهْنِكَ وَأَقْدَا
وترى ضياءَ الشمسِ فيه مَغْلَفًا
وَإِذَا وَقَفْتَ بِدَارِسٍ مِنْ مَجْدِهِ
وَانْحَبْ كَمَا نَحَبَ الْحَزِينُ مُكْفِكِفًا
فلقد عفا المجد القديم بأرضه
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى قُلُوبِ رِجَالِهِ
تجد الرجال قلوبها شتَّى الهوى
متناكرين لدى الخطوب تناكرًا
فالجار ليس بأمن من جاره
والدينُ فيه يقولُ ذُو قُرْآنِهِ
وَإِذَا تَأَوَّلَ قَوْلَهُمْ مَتَأَوَّلُ
وَإِذَا تَكَلَّمَ عَالِمٌ فِي أَمْرِهِمْ
حال لو افتركر الحكيم بكنهه
من ذا يبدِّله فإن قوارعي
والجهل لا يُبقي على أربابه
أأمين لا تغضبُ عليَّ فإنني
من أين يُرجى للعراق تقدم
لا خير في وطن يكون السيف عند
والرأي عند طريده، والعلم عند
وقد استبدَّ قليلُهُ بكثيره

هَبَّ النَّسِيمُ فُجَسَ نَبْضُ عَلَيْهِ
وانشَقُّ أَرِيحَ شِمَالِهِ وَقَبُولِهِ
والحسن فيه دَقِيقُهُ كَجَلِيلِهِ
وكواكب الإكليل من إكليله
بالشمس تُشرق في وجوه سهوله
بنظيره ومُسلَّسًا بمثيله
فَكَوْقِفَةَ الْبَاكِينَ بَيْنَ طُلُولِهِ
غرب الدموع بجانبِي مِنْدِيلِهِ
وعليه جرَّ الدهر ذيل خُموله
فانظر حديد الطرف غير كليله
مدَّ الشقاق بها حِبَالَةَ غُولِهِ
يعيا لسان الشعر عن تمثيله
والخَلُّ ليس بواثق بخليله
قَوْلًا يُحَاذِرُ مِنْهُ ذُو إِنْجِيلِهِ
صرفوه بالتفكير عن تأويله
خَفَرُوا ذِمَامَ الْعِلْمِ فِي تَجْهِيلِهِ
طول الزمان لعيَّ عن تعليله
يئست لعمر الله من تبديله؟^١
كالسيف ليس براحم لقتيله
لا أدعي شيئًا بغير دليله
وسبيل ممتلكيه غير سبيله؟
د جبانه، والمال عند بخيله
د غريبه، والحكم عند دخيله
ظلمًا، وذلَّ كثيره لقليله

^١ قوارعي: جمع قارعة، وهي الكلمة الشديدة، تفرع الأذان بشدتها.

إِنِّي إِذَا جَدَّ الْمَقَالَ بِمَوْقِفٍ
وَإِذَا الْمَخَاطَبُ كَانَ مِثْلَكَ وَاعِيًا
يَا مَنْ يَكْتُمُ فَضْلَهُ مَتَوَاضِعًا
شَكْوَايَ بَحْتُ بِهَا إِلَيْكَ وَلَيْسَ فِي
إِنِّ الْمَرِيضَ لَيْسْتَرِيحُ إِذَا اشْتَكَى
وَكَذَا الْحَزِينَنُ إِذَا تَهَيَّجَ حَزْنُهُ
إِنِّي لَأَنْفُ أَنْ أَبُوحَ بِمُضْمَرِي
وَلَدِيَّ إِنِّ وَصَلَ الْحَبِيبُ تَمَسُّكَ
فَضَّلْتُ مُجْمَلَهُ عَلَى تَفْصِيلِهِ
أَغْنَى اخْتِصَارَ الْقَوْلِ عَنْ تَطْوِيلِهِ
وَالنَّاسَ مَجْمَعَةً عَلَى تَفْضِيلِهِ
شَكْوَى الزَّمِيلِ غَضَاضَةً لَزْمِيلِهِ
مِمَّا بِهِ لَطِيبُهُ وَخَلِيلُهُ
يَبْكِي فَيَسْكُنُ حُزْنَهُ بِعَوِيلِهِ
إِلَّا لِمَقْتَدِرٍ عَلَى تَحْصِيلِهِ
بِالْعَزِّ يَمْنَعُ فَايَ مَنْ تَقْبِيلِهِ

بعد النزوح

قالها في بيروت سنة ١٩٢٢، وكان قد خرج من بغداد على ألا يعود إلى العراق.

مثلُ الحوادث أبلوها وتبليني
أما أصادفُ حُرًّا فيه يُشكيني؟!
نزلتُ منها ببيت غير مسكون
نوائب الدهر بالأنياب تدميني!
وتارةً في الطوامي فوق مشحون^١
فَعُمّت فيهنَّ من صبري بدلفين!^٢
وإن يك الماء منها ليس يُرويني
أشجى الأناشيد في أشجى التلاحين
بالورد ما بين أزهار البساتين
أستنشق الطيبَ من نفح الرياحين
وكان تنعابه بالبين يؤذيني
وما غدوت طريداً للشواهين^٣

هي المواطن أدنيها وتقصيني
قد طال شكواي من دهر أكابده
كأنني في بلادي إذ نزلتُ بها
حتى متى أنا في البلدان مغتربُ
فتارة في المواصي فوق موقرة
كم أغرقنتي الليالي في مصائبها
أنا ابن دجلة معروفًا بها أدبي
قد كنت بلبلها الغريد أنشدها
حيثُ الغصون أقلتني مكللة
فبينما كنت فيها صادقًا طربًا
إذ حلَّ فيها غرابٌ كان يُوحشني
حتى غدوت طريداً للغراب بها

^١ المواصي: جمع موصاة، وهي الصحاري المقفرة. والموقرة: الناقة التي حملت عليها الأوقار، وهي الأحمال

الثقيلة. والطوامي: جمع طامي، وهو البحر. والمشحون: صفة لمحذوف؛ أي الفلك المشحون.

^٢ الدلفين: حيوان بحري يحمل الغرقى إلى الشواطئ، ولعلهُ هنا يريد سفينة تشبه الدلفين في صورتها.

^٣ الشواهين: جمع شاهين، وهو من جوارح الصيد.

فطرتُ غيرِ مبالٍ عندِ ذاكِ بما تركتُ من نرجسٍ فيها ونسرين

* * *

ويل لبغداد مما سوف تذكره
لقد سَقَيْتُ بفيضِ الدمعِ أَرْبُعَهَا
ما كنتُ أحسبُ أني مذ بكيتُ بها
أفي المرءة أن يَعْتَرَّ جاهلها
وأن يعيش بها الطُّرطورُ ذا شَمَمٍ
تالله ما كان هذا قطُّ من شيمي
ولست أبذل عرضي كي أعيش به
أغنتُ خشونة عيشي في ذرًا شرفي
عاهدتُ نفسيَ والأيامَ شاهدة
ولا أصادقُ كذابًا ولو مَلِغًا
أما الحياةُ فشيءٌ لا قرارَ له
سيان عندي أجاء الموتُ مخترمًا
ما بالسنين يقاسُ العمرُ عندي بَلْ
لو عشتُ ستينَ عامًا لاستعضتُ بها
فإنما أطولُ الأعمارِ أجمعها
إن اللئيمَ دَفِينٌ قبلَ ميتهِ

* * *

ما كنتُ أحسبُ بغدادًا تحلَّتْني
عن ماءِ دجلتها يومًا وتظميني^٧

^٤ الجدع: القطع. والعرنين: مقدم الأنف.

^٥ تأدمت: اتخذت إدامي، والإدام ما يؤكل بالخبز. والزقوم: شجرة يطعم منها أهل النار المعذبون.

والغسلين: ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه.

^٦ ذرا شرفي، بفتح الذال: ظله وجانبه.

^٧ تحلَّتْني: تمنعني وتطرُدني.

حتى تقلد فيها الأمر زعنفة
 ما ضرني غير أنني اليوم من عرب
 تالله ما ضاع حقي هكذا أبداً
 علام أمكث في بغداد مضطرباً
 لأجعلن إلى بيروت منتسبي
 خابت ببغداد آمال أوملها
 فليت سورية الوطفاء مزنتها
 قد كان في الشام للأيام مذ زمن
 إذ كان فيها النشاشيبي يسعفني
 وكان فيها ابن جبر لا يقصر في
 إن كان في القدس لي صحب عطرفة

من الأناص بأخلاق السراحين^٨
 لا يغضبون لأمر ليس يرضيني
 لو كنت من عجم صهب العثانين^٩
 على الضراعة في بحبوحة الهون^{١٠}
 لعل بيروت بعد اليوم تُؤيني
 فهل تخيب إذا استذرت بصنين؟
 عن العراق وعن واديه تغنيني
 ذنب محته الليالي في فلسطين
 وكنت فيها خليلاً للسكاكيني
 جبر انكسار غريب الدار محزون
 فكم ببيروت من غر ميامين!

^٨ الزعانف: جمع زعنفة، وهم أراذل القوم. والسراحين: جمع سرحان، وهو الذئب.

^٩ الصهب: جمع أصهب، وهو أصفر اللون. والعثانين: جمع عثنون، وهو شعر الذقن.

^{١٠} الهون: الذل والهوان.

إلى هرب صموئيل

ألقى يهودا محاضرة تاريخية، ذكر فيها مدنية العرب في الغرب والشرق، ولما أتمها قام هرب صموئيل، المندوب السامي من قبل إنكلترة في فلسطين، وألقى على القوم كتاباً مؤنقاً، وعدهم فيه مواعد سياسية سر بها الحاضرون الذين كانوا قد حضروا بدعوة من راغب بك النشاشيبي رئيس بلدية القدس، فقال الرصافي هذه القصيدة مسجلاً بها ما قاله المندوب، وشاكراً له على ذلك.

وذكّرنا ما نحن منه على نُكْر
وما لبني العباس في الشرق من فخر
تبوّأه هرب صموئيل في الصدر
إليه فلبّوا دعوة من فتى حُرّ
يحفون من هرب صموئيل بالبدر
تكون على علاتها ليلة القدر
وقد سرّنا من حيث ندري ولا ندري
بسحر مقالٍ جلّ عن وصمة السحر
وما لهم في العلم من خالد الذكر
على صخرة البيت المقدّس من إثر^١

خطاب يهودا قد دعانا إلى الفكر
ومجدّ ما للعرب في الغرب من يد
لدى محفل في القدس بالقوم حافل
دعاهم رئيس القدس ذو الفضل راغب
فأمسوا وفي ليل المحاق اجتماعهم
فيا ليلة كادت وقد جلّ قدرها
ولمّا تناهى من يهودا خطابه
تصدّى له هرب صموئيل ناطقاً
فصدّق ما للعرب من تالد العلاء
وزاد بأن أوما إلى ما لصنعهم

^١ أوما؛ أصله أوما؛ أشار برأسه.

وقال وقد أصغى له القوم: إننا وننهضكم في منهج العلم نهضةً فكانت لهذا القول في القوم هزة
سنرأب ما أثأته منكم يدُ الدهر مقومةً ما اعوجَّ فيكم من الأمر سرورية من دونها هزة السكر

* * *

حنانيك يا هربز صموئيل كم لنا لنا قلبَ الدهر الخثون مجنَّه وأغرى بنا الأحداث مبتكرًا لها وقد أفنت الأيام كل عتادنا فلسنا وإن عصت بنا اليوم نابها فمن سامنا قسرًا على الضيم يلقنا لنا أنفس تحيا بثروة عزها إذا نحن عاهدنا وفينا ولم نكن فإن شئت يا هربز صموئيل فاختر

على الدهر من حق مضاع ومن وتر! وكرَّ علينا لابسًا جلدَ النمر^٢ فلم يأتنا إلا بحادثة بكر سوى ما ورتنا من إباءٍ ومن صبر نقرُّ على ذلِّ ونبقأد عن دُعر مصاعيب لا نعطي المقادة بالقسر وإن نشأت بين الخصاصة والفقر إذا ما ائتمننا جانحين إلى الختر خلائق منا لا تميلُ إلى الغدر

* * *

وعدت فأمسى القوم بين مشكك فكذب - وأنت الحرُّ - من ساء ظنه ولسنا كما قال الألى يتهموننا وكيف وهم أعمامنا وإليهم وإنني أرى العُربيَّ للعُرب ينتمي هما من ذوي القُربي وفي لغتيهما ولكننا نخشى الجلاء ونتقي وهل تثبت الأيام أركان دولة وها أنا قبل القوم جئتكم معلنا

ومنتظر الإنجاز منشرح الصدر فقد قيل: إن الوعد دينٌ على الحر نعادي بني إسرائيل في السرِّ والجهر يمتُّ بإسماعيلَ قديمًا بنو فُهر؟! قريبًا من العُبريِّ يُنمى إلى العُبر دليل على صدق القرابة في النجر سياسة حكم يأخذ القوم بالقهر إذا لم تكن بالعدل مشدودة الأزر لك الشكر حتى أملأ الأرض بالشكر

^٢ المجن: الترس يتقي به المحارب قرنه، وقلب المجن كناية عن الاستعداد للمنازلة في الحرب.

مظاهر التعصب في عصر المدينة

قالها بعدما ألقى غورو على المسلمين خطابه المشهور في بيروت.

فقد آلمتنا من خطابك أقوالُ
قد اضطربت في المسلمين بها الحال
يكيل لك الودَّ الصميمَ ويكتال
لقومك تكريمٌ بهن وإجلال
تجرُّ ذيول الفخر عجبًا وتختال
إذ انبعثت منهم إلى الشرق أبطال
لأبطالِ هاتيكِ المعارك أنسال
وجددت عهدًا منه في الشرق أوجال
من الأمر فاستاءت عصور وأجيال
بها اليومَ قد تمَّت لقومك آمال
بما قلته فاهتاج بالشرق بلبالُ
تشابه كردينالها والجَنيرال
لأنحى علينا بالتعصُّب عدالُ
وإن خالفوا وجه الصواب بما قالوا

رُويدك «غورو» أيهذا الجَنيرال!
أتيت بلاد الشرق من بعد هدنة
فجاء إليك ابن الدنيا وهو مسلم
وقام خطيبًا معربًا عن عواطفٍ
فقمت له في محفل القوم خاطبًا
فذكَّرتَه أهل الصليبِ وحرَبهم
وقلتَ عن الإفرنج قومك: إنهم
فحرَّكتَ حزنًا كان في الشرق ساكنًا
أسأت إلينا بالذي قد ذكرته
ذكرت لنا الحربَ الصليبية التي
وتلك لعمرى قرحة قد نكأتها
فيا عجبًا من أمة قدت جيشها
ولو أننا قلنا كما أنت قائل
وقالوا لنا: أنتم أولو جاهلية

فلا تصمّنُ الحرب بعد انقضائها
ولا تنسَ فضل الشرق إذ كان ناصراً
فقد قادت الأعرابُ نحو عدوكم
وقامت لكم منهم بمكة راية
لقد أغضبوا البيت الحرامَ وربّه
ولو أنّ عهد المسلمين كعهدهم
ولكنهم باعوا الديانة بالدُّنا
لذلك قام ابن «الدنا» عن دناءةٍ
ولا تحسبْنَه مخلصاً في مقالهِ
فكان قتيلاً بالمطامع عزّه

* * *

خليليّ قوما بي نطأطيّ رءوسنا
لدى الجذث الفرد الذي فيه قد ثوى
فنبكي على الأوطان حول رجامة
ونستنزف الدمع الغزير لتربه
حنانك يا قبرَ ابن أيوب فانصدع
إليك صلاح الدين نشكو مصيبةً
ودارت رءوس القوم فيها توجُّعاً
وقطّبتِ الأيام حتى تشابهت
وأمسى حمى الإسلام تنتاب روضه

لدى جدثٍ تعنو لمن ضمّ أجيال
من الملك الفرد ابن أيوبٍ رثيال
كما قد بكت من فقدها الأمُّ أطفال
كما استنزفت دمع المحبّين أطلال
لينهض ثاوٍ في مطاويك مفضل
أصيب بها قلب العُلا فهو مُغتال
وحزناً كما دارت بسكرانَ جزيال^٢
بها غُدواتُ كالحات وأصال
فترعاه من سرح المعادين آبال^٣

^١ فلا تصمن: فلا تحدث وصمة، وهي العيب.

^٢ الجزيال: الخمر.

^٣ آبال: جمع إبل.

ولسون بين القول والفعل

قال قولاً به استحقَّ احتراماً
رجل قد تنكَّب الحقَّ قوساً
كان منه المقال نوراً فلمَّا
خاض حربَ العدا بِمَقُولِ حُرِّ
وبذا عرَّفَ الوري أن قول الـ
إذ غدا ناطقاً بمرقد واشنـ
معرّباً عن مبادئٍ محكمات
قال: حرية الأنام هي الغا
فاشرأبَّ الوري إليه وظنُّوا
واطمأنت له القلوب بفوز
شام منه الوري بوارق غيم
فتصدَّى لغيثه كل قوم
ثم خابت ظنونهم فيه لما

وتعدَّاه فاستحقَّ ملاما
ومن البُطْلُ ظلُّ يرمي سهاما
حان حين الفعّال كان ظلاما
فاق فيها المهند الصمصاما
مرء في الحرب قد يفوق الحساما
طون نطقاً شفى به الأسقاما
ساميات تحرر الأتواما
ية لي في الوغى فغرَّ الأناما^١
أنهم سوف يبلغون المراما
يغتدي في فم الزمان ابتساما
من وراء البحر المحيط ترامى
قد شكوا غلة بهم وأواما
مر في الجو حُلباً وجهاما

* * *

مدَّ ولسون في السياسة حبلاً جمع النقض فيه والإبراما

^١ غر الأنام: خدعهم وغشهم.

فلبعض الأنام كان عصامًا ولبعض الأنام كان خصامًا
 مَلَأَ الدهر في فيومة فخراً وبأزميرَ أوجل الأياما
 إن أزميرَ صيَّرت ما لولسو نَ من الفخر في فيومةً ناما^٢
 فهل الحق عنده في سوى الغر ب حقيِرُ أقلُّ من أن يُحامي؟!
 أو هل الشرق وحده في الأقا ليم مُباحٌ أن يُستبَى ويضامًا؟!
 أم هل القوم عاهدوا الله في أن لا يُراعوا للمسلمين ناما؟!
 ما لهم أرهقوا بني الشرق ظلماً وعلى الترك أشلوا الأرواما?^٣
 فاستباحوا حريم أزمير نهبًا واستحلُّوا من الدماء حراما
 حيث جاسوا خلالها بجنود

* * *

أيها المجلس الرباعي مهلاً فلقد جُرَّت في الأمور احتكاما
 أنت سكرانُ خمرة النصر فاحذر حين تصحو ندامة ولواما
 لك عينٌ ترى السها في الدياجي وعن الشمس في الضحى تتعامى^٤
 أولم تذر أن للدهر عينًا إن تنم عين أهله لن تناما؟
 لا تكن تابعًا هوى النفس فيما أنت فيه تقرُّ الأحكاما
 فهوى النفس قد يُضللُ ذويه فيطيشون في الورى أحلاما
 ويرون الجُسامَ أمرًا صغيرًا ويرون الصغير أمرًا جُساما
 لا يغرِّتكَ الزمان إذا ما لك أبدى بشاشة وابتساما
 كم أشال الزمان أعلام قوم في الذرا ثم نكس الأعلاما
 مثلما دار للفرنج على الجِزْمين حربًا فأدركوا الانتقاما

* * *

أيها المسلمون لستم من الغر ب بحالٍ تستوجبون احتراما

^٢ الذام: العيب.

^٣ أشلى الكلب على الصيد: سلطه عليه ليصيده.

^٤ السها: نجم صغير لا تكاد تراه العين لبعده.

إنما أنتم لدى الغرب قوم
 فإذا ما وسعتم الناس جلمًا
 وإذا ما ملأتم الأرض عدلاً
 وإذا ما فعلتم الخير يوماً
 وإذا زلّة لكم دفن الدهـ
 وإذا ما افتري عليكم عدو
 وإذا ما جنى عليكم أناس
 كم بأرض البلقان منكم قتيل
 نثر الظالمون في الأرض منهم
 لو أتينا تلك البلاد رأينا الـ
 ما نضا للدفاع عنهم بنو الغر
 إن تكن هذه السياسة عدلاً
 رحم الله أمّة أصبح الغر

خلّقوا عن سوى الشرور نياما
 عدّه الغرب شرّة وعُراما^٥
 عدّ جورًا، أو مفخرًا عدّ زاما
 حسبوه جناية وأثاما
 ر أمّلوا بنبشها الأقلاما
 أيدوه وصدقوا الأوهاما
 سكتوا عنهم ومروا كراما
 وأيامى مضاعة ويطامى
 جئتًا تملأ الفضاء وهاما
 يوم منهم جماعًا وعظاما
 ب حسامًا ولا أचारوا كلاما
 فإلى الظلم نشتكي الآلاما
 ب يرى كل ذنبها الإسلاما

^٥ عراما: عتوًّا وطغيانًا.

يا محب الشرق

أنشئت في حفلة كبيرة أقامها الحزب الوطني في بغداد لتكريم المستر كراين الثري
الأمريكي الشهير لمناسبة مجيئه إلى بغداد سنة ١٩٢٩.

يا محبَّ الشرق أهلاً	بك يا مستر كراينُ
مرحباً بالزائر المشـ	هور في كل المدائن
مرحباً بالقادم المشـ	كور في هذي المواطن
فضلكم بادِ على الشر	ق وشكر الشرق عالينُ
كم لكم من وقفاتٍ	دونه ضدَّ المشاحن

* * *

جئت يا مستر كراينُ	فانظر الشرق وعائينُ
فهو للغرب أسيْرُ	أسر مديونٍ لدائن
إن هذا الشرق والغرب	ب لمغبونٍ وغابنُ
فترى الشرق تجاه الـ	غرب يسعى سعيَ ماهن
وترى الغرب عليه	واقفًا موقف خائن
منكرًا منه المزايا	مُوجدًا فيه المطاعن
غاصبًا منه الموانِي	شاحنًا فيه السفائن

حافرًا فيه المعادن نابشًا فيه الدفائن^١
فهو يمتصُّ دماء الشـ ررق من كل الأماكن
بازرًا من كيده في أهله بذر الضغائن
حاكمًا فيه على أهـ عليه حُكم المتهاون
جاعلاً في رجله قيد عد الونى والقيد شائن^٢
فترى الشرق لهذا ماشيًا مشية واهن
أفهذي يا محب الشـ ررق أفعال المهادن؟!
أين ما قد قاله ولـ سنُّ يا مستر كراين؟!^٣

* * *

لم يكن ولسنُ فردًا إنَّ في الغرب ولاسن
فعلام الغرب لا ينـ فكُّ للشرق مضاعن؟
كم يسوم الغربُ أهلَ الشـ ررق خسفًا ويخاشن!
وإلى كم ساسة الغر ب تُداجي وتداهن؟
كم وكم نسمع منهم قول خداع ومائن!^٤
إن في الشرق تجاه الـ غرب نيرانًا كوامن
سوف ينشق حجاب الد هر عنها بالدواخن^٥
وإذا قامت حروب من بني الشرق طواحن
فمن المسئول عن ذ لك يا مستر كراين؟

* * *

وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن

^١ المعادن: المناجم.

^٢ الونى: الفتور والخمول.

^٣ الرئيس ولسن: كان رئيس حكومة الولايات الأمريكية.

^٤ مائن: كذاب مخادع.

^٥ الدواخن: جمع دخان على غير قياس.

يا محب الشرق

فهو حكم مشرقى الضـ رـع غربى الملابن
وطنىّ الإسم لكن إنكليزي الشناشن^٦
عربى أعجمى معرب اللهجة راطن
فيه للإيعاز من لنـ دن بالأمر مكامن
هو ذو وجهين وجه ظاهر يتبع باطن
قد ملكنا كل شيء نحن فى الظاهر لكن
نحن فى الباطن لا نمـ لك تحريگًا لساكن
أفهدا جائز فى الـ غرب يا مستر كراين؟

^٦ الشناشن: جمع شنشنة، وهى الطبيعة والخليقة والسجية.

إلى بطل الشرق الأكبر

قالها عقب انتصار الغازي مصطفى كمال على اليونان سنة ١٩٢٣.

سَمِيَّ المصطفى لا زلت تعلقو
فدُرُّ كالشمس في فلك المعالي
نُصرتَ على بني يونان نصرًا
وأطلع في سماء الشرق شمسًا
فسرَّ المخلصين وكل حرَّ
وما اليونان كفؤك في نزال
ولكن قد غلبت جيوش قوم
تركت جيوشهم من فرط رعب
إذا ذكروا سُمَاك ولو منامًا
لئلا يسمعوه فيعتريهم
هم اليونان الأُمُّ كلُّ قوم
أرقُّ شجِيئَةً منهم وأرقى
فلا تغررْكَ أوجههم بياضًا

إلى أوجٍ يطاول كلَّ أوجٍ
وحُلُّ من الكمال بكل بُرجٍ
أقام الغربَ في هرج ومرجٍ
تفيض عليه أنوار الترجي
وساء الخائنين وكل سمجٍ
وإن ملئوا السهول وكلَّ فجٍ
أنلوا بالبوارج كل لجٍ
تعاهد للهزيمة كل نهجٍ
تحاموا ذكره بسوى التهجي^١
ضنى دائين من شللٍ وفلجٍ
وأخوف في الوغى من فرخ قُبجٍ^٢
حمير الوحش سارحة بمرجٍ
فإنَّ طباعهم كطباع رنجٍ

^١ سماك بضم السين: اسمك.

^٢ القبيج: نوع من الطير يسمى الحجل والكروان.

وجوهٌ قد حكين الثلج لونا
فيا أمضى الورى رأيا وسيفا
لقد أنقذت من أزمير خودا
وقمت على البلاد مقام عيسى
فعالجت الفتوق بحسن رتق
ورحت إلى التجدد في المعالي
وتخطب في الجموع بيوم حفل
وتأتيك الوفود من الأفاصي
فقودك للعقول بيوم سلم
لقد جددت للأوطان عهدا
لتبتدر الشعوب إلى المعالي
وتنهج منهج العمران فيما
وأنت اليوم حارسها المفدى
وتبتدر الملم إذا عراها
إذا ذكر الهبوط فأنت مغل
وتشرب أنت كأس المجد صرفا

ولكن فاتهن نقاء ثلج
وأعرفهم بمصعد كل أوج
تسام الخسف في يد كل علج
على مرضاه من عمي وعرج
ولاءمت الخروق بحسن نسج
تقود الناهضين بها وتزجي
كما خطب النبي بيوم حج
لتسمع قول مدرّهما المثج^٣
كقودك للجيش بيوم هيح^٤
تجاري فيه أوطان الفرنج
وتبلغ ما تريد وما ترجي
بها للناس من دخل وخرج
تحوط أمورها من كل هرّج
فتعروري الجواد بغير سرج^٥
وإن خيف الحبوط فأنت منج
ويشربها ساووك ذات مزج

^٣ مدره أقوم: المحامي عن أحسابهم. المثج: الفصيح الغزير المادة.

^٤ الهيح: الحرب.

^٥ تعروري الجواد: تركبه عريانا من غير سرج ولا أداة.

تجاه الريحاني

هي النفس

أنشدها في حفلة أقيمت في بيروت لأمين الريحاني، بعد رجوعه من سياحته في بلاد العرب.

وأحمل منها بين جنبي قاضبا^١
وأن أمتطي فيه من الهول غاربا^٢
وبالهمم مقلقا وبالرأي صائبا
ولم تهو إلا كالشموس مناقبا
أبتهن إلا أن يكن ثواقبا
إذا ازور ذاك العيش بالذل جانبا
ولم ترض لي إلا الكريم مصاحبا
رد البحر بي غمرا وخل المذانب^٣
فأرجع عنها بعد شكواي خائبا
قتلت بها كل الأمور تجاربا^٤

هي النفس أغشى في رضاها المعاطبا
تكلفني أن أخبط الليل بالسرى
وتنهضني للمجد بالعزم ماضيا
ولم ترض إلا كالجبال معزة
إذا أنا أنزلت النجوم لأرضها
وترفض مني كل عيش منعم
ولم تبغ لي إلا الحقيقة بغية
تقول إذا أوردتها ماء مذنب
وإنني لأشكوها إليها تظلمًا
على أن لي منها حصاة رزينة

^١ المعاطب: المهالك. وأصل القاضب: السيف القاطع، شبه نفسه بالسيف في مضائه.

^٢ غارب البعير: ما بين سنامه وعنقه.

^٣ المذانب: جمع مذنب كمنبر، وهو كهيئة الجدول.

^٤ الحصاة: العقل.

لقد تعبت فيما تروم من العلا
 ألم ترَ ما لاقى ابن لبنان في العلا
 تيمّم من بعد الحجاز تهامة
 وجاء إلى أرض العراقيين مبحراً
 ليجمع من أبناء يعرّب شملهم
 أخو همة لو مدّ باعاً إلى العلا
 له قلم عزّ القرائح شاعراً
 كذلك نفس الحرّ تلقى المتاعبا
 من الأين لما ساح في الأرض ضارباً؟!
 وراح إلى صنعاء يُزجي الركائب
 وكرّ إلى مجد يجوب السباسبا^٥
 ويقضي حقاً للمواطن واجبا
 لأوشك منها أن ينال الكواكبا
 كما ابتزّ فرسان البلاغة كاتباً^٦

* * *

لقد زرتَ نجداً يا أمينُ فقل لنا
 فما حالة الإخوان فيها فإننا
 فهل كفّروا من ليس يرسل لحية
 وما أنا من قوم يدينون باللّحي
 ودعّ عنك أخبار العراق فإنني
 فويحاً لأهل الرافدين إذ انطوا
 ألا عدّ عمّا في العراق فإنني
 معايبُ لو أني هتكت ستارها
 فلا تحسبّنه أنه ذو حكومة
 لئن ألّفوا بالكذب فيه وزارةً
 وإني لأهوى الفجر إن كان صادقاً
 أتذكر من أخبار نجدٍ جوائبا؟^٧
 نرى الناس عنهم يذكرون الغرائب؟
 وهل فسّقوا من ليس يحفي الشواربا^٨
 ولم يقبلوا إلا من الحلق تائباً
 لأعلم منها ما يفوق العجائب
 على اليأس من نور يشقّ الغياهما^٩
 أراه بأخلاق الزمان معايبا
 لأرسلتُ منها للمعاند حاصبا^{١٠}
 ولو ضربوا ظلماً عليه الضرابا
 فإن بها للكاذبين مآربا
 وتنكر عيني الفجر إن كان كاذبا

* * *

^٥ السباسب: جمع سبب، وهو القفر والمفازة.

^٦ عزّ القرائح: غلبها. وابتز: فاق وغلب.

^٧ الجوائب: جمع جائب، وهي الأخبار تجوب الأرض من بلد إلى بلد.

^٨ إحقاء الشارب: الأخذ منه.

^٩ فويحاً: رحمة. والرافدان: دجلة والفرات. والغياهب: جمع غيب، وهو الظلمة.

^{١٠} الحاصب: الريح تحمل الحصباء، وهي صغار الحجارة.

تجاه الريحاني

تبسّم لبنانُ بَعُودَ أَمِينِهِ وَأَضْحَى لِأَذْيَالِ الْمَسْرَّةِ سَاحِبَا
أَخَا الْفَضْلِ قَدْ أَنْسَتْ لِبْنَانَ حَاضِرًا كَمَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشْتَ لِبْنَانَ غَائِبَا
وَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ يُبْهَجُ طَالِعًا وَيُحْزِنُ أَفَاقَ الْمَوَاطِنِ غَارِبَا
مُحْيِيكَ فِي بَغْدَادٍ إِذْ جِئْتَ قَادِمًا يَحْيِيكَ فِي بَيْرُوتَ إِذْ جِئْتَ آئِبَا

في المدرسة الحربية

أوما يستفزكم تفنيدي؟
عُدتُ منكم بقسوة الجُلُود
مثلما طال مَطْلُها بالوعد
وإلى كم أحتُّكم بالنشيد؟
أفلم يُشجِّكم بها تغريدي؟
أبتغي الحثَّ بالثناء الحميد
واقف في مواقف التنديد
جعل الحرب في طراز جديد
مغنيًا عن شجاعة الصنديد
ر لبأسًا يفوق بأس الحديد
كلَّ بأسٍ من الحديد شديد
بيَّ طَوْعًا وانضوا ثياب الجمود
أنكر الحق ناقضًا للعهود
بجنود مبيثوثة في الحدود
دعوة الأمرين بالتجنيد
نبتغي الذود عن تراث الجدود
إنما الملك قائم بالجنود
ما به من طريفكم والتلديد

أيها القومُ ما لكم في جمودِ
كلما قد هزرتكم لنهوض
طال عُتْبِي على الحوادث فيكم
فمتى سعيكم وماذا التَّواني
أنا غرَّيد شارادات القوافي
كنت قبلاً أثنى عليكم لأنني
فاتَّقوا اليوم صولةً من يراع
أيها القومُ نحن في عصر علم
جعل الحرب تُدرَس اليومَ فنًا
إن للعلم في حروب بني العص
إذ بدا بأسه الأشدُّ فأنسى
أيها القومُ فادخلوا المعهدَ الحر
واستعدوا لردِّ كل عدوِّ
وأعزُّوا الملك الذي نبتغيه
قد دعتمكم أوطانكم فأجيبوا
نحن لا نقصد الحروب ولكن
أرأيتم مُلْغًا بغير جنودِ
فاجمعوا الجيش في العراق ليرعى

ويردّ العدو عنكم ويحمي
لا تقروا على الهوان وأنتم
يكرهون الحياة إلا حياة
أشرف الموت عندهم هو موت
وأعزّ الأعمار عمر قصير
وأذلّ الحياة عندي حياة
عيشكم من شوائب التنكيد
عرب من بني الأباة الصّيد
ذات عزّ ببأسهم صيّهود^١
في صها الخيل تحت خفق البنود^٢
تحت ظل من السيوف مديد
قد أهينت حقوقها بجحود

^١ أصل الصيّهود: الشديد الحر، والمراد هنا الحياة القوية.

^٢ صها الخيل: جمع صهوة، وهي الظهر.

العِلْمُ والعَلَمُ

والهَمُّ مِقْدَارُهُ من أهله الهَمُّ
من فوقها أَسْفُ من تحتها أَلْم
نار تَفْوهُ بها لِلنَّاسِ أم كَلِم؟!
يذكو، على أَنه كالماء منسجِم؟
نارًا ولم يحترق في كفك القلم
والعزم متقد والهَم محتدم
واستصغر الخطبَ مَنْ في نفسه عِظْمُ
من بات في نفسه الأمال تزدهم؟!

لواعجُ الهَم في جنبيّ تضطرمُ
كم قد أذاقتني الأيامُ من حُرَقِ
أكلما قلت شعراً قال سامعه
ما بال شعرك مثل النار ملتهبًا
إننا لنعجب من شعرٍ تَوَجَّجه
لا تعجبوا فالأسى في النفس ملتهبُ
استبردَ النارَ مَنْ حرَّت عزائمه
وكيف يصبح من دنياه في دَعِيَّة

* * *

هما على ما أراه العِلْمُ والعَلَمُ
هذا له الحكم أو هذا له الحِكم
فليس يُجديهمُ العِلْمُ الذي علموا
أن يُنشر العَلَمُ الخفّاق فوقهم
كالسيف يحمله في الحرب منهزم
إن لم تقم من سيوف تحته دَعَم
به تشير إلى استقلالها الأَم!

أما المُعزَّان في الدنيا فإنهما
كلاهما ضامنٌ للناس حُرمتهم
من لم يك العَلَمُ الخفّاق شارتهم
وليس ينفع قومًا لا علوم لهم
فالعلم في أُمَّة ليست بحاكمة
والعلم أوهن من أن يستظل به
ما أحسن العَلَمُ الخفّاق منتصبًا

* * *

أن الموفق فيها السيف لا القلم
برق تبسم عنه الصارم الخنم
إلا من النقع في يوم الوغى ديم
فليس يكذبني أن الحياة دم
يدور في الجسم أو في الأرض ينجم
كمثله وهو تحت الجوف منتظم
إلى عبيط دم المحيا به قرم
من حيث تعترك الأبطال والبهم^١
أن ليس يضحك إلا حين تبتسم

قد علمتني الليالي في تقلبها
وأن أصدق برق أنت شائمه
وأخصب الأرض أرض لا تسح بها
من كان يكذبني أن الحياة منى
وأنه في كلا الحالين منبعا
وأنه وهو فوق الأرض منتثر
إني أرى المجد في الأيام قاطبة
فالمجد ينبت حيث العلم منتثر
والمجد أعطى الظبا ميثاق معترف

* * *

إني بحبل رجائي اليوم معتصم
يسعى وأرجله بالخوف تصطدم
فيها يرف عليك المجد والكرم
إذا تسرب في أثنائه السام
تعص منك بعود ليس ينجم^٢
عزم وحزم وإقدام ومقتحم
إلا الإياء وإلا العز والشمم
عند اللئام وأن الوغد محترم
وما يعيبك أن الدهر متهم
منها إلى كلم في طيها حكم
فهل وعى ما أردت السامع الفهم؟

فليذهب اليأس عني خاسئا أبدا
ولست ممن إذا يسعى لحادثة
لا تسأمن إذا حاولت منزلة
فالعيش تستبشع الأذواق مطعمه
وكن صليبا إذا عصتك حادثة
إن الخصال التي تسما الحياة بها
لا يكسب النفس ما ترجوه من شرف
لا يؤنسك أن الحر محتقر
فالعقل يتهم الدهر المسيء بذا
هذي ملامتكم يا قوم فاستمعوا
قد أنشد الشعر تعريضا بسامعه

^١ البهم: جمع بهمة، بوزن غرفة، وهو البطل الذي لا يعرف قرنه من أين يناله؛ لقوته وشدة حذره.

^٢ ينجم: يتأثر بالعجم، وهو العض بالأسنان.

السجاياء فوق العلم وفوق العالم

وقد نظم الشاعر الكبير الأستاذ الرصافي هذه القصيدة الاجتماعية الجبارة؛ جواباً عن قصيدة الشاعر الأمير عادل أرسلان، وقد كان الأمير عادل أرسلان قد اطلع على قصيدة الأستاذ الرصافي «العلم والعلم» التي ينصح بها الأمة العربية، ويحضها على الجهاد في سبيل الحرية فنظم قصيدة يعارضها بها.

في كل عصر به قد سادت الأمم
إلا بأن سجاياهم لها يعم
نفع إذا ما السجاياء الغر تنعدم
فليس ينفعهم علم ولا علم
إلا إذا اختلت الأخلاق والشيم
ما سادت الناس لا عرب ولا عجم
وأنفه باحتمال الذل مُزدلم^١
كأن أشهر قومي كلها حرم؟
واليوم أقعدهم عنها أن انقسموا
حازوا به الشرف الوضاح واغتموا
نار التخازل بالشحناء تضطرم

علم يُعززه من دولة علم
ودولة القوم لم تثبت قواعدها
فليس للعلم مهما اعتز جانبه
إذا استحالت سجايا القوم فاسدة
وليس يختل حبل الملك مضطرباً
لولا سجايا على حب العلا جُبلت
لا خير في العيش يغدو فيه صاحبه
ما بال قومي على الإرهاق قد صبروا
قد أنهضتهم إلى العلياء وحدثهم
كان التعاون غرراً في غرائزهم
ثم اغتدوا بعد حين في جوانحهم

^١ مزدلم: مقطوع.

قد زال روح التفادي منهمُ ونما
ألقى التخاذل ضَعْفًا في عزائمهم
تعاضموا لعظامٍ يفخرون بها
رُوح التعادي إلى أن ماتت الهمم
فالأجنبي عليهم ظلّ يحتكم
وهل يكون بعظمٍ رمّةٍ عِظْمُ

* * *

داء التآخر منا في خلائقنا
كانت خلائقنا للعز ضامنةً
وأصبحت عندنا الغايات تابعة
نمشي من الجهل في ظلماء ظالمةٍ
حرية الفكر فينا غير جائزة
فقد فشا الداء حتى استفحل السقم
حتى فسَدَنَ فزال العز والشمم
إلى هوى النفس، فيما شأنه عمم^٢
بليّتها علينا الظلم والظلم
والحرُّ منا مُهانٌ ليس يحترم

* * *

لا دَرٌّ دَرُّ رجال الدين إنهمُ
واستعملوه كما تهوى مآربهم
تالله ما كان في الإسلام من حرجٍ
بل كله جاء تيسيرًا وتبصرة
لكنما القوم ظلوا جامدين على
إذا سلكت إلى الإصلاح مسلكه
وإن تصادمت بالعادات تُنكرها
وإن أتيت ببرهان فأعجزهم
وإن تقل لهم قولاً لتقنعهم
خلائق كظلام الليل من يرها
قد أظهروا فيه منهمُ غير ما كتموا
كأنه ليس إلا آلة لهمُ
على الأنام ولا في نهجه غمم
للعاملين وأحكامًا بها حِكم
ما منه قَدٌ وهموه، بنس ما وهموا!
فأنت في رأيهم بالكفر مُتهم
فأنت في زعمهم بالدين تصطدم
لم يحسنوا الردّ، بل من عجزهم شتموا
شدُّوا عليك وردُّوا قبلما فهموا
يقل بأمثال هذي تُمسحُ الأمم

* * *

لله دَرُّ بني معروفٍ إذ صبروا
أخلوا منازلهم للكرّ ثانية
ولازموا القفر، عاشوا في مجاهله
على التجالد ما كلُّوا ولا سئموا
كالأسد ترتدُّ خلقًا ثم تقتحم
عيش القناعة لا حلو ولا دسم

^٢ أمر عمم: تام عام.

بذاك حُبهم الأوطانَ يأمرهم
باتت دمشق لهم ترنو نواظرها
أيام لم يبق من بيتٍ بغوطتها
ثم انضوى بعدما اجتاحت معالمها
فاستقتلوا في سبيل الدود عن وطنٍ
كانوا أشدَّ مضاءً من صوارمهم
عند الهجوم كموج البحر تبصرهم
صلت سيوفٌ بأيديهم يسُلن دماً

إذ هم بسيماء حب الموطن اتسموا
كما رنا للطبيب المدنف السقم
إلا نكت فيه ناراً أو أريق دم
منها إلى جمعهم أبطالها البهم
صينت له من قديم عندهم ذم
فليس يثنى عليهم ثان إذا هجموا
وكالجال الرواسي هم إذا التحموا
حتى حكين الغوادي حين تهتمز^٣

* * *

من مبلغٌ للأمير الشهم مألوكه^٤
إلى فتى آل رسلان الألى رسخت
لبعضهم شهرةً بالسيف واحدة
كعادلٍ وشكيبٍ في أكفهما
صبراً فديتك بالعقبى وإن بعدت
ولم يفتك نجاح في محاربة
يا عادلاً كاسمه لا تنس مظلمتي

كالشمس تشرق إلا أنها كلم^٥
في معدن المجد من قدم لهم قدم
وبعضهم شهرتاهُ السيف والقلم
جال اليراع وصال الصارم الخدم^٥
للصابرين وعقبى الخائن الندم
أقل ما حزت فيها المجد والكرم
عندي خصوم وما عندي لهم حكم

^٣ صلت صليلاً: صوتت. والغوادي: جمع غادية وهي السحابة تنشأ فقط غدوة. تهتمز: من الهزيم وهو صوت الرعد.

^٤ المألوكه والألوكه: الرسالة يؤديها الرسول بلسانه.

^٥ سيف خذم: ومخزم: بكسر الميم: أي قاطع.

الحرية في سياسة المستعمرين

يا قوم لا تتكلموا
ناموا ولا تستيقظوا
وتأخروا عن كل ما
ودعوا التفهّم جانبًا
وتثبّتوا في جهلكم
أما السياسة فتركوا
إن السياسة سرها
وإذا أفضتم في المبا
والعدل لا تتوسموا
من شاء منكم أن يعي
فليمس لا سمع ولا
لا يستحق كرامة
ودعوا السعادة إنما
فالعيش وهو منعم
فارضوا بحكم الدهر مه
وإذا ظلمتم فاضحكوا
وإذا أهنتم فاشكروا
إن قيل: هذا شهدكم

إن الكلام محرّم
ما فاز إلا النوم
يقضي بأن تتقدّموا
فالخير ألا تفهموا
فالشّر أن تتعلموا
أبدًا وإلا تندموا
لو تعلمون مُطلّم
ح من الحديث فجمموا
والظلم لا تتجهموا
ش اليوم وهو مكرّم
بصرّ لديه ولا فم
إلا الأصم الأبكم
هي في الحياة توهّم
كالعيش وهو مذمّم
ما كان فيه تحكم
طربًا ولا تتظلموا
وإذا لطمتم فابسموا
مُرّ، فقولوا: علقم

ديوان معروف الرّصافي

أو قيل: إن نهاركم ليل، فقولوا: مظلّم
أو قيل: إن ثمادكم سيل، فقولوا: مُفِعِمٌ^١
أو قيل: إن بلادكم يا قوم سوف تُقسّم
فتحمّدوا، وتشكروا وترنّحوا، وترنّموا

^١ الثماد: جمع ثمّد بالتحريك، وهو الماء القليل.

غادة الانتداب

دع مزعج اللوم وخل العتاب
من قصّة وإقصيّة غصّة
في الكوخ من بغداد مرّت بنا
لَبَّتْهَا مُوقِرَةٌ بالحلي
ووجهها يطمس سَحْنَاءَهُ
تمشي العِرضنى في جلابيها
تَخْتَلِبُ النَّاسَ بأوضاعها
قد وضعت تاجًا على رأسها
يُحَسَبُ من دُرٍّ بتمويهه
كاسية الجسم أرق الكسى
قد غولط الناس بأثوابها
وهي لعمرى دون ما ريبة
فالغش في لحمتها والسدى

واسمع إلى الأمر العجيب العُجاب
تضحك بل تدعو إلى الانتخاب^١
يومًا فتاة من ذوات الحجاب
وكفُّها مشبعة بالخضاب^٢
عنا ظلامٌ من سواد النقاب
مشية إحدى المومسات القحاب
وكل ما يصدرُ منها خِلاب
يلمع في الظاهر لمع الشهاب
وهو إذا حَقَّقْتَهُ من سخاب^٣
موشية الثوب بوشي كذاب
في أنها من معمل الانتخاب
منسوجة في منسج الاغتصاب
وكل ما يدعو إلى الارتياب

^١ واقصة: اسم فاعل من وقصه؛ إذا دق عنقه، والمراد أنها مؤلة أشد الألم.

^٢ اللبة: موضع القلادة. وموقرة: محملة.

^٣ السخاب، ككتاب: خيط ينظم فيه خرز، تلبسه الصبيان والجواري.

قال جليسي يوم مرّت بنا: مَن هذه الغادة ذات الحجاب؟
قلت له: تلك لأوطاننا حكومة جاد بها الانتداب
نحسبها حسناء من زيّها وما سوى «جنبول» تحت الثياب
ظاهرها فيه لنا رحمة والويل في باطنها والعذاب
مصابنا أمسى فظيماً بها يا ربّ ما أفزع هذا المصاب!
تالله قد حق لنا أننا نحثو على الأروس كلّ التراب

الفيل والحمل

أنشدها يخاطب بها الزعيم الهندي محمد علي، وقد كان مدعوًا معه في مأدبة أقامها له الأستاذ الثعالبي عند مروره ببغداد سنة ١٩٢٩.

سؤالاً له أرجو الجواب تفضلاً
فلم يخش فيه الحُرُّ أن يتقوَّلاً
تخيَّلت فيلاً بالحديد مُكبلاً
فيمضي بأعباء الأجانِبِ مثقلاً
له أنة من ثِقَل ما قد تحملاً
فيمضي على رغم القيود مهرولاً
تكون له، لو شاء من ذاك موثلاً
لهزَّ بها شم الجبال وقلقلاً
لما رمتُ عن هذا جواباً مفصلاً
غدا من وراء الفيل للذئب مأكلاً
نجونا وإلا أصبح الأمر معضلاً
ترون سوى هذا عليه المعوَّلاً؟
أحييك باسم الناهضين إلى العلا

إليك زعيم الهند أورد ها هنا
فنحن هنا في مجلس ذي أمانةٍ
إذا ما سمعت الهند في قول قائلٍ
تزجِّيه كف الأجنبيِّ مُسخرًا
ويبرك أحياناً على الأرض رازحًا
ويُنخس أحياناً فتعلوه رجفة
وإني أظن الفيلَ صاحبَ قوَّةٍ
فلو قام هذا الفيل واستجمع القوى
ولو لم تكن بالفيل عندي علاقة
لنا حَمَلٌ وهو العراق نظنَّه
فإن يَنجُ هذا الفيل من قيد أسره
فإن لم يكن هذا صحيحاً فما الذي
ومن بعد هذا يا محمد إنني

دمشق تندب أهلها

أنشدها في حفلة أقيمت في بغداد لجمع الإعانات لمنكوبي سورية سنة ١٩٢٦.

بكت في ظلام الليل تندب أهلها
وباتت وقد جلّ المصابُ حزينَةً
تئنُّ وقد مدَّ الظلامُ رواقه
إذا هي مدّت في الدجئة صوتها
وتلهب منه في الفضاء شرارة
وتهبو له في ساحل النيل هبوة
بصوتٍ له الصخر الأصم يلين
لها في مناحي الغوطتين أنين
وخيّم صمتٌ في الدجى وسكون
تميد له في الغوطتين غصون
فتبصرها في الرافدين عيون
أبو الهول منها واجدٌ وحزين

* * *

ومن بعد وهن أشرق البدر طالعاً
فأبصرتُ منها الوجهَ أزهَرَ مُشرقاً
جمال بديعٌ بالجلال متوجّج
وبرقَعها حزنٌ فكان لوجهها
فتاة جثتُ في الأرض تبكي وحولها
فضمّت إلى الصدر اليدين وعينها
وقد شخصت نحو السماء بطرفها
وما أنسَ لا أنسَ العشيّة أنها
وأنّ غزيرَ الدمع خدّد خدها
ولما انقضى صبري تراميت نحوها
فأسفر منها عارض وجبين
بخديّه سر للجمال مصون
له سببٌ في المكرمات متين
مكان من الحسن المهيّب مكين
صريع على وجه الثرى وطعين
تقاذف منها بالدموع شئون
لها كلّ أن زفرة وحنين
تورّم منها بالبكاء جفون
فلاحت من الأشجان فيه فنون
كما ترتمي بالعاصفات سفين

وقلت لها: مَنْ أَنْتَ رحماك إنني
فقالَت وقد أَلقت إِلَيَّ بنظرة
أنا البلدة التُّكلى دمشقُ ابنة العُلا
ألم ترَ أبنائي يُساقونَ للردى
فأين أباة الضيم من آل يَعربٍ
فقلت لها: لبيك يا أُمُّ إنهم
سندرك فيك الثَّارَ من أنفُس العدا
لك اليوم خِلُّ صادقٍ وأميين؟
عن القصد فيها مُعربٌ ومبين
أما أَنْتَ في مغنى دِمَشق قطين
فمنهم قتيلٌ بالظُّبا وسجين
ألم يأتِ منهم ناصرٌ ومعين؟
سيأتيك منهم بارزٌ وكمين^١
ونوقد نار الحرب وهي زَبون^٢

* * *

فهذي دمشقُ يا كرام وهذه
أحاديث عنها كلهنَّ شجون

^١ بارز وكمين: أي ظاهر وخفي.

^٢ الزبون: الدفوع، يقال: ناقة زبون، وحرب زبون: أي تدفع الناس إلى الهلاك.

معترك الأهواء

قالها يمثل حالة الصحف في الآستانة عقب الهدنة للحرب العامة.

أرى الأتراك في دار الخلافه
غدوا يتطاعنون بكل هُجْرٍ
فما عملت رماح الخط فيهم
تري كلاً تهياً للترامي
وأترع كفه حمأً نتيئاً
تراهم مُزبدين لهم شدوقُ
لهم صَحْبٌ كعربدة السكارى
على حين العدوُّ بهم محيطٌ
سفينه ملكهم فيها خروق
وقد وقفتُ بِدُرْدورٍ شديدٍ
تمادوا في الخصومة والسخافه
من القول المخالف للشرافه^١
كما عملته أقلام الصحافه^٢
وشمّر عن سواعده لحافه
ليَلطخ وجه من يُبدي خلافه^٣
كشذقي حالبٍ شربِ النشافه^٤
وقد شربوا المطامع كالسلافه
يذيقهم المذلة والمخافه
وهم لا يحسنون لها القلافه^٥
ولم تأمن من الموج انقذافه^٦

^١ الشرافة: الشرف، وكلاهما مصدر شرف الرجل؛ إذا علا في الدين أو الدنيا.

^٢ الخط: بلد في البحرين تصنع فيه الرماح الجيدة.

^٣ الحمأ: الطين.

^٤ المزبد: البعير الذي خرج الزبد حول فمه. والنشافة: الرغوة التي تعلق لبن الإبل والغنم إذا حلب.

^٥ قلف السفينة: خزن ألواحها بالليف، وجعل في خللها القار، والقلافة اسم تلك الصناعة.

^٦ الدردور: موضع في وسط البحر يجيش ماؤه، لا تكاد تسلم منه سفينة.

وليس لها هنالك من عريفٍ
عجبت لهم إذ اختلفوا بملكٍ
كأنني إذ أراهم في احترابٍ
أرى كبشين ينتطحان جهلاً
خصامٌ يضحك السفهاءُ منه
وإنّ تدابِرَ الأقوامِ شيءٌ
يُقومها بسكان العرافه
يكون الإختلاف عليه آفه
بملكٍ يطلب الغرب انتسافه
لدى الجزّار في دار الضيافه
ويبكي منه أرباب الحصافه
يتؤل إلى الندامة والأسافه

نفثة مصدور^١

خليلِي هل من مُنصتٍ فأبئته
فإني سئمت العيش في عُنفوانه
أقول، وليل الغرب ليس بنائم
لقد جاح هذا الشرق بعد اعتزازه
فساء من الإملاق والجهل خلقه
وعادَ هزيباً مجده مُتلفعاً^٢
وهبَّت به هوج الرياح فلم تدعُ
أرى غثياناً في النفوس وهل ترى
فيا قومنا أين المساواة عندكم
وأين موثيق الأخوة إنني
وإنَّ بصدري للمقريض لفورة^٣
شجونَ فتى يشكو الأليم من البث؟
ويسأم مثلي كلُّ محترثٍ حرثي
أما لنيام القوم في الشرق من بعث؟
جوائح أودت منه بالكِرش والفرث^٤
وصار سمين القوم يببطش بالغث^٥
بسحق دريس من مفاقره رث^٦
من العلم جذراً فوقه غير مُجتث^٧
نفوساً على خُبث المطاعم لا تُغثي
فقد طال عنها في مواطنكم بحثي؟
أرى حبلها في كل يوم إلى النكت^٨!
يزيد بها من طول غفلتكم نفثي^٩

^١ قال الرصافي هذه القصيدة وهو في الآستانة، وأنشدها بشبان العرب في المنتدى الأدبي.

^٢ أودت منه بالكِرش والفرث: [يريد] أنها ذهب مني بما عز وبما هان.

^٣ متلفعاً: متلحفاً. وسحق في قوله: «بسحق» صفة لمحذوف؛ أي بثوب سحق، وهو البالي من الثياب.

والدريس: الخلق، وكذلك الرث. والمفاقر: وجوه الفقر، لا واحد لها.

^٤ نفثي: أي نفخي من الغضب.

أراكم فأهجو ثم أطرق ذاكرًا
وأبكي على المجد الذي كان دونه
يقولون: إنَّ الإرث في الخلق سُنَّةٌ
فهل ورثتم ثلثَ ذاك الذي بنوا
قعدتم وقاموا واستكنتم وفاخروا
وما أتعب المستنهضيكُم فإنهم
أما والعُلا، وأها لها من أليَّةٍ
لأحتقرنَّ الموتَ في معركِ المُنَى
وأركبُ متنَ الهول دون لُبانتِي
وأجري بمستنَّ الخطوب مشمَّرًا
ولولا إِبائي أن أخاطب ماجنًا
أوائلكم قبلاً فأندب أو أرثي
على ركبتيه الدهر من خشية يُجثي
فهل بطلت في خَلقكم سنةَ الإرث؟
من المجد، لا لا، بل أقل من التُّلث!
بعزُّ على وجه البسيطة مُنبثُّ
يَحْتُون منكم للعلا غير محتثُّ!
عدمتُ العُلا إن بتُّ منها على حنثِ
وأستُرُّ أفق اليأس بالرهج الكُثُّ^٥
ولستُ أبالي بالكوارث من كرت
وأخبط ليلَ المزعجات بلا لبت
كتبتُ هجاء الدهر بالقلم التُّلثُ^٦

^٥ الرهج: الغبار.

^٦ القلم التُّلث: أصله قلم التُّلث، وهو الذي يكتب في ثلث الطومار، والطومار: نوع من الورق، متفق على مقدار طوله وعرضه، وهذا من اصطلاح كتاب الدواوين، وقد جرى الشاعر على أسلوب عامة المتكلمين، فجعل التُّلث وصفًا للقلم العريض.

إخفار الذم أو عبد العزيز شاويش

قالها في الآستانة عندما أسلمت وزارة أحمد مختار باشا الغازي الشيخ عبد العزيز شاويش إلى الحكومة المصرية.

إني عهدتك لا تكون يئوسا
كم قد صدمت النائبات بهمة
غدروك يا عبد العزيز وإنما
ما أسلموك إلى الخديو إنما
هدموا بأيديهم قواعد مجدهم
وأحق شيء بالرتاء لدى الورى
وأقل أبناء الزمان حمية
قد أخلجوا علم الهلال بفعلهم
وغدا بنوه وإن تقادم فخرهم
ما هنت أنت وإنهم بفعالهم
جارت سياستهم عليك فأغضبت

مهما لقيت مصائبًا ونحوسا
جعلت لها الصبر الجميل لبوسا
غدروا الشهامة فيك والناموسا^١
قد أسلموا شرفًا لهم قُدْموسا^٢
فهوى وأصبح رسمه مطموسا
شرف بأرجل أهله قد ديسا
من كان بيت نزيلهم مكبوسا^٣
هذا فأصبح رأسه منكوسا
عند الفخار يُطأطئون رءوسا
هانوا لدى أهل الحِفاظ نفوسا
أهل العدالة سائسًا ومَسوسا

^١ الناموس: وعاء العلم.

^٢ القدموس: القديم.

^٣ المكبوس: الذي يهجم عليه ويفتش.

لو كان هذا الشعب يعرف نفسه
ولو أنّ أخلاق الرجال صحيحة
إنّ العلا همست إليك بسرّها
فنهضت بين المسلمين تلمّهم
فرماك منهم حاسدوك بثهمة
إنّ يمقتوك فإنّ حبّك لم يزل
والشمس تشهد أنّ فضلك مثلها
يا ليت شعري أي كأس مرة
وبأيّ سلسلّة زَموك مكبلاً
قد بتّ من جزعي عليك منجماً
إنّ يسجنوك فإنّ ذكرك مطلق
أو يوحشوك بقعر سجنك مفرداً
ولئن لقيت أدنى فكم من مصلح
ضحكت وجوه الترهات ولم يزل

لأقام حرباً من جراك ضروسا
ما كان حَقك عندهم مبخوسا
ولقد فهمت كلامها المهموسا
وتجدّ منهم مُخلّقاً ودريسا^٤
ملئوا الفضاء بزورها تدليسا
في قلب كل موحد مغروسا
يحي النفوس ويقتل الحنديسا^٥
لك أدهقوا إذ جرّعوك البوسا!^٦
وبأيّ سجن غادروك حبيسا
في الليل عنك أسائل البرجيسا^٧
يَجني الثناء ويقطف التقديسا
فالحق عندك قد أقام أنيسا
لقي الأداة مفجّعاً متعوسا
وجه الحقيقة في الأنام عبوسا

^٤ وتجد: تجدد. والمخلوق: البالي. الدريس: الدارس البالي.

^٥ الحندس: الظلام، والحنديس؛ الحندس وقد أشبع كسرة الدال، فوجدت الباء.

^٦ البوس: البؤس.

^٧ البرجيس: نجم، قيل: هو المشتري.

ياسين باشا

قالها بلسان أحد المتظاهرين، وكان إذ ذاك في دمشق، لما دبرت حكومة الشام العربية بواسطة رجال الإنكليز مكيدتها المعلومة لياسين باشا الهاشمي فأخذوه واعتقلوه في الرملة، وكان ذلك قبل دخول الفرنسيين بلاد الشام.

ياسينُ إنك بالقلوب مَشِيْعُ
أخذوك يا بطلَ المعامعِ غيلةً
ولو أنهم تركوا الخداعَ وحاولوا
أوليس يدري أخذوك بأنهم
أينَ الذمام ونحن من خلفائهم؟!
أفيجهلون بأننا من أمة
لا تجزَعنَّ فإنَّ خلفك أمة
إن أخرجوك من المواطن مُكرهاً
أو غيبوك فإنَّ أمرك حاضرٌ
فلنملائنَّ بك البلادَ هَراهِراً
ولننهضنَّ إلى الهياجِ بهمة
ولنسررنَّ معامعاً يَصلونها

أفأنت للوطن العزيز مودُّعٌ؟!
بيد الخداع ومثلهم من يَخدع
لقياك أعجزهم إليك المطلع
هاجوا بمأخذك الخطوب وززعوا؟!
سرعان ما نُقضوا العهود وضيَّعوا!
في المجد تأمر من تشاء فيسمع؟!
تمشي كمشيك للعلاء وتتبع
فالشعب خلفك هائج لا يهجع
أو تُبَطوك فإن جيشك مُسرع
حتى يضيِّق بها الفضاء الأوسع^١
شَماء يبصرها الجبان فيشجُّع
ورءوسهم فيها لسيفك رُكَّع

^١ الهزاهز: الفتن والثورات التي تهز الناس وتقلقهم.

ديوان معروف الرصافي

ولنرمينهمُ بمعضلةٍ إذا تُرمى الجبال بمثلها تتصدّع
ونقودها خرساءً يُنطقها الردى فيصلُّ صمصامٌ ويصرخ مدفع
يا راحلاً عنا بكيد عدونا أبشرُ فإنك عن قريبٍ ترجع

كيف نحن في العراق؟

أيكفينا من الدُولات أنَّا
وأنا بعد ذلك في افتقار
تجوز سيادة الهنديِّ فينا
إذن فالهند أشرف من بلادي
وكم عند الحكومة من رجالٍ
كلابٍ للأجانب هم ولكن
وليس الإنكليز بمنقذينا
متى شفق القويُّ على ضعيفٍ
ولكن نحن في يدهم أسارى
أما والله لو كنا قروداً
تعلَّق في الديار لنا البنود؟!
إلى ما الأجنبيُّ به وجود؟!
وأما ابن البلاد فلا يسود
وأشرف من بني قومي الهنودُ
تراهم سادة وهم العبيد
على أبناء جلدتهم أسود
وإن كتبت لنا منهم عهد
وكيف بعاهد الخِزْفانَ سيِّد؟!
وما كتبوه من عهد قيود
لما رضيتُ قرابتنا القروُدُ

في طريقي إلى حلب

أقصد منه حَلَبًا فيمن قصدُ
تطلب تصديق جوازي في الصدد^١
كأنني والغيط في قلبي اتقد
حتى لقد يئستُ من فتح السدد
كأنَّ من يمر من هذا البلد
لولا كرام أدركوني بالمدد
يا صاحب الشرطة ما هذا اللدد؟^٢
فإن أجنادك جاءوا بالفند^٣
تعاورتنِي مِنْهُمْ يَدُ فَيْدٍ^٤
حتى ثيابي فتشوها والجسد^٥
ما أنا ممن جرَّ جرْمًا فشرد
كلا ولست جانيًا على أحد

جئت إلى الدير ضُحى يوم الأحد
فاعترضتنِي شرطةٌ ذات رصد
فعاقني ذاك من اليوم لغد
سفينة أمسكها ماءً جَمَد
وقلت من يَأْسِي وقد قَلَّ الجَلد:
يمرُّ زحفًا بين أشداق الأسد
لكنك أبقى زمنًا من غير حد
لم أدِرِ جِدُّ فعلكم أم هو دَد
إذ في عاثوا عيثَ ذئبٍ في نَقْد
أقاد كالقاتل قِيدَ للقود
كأنني سارق مال مُفتقد
ولست ممن سيمَ حقًا فَجَحْد

^١ الصدد: الطريق.

^٢ اللدد: شدة الخصومة والجدال.

^٣ الدد: اللعب واللهو. والفند: ما يلامون عليه.

^٤ النقْد: ضرب من صغار الغنم، كالمعز.

^٥ القود: القصاص.

لكنَّما الأمرُ لذيهم قد فسدُ والحكم قد جارَ عليهم واستبدُ
فالقوم أما حظهم فقد رقدُ عنهم، وأما سعدهم فقد خمدُ
منهم، وأما نحسهم فقد وقدُ وقد أضاعوا مجدهم إلى الأبدُ
وقدُ وقدُ، وقدُ وقدُ، وقدُ وقدُ

حكومة الانتداب

أنا بالحكومة والسياسة أَعَرَفُ
سَأَقُولُ فِيهَا مَا أَقُولُ وَلَمْ أَحْفُ
هذِي حُكُومَتَنَا وَكُلُّ شَمُوحِهَا
غَشَّتْ مَظَاهِرَهَا وَمُوهَ وَجْهَهَا
وَجِهَانٌ فِيهَا بَاطِنٌ مَتَسْتَرٌ
وَالْبَاطِلُ الْمَسْتَوِرُ فِيهِ تَحْكَمُ
أَلُّمٌ فِي تَفْنِيدِهَا وَأَعْنَفُ؟!
مَنْ أَنْ يَقُولُوا: شَاعِرٌ مُتَطَرِّفٌ
كَذِبٌ، وَكُلُّ صَنِيعِهَا مُتَكَلِّفٌ
فَجَمِيعٌ مَا فِيهَا بَهَارِجٌ زُيِّفٌ
لِلْأَجْنَبِيِّ وَظَاهِرٌ مَتَكَشِّفٌ
وَالظَاهِرُ الْمَكْشُوفُ فِيهِ تَصَلَّفُ

* * *

عَلِمٌ وَدَسْتَوِرٌ وَمَجْلِسُ أَمِيَّةٍ
أَسْمَاءٌ لَيْسَ لَنَا سِوَى أَلْفَاطِهَا
مَنْ يَقْرَأُ الدَسْتَوَرَ يَعْلَمُ أَنَّهُ
مَنْ يَنْظُرُ الْعِلْمَ الْمَرْفُوفَ يَلْقَاهُ
مَنْ يَأْتِ مَجْلِسَنَا يَصِدِّقُ أَنَّهُ
مَنْ يَأْتِ مُطَرِّدَ الْوِزَارَةِ يُلْفِهَا
كُلُّ عَنِ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ مُحَرَّفٌ
أَمَّا مَعَانِيهَا فَلَيْسَتْ تُعْرَفُ
وَفَقًّا لَصِكِّ الْإِنْتِدَابِ مُصَنَّفٌ
فِي عِزِّ غَيْرِ بَنِي الْبِلَادِ يُرْفَرُ
لِمَرَادِ غَيْرِ النَّاخِبِينَ مُؤَلَّفٌ
بِقِيُودِ أَهْلِ الْإِسْتِشَارَةِ تَرْسُفُ

* * *

أَفْهَكَذَا تَبْقَى الْحُكُومَةُ عِنْدَنَا
كَثَرَتْ «دَوَائِرُهَا» وَقَلَّ فِعَالُهَا
كَمْ سَاءَنَا مِنْهَا وَمَنْ وَزَرَائِهَا
كَلِمًا تَمُوهَ لِلوَرَى وَتَزْخَرَفُ؟!
كَالطَّبْلِ يَكْبُرُ وَهُوَ خَالٍ أَجُوفٌ
عَمَلٌ بِمَنْفَعَةِ الْمَوَاطِنِ مُجْحَفٌ

تشكو البلاد سياسةً ماليةً تجتاح أموال البلاد وتُتلف
تجنّي ضرائبها الثقال وإنما في غير منفعة الرعية تُصْرَف
حكمت مشدّدة علينا حكمها أما على الدُّخلاء فهي تخفّف
يا قومُ خَلُوا الفاشِسيّةَ إنها في السائسين فظاظَةٌ وتعجّرُف
للإنكليزِ مطامعُ ببلادكم لا تنتهي إلا بأن تتبَلّشّفوا

* * *

بالله يا وزراءنا ما بالكُم إن نحن جادلناكُم لم تُنصفوا؟
وكأنّ واحدكم لفرطِ غروره ثملٌ تميل بجانبه القرقف^١
أفتقنّعون من الحكومة باسمها ويفوتكم في الأمر أن تتصرفوا؟!
هذي كراسيُّ الوزارة تحتكم كادت لفرط حياتها تتقصّف
أنتم عليها والأجانب فوقكم كلُّ بسلطته عليكم مشرف
أُعدُّ فخراً للوزير جلوسه فرحاً على الكرسي وهو مكثّف؟

* * *

إن دام هذا في البلاد فإنه بدوامه لسيوفنا مسترعِف^٢
لا بد من يوم يطول عليكمُ فيه الحساب كما يطول الموقِف
فهناكُم لم يغن شيئاً عنكمُ لُسُنٌ تقول ولا عيونٌ تذرِف
الشعب في جَزَعٍ فلا تستبعدوا يوماً تثور به الجيوش وتزحف
وإذا دعا داعي البلاد إلى الوغى أتظنُّ أن هناك من يتخلف؟
أيذلُّ قوم ناهضون وعندهم شَرَفٌ يعزز جانبيه المرهف^٣؟
كم من نواصيٍ للعدا سنَجْزُها ولِحَى بأيدي الثائرين ستنتف
إن لم نضاحك بالسيوف خصومنا فالمجد باكٍ والعُلا تتأفّف

* * *

^١ القرقف: الخمر.

^٢ مسترعف: مسبب للرعاف وهو سيلان الدم من الأنف ومن السيف.

^٣ المرهف: السيف أو السنان المشحوذ.

زُر ردهة التاريخ إن فناءها
قد كان للعرب الأكارم دولة
عاش الأديب منعمًا في ظلها
أيام كان المسلمون من الورى
ثم انقضى عهد العروبة مذ غدا
حتى تقلص بعد من سلطانها
وغدت ممالكها الكبيرة كلها
فبنو العروبة أصبحوا في حالة
والمسلمون بحالة من أجلها

للمجد من أبناء يعربٍ مُتَحَفٍ
من بأسها الدول العظيمة ترجُف
والعالم النحرير والمتفلسف
في ظلها لهم المحل الأشرف
عنها الزمان بسعده يتحرَّفُ
ظلُّ بأقصى المشرقين مُورَّفُ
لسهام كل دويلة تستهدف
منها العروبة لا أبا لك تأنف
تالله ضجَّ بما حواه المُصحف

٤ يتحرف: ينحرف.

الوزارة المذنبه

دار ذا الدهر مَدَارَهُ
كَلُّ فَعَلَ الدَّهْرُ فَعَلُّ
أَهْلَ بَغْدَادَ أَفَيَقُوا
إِنَّ دِيكَ الدَّهْرُ قَدْ بَا
شَأْنَهَا شَأْنٌ عَجِيبٌ
هِيَ لِلْجَاهِلِ عَزٌّ
مَلِكِ الْبِدْوِ بِهَا الْأَمْرُ
كَمْ لَهَا مِنْ هَفْوَاتٍ
حَبَّبَتْ لِلْوَطَنِيِّ الْـ
بَيْعَ لِلْأَطْمَاعِ فِيهَا
فَكَأَنَّ الْحُكْمَ وَالْعَدْلَ
كَمْ وَزِيرٍ هُوَ كَالْوَزْرِ
مُقَمَّمٌ لَوْ كَانَ لِفِظًا
وَوَزِيرٌ مُلْحَقٌ كَالذِّ
ذَنْبٌ يَسْتَوْجِبُ الْإِخْرَ

فرأى الناس ازوراره
فيه للحرر إثاره
من كرى هذي الغراره^١
ض ببغداد وزاره
قصرت عنه العباره
ولذي العلم حقاره
ر على أهل الحضاره
تسلب الطود وقاره
حُرُّ أَنْ يَهْجَرَ دَارَهُ
حقكم بيع الخساره
ل بها قَطُّ وفارَه
ر على ظهر الوزاره
شخصه كان استعاره
يل في عجز الحماره
لأص والصدق انبتاره^٢

^١ الغرارة: الغفلة وقلة الفطنة للشر.

^٢ انبتاره: بتره وقطعه.

قل لأرباب الوزاره
 أنتم الأصنام لولا
 أحلوم كفراش
 أم جيوب زرها الدهم
 أم وجوه لو بدت للش
 أمع الذلة كبر
 كيف لا تخشون للأح
 يا بني الأوطان هبوا
 إن وجه الحق باد
 أدركوا الحق فقد شل
 لا تسل عنه وزير ال
 فوزير القوم لا يع
 وهو لا يملك أمرا
 يأخذ الراتب إما
 ثم لا يعرف من بع
 حدت الناس ال
 فلعل الدهر منهم
 عدلا أضرمت ناره
 نزقات مستطاره
 وقلوب كحجاره!
 ر على كل دعاره?^٣
 ممس لم تنشر حراره!
 أم مع الجبن جساره!
 رار في البطش مهاره!
 وانقضوا هذي العراره
 كسراج في مناره
 ت على الحق الإغاره
 قوم واسأل مستشاره
 مل من غير إشاره
 غير كرسي الوزاره
 بلغ الشهر سراه^٤
 د: خراب أم عماره
 لؤم عن هذي الحشاره^٥
 بدم يغسل عاره

^٣ الدعارة: الفجور والخيانة.

^٤ السرار: الظلام الذي لا يظهر فيه القمر آخر الشهر.

^٥ الخشارة والخشار: الرديء من كل شيء، وخصّ اللحياني به رديء المتاع، وفي البيت خلل، لكن هكذا ورد في الأصل.

يوم الفلوجة

أيها الإنجليز لن نتناسى
ذاك بغّي لن يَشْفِي الله إلا
هو كَرْب تَأبَى الحميّة أُنَّا
هو خطب أبكى العراقيين والشا
بَغِيكُمْ فِي مَسَاكِنِ الْفُلُوجِ^١
بِالْمَوَاضِي جَرِيحِهِ وَشَجِيحِهِ
بِسُورِ السَّيْفِ نَبْتَغِي تَفْرِيجَهُ
م وَرَكَنَ الْبَنِيَّةِ الْمَحْجُوجِهِ

* * *

حلها جيشكم يريد انتقامًا
يَوْمَ عَاثَتْ ذُنَابَ آثُورِ فِيهَا
فَاسْتَهَنْتُمْ بِالْمُسْلِمِينَ سِفَاهًا
وَأَدْرْتُمْ فِيهَا عَلَى الْعُزْلِ كَأَسَا
وَأَسْتَبَحْتُمْ أَمْوَالَهَا وَقَطَعْتُمْ
أَفْهَذَا تَمَدُّنٌ وَعِلَاءٌ
أَمْ سَكْرْتُمْ لَمَا غَلَبْتُمْ بِحَرْبٍ
وَهُوَ مُغْرٍ بِالسَّاكِنِينَ عُلُوجِهِ^٢
عَيْثُةٌ تَحْمَلُ الشَّنَارَ سَمِيحِهِ
وَاتَّخَذْتُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَلِيحِهِ^٣
مِنْ دِمَاءِ بِالْغَدْرِ كَانَتْ مَزِيحِهِ
بَيْنَ أَهْلِ الدِّيَارِ كُلِّ وَشِيحِهِ
شُعْبَكُمْ يَدْعِي إِلَيْهِ عَرُوجِهِ؟!
لَمْ تَكُنْ فِي انْبِعَاثِهَا بِنُضِيحِهِ؟

^١ الفلوجة: قرية على الفرات.

^٢ مغر: مسلط محرض. والعلوج: جمع علج، وهو الرجل الضخم من كفار العجم.

^٣ وليجة: بطانة.

قد نتجنا لقوحها عن خداج
هل نسيتم جيشاً لكم مُبذعراً^٥
وهوى بانهزامه حصن أقريـ^٦
سوف ينأى بخزيه وبعار
لا تغرّنكم شباكُ كبار
لستم اليوم في الممالك إلا
وطن عشت فيه غير سعيد
أتمنى له السعادة لكن
أخصب الله أرضه ولو أنّي
كل يوم بعزه أتغنى
ما حياة الإنسان بالذل إلا
فثناءً للرافدين وشكراً

فلذاك انتهت بسوء النتيجة^٤
شهدت جنبه سواحل إيجه؟^٥
ط وأمسى قذّي على عين فيجه^٦
عن بلاد تريد منها خُروجه
أصبحت لاصطيادنا منسوجه
جُعلًا تحت صدره دُخروجه^٧
عيش حرّ يابى على الدهر عوجه
ليس لي فيه ناقة منتوجه^٨
لست أرعى رياضه ومروجه
جاعلاً ذكر عزه أهزوجه
مُرّة عند حسوها ممجوجه
وسلاماً عليك يا «فلوجه»

^٤ نتج الناقة: ولدها. واللقوح: الحامل. الخداج: نزول المولود قبل استكمال مدة الحمل.

^٥ المبذعر: المتفرق.

^٦ أقريط: كريت.

^٧ الجعل: ذكر الخنافس. والدحروجة: كرة يكورها من خرثه، يدحرجها ويجري وراءها.

^٨ منتوجه: والدة.

الإنكليز في سياستهم الاستعمارية

بقدر كبير صيغ من معدن الخبث
سجلاً من الكذب المموه والجنث
من المكر بل ما قد يزيد على الثلث
وعالجها بالدق والدلك والدعث
تزيد على نار الغضا أو على الرمث^١
بخاراً بأنبيق من السحر والنفت^٢
تقاطر في الأنبيق كالمطر الدث^٣
قتلت طباع التيمسين بالبحث
وهل يستقيم الصوف في عيثة العث
مظالم سوداً كن من أفضع الحرث
بها فتناً كالدجن يهمي على الوعث^٤
ويُلقون للأهلين منهن بالفرت^٥

لقد جمع الدهر المكاييد كلها
وصب عليها من بئار صروفه
وأنقع فيها ما يعادل ثلثها
وفتت أوطالاً من الغدر فوقها
وأوقد ناراً للخديعة تحتها
ففارت ملياً فيه ثم تصعدت
فصاع طباع الإنكليز من الذي
دع اللوم واسمع ما أقول فإنني
كأنهم والناس عُثٌ وصوفة
فكم حرثوا في أرض مستعمراتهم
وكم أيقظوا والناس في الليل نوم
وهم يأكلون الزبد من منتجاتها

^١ الغضا: شجر جزل، ناره قوية. والرمث: شجر يشبه الغضا لا يطول ولكن ينبت ورقه.

^٢ الأنبيق: جهاز معروف يستعمل في التقطير.

^٣ المطر الدث: الضعيف الخفيف.

^٤ الدجن: الغيم. الوعث: المكان السهل الكثير التراب، تغيب بينه الأقدام.

^٥ الفرت: السرجين ما دام في الكرش.

فِيحْظُونَ مِنْهَا بِالنَّفَائِسِ دُونَهُمْ وَيُعْطُونَهُمْ مِنْهَا السَّقِيطَ مِنَ الْخُرْثِيِّ^٦
زِرَ الْهِنْدِ إِنَّ رَمْتَ الْعِيَانِ فَكَمْ تَرَى عَلَى الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ هُنَاكَ وَمِنْ شُعْبِ

* * *

يَقُولُونَ: إِنَّا عَامِلُونَ لِسَعْدِكُمْ وَلَمْ يَعْمَلُوا غَيْرَ الْكَوَارِثِ وَالْكَرْثِ^٧
فَكَمْ بَعَثُوا فِي الشَّرْقِ حَرْبًا ذَمِيمَةً تَمَثَّلُ فِي أَهْوَالِهَا سَاعَةَ الْبَعْثِ
وَكَمْ أَرْسَلُوا دَسًّا جَوَاسِيْسَ مَكْرَهُمْ عَلَى النَّاسِ يَشْتَدُونَ بِالنَّبْشِ وَالنَّبْثِ
وَهُمْ سَلَبُوا أَرْضَ الْعِرَاقِ سَمِينَهَا وَلَمْ يَتْرَكُوا لِلْقَوْمِ مِنْهَا سِوَى الْغَتِّ
إِذَا مَا رَأَيْتَ الْقَوْمَ فِي فَحٍّ مَكْرَهُمْ رَقَقْتَ لَهُمْ تَبْكِي عَلَى الْقَوْمِ أَوْ تَرْتِي
فَلَا تَرْجُ فِي الدُّنْيَا وَفَاءً لِعَهْدِهِمْ وَلَمْ يَتْرَكُوا لِلْقَوْمِ مِنْهَا سِوَى الْغَتِّ
وَمَا الْحُكْمَ إِلَّا عِنْدَنَا كِمِطْئَةٍ رَمَوْهَا إِلَيْنَا كِي يَرَوْا لَعْبَةَ الطُّتِّ^٨

^٦ السقيط: سقط المتاع. والخرثي: أردأ متاع البيت.

^٧ كرتة الأمر كرتاً: اشتد عليه.

^٨ المطئة: لعبة للصبيان يرمون بخشبة مستديرة عريضة، يدقق أحد رأسيها، نحو الفلة.

بين الانتداب والاستقلال

بدست وزير الداخلية مقعدُ نراك إليها كل يوم تردد؟! تحلُّ لنا ما شئت منها وتعدُّ وهذا لعمر الله أنكى وأنكد وندفع فيه الأجر منا وننقُد؟! على الجانب الغربي قصر مشيدٌ فزالت ولكن دام منكم ترصدٌ ولكن على وجه لنا هو مُعبدٌ قيودًا بها استقلالنا يتقيدُ به ساخرٌ كل امرئٍ ومنددٌ يجرد للإرهاب طورًا ويغمدُ على أنه في الحكم لفظ مجرد إذا لم يكن في حكمه يتفرد؟! عليه رجالٌ خائنون وأيدوا فكم أبرقوا غيظًا عليكم وأرعدوا فيظهر وهو الساخط المتمرد فخلوا له الأمر الذي يتقلدُ يكن لكم عونًا على ما يعددُ

سل الإنكليزي الذي لم يزل له أأنت وزير أم عميدُ وزارةٍ فها أنت مُلقاة إليك أمورنا وتأخذ منا راتبًا كموظفٍ أنحمل منك اليوم عبء تحكُّمٍ وما شأن ذيك السفير الذي له وكانت لكم من قبل فينا استثارةٌ تبدلتُم استقلالنا بانتدابكم خلقتُم لنا من كل عهد مموهٌ إلى أن غدا استقلالنا ضحكة الورى وصار كسيف قاطع في أكفكم غررتم به الأعرار والله شاهد وهل يستقل الشعب في حكم نفسه فما هو إلا المين منكم أعانكم وما سكت الأحرار عن مخزياتكم ولا تعجبوا أن يمقت الشعبُ دأبكم رويدًا فإن رمتُم من الشعب وُدّه وكونوا له عونًا على ما يهّمهُ

ديوان معروف الرّصافي

وإلا فأنتم ظالمون وإنما أخو الظلم مأخوذ بما يتعمد

بني وطني

تفشت سعايات لكم بالتجسس
على كل تدليس أتى من مُدَّس:
لما كنت تلقى بيننا غير مُدْفَس^١
لما كنت تلقى بيننا غير مفلس
فنشري خسيًّا بالثمين المقدَّس
شقاء نزيهًا للنعيم المدنَّس
على موجش من أمركم غير مؤنس
من العيش إلا فوق عزم مؤسس
بغير شروق الشمس لم يتنفس
ولو عشت في العزى بقول مدمس
لجدوى أبتها رغبة المتلمس^٢
فلمست أبالى بالزمان المعبَّس
وأعرف منهم وجهها بالتفرس

بني وطني ماذا أوْمَل بعدَمَا
أقول لمن قد لامني في تشدُّدي
لو اسودَّ وجه المرء من قبح فعله
ولو نال بالإخلاص مُثْرَ ثراءه
نحاول عزًّا بابتذال نفوسنا
ومن جهلنا استكراهنا في معاشنا
سأرحل عنكم للذي قد أقامني
أبيت لنفسي أن تحل مكانة
ولو أن هذا الصبح كان انبلاجه
فلا أبتغي بالذل عيشًا مرفهًا
وما أنا كابن العبد إذ عانق الردى
إذا ابتسمت لي عفتي ونزاهتي
أقابل أخلاق الرجال بمثلها

^١ المدفَس: الذي اسود وجهه من غير علة.

^٢ ابن العبد: طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي، والمتلمس: جرير بن عبد المسيح شاعر معروف، ولهما قصة في وفادتهما على عمرو بن هند، ومنادمتها أخاه قابوس.

فأغوى لمن يغوى وأقسو لمن قسا
ولست أجازي المعتدي باعتدائه
وما أنا من أهل الدعارة والخنا
ولكنّ لي فيكم يراعاً إذا شدا
وما خالق الأكوان إلا مهندس
تجلّى على أكوانه بصفاته
وأقبسهم نوراً شديداً جلاؤه
وألبسهم حمر الغرائز فاغتنوا
وما مقبس عند النهى غير قابس
فأيّان جال الطرف لم ير غيره
حقيقة مخلوقاته لم تكن سوى
ألا إنني للكائنات موحد

وأظهر كالخطريس للمتغطرس
ولكن بصفح القادر المتحمس
ولا من أولي حمل السلاح المسدس
أتاكم بكافٍ من علاه ومُخرس
وإن جلاً عن تعريفه بالمهندس
وأغلس فيهم كنهه كل مُغلس
فساروا به كالعمي في كل حندس
بحمرتها عن كل ثوب مورّس^٣
ولا لابس عند النهى غير ملبس
إذا كان في ألحاظه غير ملبس^٤
حقيقته دغ عنك حدس المحدث
ولو أرغمت كل المذاهب معطسي^٥

^٣ حمر الغرائز: كذا بخطه، ولعله يريد الغرائز المعجبة، فإن الحمرة شعار الحسن. والمورس: المصبوغ

بالورس، وهو الزعفران.

^٤ الملبس: من الإبلّاس، وهو الحيرة.

^٥ المعطس: الأنف.

يوم سنغافورة

أطالوا الحرب طاحنة زَبونا
وقد زحفت لهم فيها جيوش
لقد خربوا البلاد ودَوَّخوها
ولم تُرد الشعوب لها اتقاداتًا
أولاك هم الجُناة بها علينا
إذا ذكر الورى جشعًا وحرصًا
وما رُزفلت فيها غير جان
أعان على الهياج وقال حيدي
فما دعواه في الحيوان إلا
كذلك ساسة الأقوام فيما
خداع لا يراه ذووه شيئًا
فعدوا بالشهور لها السنينا
تجاوزت الألوف مع المئينا
وجُنُّوا في تناحرهم جنونا
فأوقد نارها المترئسونا
أولاك هم البغاة الطامعونا
فشرشل أكبر المتجشعينا
يزور في إطالتها الميونا^١
حياد فاعجب المتكذبيننا^٢
كدعوى العفة المتتهتكونا
به من أمرهم يتفوهونا
ولا يمسي به أحد مَشينا

* * *

بسِنغافورة اليابانُ شُنُّوا
لهم فيها طوائر صاعقات
على أعدائهم حربًا طحونا
لها قصف تدك به الحصونا

^١ الميون: جمع مين، وهو الكذب.

^٢ الهياج: الحرب والشر. وحيدي حياد: كلمة يقولها الهارب من شيء يخافه.

رواعد تملأ الآفاق رعباً
 تزلزلت الحصون بها وكانت
 حصون تستخف بكل طود
 لقد سكتت مدافعها وجوماً
 على بحر بلجته أقاموا
 وقد بثوا البوارح فاسبطرت
 ترى الحيات فيه قد اشرأبت
 وتطفو تارة وتغوص أخرى
 وتضرب بالزعانف جانبيها
 بحيث يقول من يرنو إليها:

وترسل في تهزمها المنونا
 تطاول في مناعتها القرونا
 وتستعشي بروعتها العيونا
 لجيش حل مرصفها العيونا
 لغلق البحر من نار كُرينا
 تجول به فوارد أو تُبينا^٣
 تردُّ فوقه نظراً شفوناً^٤
 وتبدي من تماقلها فنونا
 فتقلب الظهر بها بطونا
 لعلَّ بهنَّ صرعاً أو جنونا

* * *

وبحر الهند أصبح في اضطراب
 أيُفتح بابه فيكونَ حرّاً
 ويُمسي الهندُ عندئذٍ طليقاً
 فبشرى للبلاد إذن وبشرى
 فسوف تكفُّ عنهن الليلي

يُرجم في عواقبه الظنونا
 لمن يُزجي بلجته السفينا
 من الأثر الذي قطع الوتينا^٥
 لمصر وللعراق بما هويونا
 مطامع ساسة متحكمننا

* * *

هنالك حفرة الأطماع يُمسي
 وتحتمد الحفائظ في البرايا
 وتتسع السياسة للتصافي
 ويصبح كل تمويه وغش
 ويصبح كلُّ خداع كذوب

خداع الإنكليز بها دفيننا
 فتضرم فوق مَدفنه أتونا
 فيستصفي الخدينُ بها الخدينا
 لأنظار البرية مستبيننا
 رجيماً في سياسته لعينا

^٣ اسبطرت: استطالت. وفوارد: مفردات. وثبين: جماعات.

^٤ الشفون: النظر إلى شيء نظر المعجب منه.

^٥ الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

يوم سنغافورة

ويصبح كل شعب مستقلاً
ويمسي الناس قاطبة سواءً
يُعاون بعضهم بعضاً ويؤوي
تسير بها شرائعُ عادلات
سواء لا يفرقهم لسان
فما من سائد أو من مسود
ويصبح كل مُحترِّثٍ مُشاعاً
وما أهلُ البلاد سوى عيالٍ
عزيراً لن يذلَّ ولن يهُونا
بدين أخوة متدينينا
قويُّهم الضعيف المستكينا
إلى أوج السعادة مرتقينا
ولا دين له يتعبدونا
ولا من دائن يُربي الديونا
لمن فيه ثووا مُتوطَّنيناً^٦
على العمل الذي هم يحسنونا

^٦ المحترث والمزدرع: موضع الحرث والزرع. والمشاع: الشائع بين الناس لا يختص به أحد. وثوى بالمكان: أقام وتوطن.

نحن والحالة العالمية

فبماذا يُطَرِّق المَلوان؟^١
هو من كبريائه في شان
واحد عندهُ القرون ثواني
وإليه انتهت جميع المعاني
كأزيز القدور في الفوران
مستفيض على ظلام الأماني
شفقًا من ضيائه الأرجواني
ر انقلابًا يعمُّ كل مكان
ويلوح القاصي به وهو دان
ويكون المهان غير مُهان
ويُمسي الظلوم في خسران
من عداء العَيُوق والدَّبَّران^٢
ض علينا بعدله والحنان

صاح إن الخطوبَ في غليانٍ
جلَّ رب الأنام في كل يوم
خالق الكون ذو الجلال قديم
كلُّ ما ضم ملكه كلماتُ
نسمع اليوم للخطوب أزيًا
إنني مُبصرٌ تباشير صبح
ليس تلك الدماء في الحرب إلا
إنني أستشف من غير الده
سيلوح الداني به وهو قاص
ويكون المُعزُّ غير مُعزِّ
وسيدو الضعيف محترم الحق
والثريا ستعتلي في أمان
يتجلَّى رب السموات والأر

^١ يطرق: أصل الطرق: الإتيان ليلاً، ولم أجد في المعجم التطريق بهذا المعنى الذي يريده الشاعر.
والمَلوان: الليل والنهار.

^٢ الثريا، والعيوق، والدبران: أسماء نجوم، وكذلك الثور والفرقدان.

فَيَبُوءُ «المستعمرون» بخسر وتضيء البلاد بالعُمران

* * *

معشر العُرب أين أنتم من القو
أنيامٌ والدهر يفتح فيكم
نقض القوم عهدكم قبل هذا
واستهانوا بالوعد إذ أخلفوه
وأقاموا بها قواعد جوّ
ثم بثّوا بها العيون يعيثو
ثم ساروا في حكمها سير فُلك
كل هذا وأنتم مستقلو
قيّدوكم لنفعهم بعهود
أوثقوكم بها إسارًا وقالوا:
ليس تلك العهود يا قومٍ إلا
أفلا تذكرون من أوّليكم
يوم ساروا والعز فيهم يماشي
وتعالت راياتهم خافقات
فانهضوا اليوم مستجدّين مجدًا
إن للمجد في المساعي محلًّا

م إذا ما تمّ انقلاب الزمان؟
من جديديه مقلتي يقظان؟!
واستخفّوا بحفظه في حواني^٢
واستغلّوا دفائن الأوطان
لاحتشاد الجنود والطيران
ن فسادًا في سوحها والمباني^٤
هم بها آخذون بالسكان
ن بزعم من عندهم وامتنان
ناطقات من أمركم بلسان
ليس هذا لكم سوى إحسان
كعهود الذئاب للحملان
أنفًا من مَسيسهم بهوان
حزبهم بالمُشطب الهندواني^٥
في جيوش عَنَا لها الخافقان
كالذي كان دونه القمّران
عاليًا لا يحلُّه المتواني

* * *

قل لمن رام صدّعنا بشقاق
ويك إن الإسلام أوجد فينا
أنت كالوعل ناطح الصّفوان^٦
وحدة مثل وحدة الرحمن

^٢ الحواني: الضلوع، جمع حانية.

^٤ سوحها: جمع ساحة.

^٥ المشطب: السيف ذي الشطب.

^٦ الصّفوان: الحجر الشديد الأملس.

نحن والحالة العالمية

فاعتصمنا منها بحبلٍ وثيق
ليس معنى توحيدنا الله في الملئ
فلهذا نعم! لهذا، لهذا
وحدة لا يفلُّها المتوالي
وحدة جاءنا من الله فيها
فهدانا بها إلهٌ قديم
ما نرى سلطة علينا لخلق

هو حبل الإخاء والإيمان
ة إلا اتَّحدنا في الكيان
نحن إنّنا بوحدة الدِّيَّان
من صروف الدهور والأزمان
مرسَل بالكتاب والفُرقان
واحد، عنده القرون ثواني
غير سلطان خالق الأكوان

الحرييات

إلى الحرب

ألا انهض وشمر أيها الشرق للحربِ
وقبّل غرار السيفِ واسلُ هوى الكُتُبِ
ولا تغترزْ أن قيلَ: عصر تمدن
فإن الذي قالوه من أكذب الكذبِ
ألست تراهم بين مصر وتونس
أباحوا جِمى الإسلام بالقتل والنهب؟
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم
ولكن جميعُ الغربِ يؤخذُ بالذنبِ
فإني أرى الطليانَ منهم بمنزل
يعدُّ «وهم يُغرونه» منزلَ الكلبِ^١
فلولاهم لم ينقُضِ العهدُ ناقض
ولا ضاع حق في طرابلس الغرب
بلاد غدت في الحرب تندب أهلها
فتبكي وتستبكي بني الترك والعرب

^١ أغرى الكلب بالصيد: أي حظه عليه وأرسله، والمعنى: أن منزلة الأمة الطليانية من سائر أمم الغرب، كمنزلة الكلب من الصياد.

قد اغتالها الطليان وهي بمضجع
من الأمن لم يقضض برعب على الجنب^٢
فما انتبعت إلا لصرخة مدفع
وما نهضت إلا إلى موقف صعب
فأمست وأفواه المدافع دونها
تمجُّ عليها النار كالوابل السكب
صواعق من سحب الدخان تدكها
وتنسفها نسفَ الزلازل للهضب
غدت ترمي فيها عشياً وبُكرةً
فلا يابساً أبقت ولم تبقِ من رطب
وما إن شكا من عضّة الحربِ أهلها
ولكنهم شاكون من غصة الجذب
فما خفقت عند الهياج قلوبهم
ولا أخذت أعصابهم رجفة الرعب
ولكن جرت نكب الرياح بأرضهم
فجرتَ عليها كلكل الحجج الشهب^٣

* * *

يعزُّ علينا أهل بزقة أنكم
تدور عليكم بالدمار رحي الحرب
وأنا إذا ما تستغيثون لم نجد
إليكم على بُعد المسافة من درب

^٢ قوله: «يقضض» يقال: أقضض عليه المضجع يقضض إقضاضاً إذا خشن وتترب، ومعنى البيت أن الطليان قد أخذوا طرابلس الغرب على غرة، فهجموا عليها وهي نائمة في مضجع الأمن.

^٣ قوله: «نكب الرياح»: جمع نكباء، وهي الرياح المائلة عن مهبها، ونكب الرياح عندهم من دواعي الجذب والمحل. والحجج: جمع حجة، وهي السنة. والشهب: جمع شهباء، يقال: سنة شهباء؛ أي مجدبة لا خضرة فيها.

إلى الحرب

وقد عَلِمَ الأعداءُ أَنَّ سيوفنا
تملأ في الأعماد شوقاً إلى الضرب
ولكن هو البحرُ الذي حال بيننا
فلم نستطع زحفاً على الضمَّرِ القُبِّءِ
ولولاه فاجأنا العدو بفيلقٍ
يبين ضحَى من هوله مطلع الشهل
فيا بحرُ فاجمُدْ أو فغرْ إن جيشنا
عليك غدا كالبحرِ يَزْخَرُ بالعتبِ
ويا سُحْبُ هَلَّا تنزليْنِ فتحملي
إلى الحربِ جيئاً ينشر النقع كالسحبِ
ويا ريحُ قد ضيقنا فهل لك طاقة
بحمل منايانا إلى المعركِ الرُحْبِ
إلى خير أرض داسها شرٌّ مَعَشَرِ
بأرجلهم قَطَّعن من أرجل جُربِ

* * *

أما والعُلا يا أرض بَرِّقة إننا
لَنَشْرُقُ من جَرَّك بالبارد العذب
نراك على بُعد تسامين ذلة
فيحزننا أن لم نكن منك بالقربِ
وما نحن إلا الليثُ شُدَّتْ قيوده
وَأُلْقِيَ حياً شبلة في فم الذئبِ
يرى الشبلَ مأكولاً فيزار موثقاً
ويضرب كفيه على الأرض للوثبِ

٤ الضمر: جمع ضامر، وهو من الخيل القليل اللحم، اللاصق البطن. والقب: جمع أقب، وهو الدقيق الخصر من الخيل.

فلا يستطيع الوثب إلا تمطيًا
وزأراً وإنشَابَ المخالب بالترب
ويا أهلَ بنگازي سلام فقد قضت
صوارمكم حقَّ المواطن في الذَّبِّ
حميتم جِمي الأوطان بالموت دونها
وذاك بما فيكم لهنَّ من الحب
ومن مُبلغ عنا السنوسيَّ أنه
يمد لهذا الصدع منه يدَ الرأب
فإننا لنرجو أن يقود إلى الوغى
طلائع من خيل ومن إبل نجب
فيحمي بلاد المسلمين من العدا
وينهض كشافًا لهم غمة الخطب
فإنَّ حشا الإسلام أصبح داميًا
إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ السنوسي مدرِّكًا
جنودَ بني عثمان في الجبل الغربي
وكن أنت بين الجند قطبَ رحي الوغى
وهل من رحي إلا تدور على قطب

* * *

ويا مَعشرَ الطليان قَبُّحت مَعشرًا
ولا كنتَ يا شعبَ المخانيث من شعب
تركت وراء البحر مَزحف جيشنا
وأجَّجت نارًا في طرابُلس الغربِ
أتحسب هاتيك الديارَ وقد خلت
من الجند تخلو من ضراغمة غلب
فما هي إلا أرض أكرم مَعشيرِ
من العُرب لم تنبت سوى البطل الندب

إلى الحرب

سترجع عنها بالفضيحة ناكصًا
وتذكرك الأيام باللعن والسبِّ
مشيتم إلينا مُعجبين بجمعكم
تظنون حرب المسلمين من اللعب
فلما حللتم أرضنا نقتمُ الردى
بأسيافنا حتى صحوتم من العجب
سنلبسُكم ثوب المهالك ضافيًا
ونحملكم منها على مركب صعب
ونستمطرُ الأهوال حتى نخيَضكم
بسيل دم فوق البسيطة مُنصبِّ
وما دَعوة «البابا» لكم مستجابة
فقد أغضبت طغواكم غيرة الربِّ
أجل إنكم أغضبتم الله فاتقوا
وإن رضيت تلك الحكومات في الغرب

* * *

أيا زعماء الغرب هل من دلالة
لديكم على غير الخديعة والكذب؟
تقولون: إن العصر عصرُ تمدن
أمن ذلكم قتل النفوس بلا ذنب؟!
ألم تبصروا القتلى تمجُّ دماءها
على الأرض والجرحى يئنُّون في الحرب؟!
أفي الحق أم في العلم ألا يسوءكم
ويخجلكم شن الإغارة للغصب؟!
وهل أغلقت هذي العلوم قلوبكم
بأغطية قدَّت من الحجر الصلب؟!
كذبتم فإن العصر عصر مطامع
تقدُّ لها الأوداج بالصارم العَضب

ديوان معروف الرّصافي

فلا تغضبوا الإسلام إن سيوفه
مَواضٍ كما قد كنَّ في سالف الحُقبِ

في طرابلس

على أنه في الحرب آيتنا الكبرى
به وبها نعلو على غيرنا قدرا
فإن لهم في بطش شجعاننا عذرا
من الدهر أفزعنا بنهضتنا الدهرا
غباراً على أعدائنا يكثح الذعرا^١
نلوك به ما بين أضراسنا تمرا
شفاً مواضينا خدودهم الصُّعرا؟
وإياهم أسدُ الشرى تطرُدُ الحمرا؟
نظمنا بها فوق الثرى للعدى شعرا!
ولكن لأرواح بها أزهقت صبِرا

هو النصر معقود برايتنا الحمرا
حليفان من نصر مبین وراية
لئن أدبر «الطليان» عند كفاحنا
فإننا لقوم إن نهضنا لحادث
ندك هضاب الأرض حتى نثيرها
ونأكل مرَّ الموت حتى كأننا
فسلُ جيش «كانيفا» بنا كيف قومتُ
وكيف هزمناهم فولوا كأننا
وكم قد نثرنا بالسيوف جماجماً
وما جزعي للحرب يحمى وطيسها

* * *

بها حَكَمَ الطليان أسيافهم عذرا
إلى أن أصاروا كل بيت بها قبرا
فعاد الفضاء الرحب في عينه شبرا

لكِ الله يا قتلى طرابلس التي
أداموا بها قتل النفوس نكاية
ولما أحاط المسلمون بجيشهم

^١ يكثح الذعر: أي يسفيه ويذروه، فيرميه عليهم.

تقهقر يبغي في الديار تحصناً
وأصبح يُنكي أهلها من تغَيُّظٍ
فأوسعهم بالسيف ضَرْبًا رقابهم
وما ضر «كانيفا» اللعينَ لو أنه
أیحِجُمُ عنا هاربًا بعلوجه
وهل حسبوا قتلَ النساءِ شجاعةً
لقد شجِعوا والموت ليس له يد
يعزُّ على أسيافنا اليومَ أنها
ولم تك لولا الحربُ تعلقو سيوفنا
ومن مُبكيات الدهر أو مضحكاته

ففر بها من خشية الموت واستذرى^٢
فيقتلهم صَبْرًا وَيُرْهَقُهُمْ عُسْرًا
وأنافهم جَدْعًا وَأجوافهُمُ بَقْرًا
تَقَحَّمْ في الهيجاءِ عسكرنا المَجْرًا!
ويبغى بقتل الأبرياء له فخرا؟!
وقد تركوا عند الرجالِ لهم ثأرا؟!
ولم يشجِعُوا والموت يطعنهم شَزْرًا
تقارع قومًا قرعهم بالعصا أحرى
رءوسًا نرى ملءَ القحوف بها عهرا^٣
لدى الناس حُرٌّ لم يكن خصمه حرا

* * *

لئن «أيها القتلى» أريقت دماؤكم
سنثأر حتى تسأم الحربُ ثأرنا
وإني لتغشاني إذا ما ذكرتكم
على أنْ قُرض الشمس عند غروبها
فأبكي تجاه الغرب والبدر لائح
ويا أهلَ هاتيك الديارِ تحية
فقد قمتمُ للحرب دون بلادكم
وثرتم أسودًا في الوغى يعرْبِيَّةً
تراها لدى الحربِ العوانِ مُشيحةً
ولو أنْ كفيّ تستطيع تناوشًا
لرتبّت منها في السماء قصيدةً

فما ذهب عند العدا بعدكم هذرا
ونقتل عن كل امرئِ أنفسًا عشرا
لواعج حُزن ترتمي في الحشا جَمرا
يذكرني تلك الدماء إذا احمرًا
من الشرق حتى أبكي الشمس والبُرا
توفّيكم الشكر الذي يرأس الشكرا
تذودون عن أحواضها البغي والنكرا
غدا كل سيف في براثنها ظُفرا
تهمهم حتى تُنطق الفتكة البِكرًا^٤
فتبلُغ في أبعادها الأنجم الزُهرا
لكم واتخذت البدر في رأسها طغرا

^٢ استذرى: استتر واختبأ.

^٣ القحوف: جمع قحف، وهو عظم الرأس المجوف.

^٤ مشيحة: أي جادة، أو مقبلة على الحرب، مانعة لما وراء ظهرها. وتهمهم: أي تردد زئيرًا في صدورها، يقال: همهم الأسد: إذا سمعت له دويًا. والفتكة البكر: التي لم تسبق بمثلها.

وخلدتها آيا لكم سَرْمِدِيَّةً
يقولون: إن العصرَ عصرَ تمدن
إلى الله أشكو في الورى جاهلية
أنتنا بثوب العلم تمشي تبخترًا
فلا تلتمظ في مدحها متمطًا
لقد مَلَكَ الإفرنج أرض مَراكِشِ
ففاجأنا الطليان من بعد مُلكهم
وقالوا: ألم تأتِ الفرنجةُ تونسًا
فخلُّوا لنا ما بين هذي وهذه
فقلنا لهم: إنَّا أحقُّ بِمِلكها
أهذا هو العصر الذي يدَّعونه

مدائحها تستوعب الكون والدهرا
فما باله أمسى عن الحق مزورًا
يَعُدُّون فيها من تمدنهم عصرا
إلى الخير لكن قد تَأَبَّطَتِ الشرا
فإن أظهرت حُلُومًا فقد أَبْطنت مُرًا
وقد ملكوا من قبلها تونس الخضرا
لكي يسلبونا في طرابلس الأمرا
وهذي جيوش الإنكليز أتت مصرًا
وإلا قسرناكم على تركها قسرا
فقالوا: ولكن زَنَدُ قَوَّتِنَا أورى
فَسُحِّقًا له سُحِّقًا ودَفْرًا له دَفْرًا!°

° سَحِّقًا له: أي بعدًا. ودَفْرًا له: أي نتنًا.

أدرنة^١

أدرنة مهلاً فإن الظُّبا سترعى لك العهدَ والموثقا
وداعاً لمغنك زاهى الربا وداعاً ولكن إلى الملتقى

* * *

عزاءً لمسجدك الجامع أفارق محرابه المنبرا؟!
وهل في مُصلاهُ من راعٍ يجيب المؤذن إن كبراً؟
فيا لسقوطك من فاجع به فجَع الدهرُ أمَّ القرى
وقبرَ النبوة في يثرباً ومثوى ضجيعه مَثوى التقي
ومن في البقيع ومَن في قبا ومن شهدوا الفتح والخندقا

* * *

رويداً أدرنة لا تجزعي وإن قد أمضَّك هذا الأذى
إذا أنتِ بالسيف لم ترجعي فلا حبباً العيش لا حبباً
ألا أنتِ «ألزاسنا» فاسمعي ونحن الفرنسيس من بعد ذا
سلام على قُطرِك المُجتبي سلام على أفقِك المُنْتقى
أيمسي لشرك العدا ملعباً وكان لتوحيدنا مَعْبَقاً؟

^١ هذه القصيدة قالها الرصافي لما سقطت «أدرنة»، وأخذها البلغار، وذلك في الحروب البلقانية العثمانية.

* * *

لقد حلّ فيها لواءٌ مُريبٌ حلولَ الحِقارةِ بينَ الجَلالِ
فظلّتْ بأدمعها والنحيبِ تنوُحُ على نجمها والهلالِ
أُننسى أدرنةَ عما قريب؟! إذن لا بلغنا العُلا والكمالِ
فسوف على الرغم من أوربا نقومُ لها فيلقًا فيلقا
فتبكي هزاهزنا المَغربا وتُضحك أسيافنا المَشرقا^٢

* * *

أرى الدهر أنهض كل العدا على حينَ قد قعدَ المسلمون
فكم جرّعونا كئوس الردى ونحن على كيدهم صابرون
أيحسنُ يا قومُ أن نقعدا وقد آن أن ينهض القاعدون؟!
فسيلُ المصائبِ عطى الرُبا وَغيمِ النوائبِ قد طبقا
وأوشكتِ الأرضُ أن تقلبا وصبحِ القيامةِ أن يفلقا

* * *

دع الغربَ يَنعم في باله وإن لقيَ الشرقُ منه الكروبِ
ولا تسألنهُ بأفعاله فعهد التمدُّنِ عهد كذوبِ
فنحن اغتررنا بأقواله ولكننا بعد هذي الحروبِ
سنأبى عليه أشدَّ الإبا فإما الفَناءِ وإما البقا
ونركبُ من عزمنا مَركبا ونرقى وإن صَعِبَ المرتقى

* * *

لقد آن يا قومُ تركُ الونى وترك الشُّقاقِ وترك الدِّدِ^٢
إلى كم نكابد هذا العنا ونخبِطُ في جهلنا الأسود؟!
وبالعلم من قبلُ نلنا المنى وفزنا من العيش بالأرغدِ

^٢ هزاهزنا: أي وقائعنا وحروبنا.

^٣ الدد: اللهو واللعب.

أدرنة

ولكنما العلمُ قد غرِّبَا فلا عيش إلا إذا شرَّقَا
فهبُّوا إليه هبوب الصِّبَا عسى أن يسحَّ ويغدوِّقَا

الجيش بقائده^١ أو هزيمة «لولا برغاز»

يا مَوطِنًا ما انتِضيناها مُهَنَّدَةً
ولا ركبنا مَنايانا مُطَهَّمَةً
سَقِيًّا ورعيًّا لروض منك ذي أَنَقْ!
تالله لم ينكسر في الحربِ عسكرنا
وكيف وهو تفوق الطَّيسِ كثرته
لكنَّ قَائِدَهُ ما كان يَمَانُهُ
حتى لقد نَفَدَتْ في الحربِ عينتُهُ
فظل يَرْسِف في النيرانِ مُرتَبِّغًا
حتى غدا جُلَّهُ للنارِ مأكلة

إلا لردع الأعداي عن إهانته
إلا لنكسب عِزًّا من صيانتِه
قد كانت الحربُ تذوي عُصْنَ بانته
من أجلِ قَلَّتِه أو من جَبانته
وتستعير الرواسي من رزانتِه^٢
ولا يبالي بأمر من مَعانته^٣
بحيث لم يبقَ سهم في كنانته^٤
مستفرغًا كل جُهدٍ من متانته
وما تزحزح شِبْرًا عن مكانته

^١ قال الرصافي هذه القصيدة لما انكسر الجيش العثماني في معركة «لولا برغاز»؛ وذلك في الحرب البلقانية العثمانية، وكان قائد الجيش العثماني إذ ذاك ناظم باشا، الذي قتله الاتحاديون في الآستانة.

^٢ الطيس: كل ما في وجه الأرض من التراب والقمام، والكثير من الرمل وغيره، والمراد به هنا مجرد الكثير.

^٣ قوله: «ما كان يمانه»: أي ما كان يقوته، يقال: مأن القوم يمانهم مأنًا: إذا احتمل مؤونتهم؛ أي قوتهم. والمعانة: العون كالمعونة.

^٤ قوله: «نفدت عينته»، العينة بالكسر: مادة الحرب، وهي ما تسميه العامة اليوم بالمهمات الحربية.

ولا استكانَ لهول الحرب من فرَقِ
فخاضَ غَمَرَ المنايا صابراً وأبى
ليس الفرار لجند المسلمين ألا
وكيف يَغلب جيش كان قائدهُ
فالجيش تلتهم النيران أنفُسَه
أقام في القصف والأجناد طاوية
صَبْحانَ غبقانَ في أقسى مُعسكره
تلقاه من بين ذاك الرهط في مَرِحٍ
لهفي على الجيش جيش المسلمين فقد
بل كان يَفَرِّق من هَول استكانته
على الفرار انغماراً في مهانته
إن الفرار لَكفَرُ في ديانته
يَحْفُه بجيوش من خيانتِه؟!
وقائد الجيش لاه في مجانته
مُعاقرًا بهناء بنت حانته
مُحرورفاً بين رهطٍ من بطانته
كأنه الجأبُ ينزو بين عانته^٥
قضى ولم يقض شيئاً من لبانته

^٥ الجأب: الفحل الغليظ من حمر الوحش. والعانة: القطيع من حمر الوحش.

الوطن والجهاد^١

فانضوا الصوارمَ واحموا الأهل والسكنا
ممن نأى في أقاصي أرضكم ودنا
من يسكن البدو والأرياف والمدنا
به تقيمون دين الله والسُننا
صدق العزائم في تدميرهم جُننا^٢
عارَ الهزيمة حتى تلبسوا الكفنا
مُتُّم أذلاءَ فيها مِيتةَ الجبنا
في هوشةٍ ذل فيها كل من وهنا^٣
كلًا وأي حياة للذي جَبنا؟!
لم ينقذوا مصر أو لم ينقذوا عَدنا

يا قومُ إنَّ العدا قد هاجموا الوطننا
واستنفروا لعدوِّ الله كلَّ فتى
واستنهضوا من بني الإسلام قاطبة
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن
واستلثموا للعدا بالصبر واتخذوا
واستنكفوا في الوغى أن تلبسوا أبدًا
إن لم تموتوا كرامًا في مواطنكم
لا عُذر للمسلمين اليومَ إن وهنوا
ولا حياة لهم من بعدُ إن جَبنوا
عار على المسلمين اليوم أنهم

* * *

^١ قال الرصافي هذه القصيدة عند دخول الدولة العثمانية في الحرب العامة الكبرى يستنهض المسلمين إلى الجهاد في سبيل الذود عن الوطن.

^٢ استلثموا: تدرعوا. وقوله: «جننا»: جمع جنة، بالضم، وهي كل ما وقى من سلاح.

^٣ الهوشة: الفتنة، والهياج والاضطراب، وأراد بها الحرب العامة.

قد خنتما الله والإسلامَ والوطناءُ
تالله ما كان هذا منكما حسنا
فكنتما في البرايا شرًّا من غُبنا
طوقا إسارةِ مصرٍ فيكما اقتربنا^٥
عجلاً أضلَّ الورى من قبلُ أو وثنا
بل أصبحا في كلا صدريكما درنا
إلى وساميكما إلا بكتَّ حزننا
خزائن النيل في أيدي العدا ثمنا
أن تقرعا السن أو أن تقبضا الذقنا
على العدا وعلى من ضل مفتتنا
تهمي الدماء وتمريها ظبًا وقنا
ويطهر النيل من ماءٍ به أجنا

قل للحُسَيْنين في مصرٍ: رُويدكما
شايعتما الإنكليز اليومَ عن سَفِه
قد بعتما الدينَ بالدنيا مجازفة
لا تفرحا بالوسامين اللذين هما
قد مثلاً منكما للناس قاطبة
ما ازدان صدراكما شيئاً بحملهما
إن الحمّية لم تنظر بمقلتها
ما كان أغلاهما إذ قد غدت لهما
ستندمان ولا يُجديكما أبدًا
هذي جيوش بني التوحيد زاحفةً
لترسلن عليكم كل راعدةٍ
حتى تعودَ إلى مصرٍ كرامتها

* * *

بالجيش يزحف من أبنائك الأمانة
ويكشف الغمَّ عن أفقيك والمحنا
عن الزوال فلا تخشى بلى وفنا
تعيي الفصاحة والتبيانَ واللّسنا
لنا وأنبتت من نبع العلا غصنا
يستغرق الأرض والأكوان والزمننا
أخلصن لله فيك السر والعلنا
فلا رعى الله عينا تألف الوسنا
منا الدّماء إلى أن نخمد الفتنا
وفز بما شئت من حمد وطيب ثنا

لا زلتَ يا وطن الإسلام منتصرًا
يردُّ عنك يدَ الأعداء خاسرةً
سعديكَ من وطن جلّت مفاخره
تالله إن معاليك التي سلفت
كم قد أقيمت على الأيام من شرف
إنا نحبك حُبًّا لا انتهاء له
نفديك منا بأرواح مطهرةٍ
إذا دهتك من الأيام داهية
وإن فُتنت بإحدى المزعجات نرق
فَقَرَّ عينًا وِطِبَ نفسًا وعش أبدًا

^٤ يعني بالحسينين حسين كامل ووزيره حسين رشدي.

^٥ يشير إلى الوسامين اللذين أهدتهما الحكومة الإنكليزية إذ ذاك إلى حسين كامل وحسين رشدي.

وربَّ مُسْتَصَحَبٍ لي قال يخبرني: فقلتُ: دُعُ عنك هذا، إنه خبرٌ إن صحَّ أن العدوَّ اليومَ مقتربٌ إن العراقَ لعمُرُ الله مَسْبِعةٌ دون الوصولِ إليه كلُّ مُشْعِلةٍ فإن فيه رجالاً من بني مُضِرِّ قومٍ لِقَاحُ أبوا أن يخضعوا أبداً تحمّلوا كل عبءٍ في حياتهم لو أن أمّاتهم منّت على أحدٍ هم المغاوير إن صالوا بملحمةٍ بنوا فأعلوا بناءَ المجد فارتفعوا فكيف تقعد عن حرب العدا فئة

إن العدوَّ إلى أرض العراقِ دنا سواه يبعث في أحشائي الشجنا إلى العراقِ فقد أكدى وقد أفنا^٦ توائبُ الأسدُ فيه من هنا وهنا شعواء تترك وجه الشمس مكتمنا^٧ إذا تحاربُ لا تستشفع الهدنا إلى الملوك وإن أعطوهم المؤمنا^٨ إلا الصغارَ وإلا الضيم والمننا منهم بألبانها لم يشربوا اللبننا فلا يرون لهم غير المنون منى به على كل من قد شاده وبنى أبت سوى العز مأوى والعلا وكنا؟

^٦ أكدى: أخفق، ولم يظفر بحاجته. وأفن: ضعف رأيه وطاش.

^٧ مشعلة: بصيغة اسم الفاعل: صفة لموصوف محذوف؛ أي غارة مشعلة، وهي الغارة المتفرقة التي تنصب من كل أوب، وكذلك قوله: شعواء؛ أي متفرقة. والمكتمن: المختفي.

^٨ قوم لقاح: أي لا يدينون للملوك.

رؤياي الصادقة

فاستمعوا لي فقصّتي عجبُ
يعقد جفني بنجمها الوصب^١
كأنما كل كوكب قطب
يقلبني وخزه فأنقلب
مَشِيي دَبِيْبٌ ومشيهِ خَبِيبٌ
تغرّق في فيض نوره الشهب
فنمتُ والنومُ جرّه التعب
يرتجف القلبُ وهو مُرتعبٌ
من ساحل البحر وهو مضطرب
كأنما الجو ملؤه لهب
أهلّةٌ في إزائها صُلب
مكشوفة لا تغمّها الترب
يرعى نفوسًا كأنها عُشب
يلمع في حرّ وجهها الحسب
تحت شعورٍ كأنها الذهب

حياكم الله أيها العربُ
قد بتّها ليلة مُطوّلة
أنجمها الزهرُ غيرُ سائرةٍ
تحسبني في مضاجعي حسك
أمشي إلى النوم وهو منهزم
حتى بدا الفجرُ لي وقد طَفقت
عندئذٍ خَدْرَ الأسي عَصبي
فطاف بي طائفٌ لروعته
رأيتني قائمًا على نشزٍ
والأفق محمّرةٌ جوانبه
وفي عنان السماء قد طلعت
والأرض قد بعثرت ضرائحها
والموت كالكبش في جوانبه
وبين تلك القبور غانية
لها جبينٌ كأنه قمر

^١ الوصب: المرض والوجع الدائم.

ووجنة باللطم دامية
 قد أذبل الجوعُ وَرَدَ وجنتها
 شاخصة الطرف وَهِيَ جَائِئَةٌ
 حاسرةُ الرأسِ غيرِ ناطقةٍ
 فلحظها فوق رأسها صُعُدُ
 مكتوفة الساعدين منكسر
 قد وتدوا القيد في مُخلخلها
 ترى خدوشًا على مُقلّدها
 وحولها أنفُسُ مُصرّعة
 واحتوشتها كلابٌ مجزرةٌ
 تنهشها تارةً وأونةً
 وفوقها الطيرُ وهي حائمة
 بيض المناقير ذات أجنحة
 يقدّمها طائر قوادمه
 تضطرب الأرض والسماء له
 وقفت أرنو إلى ملامحها
 حتى تعلمت أن سَحَنَتَهَا
 وبينما كنت ممعناً نظري
 إذ هاتفٌ في السماء يهتف بي
 يقول لي: إنها «طرابُلسُ»

وساعدُ بالدماءِ مختضب
 فاصفر وامتنصّ ماءه اللّغَبُ^٢
 تحملها دون سوقها الركب
 إلا بدمع لسانه ذرب
 ودمعها تحت رجلها صبب
 من حزن طرفها ومكتئب
 ومددوه كأنه طُنْبُ^٣
 كأنها في صفيحةٍ شُطبُ^٤
 يسرح فيها ويمرح العطب
 مهترشاتٌ يهيجها الكلبُ^٥
 تنبح من حولها وتضطخب
 تبعد من رأسها وتقترب
 خُضر وريش كأنه العُطبُ^٦
 تلمع كالبرق حين يلتهب
 إذا غدا بالجنح يضطرب
 ووجهها بالدموع مُنتقب
 للعرب الأكرمين تنتسب
 فيها وقلبي كقلبها يجب
 كأنه في الغمام محتجب
 تبكي على أهلها وتنتحب

^٢ اللغَب بفتحتيْن: أشد الإعياء.

^٣ قد وتدوا: أي ثبّوا، ويجوز أن يقرأ بتشديد التاء أيضاً.

^٤ الصفيحة: السيف العريض. والشطب: جمع شطبة، كظلمة، وهي طريقة السيف في متنه.

^٥ قوله: «واحتوشتها» أي: أحاطت بها فجعلتها هي في وسطها. والمجزرة: موضع اجتاز الجزور.

ومهترشات: متواثبات متحركات بعضها على بعض.

^٦ العطب، بضمّتين، وبضم فسكون: القطن.

رؤياي الصادقة

وهذه الطير حيث تبصرها
فتلك رؤياي غير كاذبة
يا شيخ روما ومن لرايته
لست ولا قومك اللئام بمن
وإنما أنتم بنو زمن
برومة قبل وهي مَبُولَةٌ
فَعَشْتُمْ فِي الْوَرَى سَوَاسِيَةَ
ما أوقد الدهر نار مخزية
أغسل شعري إذا هجوتكم
محمد والصحابة النجيب
فهل تغيثون أيها العرب؟
وتجاه ينتمي وينتسب
تُعرف أم لمثلهم وأب
إذا ذكرناه تخجل الحقب
بألكم الدهر وهو مغترب
لا حسب عندكم ولا أدب
إلا وأنتم لنارها حطب
لأنه من هجائكم جنب

أنشودة الحرب

نحن للحرب العوان
لا نعدُّ العُرس إلا
يوم نحسو من دم الأع
ما صليل السيف إلا
شقنا الحبُّ لبيض الـ
نشتهي غمغمة الأبـ
نحن لا نفخر إلا
شيم ينظر من تحـ
وبها قد شهد النجـ
سلُّ بنا كل زمان
هل بنينا المجد إلا
كم جلونا غُمَّة الهيد
بسيوفٍ أضحكت في الرِّ
وكماةً ثبتت حيـ
كلُّ رَحِب الباع صعب الـ
رابطُ الجأش وقور النـ
حيث شخص الموت في المأ

ولإدراك الأمانني
يوم ضرب وطعان
دء لا بنتِ الدُّنان
عندنا صوت المثنائي
هتد لا البيض الحسان
طال لا عزف القيان
بلسانٍ من سنان
تِ إليها الفرقدان
م لنا والقمران
سلُّ بنا كل مكان
بالحسام الهُنداوني
جاء ذات المعمان
وع وجه الحدثان
ث تزل القدمان
ملتقى ثبت الجنان
فس جوال العنان
زق بادٍ للعيان

* * *

يا علوج الصّرب والبُل
 لم يكن إيعادكم بالـ
 إنّما الحرب لدينا
 فاتركوا الإيعاد يا أبـ
 ودعوا الحرب فليس الـ
 وتزيّوا يا مخانـ
 إنّما أنتم تيوس
 سوف تُرَمُون من العرـ
 وستدْمُون بقرع السـ
 وتذوقون من الموـ
 حين تلقون أسودًا
 ذات بأس يترك الصخـ
 وزئير تأخذ الأرـ
 وقلوب طبعت من
 جهلت في غير ما الرا
 إنّما نحن كرام
 نتفانى في سبيل الذّ
 نشتري الموت بنقد الر
 إذ نقيم الموت معرا
 سوف نكسو الحرب ثوبًا
 فتكون الأرض منها
 قد أظلّتها سماءً

غفار أولاد الزواني
 حرب غير الهذيان
 من تمام الحيوان^١
 ناء حمراء العجان^٢
 حرب من شأن الجبان
 يث بأزياء الغواني
 أولعت بالنزوان
 ب بداء اليرقان
 من أطراف البنان
 ت الزوام الأرجواني
 طافحات الهيجان
 ر قرين الذوبان
 ض له بالرجفان
 حدة السيف اليماني
 ية معنى الخفقان
 عزنا غير مهان
 ود عن هذي المغاني
 وح في الحرب العوان
 جا إلى أعلى الجنان
 لونه أحمر قان
 وردة مثل الدهان^٣
 من شواظ ودخان

^١ قوله: «من تمام الحيوان»: أي من تمام الحياة.

^٢ قوله: «يا أبناء حمراء العجان»: أي يا أعاجم، يقال: يا ابن حمراء العجان؛ أي يا أعجمي، وهي كلمة

شتم تجري على السنة العرب.

^٣ وردة: أي حمراء. والدهان: الأديم الأحمر.

أنشودة الحرب

ترسل الموت عليكم في شآبيبِ الهوان
فيقيم الذل فيكم مُلقياً كل جران^٤

^٤ الجرّان: من البعير مقدم عنقه، من مذبحه إلى منحره، ومعنى كونه ملقياً كل جرّان: كونه ثابتاً مقيماً.

الشیطان والطلیان

قالها لمناسبة دخول إيطاليا في الحرب العامة.

رأيت إبليسَ عدوَّ البشرِ
قد لبسَ الوشيَّ على قبحه
وهو يهنِّي حزبه قائلاً:
اليومَ قد طابت لنا لعنة
واليومَ قد هان الخلود الذي
إذ أمةَ الطليان قد أصبحت
زلت إلى العار بها زلة
فهي التي هان بكفرانها
لو ألقى الصخر بمخزاتها
ولو أصاب البحرَ من عارها

يخطب في جمع له قد حضرُ
وخصب الشيب وقصَّ الشعرُ
يا من عصى الله ومن قد كفر
جاءت من الله بحكم القدر
قدره الله لنا في سقر
أكبر من خان ومن قد غدر
شنعاء لا تمحي ولا تغتفر
كفران من زاغ وأبدى البطر
لانفتت من فرط الحيا وانفطر
لغار منه ماؤه وانحسر

* * *

نحن الشياطين على أننا
صرنا إلى جنب بني رومة
فلا نبالي اليوم من لامنا
إذ في بني رومة عذر لنا
فهم على الله لنا حجة
وأن يوماً نقضوا عهدهم

جننا من اللوم بإحدى الكبر
ننفر من نافرنا وافتخر
في رفضنا آدم أو من عذر
يستسلم السمع له والبصر
في أننا أفضل هذا البشر
فيه ليوم خزيه مبتكر

فلنتخذه خيرَ عيدٍ لنا نذكر فيه فوزنا والظفر
ولنجعلنه يومَ أفرأحنا نجني به الأُنس ونقضي الوطر

* * *

ثم انثنى الشيخ أبو مُرّة يرقص فيما بين تلك الزمر
حتى إذا أكمل أشواطه رنا إليهم وأحدّ النظر
ثم دعا من بينهم واحداً مُشوّه الوجه كثيرَ القدر
وقال: يا خنزَب بادر إلى رُومة وادخلها قبيلَ السحر
وانهب إلى «عمّانويل» الذي دب البلى في مجده فاندثر
وقل له: إنّ أبا مُرّة أخاك يدعوك إلى المستقر
فإن يقل أين؟ فقل: إنه في دُرُكةٍ سافلةٍ من سقر
مقعد خزي كتبوا حوله بأحرفِ النيران: أين المفر؟

المقطّعات

وتشمل بعض قصار القصائد

قصر الحمراء

قَفَّ عَلَى الحمراءِ وَانْدَبَ
وَاسْأَلَ البَنِيانِ يُنْبِئُ
وَيُحَدِّثُكَ حَدِيثَ الـ
بِكَلَامٍ مَحْزَنِ اللّهِ
فَيَقُولُ القَلْبُ: آهَـ
صَاحٍ لَوْ كَانَ لَذَا الدّهِ
مَا رَمَى العُرْبَ أَبَا الضـ
لَا وَلَا جَرَّ بَغْرِنَا
حَيْثُ هَذَا القَصْرُ أَمْسَى
فَازْدَرِ الدّهِرَ وَسَفَّهُ
وَإِذَا كُنْتَ حَلِيمًا
مُضَرَ الحَمراءِ فِيهِ^١
كَ بِأَنْبَاءِ ذَوِيهِ
مَجِدِ والعَيْشِ الرِّفِيهِ
جَةً يُبْكِ مَن يَعِيهِ
وَتَقُولُ: الأذُنُ إِيهَ^٢
ر حِيَاءٌ يَقْتَنِيهِ
يَم بِالخَطْبِ الكَرِيهِ
طَةً أَذْيَالَ سِنِيهِ
خَالِيًا مَن مَبْتَنِيهِ
كَلَّ مَن لَا يَزْدَرِيهِ
فَأَبْكَ مَن دَهْرٍ سَفِيهِ

^١ مضر: مضاف إلى الحمراء، والمراد بالحمراء الذهب.

^٢ إيه: اسم فعل، للاستزادة من حديث أو فعل.

يا ضاربًا بالكمان

يا ضاربًا بالكمانِ
سحرت سمعي وعقلي
ضربت لحنًا بديعًا
فكان شيئًا عجيبيًا
يفتنُّ كل افتنانِ
بصوت تلك المثاني^١
حوى بديع المعاني
إذ سرّني وشجاني

^١ المثاني: جمع مثنى، وهو الوتر الثاني في العود.

يا دهر

أطلت يا دهرُ نحسي
فقد تضاءل صبري
إذا تعشقتُ هندياً
وإن تعشقتُ دعدياً
أما تعوّدت إلا
إني أريد عدوي
وجُد عليّ بوصلٍ
كلا، فإنّ مقالي
بل أنت أحقر عندي
إني وإن كنت أشقى
ربأت عنك بذمي
إذ لست أنت بكفتي
لو كنت يا دهر حُرّاً
لما ارتضيتك عبداً
وكيف أرضاك عبداً

متى تجود بسعدي؟
كما تعاضم وجدي
منحتني وصلَ دعد
منحتني وصلِ هندي
بأن تجود بضدّ
فهايت بعض أودي
فقد رضيتُ بصدّ
هزل وليس بجد
من أن تجود وتجدي
بأوجه منك رُبيد^١
كما ربأت بحمدي^٢
ولست أنت بندي
وجئت تخدم عندي
ولا خويديمِ عبد
وأنت أوغد وُغدي!

^١ ربد: جمع أريد وهو الذي تغير من الغضب.

^٢ ربأت: ترفعت عنك.

الحقائق الملقنة

لقننُ في عصر الشباب حقائقًا في الدين تقصر دونها الأفهامُ
ثم انقضى عصر الشباب وطيشه فإذا الحقائق كلها أوهام

الخطوة الأولى

قدم السيد عادل جبر إلى الرصافي تصويرًا شمسيًا به صورة ابنه الصغير، لأول عهده بالمشي، وطلب إليه أن يكتب عليه شيئًا من الشعر، فكتب الأبيات الآتية:

يا عمرك الله من وليدٍ يسرُّه اللعب بالنُّغَيْرِ^١
لا زلتَ في طالع سعيدٍ فدَى لك البدرُ من قَمِيرِ

* * *

لم تره مُقلتايَ إلا أحسست في النفس بانتعاش
في العين أم في الفؤاد أحلى مرَّاه مُذ قام وهو ماش!

* * *

مشى على الأرض بارتعاش ثم حبا واضعَ اليدين
إنْ لم يزلَ لَيِّنَ المُشاشِ أفديه بالروح من غصين^٢

* * *

ويُسك داود من شُبيلٍ لوالد منجب هزبر!^٣

^١ النغير بصيغة التصغير: البلبل الصغير أو فرخ العصفور.

^٢ المشاش: جمع المشاشة؛ وهي رأس العظم اللين.

^٣ ويسك: كلمة ترحم وتعجب مثل ويحك.

ديوان معروف الرّصافي

بدرّيك انجاب كلُّ ليل عن أبك العادل بن جبر

وجه نعيم

أسبغ الله نعيم الـ حسن في وجه نعيم
قمر أغنى عن الإشـ راق في ليلٍ بهيم
علم الناس صحيح الـ حُبُّ بالطرف السقيم
يرجع السحر بعينيـ ه إلى عهد الكلیم

المغربي

مما كتبه تحت صورة شمسية له أهداها إلى العالم النحرير والكاتب الشهير، الشيخ
عبد القادر المغربي.

إلى المغربي الحبر أهديت صورتني
وتؤذنه بالودّ وهي خيالة
وإن لعبد القادر الفضل كله
فتى العلم زانته العلوم بنورها
تُذكِّره مني صداقةً صادق
ورُبَّ خيال مؤدِّنٍ بالحقائق
بما أوضحت أقلامه من دقائق
كما زانها منه بحسن الخلائق

صفا لك

ومما كتبه تحت صورة فتوغرافية أيضًا، أهداها إلى الأديب الكبير إسعاف النشاشيبي المقدسي، قوله:

صفا لك فيّ يا إسعاف وُدُّ
فخذ تمثالَ خِلِّ نبي وِداد
خيال حقيقة ولربّ شيء
ولست مما ذقنا في الودِّ خُلِّي
ومثلك من تجادله القوافي
صميمٌ ما لصحته اعتلالُ
يمثّل صدقه لك ذا المِثال
يدلُّ على حقيقته الخيال
إذا مذقت مودتها الرجال^١
ويُحمد في فضائله المقال

^١ مذق: خلط.

إليك عادل

ومما كتبه أيضاً تحت صورة شمسية أهداها إلى صديقه الفاضل عادل جبر المقدسي، قوله:

إليك عادلَ جبرِ رَسَمَ نبي مِقَّةِ
لو تدرك الشمس في القلب من شغف
لكنها خُلقت عن ذاك عاجزة
فأقبله تذكرةً في الدهر باقية
فأنت أكرم من صداقته خلقاً
من أصدقاك حَيَّاد عن الفَندي
لصورتُ لك ودًّا جَلَّ في خلدي
فصوِّرتُ لك مني ظاهر الجسد
بقدر حبيك حتى آخر الأبد
وأبعد الناس عن غِلٍّ وعن حسدٍ

^١ المقة: المحبة. والفند: الكفر بالنعمة والكذب.

الكتاب

واستعار وهو في القدس كتابًا من إسعاف النشاشيبي، ثم أعاده وقد كتب عليه هذين البيتين:

آل النشاشيب إن الله أسعفكم على التقدم للعليا بإسعاف
ذاك الذي أشرفت بالعلمِ همته على سماء المعالي أي إشراف

من هذا؟

مُخْلِصٌ مُنْكَشَفٌ إِخْلَاصُهُ
وَأَمِينٌ قَدْ جَرَتْ أَطْمَاعُهُ
لَوْ دَرَّتْ كُلُّ خِيَانَاتِ الْوَرَى
تَرْكَبُ الْفَحْشَ رُجُولِيَّتُهُ
عَنْ رِيَاءٍ فِيهِ تَخْفِيهِ الْأَنْأَنَةُ
بِسَيُولِ الْغِشِّ فِي وَادِي الْخِيَانَةِ
بِالَّذِي فِيهِ تَسَمَّتْ بِالْأَمَانَةِ
بِعِنَانَيْنِ: نُعُوظٌ وَعِنَانَةٌ

من مطبخ الدستور

معربة عن التركية بتصريف، للشاعر التركي توفيق فكرت.

كلوا يا أيها السادّه	كما تنكره العادّه
كلوا من مطبخ الدستور	رأكل الساسة القادة
كلوا بالسبعة الأمعا	ء حتى تنفدوا زاده
كلوا لا تخشوا الناس	فإن الناس مُنقاده
كلوا لا تخشوا الدهر	فأمُّ الدهر قوَّاده

الوزارة عندنا

إن الوزارة — لا أبا لك — عندنا
لا يرتديه سوى امرئٍ أضحى له
ثوبٌ يفصلُ في معامل لندنا
طبعًا وداؤُ الإنكليز وديدنا

عبد اللطيف باشا المنديل

أَسْرَى مَكَارِمَ أَسْرَةِ الْمَنْدِيلِ
فَبِنَى أَثِيلَ الْمَجْدِ فَوْقَ أَثِيلِ
يَدْعُو تَوْسُمَهَا إِلَى التَّبْجِيلِ
طُنْبِينَ مِنْ بَأْسٍ وَمِنْ تَنْوِيلِ
وَنَزِيلُهُ فِيهَا أَعَزُّ نَزِيلِ
يَرْمِي بِرَأْيٍ فِي الْأُمُورِ أَصِيلِ
لَمْ يَخْشَ لَوْمَةَ لَائِمٍ وَعَذُولِ

عَبْدُ اللَّطِيفِ بِفَضْلِهِ جَعَلَ الْوَرَى
وَرِثَ الْمَكَارِمَ عَنِ أَبِيهِ وَجَدَّهُ
فِي الْوَجْهِ مِنْهُ مَلَامِحٌ عَرَبِيَّةٌ
فِي الْبَصَرَةِ الْفِيحَاءُ مَذُ لَبَّيْتِهِ
فَطَرِيدُهُ فِيهَا أَذْلُ مُطَرَّدِ
حُرُّ الضَّمِيرِ مُؤَيَّدٌ بِفَطَانَةِ
إِنْ قَالَ حَقًّا قَالَهُ بِصِرَاحَةِ

إلى السباعي

وقال وهو في دمشق جواباً عن كتاب أتاها به ابن سليم السباعي الدمشقي من أبيه،
يتضمن أبياتاً من الوزن والروي:

إلى الرجل الكريم إلى السباعي
فتى أحببته قبل التلاقي
ولكني رأيت له سليلاً
ويُحسب من دماثته جباناً
فقلت وقد رأيت به إباءً
فشكراً يا سليم على تنظيم
فأنس غربتي وأسا جروحي
وما أنا للثناء بمستحق
ولكن حسن ظنك بي دليل
فدمت بحسن سعيك للمعالي

كتاب أخ لعهد أخيه راع
وكم حُب تولد من سماع
كريم سجية وطويل باع
على ما فيه من خلق الشجاع
كذاك تكون أشبال السباعي
بعثت به لمغترب مضاع
ونفس كربتي وشفى صداعي
وإن أعطيت مملكة اليزاع
على ما فيك من كرم الطباع
قرير العين مشكور المساعي

عفو بعد نفي

أنشدها في عمر صالح أحد أصدقائه في القدس، وذلك عند قدوم عمر من عكا بعد أن نفي إليها سياسة.

أحرزت يا عمرُ المفاخر كلَّها
أما البلادُ فقد حَميتَ زِمَارها
ولقد رعيتَ عهودها فتُنوِّقلت
فإذا جرى ذكر الحميَّة بعد ذا
ولئن نَقَوَّك فإنَّ نفيك لم يكن
بل قد نفوك لأنَّ أبيتَ هوانهم
هاجت لمنفأك الحفائظُ فاغتدت
شرفُ لِعَكَّة أن رأت بك ماجدًا
فالقدس حاسدة عليك ربوعها
ولقد عفوا وهم الجناة وإن عفا
ندموا فسُميت الندامة عندهم
أهلاً بمقدّمك الذي بسروره
فالبسُ من العلياء ما تختارُ
لَمَّا أضع زِمَارها الأشرار
في الناس عن رعياتك الأخبار
أثنت عليك مواطنٌ وديار
عارًا عَلِيَّكَ وأين منك العار؟!
والنفي من دار الهوان فخار
كالبحر هاج بلجُّه تيارُ
بعلاه تفخر حِمير ويزار
والمسجد الأقصى عليك يغار
عنك المسيء فعفوه استغفار
عفوًا وذلك منهم استكبارُ
سيء اللئامُ وسُرَّت الأحرار

التراموي في الأستانة سنة ١٩٠٩

مَرَّ الترام فقيلاً: اركب، فقلت لهم: أما ترى وضعافُ الخيل تشحبه يحكي السلحفاة في عرض الطريق وقد ترى به أوجه الرُكاب عابسة في جانبه وفي أعلاه قد كَتَبُوا «قد يدرك المتأنِّي بعض حاجته نلَّ امرؤُ كان مركوبًا له الكسلُ كأنه جَبَلٌ في الأرض ينتقلُ أمستُ بها في التأنِّي يُضرب المثلُ من فوقها ضجر من تحتها مَلَلُ بيتًا تمثل في إنشاده الأولُ وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ»

لقيتها في الطريق

لقيتها في الطريق عابرة
أعجبها منظري وأعجبني
فصار قلبي بالحبُّ يأمرني
وحين مرَّت والشوق يُسكرني
لَفْتُ جِدي أرى أتُنظرنِي
فقلت، والشوق فيَّ ملتهبٌ:
يَهْصِرُ من قَدِّها تَبَخُّتُها
بالحسَنِ عند اللقاء منظرها
وقلبها بالغرام يأمرها
بخمرة تارة ويُسكرها
والتفتت لي ترى أأنظرها
إن عَذرتني فسوف أعذرُها

الدين والوطن

لا يَخْدَعُنْكَ هِتَافِ القومِ بالوطنِ
أَحْبُولَةُ الدِّينِ رَكَّتْ مِنْ تَقَادِمِهَا
فَمَا لَهُمْ غَيْرَ صَيْدِ المَالِ مِنْ غَرَضٍ
لَمْ يَقْصِدُوا الخَيْرَ بَلْ يَسْتَذِرْعُونَ بِهِ
فَإِنْ تَهَادَنَ قَوْمٌ فَانْتَظِرْ شَغْبًا
فَالقَوْمِ فِي السَّرِّ غَيْرِ القَوْمِ فِي العَلَنِ
فَاعْتَاضَ عَنْهَا الوَرَى أَحْبُولَةُ الوَطَنِ^١
فِي اليَوْمِ والغَدِ والمَاضِي مِنَ الزَّمَنِ
رَمِيًّا إِلَى الشَّرِّ أَوْ قَصْدًا إِلَى الفِتَنِ
إِذْ لَيْسَ هَدَنْتَهُمْ إِلَى عُلَى دُخَنِ

^١ رُك: ضعف ورق.

الحياة والأداة

وَطَّنْ حَيَاتِكَ لِلْمَكَارِهِ وَارْتَقِبْ
كَدْرَ الْمَوَارِدِ إِنْ صَفَا لَكَ مَشْرَبُ
كُلِّ الْأَمَاكِنِ لِلأُذَاةِ مَظْنَةَ
حَتَّى السَّمَاءِ تَدْبُ فِيهَا الْعَقْرَبُ

يا أيها المفتي

قالها لما أفتى بكفره بعض من يدعي العلم في بغداد؛ وذلك لإنشاده قصيدة «في مسرح التمثيل» أنكر فيها تشديد القوم على النساء في الحجاب:

يا أيها المفتي بتكفيرنا
بأيّ جهل فيك مستأصل
وذاك أمرٌ ليس تنتأشهُ
لو كنت ذا مجد لأصلتكَ من
بل أنت وُغْدٌ لا تبالِي الهجا
وإنما تغتاظ من هجُوننا
مهلاً فقد جئت بأمر نَكِيرُ
علمت يا جاهل ما في الضميرُ
إلا يد الله العليم القديرُ
هجائنا، الأيام نار السعيرُ
وهكذا كل لئيم حقيِرُ
بقدر ما تغتاظ منه الحميرُ

^١ انتأشه: جذبه واستخرجه.

في معرض الشكر

لقد جرّبت أصدق أصدقائي
فتّى أما نداه فصوبُ مزن
به آل اللبابيديّ باهوا
أشدُّ من الخضمّ يدها مدًّا
نقيّ العارضين له جبينُ
سديد الرأي طلق الفكر حرًّا
كريم ما اقترحت عليه إلا
أيا مَنْ شدَّ في بيروت أزري
سأبلغ فيك غاية كل شكر

فلم أر قط أصدق من صلاح
وأما خلقه فشذا الأفاحي^١
كما باهى بهم هو في السماح
وأقذف منه بالدُرر الصباح
أغرُّ كأنه فلق الصباح^٢
طلوب للعلا سهل النجاح
وقد غلبت فواضله اقتراحي
وأنسَ غُربتي وشفأ جراحي
وإن قصّرت نحوك بامتداحي

^١ الصوب: المطر. والمزن: السحاب الممطر.

^٢ العارضان: صفحتا الخد.

عند لعبة البيلارد

كمثل اللعب بالأكر الثلاث
لطيف صنعه حسن الأثاث
إلى حمراء بادية اللهاث
لضرب الأخرين بلا لباث^١
وقد حصل اصطدام بانبعث
نسيتُ بهم مغازلة الإناث
مهياة لضرب واحتثاث
غلام هاج شوقي وهو جاث
ليضربها تثنى بانحناث
فعدت من هواه إلى انتكاث
أبالي لوم ألسنة رثاث

وفي الألعاب لم تر قط عيني
تجول بمستطيل الشكل عالٍ
فبيضاوان تندفعان جرياً
ينال الضرب إحداها فتجري
فتنبعث الثلاث مُدحرجاتٍ
يُدحرجهنَّ أغلِمة ظرافٍ
بأيديهم عِصِيٍّ مُشرعاتٍ
فكان إذا انحنى للضرب منهم
وربَّه ضربةٍ لَمَّا تَثْنَى
وكانت توبة لي عن مُجونٍ
فلستُ وقد تجدد لي غرامٌ

^١ اللباث، بفتح اللام: اللبث والمكث.

السينما الوطني

قالها لما أنشئ السينما الوطني ببغداد.

لو جعلنا كل شيء وطنيا
ولعشنا اليوم في أوطاننا
ولأضحى نابهاً خاملنا
يا بني بغداد هل من يقظة
إن بغداد قضت واجبها
سينما أظهر للرائين من
ولقد صور في رقعته
ولقد قرب للأنظار من
يبهج الناظر فيه أنه
يا بني بغداد لا عذر لكم
لقطفنا ثمر المجد جنياً
مستقلين بها عيشاً رحيماً
ولأمسى كل ذي فقر غنياً
لأمور تكسب القوم رقياً
مذ أرتكم سنامها الوطني
صور الآداب ما كان خفياً
عبر الأيام تصويراً جلياً
خطط البلدان ما كان قصياً
يقرأ المكتوب فيه عربياً
إن أتيم بعد هذا الأجنبياً

عند نشر المعاهدة

قيدُ يَعَضُّ بأرجلِ الآمالِ
لكن مموّهة بالاستقلالِ
كالعهد بين الشاة والرئبال^١
بتودُّ حَملاً مِنَ الأحمالِ؟!
فاستوثقوا منهنَّ بالأفقالِ
وضعوا بها قُفلاً على الأغلالِ
حَلَّت عليهم لعنة الأجيالِ
أفيأمنون تقلُّب الأحوالِ؟!

نشروا المعاهدة التي في طيِّها
قد أبلعوننا حَبَّة استعبادنا
والعهد بين الإنكليز وبيننا
من ذا رأى ذئبَ الذئابِ مصافحاً
لكنَّهم خافوا انفكاكَ قيودنا
كتبوا لنا تلك العهود وإنما
شَلَّت أكف مَوْقعِها إنهم
هَبْ أنهم أمِنوا انفكاكَ قيودنا

^١ الرئبال: الأسد أو الذئب.

وزراء المعارف عندنا

ويح المعارف لا يستوزرون لها
فأبي حرمه علم هم قد انتهكوا
هبهم قد احتقرونا في مواطننا
يا قوم ما بالكم لا تغضبون له
تالله قد أنزلونا شر منزلة
إلا الذين لوذر الجهل قد وزروا
بذا وأي نمام للعلا خفروا!
سياسة فعلام العلم يحتقر؟!
أليس فيكم فتى للعلم ينتصر؟!
لا الزنج ترضى بها منهم ولا النور

قيصر معلوف

في آل معلوف الكرام خلأئقُ
ولهم مآثر في البلاد جليلة
يابى الزمان دوالَ دولة مجدهم
رجل رأيت به الفضائل تعتلي
وصحبت في بيروت منه مهذبًا
صغرت به عندي الكرام لأنه
إنى لأشكره على إفضاله
أما حليلته الفتاة فإنها
ما أحسن الحُسنين إذ جُمعا بها:

عُرُ يضيء بها الزمان الأكرُ
أيدي المطاولِ عن علاها تقصر
ما دام فيهم ذو المكارم قيصر
والمجدَ ينمو والمعالي تكثر
ما إن تصور مثله المتصورُ
في كل مكرمة أجل وأكبر
والحر للحر المهذب يشكر
بدر بأفاق الجمال منورُ
نفس مهذبة ووجه أزهرا!

إلى أمين كاملة

وكتب له أمين كاملة أحد أدباء بيروت فأجابه:

حي الأمين الذي طابت مغارسه
مشهورة في رُبا لبنان عُرتَه
قد جاء بالشعر يطريني فقلت له:
أوسعتني منك ترحيباً وتكرمة
وتلك شيمة من كانت خلائقه
قل للألى يقصدون اليوم تخطئتي
من مَتَّ منكم إلى قوم بنسبته
ونسبة العلم والآداب لحمتها
أليس لبنان بالآداب مشتهراً
فإن نزلت بوادٍ منه منتجعاً

في منبت النبع لا في منبت الغرب^١
من آل كاملة صِيَابَةِ العرب^٢
شكراً لفضلك إذ أحسنت ظنك بي
لَمَّا حططت لديكم رحل مغترب
مصوغة من صميم المجد والحسب
مستغربين إلى لبنان منتسبي
فقد مَتَّتُ إلى لبنان بالأدب
أقوى لمنتسب من لحمة النسب
من العلوم وقول الشعر والخُطب؟
فقد نزلت بوادٍ ممرعٍ خصب

^١ النبع: شجر صلب تتخذ منه السهام والقسي. والغرب: شجر ضعيف.

^٢ صيابة العرب: خيأهم.

إلى عبد الوهاب النائب

أنشد حضرة العلامة عبد الوهاب أفندي النائب في بعض مجالسه ببغداد البيت الآتي ولم يكن الرصافي حاضرًا:

إن فاخرت بلدةً يومًا بشاعرها فإن شاعرنا في الشرق «معروفٌ»

فبلغ ذلك الرصافي، فكتب إليه الأبيات الآتية:

قل لعبد الوهاب النائب العلاً	مة الحَبْر مُنجب النجباءِ
إن أكن شاعرًا فمثلك من يُد	عى ببغداد أعلم العلماءِ
أبي فضل للشعر لولا علوم	قومت من قناتِه العوجاء؟!
إن بين الشعر المقول وبين الـ	علم بونًا كأرضنا والسماء
ما ادعى الشعر عالم قط لكن	يدعي العلم أشعرُ الشعراء

إلى أولي الأمر

وقال يخاطب رجال الحكومة ببغداد سنة ١٩٣٧:

يا مُبْعِدِيَّ بظلم عن مناصبكم
علمتُ كل خفيٍّ من ضمائركم
ماذا يوافقكم من شأنِ صاحبكم
إن كان عقلُ فإني عاقلُ فطنُ
فجرُّوني تفوزوا عند تجربتي
وإن أبيتم سوى مَنْ عِرضه دَنِسُ
لا أبعد الله غيري عن مناصبكم
وقاطعين إلى ما أبتغي طُرقي
وما علمت الذي ترضون من خلق
حتى يكون لديكم حائز السبق؟
أو كان حمق فعندي أحقق الحمق
بما تريدون من طيشٍ ومن نَزَق
فلمست معكم على شيء بمتفق
إني بتدنيسِ عرضي غير مرتزق

المصور البارع

إن فنَّ التصوير قد صار فيه
حمل الشمس للأنام بكفِّ
وأتى يُبدع البدائع للناس
لم يفته من صورة المرء حتى
فتراها كأنها ذات فكر
وترى عند حزنها ذات حزن
لك يا أسعد الفخار ولا زل
أسعدُ بارعًا بغير نظير
وبأخرى صناعةً التصوير
س بفنٍّ من الرسوم خطير
ما بها من علائم التفكير
هي عنه تهمةٌ بالتعبير
وترى في السرور ذات سرور
ت جديرًا بالفخر جدَّ جدير

الأغنياء والفقراء

أرى أغنياء الناس كالعمي لم يروا شقاء بني عباء من كل بائس^١
كأن الغنى والفقير نور وحنس ولم ير من في النور من في الحنادس^٢

^١ الغبراء: الأرض، وبنوها الناس.

^٢ الحنادس: الظلام الشديد.

الجهل فضاح

ما أقبح الجهل! يُبدي عيبَ صاحبه
كذلك الثُّوم لم يشممه آكله
للناظرين وعن عينيه يخفيه
والناس تَشْتُمُّ نَتْنَ الرِّيح من فيه

حمام الوزارة

ألا بلَّغوا عني الوزير مقالتهُ
أراك بحمَّامِ الوزارة نُورةً
له بينه لو كان يخجل توبيخُ
وأما جنابُ المستشار فزرنِيخُ

رخص المناصب

نحن قومٌ من الدراويش نَغْنَى
رُحُصت عندنا المناصب حتى
عندنا عن مدارس بِتَكْيَّه
قد شَرَوْها بِسُبْحَةٍ وبلْحِيَه

الناس والملوك

عجبت للناس في الدنيا فحالتهم مع الملوك صريح العقل يَجِدُهَا
إن الملوك لكالأصنام ماثلة الناس تنحتها والناس تعبيدها

منزلة المعلم في المجتمع الإنساني

فليس سوى التّعليم للرشد سُلّمٌ
إذا ساء محياهم؟ لقلت: المعلم
يداوي سقام الجهل والجهل مسقّم
به يهتدي الساري إلى المجد منهم
عظيم كحق الوالدين وأعظم
وللوالدين العظمُ واللحم والدم^١
وإنّ على الجهّال أن يتعلموا
بأن يعملوا حتى قضى أن يُعلموا

إذا كان جهلُ الناس مدعاة غيهم
فلو قيل: من يستنهض القوم للعلا
معلمٌ أبناء البلاد طبيبهم
وما هو إلا كوكب في سمائهم
فلا تبخسنّ حقّ المعلم إنه
فإن له منك الحجا وهو جوهر
ألا إنما تعلّمنا الناس واجبٌ
وما أخذ الله العهود على الورى

^١ الحجا: العقل.

أم سري

زار الرصافي صديقه السكاكيني في القدس فارتجل عنده هذين البيتين يخاطب بهما
قرينته السيدة سلطنة:

أطاعك منه ما عصى الناس أجمعاً أُمَّ سَرِيٍّ أَنْتَ سُلْطَانَةُ الْبَهَا
سوى أن كلَّ الحسن فيه تجمُّعا ولم يرَ نقصًا في مُحيِّاك ناظري

الحزب الحر العراقي

لما نفي بعض أعضاء الحزب الوطني وحزب النهضة، وسدت نوادي هذين الحزبين، قال الرصافي يخاطب الحزب الحر المعتدل:

قولوا لحزب تسمى الحرَّ معتدلاً: هل أنت من بعد نفي القوم معتدلٌ؟! وهل لما حلَّ بالحزبين باكية تالله ما أنت حرٌّ في مطالبتهٖ قد احتملت من التاريخ لعنته عيناك أم أنت مسرورٌ به جدلٌ؟ وإنما أنت للحكام مُعتمِلٌ^١ لله دُرُكٌ ماذا أنت محتملٌ؟!

^١ معتمِل: مصطنع.

قال ذو الحزب

وبلغ الرصافي أن رئيس الحزب الحر قال إذ سمع بهذه الأبيات: «نحن لا نبالي بمثل هذه الأقوال الفارغة»، فقال الرصافي:

قال ذو الحزب إذ أتاه مقالِي: نحن لسنا بما يقال نبالي
صادق في الذي ادَّعاه وأنِّي يَألم المَيْتُ من جروح النضال؟!
إنما تجزع الكرام من الذمِّ وتخشى الأمجاد لذع المقال

المسلم المصلح

قالها في صديقه الشيخ عبد القادر المغربي، أحد أركان المجمع العلمي بدمشق، وأنفذها إليه من زحلة.

للمغربيِّ بأرض الشام منزلة
المسلم المصلح الهادي بفكرته
قد غاص في لُجج الأديان مجتهدًا
وَجال جولةً حَبْرَ في منابِتها
لو سار كلُّ بني الإسلام سيرته
أو جال كل أولي الأديان جولته
إني لأمدحه بالحقِّ عن ثقة
ممتازة في نوادي العلم والأدب
إلى الحقيقة أهل الشك والريب
فاستخرج الدرَّ لم يعبأ بمُخْشَلَب^١
فاستخلص النُّبْعَ حَيًّا دَاً عن الغرَب
لما شكَّوا في حياةٍ سوءَ منقلب
لما تكوَّن باسم الدين من شَغَب
والمدح بالحق غير المدح بالكذب

^١ المخشلب والمخشلب، بفتح الميم: كلمة عراقية نبطية، وهي اسم لما يشبه الدر من حجارة البحر، يعمل منه خرز أبيض يشاكل اللؤلؤ، وهو أردؤه وأقله قيمة.

نجل عبد اللطيف

كتب عبد اللطيف باشا المنديل إلى صديقه جناب المستر «منك» مدير الكمارك في بغداد، كتابًا وصف به له حالة ابنه الصغير، وأنه بلغ من العمر أن صار يشير بيده، ويتكلم بكلام لا يفهمه إلا هو، فطلب المدير المشار إليه إلى الرصافي أن يقول على لسانه أبياتًا في المعنى، فقال:

نجلُ عبد اللطيف وهو نجيبٌ	كيف لا يُظهر النجابة طفلاً؟!
إن يكن غيرَ واضح القول لفظًا	فكلام النجيب يُفهم عقلا
كلما قال أو أشار فمعنى	قوله أنه علاءٌ سيَعلى
إن آل المنديل قوم كرام	قد زَكُوا في الأنام فرعًا وأصلا
نجلُ آل المنديل غيرُ عجيب	أن يكون النجيبُ طفلاً وكهلا
أيها النجل عشُّ لتجديد مجدٍ	قد بَنته لك الأوائل قبلا

عبد الوهاب النائب

عَلِيٌّ لربنا الوهاب أني
وذاك إذا يعاملنا بلطف
ليرشدنا إلى سبل المعالي
هو الحبرُ الذي وجدتُ منها
تردِّي المجد من أدب وعلم
يودُّك في الرخاء ودادَ حر
أطال بقاءه الرحمنُ فينا
وأصل شكره وأديم حمده
فيشفي «النائب» المفضل عبده
فنقصد في ابتغاء المجد قصده
بغاة مكارم الأخلاق عنده
وطرَّز بالمعالي الغرُّ برده^١
ولا ينساک إن دهمتک شدّه
وأكثر فضله وأدام سعده

^١ تردى المجد: اتخذهُ رداء.

إلى أمير الكمنجة

أصدق النابغين في الفن لهجه
تملاً الأنفس انتعاشاً وبهجه
تغرق الروح من سرور بلجه
فلك الفن بالغاً منه أوجه
مُوضح للأنام منه المحجّة^١
يقتفي إثره وينهج نهجه
تار إلا ألقى على القوم رجه
ر يموجون موجة بعد موجة
أينما مال ضارباً أو توجه
راكزاً فوق هضبة المجد رُجه^٢
من كمال تعود الناس مزجه
سادة الفن في بلاد الفرنجه
حامل الصولجان وهو الكمنجه
لم تنزها بدائع الفن سمجه

صاح قم بي إلى أمير الكمنجه
قم بنا نستمع إلى نغماتٍ
ولحون كالصبح إن هي فاضت
ذاك سامي الشؤوا الذي قد سما في
هو في فنه الرفيع إمامٌ
كل من سار في طريق الأغاني
ما أمر الأنامل الخمس بالأو
نغمة منه تجعل القوم كالبح
ويميلون باتجاهٍ إليه
بطل الفن هز رمح ابتداع
وبكأس الفخار أسقي صرفاً
فلتفاخر بلاد يعربُ فيه
يا أميراً في الفن صار مليكاً
شهد الله أن كل حياة

^١ المحجة: جادة الطريق؛ أي وسطه.

^٢ الزج: الحديدية التي في أسفل الرمح، وفي الكلام استعارة لا تخفى.

إلى محمد الرضا

شعراً ذكرت به زماناً قد مضى
فيه ورحت عن «الفرزدق» معرضاً
أخذت تقيم من القريض مقوضاً
ولدى القراع هي الحسام المنتضى
حسد الرضيّ بها أخوه المرتضى
صوتُ الرُّعود لها دويٌّ في الفضا
صوت الحمام ينوح في وادي الغضا
فشبيهه برق لاج أو نجم أضا
وبها رأيت مُذهَّباً ومفضضا
للوذّ مني بالقريض تعرضاً
يُدني أحبته ويُقصي المبعضا
إلا وزادت بالقريض تفيُّضا
فيها الثناء وهكذا عين الرُّضا

إني لأشكر من محمّد الرضا
شعراً غدوت على «جرير» فاخراً
قد دبّجته يراعة لمحمد
هي في التفنن ريشة لمصور
لو كان في كف «الرضي» نظيرها
وكأنما يومُ الفخار هديرها
وكأنما يومُ الرثاء صريرها
أما ذكاء ابن الخطيب «محمد»
وافت جواهره على يد «جوهر»
يا أيها الرجل الذي بكتابه
إني لأشكر منك خللاً فاضلاً
وقريحة ما زدت في استنباطها
ولقد نظرت إليّ منك بنظرة

فخامة الرئيس ووسام الرافدين

أنشئت في الحفلة التي أقيمت في البلاط الملوكي، لمناسبة ما أنعم به جلالة الملك على فخامة رئيس الوزراء من وسام الرافدين من الدرجة الأولى، وذلك يوم ٢٦ آذار ١٩٣٣.

هو في العُلا للرافدين وسام
سعدَ العراقُ فثغره بسام
يزدانَ فيه وزيرُه الضرغام
ملك المطاع وحبذا الإنعام
تاجُ المليك يحفه الإِعظام
فيه السجايا الغر والأحلام
بدت الشجاعة منه والإقدام
ولوَّ أنَّه افتخرت به الأقبام
ويتم في أمر البلاد نظام
وعلى الرئيس تحية وسلام

تَه يا وسامَ الرافدين بصدْرِ من
نوري السعيد أبو صباح من به
قد أنعم الملك المطاع به لكي
يا حبذا ذاك الوزيرُ وحبذا الـ
زَهِي الوسام بصدْره فكأنه
صدر إذا الخطب أدلهم تَلألأت
وإذا تنهَّدت الصدور لحادث
ليس التفاخر بالوسام يهْمُه
بل همُّه أن تستقل حكومة
فعلى البلاد من الرئيس تحية

في بيروت

في مجمع كوكب الشرق

ومجمع جامع ضاع العناء به
تلاطم الموج فيه وهو من لغط
فظلت أسمع بالعينين فيه وقد
كلأ تراه على عزف القيان غدا
فللمعارك بين القوم فرقة
كان الغناء كرايي حين أعلنه
ضياع شعري في قومي وأوطاني
حتى أصم عن الألحان آذاني
يُغني عن الأذن طرف للفتى راني
بالنرد يلعب مشغولاً مع الثاني
كالملح يُحرَق مذروراً بنييران
وسامعوه كقومي عند إعلاني

نهاد قرّة الأعيان

إلى حضرة الفاضل نور الدين بيهم

كان مذ قال واهبُ الأُولادِ
فاستمرّت بحمدها المَزوادِ
لاح بدرًا له بأفقِ الناديِ
أُولدِ النورِ منه للوُفادِ
نهرِ بيروتِ منه بالميلادِ
هو في آلِ بيهمِ الأمجادِ
كان عيدًا لهم من الأعيادِ
إن تاريخه «حياة نهادِ

لنهادَ كُنْ
تنطق الألسن
طلعة تحسن
بهجة الأعيان
فاخرَ الأردنِ
نبعة الأغصانِ
في مدى الأزمانِ
قرّة الأعيانِ»

ذات الشعر الأبيض

ومليحة أوصافها
بيضاء أمّا شعرها
قد لاح يضرب للبيا
كشعاع أنوار النجو
يمتد فوق جبينها
فكأن غرة وجهها
أو قرص شمس قد تجلّل
تدعو القلوب إلى التصابي
فيلون أنوار الشباب
ض وذا من العجب العجاب
م إذا تلاً بأضطراب
كضياء منقضّ الشهاب
بدر تكلل بالسحاب
بالرقيق من الضباب

رقة قولي

وغرت رقتي في القول قوماً
وما علموا بأن رقيق قولي
وما موج البحار يكون إلا
فعادوني وكنت لهم صديقاً
يكون لدى التماحك منجنيقاً
لكون الماء سيالاً رقيقاً

جو بيروت

جو بيروت في الشتاء دفيء
فإذا ما تواتر الغيث فيه
وعلى القرب من مغانيه جوُّ
يجعل الجسم في ارتجاف فيمسي
وكذا الحسن في الأماكن بالأضـ

مانعٌ من نوازل الأسقام
خلتني في مغاسل الحمام
ثغره من ثلوجه في ابتسام
فيه نطق الفصيح كالتمتمام
سداد تبدو أوصافه للأنام

على مقابر الشهداء

حيّ هذه القبور إن كنت حيّاً
إنما الميت كل من لا يحيي
واحترامُ الأموات حننٌ وإن كا
لا تقل هذه الرجام قبورُ
إنما هذه القبور ترينا
عاملاً بالفضيلة الغراء
باحترام مقابر الشهداء
نوا بعباداً فكيف بالقرباء؟!
بل تماثيل نجدة وإباء
كيف حبُّ الأوطان في الأحياء

منيرة^١

من بديع الغناء في كل فنٍّ
واسترقت بصوتها كل أذن
غناها عن المزامير يغني
أقبلت بالمهفهب المطمئن
أدبرت بالمرجرج المُرَجِحُنَّ
يعرف الناس كيف حُسن التغني
يعرف الناس كيف حُسن التثني
من أفانين لحنها بنت دَنَّ
فكأنني مذ أقبلت لست منِّي

هل سمعتم «منيرة» مذ أفاضت
مذ أقرت برقصها كل عين
رقصها يُرِقص القلوبَ على أن
هي إن أقبلت بثنية عَطْفٍ
وهي إن أدبرت بهزّة رِدْفٍ
خلق الله صوتها العذب كيما
وبراها ممشوقة القد كيما
بنت فنّ غنّت لنا فسقتنا
سحرتني مذ أقبلت تتثنّى

^١ هي مغنية عراقية.

يطلب جنار

وظبي جاء يطلب جَّنارًا
وقد مَلَّكَ الخلائقَ ملكَ أُسرٍ
بقَدِّ أَّجَلِ السُّمَرِ اعتدالًا
فقلت: وما الكليمَ سوى فؤادي
يحاكي لونَ وجنتِه احمرارًا
وأوثقَ في قلوبهم الإِسارًا
وطَرَفِ أوجَلِ البيضِ اقتدارًا
وقد أنستُ في خديه نارا؟
فديتكَ كيف تطلب جَّنارًا؟
وفي خديكَ أبصرَ جَّنارًا؟

اسمعي لي كلاما

ودعيني أموت فيك غراما
وامنحي جسمي الضنى والسقاما
رق أحبابه ويخشى الحماما
شدَّ ما أوسع القلوب غراما!^١
طائرُ القلبِ حولِ سمطيه حاما^٢
لا دُويًّا أبقوا ولا أقلاما
زدت في حسنك البديع هياما
صدع قلبي ولو تكون مناما؟
ونهار بالهجر كان ظلاما
وتخذتُ النجوم فيه ندامى
ولعيني تُذري الدموع سجاما؟!
خلتني في تكلمي تمتماما

اسمعي لي قبل الرحيل كلاما
هاك صبري خذيه تذكرةً لي
لست ممن يرجو الحياة إذا فا
لكِ يا ظبية الصريمة طرفُ
حُبِّ ماء الحياة منك بثغرٍ
شغل الكاتبين وصفك حتى
كلما زاد عاذلي فيك عدلاً
أفأحظى بزورةٍ منك تشفي
ربَّ ليل بالوصل كان ضياءً
قد شربتُ السهاد فيه مُداماً
ما لقلبي إذا ذكرتك يهفو
إن شكوت الهوى تلعثمتُ حتى

^١ الصريمة: قطعة ضخمة من الرمل تنقطع عن سائر الرمال.

^٢ السمط: العقد.

وقال في عود انكسر

قلبي عليك حليفُ الوجد يا عودُ
كنت افتديتك لو يُفدى الذي حكمت
فكم بدت نغماتُ منك مُطربةُ
تُعيد يا عود بالأوتار إن نطقت
كأنَّ أرواحنا عند استماعك من
فكيف نالتك أيدي الدهر كاسرة
كم شنَّفت أذني منك الأغاريدُ!
فيه المقادير أن يلقاه تنكيد
هُزَّت بها طربًا حتى الجلاميد
مَيَّتَ المَسرة حيا وهو ملحود
لطف لهنَّ عن الأجساد تجريد
وأنت في الدهر بالأذان معبود!؟

ضاق الخناق

أقول لهم وقد جدَّ الفراقُ:
رحلتم بالبدور وما رحمتم
فقلبي فوق أروؤسكم مُطار
أقال الله من قَوْدٍ لِحَاظًا
وأبقى أعيُنًا للغيدِ سودًا
متى يصحو الفؤاد وقد أدبرت
وليس الناس إلا من تصاب
مررنا بالمنازل موحشات
كأن لم تُصِني فيها كعاب
فُعجت على الطلول بها مُكبًّا
كأني بين أطلال المغاني
حديد بارد في اللوم قلبي

رويدكمُ فقد ضاق الخناقُ
مَشوقًا لا يبوح له اشتياق
ودمعي تحت أرجلكم مُراق
دماءُ العاشقين بها تُراق^١
ولو نُسيَتْ بها البيض الرقاق^٢
عليه من الهوى كأسٌ يهاق
وإلا من يَشوق ومن يُشاق
لِهُوجِ الرامسات بها اختراق^٣
ولم يُضرب بساحتها رواق
أسائلها وقد ذهب الرفاق
أسيرٌ عَصَّ ساعده الوثاق
فليس له إذا طُرق انطراقُ

^١ القود: إعطاء الدية.

^٢ البيض الرقاق: كناية عن السيوف.

^٣ الرياح الرامسات: التي تأتي بالتراب، فتدفن الأشياء تحته.

وصف البدر عند الإفراج

كأن البدرَ صحنٌ من لُجَيْنِ بدا فَجَلًا برونقه الهموما
به ارتقت الملائك للأعالي وراحت فيه تلتقط النجوما

إلى أم كلثوم

أمة وحدها بهذا الزمان
فما أن للفن ربُّ ثان
عمَّ كل الأمصار والبلدان
بافتتان لها وأيُّ افتتان
لأ صريحا بصوتها الفتان
ولون الوصال والهجران
وتريك المحب عند التذاني
وتريك الحبيب عند اقتران
من خلال الأنغام والألحان
ظاهرات في صوتها للعيان
بلحون مطابقات المعاني
فيه لحن المسرور والجدلان
بلحون تدعو إلى الأحزان
وبلحن كأسا من الأشجان
تتغنى به بلا ترجمان
ناطقات لنا بغير لسان
كيف فعل الغناء في الإنسان
فيه للسامعين حسن بيان

أم كلثوم في فنون الأغاني
هي في الشرق وحدها ربة الفن
ذاع من صوتها لها اليوم صيت
ما تغنَّت إلا وقد سحرتنا
في الأغاني تمثل الحب تمثيـ
يتجلَّى في لحنها مشهد الحب
فتريك المحبَّ عند التناثي
وتريك الحبيب عند افتراق
كل هذا في صوتها يتجلَّى
صفحات من الغرام تراها
تنشد الشعر في الغناء فتأتي
فإذا أنشدت عن الوصل أبدت
وإذا أنشدت عن الهجر جاءت
كم سقنتنا كأس السرور بلحن
تفهم الروح منطلق الحب مما
فكأن الأنغام في الصوت منها
قد سمعنا غناءها فعرَفنا
حسن صوت يزينه حسن لحن

نبراتٌ في صوتها مشجيات تترك السامعين في هيجان
تسترقُّ القلوب منا بصوت نعبد الحسن منه بالأذان
كل لحن إذا سمعناه منها دب فينا دبيب بنت الحان
في وقار الحليم جعلنا طو را وطورا في خفة النشوان
نتفانى في الاستماع إليها ونرى لذة لنا في التفاني
وترانا نهتزُّ حين تغني فكأنا في حالة الطيران
وكأن الأرواح - إذ تتعالى طربا - جرّدت من الأبدان
هي في مرتقى الأغاريد تعلقو حين تشدو ونحن في خطران
يشعر المرء حين يصغي إليها بغرام من صوتها روحاني
بنت فنٌّ غنّت لنا فسقتنا من فنون الغناء بنت دنان
هكذا فلتكن يدُ الفن عليا هكذا فلتكن على الفنّان

أيتها الكعاب

فتنتِ الملائك قبل البشرُ وهامت بك الشمسُ قبل القمر
وسرَّ بك السمع قبل البصرُ وغنَّى بك الشعر قبل الوتر
فأنت بحسبكِ بنت العبرُ
ترفُ لِمراكِ روحُ الغرامِ ويهوى طلوعكِ بدرُ التمامِ
ليطلعَ مثلكِ في الاحتشامِ ويترقبُ خَطرةَ هذا القوامِ
لكيما يهبُ نسيمُ السحرِ
تميلُ بقدكُ خمراً الدلالُ فيضحكُ في ميله الاعتدالِ
وفيه ارتقى الحسنُ عرشَ الجلالِ ومنه العقولُ غدت في عقالِ
وكم قد نهاها وكم قد أمرُ
إذا الوجه منك بدا للعيانِ له سجدَ العشقُ يرجو الأمانِ
ويخجلُ من نوره النيرانِ ويَعْنو له جبروت الزمانِ
ويخضع حتى القضا والقدرِ
بك الحُسنُ أليسُ ثوبَ الكمالِ فأنتِ الحقيقة وَهُوَ الخيالِ
وأنتِ مَليكة ملك الجمالِ ولو صوروكِ بلوح المِثالِ
لكنتِ مَليكة كلِّ الصورِ
يروح الشتاء وتصحو السَّما ويأتي الربيعُ بما نَمَنما
فيطلعُ فوق الثرى أنجُما ويبتسمُ الزهرُ بعد النما
فأنتِ ابتسامة ذاك الزَّهرُ

فطرُفك بالفَترُ كم قد روى نشيدَ غرامٍ يَهْدُ القَوَى^١
وما أنت شاعرة في الهوى ولكنما الشعر فيك انطوى
فأية حسنك إحدى الكُبرِ
لسانك يسحرُ في ظرفه وجفنك يفتن في ضعفه
وقدك يخطر في لطفه فيطنب ردفك في وصفه
ويوجزه خُصرك المختصرُ
سقتك الكعابة صَفوَ الشبابِ وغطى محيَّك منها نقاب^٢
فأنت إذا قمت للإنسياب تبخترت في حَفْرِ والكعاب
تضيء كعابتها بالخَفرِ

^١ الفتر: السكون والضعف.

^٢ الكعابة: بروز ثدي الفتاة.

الشيخ المرابي

سَوِّدَ اللهُ مِنْكَ يَا شَيْخَ وَجْهًا غَشَّ حَتَّى بِاللَّحْيَةِ السُّودَاءِ
لَوْ نَتَقْنَا مِنْ شَعْرَهَا وَغَزَلْنَا لَنَسَجْنَا خَمْسِينَ ثَوْبَ رِيَاءِ

جاهل متكبر

وشامخ الأنف ما ينفك مكتسباً ثوب التكبر في بـُحبوحة النادي
قد لازم الصمتَ عيًّا في مجالسه كأنما هو من نواب بغدادِ

الطفل الملتحي

معارفُ بغدادَ قد جاءها
حمارٌ ولكنه ناطق
مديرٌ من الطيش في مسرحِ
وطفلٌ ولكنه ملتحي
ويا أيها العلم عنها ارتحلْ
ويا أيها الجهل فيها اسلحْ^١

^١ سلح: تغوط وتبرز.

فاسقٌ مُراءٍ أو جاهلٌ يدعي العلم

ولكن من الشولِ الطوالب للفحل^١
عطاء الذي تزكو الورى فيه بالبخل
فبالبهت كم كفرت من مسلم قلبي
تهاون بالله الذي جلَّ عن مثل
وكذبت فيما تدعي سيد الرُّسل
بل الجهل أيضًا بل وجهلك بالجهل
بمنزلة الظلم الصريح من العدل
ومثلك من يهذي وينطق بالبطل^٢
وكشّر فيه الأصل عن أربع عُصل^٣
عليك القسيُّ المُلس يا جعبة النبل^٤
أضلُّ كإضلال الخوار من العجل
تحتّم لكن يا مخنث، بالنعل

أيوسف ما إن أنت من فحلٍ هجمةٍ
لئن كنت تُنمّي للعطاء فإنه
وإن كنت قد كفّرتني بجهالة
وإنك في تكفيرك الناس كافرٌ
رويدك قد كفّرت يا وعدٌ مؤمنًا
وأنت امرؤ لم تجهل العلم وحده
وأنت من الإسلام في كل حالة
نطقت ببطل القول تهذي ممخرقًا
ألست الذي أعطى اللئام كرامة
وكم قرطست فيك الرماة ووُتّرت
فيا عالج أقصر عن نهيقك إنه
أنزّه عنك السيف في قتلك الذي

^١ الهجمة: ما بين الأربعين أو السبعين إلى المائة من الإبل. والشول: النوق التي رفعت أذيالها طلبًا للفحل.

^٢ مخرق: كذب.

^٣ العصل: الأنياب الصلبة المعوجة.

^٤ قرطس: أصاب الهدف.

الأرض

كأني بهذي الأرضِ قد حانَ حينُها
ونادت بأصواتِ الفناءِ فجأجُها
فطاحت بأبعادِ الفضاءِ شظايا
وناحت على أطوارِها هملايا

أيها المشنوق

وقال فيمن شنق في الآستانة من أول الثورة الرجعية التي حدثت في ٣١ مارس ١٩٢٥:

يا ساكنًا وهو مشنوق على عمدٍ
كم فيك يا أيها المصلوب من عيرٍ
إذ قمت تطلب شيئاً أنت جاهله
طالبت بالشرع حتى قد قتلت به
ولو أجبتَ إلى ما أنت طالبه
يا ظالم الشعبِ مظلومًا بفعلته
قد قمتَ للشر لا للشرع منتصبًا
فاشكر عُلوَّك إذ يعلو به وطنٌ
يا مُفسدًا قام تحت الدين مستترًا
انظر إلى ذلك المصلوب متعظًا
وآية الله في التنزيل قائلة

لأنت أبلغ من نادى ومن خطبا
للناس حيرن من أملى ومن كتبنا
طوعًا لمن خان أو سمعًا لمن كذبا
كذاك من جهل الشيء الذي طلبنا
لأصبح الشرع يدعو الويل والحربا
عليك أم منك يبكي الشعب منتحبا
حتى علوت به في الجو منتصبا
قد كدت تُورده من فلك العطبنا
ليجعل الأمر في البلدان مضطربا
فإنما قتله في الشرع قد وجبا
من كان يفسد في أوطانه صلبا

بين اليأس والرجاء

ترى مُقلتي ما ليس تملكه يدي
أرى بابَ رزقي من بعيد مُفتِّحًا
وأياسُ أحيانًا وأرجو فلم أكن
وما زلت أسعى مُنفض الكفِّ مُحوجًا
فأتيه ولأجًا فألفيه مُرتجا
لأملك من شيء سوى اليأس والرجا

جواب عن كتاب

إِنَّ قَلْبِي عَنْ حُبِّكُمْ مَا تَخَلَّى
طردت مهجتي السلو فوَلَّى
وكفى شاهداً بدمعي عَدُلاً
وهو كالشمس في العيان تجلَّى
أنت سالٍ عن حُبِّهم؟ قلت: كلا
قد تلاشى في حُبكم واضمحلاً؟!
نمة فيكم وعهداً وإلّا
فائزاً من قِداحها بالمعلَى
وهلال من السعادة هلاً
فيه آيات فضلك الجَمُّ تُتلى
قلت: أهلاً بما أتيت وسهلاً
قال: لولا فراقهم، قلت: لولا

قَسَمًا بِالْإِلَهِ عَزَّ وَجَلَّ
لا ولا عن هواك لي من سُلو
أنكر العاذلون ثابتَ حُبِّي
ما عسى أن يضرَّ إنكار شيءٍ
عذلوني فما سمعت فقالوا:
كيف يسلو عن حُبكم ذو فؤاد
لم يزل في الوداد يرقب قلبي
أيها الممتطي مُتون المعالي
نسماتٌ من المسرة هَبَّتْ
يوم وافى إليّ منك كتابٌ
قيل لي: هاك ما يزيدك شوقاً
قال: نلت المنى، فقلت: جميعاً

الغنيُّ غنيُّ النفس

لا تشكُّ للناس يوماً عُسرةَ الحال
وجانب اليأسِ واسلكُ للرجا طُرُقًا
واركبِ على صَهواتِ الجدِّ مغتربًا
واطلبِ على عِرَّةِ بيضِ الأنوقِ ولا
لم يبقَ غيرُ الذي غُلَّتْ أنامله
كم قد غدوتُ على الأيامِ منتدبًا
أفعالهم دون أن يُغري الرجاء بها
من كل هيِّ ابنِ بَيٍّ لا ثباتَ له
كم بات ذو الحمقِ خلواً في مضاجعه
هذا يَميسُ بأبرادٍ مُفوّفة

وإن أدامتُك في همٍّ وبَلبال
فالدهر ما بين إدبار وإقبال
فيما تحاولُ ذا حل وترحال
تطلبِ لِعَمْرُك أن تحظى بمفضل
إمّا بأغلالِ شُحٍّ أو بإقلال
قوماً أضعُت بهم شعري وأمالي
لكنَّ أقوالهم أقوال أقيال^١
جَعَدَ اليدين قنولٍ غيرِ مفعال^٢
وبات ذو العقلِ فيها كاسفِ البال
وذا يخيظ شظايا طمره البالي^٣

^١ الأقيال: جمع قيل، وهو لقب للملك الصغير دون الملك الأعظم في بلاد اليمن.

^٢ رجل هيِّ ابنِ بَيٍّ: أي مجهول لا يعرف هو ولا أبوه.

^٣ ماس: مشى في اختيال. مفوفة: منقوشة بنقوش بيض. الطمر: الثوب البالي.

الشوق

شوقي إليك قريبٌ لا ينائيني
يا راحلاً وفؤادي في حقيبتَه
تركتني في شجون للورى مثلاً
أقفو الملاح لكي أسلو هواك بهم

والصبر عنك بعيد لا يدانيني
رهناً لديه ولكن غير مضمون
يميتني الوجد والأشواق تحييني
فيرجعُ الحسن منهم فيك يغريني^١

^١ أقفو: أتتبع.

شكر على صنيع

شكرًا لفضل ممجّد
فاق الأماجد وامتطى
إني اختبرتُ بني الزما
وسبرتُ غورهمُ لدى الـ
وبكفّ تجرّبتني لهم
فوحقّ من أرجوه في
ما إن رأيت بهم فتّى
المرتقي في المَكْرُما
يا ذا الإخاءِ المستقر
جاءَ الكتابِ إليّ منـ
فإليك يا «شكري» على
أهدي إليه نظيم شعري
بالعز صهوة كلّ فخر
ن جميعهم في كل أمر
حالين من عسر ويسر
قلّبتهم بطنًا لظهر
دفع الخطوب وكل ضر
حسن السريرة مثل «شكري»
ت إلى المقام المشمخر
وذا الوفاء المستمر
ك به شفيت غليل صدري
هذا الصنيع عظيم شكري

لمن الديار؟

لمن الديار يُلْحَنَ في الصَّحاحِ
عَبَثَتْ بها أيدي البلى فترَكْنَها
ولقد وقفتُ بها المطيِّ مسائلاً
أقتافُ آثاراً لهن دوارساً
لما تبينتُ المعالم هُمداً
فسقاك مرتكز الغمائم صوبه
حيّ الديار وإن تحمّل أهلها
عهدي بها والعيش أخضر ناعمٌ
مَغْنَى أنيقاً للحسان وروضةً
كم قد لثمتُ بها المراشف آخذاً
ولكم لهوتٌ من الحسان بغادةٍ

لِعَبَتَ بهنَّ روامس الأرواح^١
في العين أخفى من دريس نصاح^٢
شجراتٍ واديها وهنَّ ضواح^٣
كانت إليها غُدوتي ورواحي
هَطلت مدامع طُرْفِي السَفَّاح
غدقاً بكل عَشِيَّة وصباح^٤
عنها وأمست مُوَجِّشات بطاح
والشملُ تجمعه يد الأفرح
نبتت بكل عرارةٍ وأقاحي
بهضيم خَصِرِ جال تحت وشاح
لمياء ترشِفني شمول الراح^٥

^١ الصحاح: المستوي الأجرد من الأرض. والروامس: التي تأتي بالتراب فتدفن فيه ما تقابله. والأرواح: الرياح.

^٢ الدريس: البالي. والنصاح: ما يخاط به الثوب من خيط ونحوه.

^٣ الضواحي: البارزات للشمس.

^٤ المرتكز: المقيم الثابت. والصوب: المطر. والغدق: الكثير.

^٥ اللمياء: السوداء الشفة، وهي محببة لدى العرب. والشمول: الباردة.

هل عائدٌ زمنٌ أتيت مع المها ما شئت من لعب به ومزاح
قد بتُّ فيه ضجيع كل غريرة رُوِدُ الشباب من الخرادِ رِداح^٦
أيام تحضُرُ بي بمضمارِ الصُّبا فرسُ الشبيبةِ وهي ذات جِماح

* * *

ركضوا بميدان التحاسُدِ خيلهم وسبوا من الأعراض غيرَ مُباح
لبسوا النفاقَ لهم دُرُوعًا واعتدوا يتطاعنون من الخنا برماح
أضحوا كماء وشايةٍ وسعاية ومن الضغائن هم سُكاةُ سلاح^٧
كالجاهلية غيرَ أنَّ مغارهم في نهبِ كل خطيئةٍ وجناح
إصلاحهم أعياء العقولَ لأنهم خلقت مفاستهم لغير صلاح
من كل مرتكب الشنيع ولم يكذ يثنيه عنه إذا لحاه اللاحي
أهدى بطُرقِ المُخزيات من القطا وأضلُّ ممن آمنوا بسجاح^٨

^٦ الرُّودُ: الشابة الحسنة. والخراد: الأبقار. والرداح: التامة الخلق.

^٧ الكماء جمع كمي، وهو البطل الشجاع يلبس الدروع. والشكاة بضم الشين: جمع شاك؛ أي شاكِي السلاح، وهو من الشوكة والحدة.

^٨ القطا: نوع من الطير اشتهر عند العرب بمعرفته الطريق. وسجاح: هي ممن تنبؤوا كذبًا بعد وفاة الرسول ﷺ.

ليالي الأنس

ذكرتُ ولسْتُ في الذكرى بناس
بنادٍ تزدهيك به انتظامًا
به اجتمعت غطارفة كِرَامٍ
يطوف عليهم رِشَاءُ رَخِيمٍ
براح فيك تبتعثُ ارتياحًا
يشب لمزجها بالماء وَقَدْ
تميت همومَ شاربها سرورًا
وصاح وَجَّه الندماءُ كَأَسَا
وغالى في الإباء فمارسوه
فقال، وقد مشت فيه ودبت
لعمرك إن في الصهباء معنى

ليالي بتهنَّ مَبِيَّت حاس
مقابلهُ الأَسْرَةِ بالكراسي
أَبُوا شَيْمَ التخالِفِ والشماس^١
يُغازل مُقلتيه فَمُ النعاس^٢
وتنسف طود همك وهو راسي
تكاد تهمُّ منه إلى اقتباس
فتدفنهنَّ في حُفَر التناسي
إليه فقال: لست لها بحاس
فلانَ أبيه بعد المِراس
دبيبَ الماءِ في وَرَقِ الغِراس^٣
دقيقًا ليس يُعرف بالقياس

^١ الغطارفة: جمع غطريف؛ وهو السيد الكريم. والشماس: المخالفة والعناد.

^٢ الرشأ: ولد الظبي. والرقيم: الرقيق.

^٣ الغراس: النبات مغروسًا في الأرض.

الشمس

كأن الشمسَ باخرةٌ مخور
ستغرق بعد حينٍ باصطدامٍ
تجدُّ السير في بحر الفضاء
يمزق جرمها أو بانطفاء

رئيس الدائنية

الشيخ محمد أبو ععبوب الدائني

الدهرُ بيّن في كتابِ شهادةٍ
أنَّ السّماحةَ والشّجاعةَ والعُلا
شهم تولع بالعطاء بنانه
أسد نمته لآل قيس في العُلا
ورث المكارم عن أبيه ولم يزل
ما زال يُوقد كل يوم في الورى
يهدي جموع المدلجين لسيبه
خُلقَت من الحسبِ الصّميم أكفه
حَمَدت وقائعه السيوفُ بكفه
إن شئَ فوق ظهورهنَّ إغارة
يلقى الفوارسَ والسكينةُ درعه
فخرُ الكرام على المكارم والندى

بالنورِ فوق جبينه مكتوب
جُمعت لعمري في أبي ععبوب
مثلُ الرياح تولعت بهبوب
آباءُ مجدٍ ليس بالمكذوب
يسمو بصارمٍ عزمه المرهوب
نارَين: نارَ قرى ونار حروب
في الليل ضوءٌ لهيها المشبوب^١
لعنان سابقة وكشف كروب
والخيل كل مطهم يعبوب
ترك العدو بلوعة المحروب^٢
ويخوض غمر الموت غير هبوب
قامت دعائم بيته المضروب

^١ المدلج: السائر الليل كله أو آخره.

^٢ المحروب: المصاب بالشدة.

للجودِ مغلوبًا تراه ولم يكن
يتفقّد الأضياف ملءً دياره
كالعبد يخضع للضيوف وإنه
عمّ الأراملَ واليتامى سَيِّبه
للسرور محزون وجبر قلوب
خالقه لو كان الكرام بلاغة
للجيش في الغزوات بالمغلوب
عند الصباح وعند كل غروب
في القوم أكبر سيّدٍ معصوب^٣
فغدت تعيش بماله الموهوب
كان الكريم المعجزَ الأسلوب

^٣ معصوب: متوج.

راقم وما أدراك ما راقم!

أَقَمَّ فِي الْأَرْضِ صِرْحًا مِنْ ضِيَاءٍ بَحِيثٍ يَمَسُّ كُرْسِيَّ السَّمَاءِ
وَبَعْدَ فَجَسَمِ الْعَرْفَانَ شَخْصًا تَرَدَّى الْمَجْدُ فَضْفَاضَ الرِّدَاءِ
وَفِي يَسْرَاهِ ضَعَّ لَوْحَ الْمَعَالِي وَفِي يَمِنَاهِ ضَعَّ قَلَمَ الذِّكَاةِ
وَأَجْلَسَهُ عَلَى الْكُرْسِيِّ يَمْحُو وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْعِلْمِ
وَقَفَّ وَارْفَعَ إِلَيْهِ الطَّرْفَ وَانظُرْ فَذَلِكَ رَاقِمٌ رَبِّ الدُّعَاءِ

* * *

أَلَا يَا كَعْبَةَ الْفَضْلَاءِ يَا مَنْ فَضَائِلُهُ عَظُمْنَ بِلَا انْتِهَاءِ
أَهْمٌ بَأَنَّ أَحْيَطَ بِهِنَّ وَصَفًا وَمَنْ لِي بِالْإِحَاطَةِ بِالْفَضَاءِ
وَأَقْدِمُ أَنْ أَتَمَّ عُلَاكَ مَدْحًا فَيَرْجِعُنِي عُلَاكَ إِلَى الْوَرَاءِ
وَمَا وَفَى الثَّنَاءَ عَلَيْكَ مُثْنٍ لِأَنَّكَ فَوْقَ تَوْفِيَةِ الثَّنَاءِ
وَمَا اتَّقَدْتُ ذُكَاةً بِمَا يَدَانِي ذِكَاةً يَا إِمَامَ الْأَذْكِيَاءِ^١
وَلَوْ كَانَتْ أَشْعَثَهَا تَحَاكِي شِعَاعَكَ مَا انْكَسَرْنَ مِنَ الْهَوَاءِ
بِفِكَرِكَ دُوْحَةَ الْعَرْفَانَ تَنْمُو كَذَا الْأُدْوَا حَ تَنْمُو بِالضِيَاءِ
وَأُقَسِّمُ لَوْ تَكُونُ مِنَ الدَّرَارِي لَكُنْتُ الشَّمْسُ فِي كِبْدِ السَّمَاءِ
وَلَوْلَا الصَّبْحُ يَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ لَقَلْتُ: الصَّبْحُ أَنْتَ بِلَا مِرَاءِ

^١ ذكاء الشمس.

نقش على الماء

كأنا على كيس المنون نعيش
لِطامًا وهاتيك القبور خدوش
على الماء من ريح الحياة نقوش
تهدُّ حصونٌ أو تثلُّ عروش
وللموت سهمٌ لا يكاد يطيش
من العمر كفاً لا تكاد تنوش
جراحات يأس ما لهنَّ أروش^١
حنانك من ظفر الخطوب خموش
نجيف بأدواء الحياة مريش^٢
وإن عويل الصارخين نشيش^٣
له مرّجّل بالحدّاثات يجيش
فتزحف منا للحروب جيوش
تساوت مُهود عنده ونُعوش

أرى عيشنا تأبى المنون امتداده
وما زال وجه الأرض يوسعه الردى
كأنَّ انقلاب الأرض ماء كأننا
لحا الله دنيا كل يوم بأهلها
ترُوحُ سهام العيش فيها طوائشًا
نمدُّ إلى قطف المنى وهي جمّة
ونرجو ومن سيف الردى في رجائنا
وأجملُ بوجه العيش لو لم يكن به
دهانا لرامي الموت سهم مُقرطس
لعمرك إن الدهر تغلي خطوبه
وما الدهرُ إلا للخلائق منضج
كأن جيوش الموت رافقة بنا
ومن نظر الدنيا بعين اعتباره

^١ الأروش: جمع أرش؛ دية الجراحة.

^٢ المقرطس: المسد للهدف. النجف: السهم العريض النصل. المريش: ذو الريش.

^٣ النشيش: صوت الماء وغيره إذا غلى.

هوة الموت

كأنَّ حياتنا جبل مُطل
مشينا فوقه عُمياً فطلَّت
كأنَّ فضاء هذا الكون بحرٌ
ونحن لذي تموجها كأنَّا
تبيَّن تارةً وتغيبُ أخرى
على مهواتِه وهي المَماتُ
تَهاوى نحو هُوته المشاة
تموجُ فيه هذي الكائنات
فواقع ظاهرات خافيات
فشأنها التفرُّق والشَّتاتُ

رقت بوصف جمالك ...

ورأتكِ فافتتنت بك العذالُ
حتى كأنكِ للجِمالِ جمالُ
كيما تراك وغضُّهنِ محالُ
للوجدِ مخترقُ بها ومجالُ
لما رأوكِ وفي العقولِ خيالُ
من نورِ وجهكِ نورهنَّ مُذالُ
بين النواظرِ وللقلوبِ جدالُ
بجمالِ يوسفِ تُضربُ الأمثالُ
شوقًا إليك مع النساءِ رجالُ
كسرًا وتجهِدُ خَصْرِكِ الأكفالُ
يرنو فتزهبُ فتكه الأبطالُ

رقتُ بوصفِ جمالكِ الأقوالِ
وهبَ الإلهُ بكِ الجمالَ تجمُّلاً
كل العيونِ إذا برزتِ شواخصُ
وإذا الخَلِيُّ رآكَ عادَ بمهجةِ
كم قد سَفرتِ ففي القلوبِ تولُّهُ
فرَموكِ بالأبصارِ وهي كليلَةُ
ربطوا الأكفَّ على ضلوعِ تحتها
لو كنتِ في أيامِ يوسفِ لم تكنِ
ولقطَّعتِ دونَ الأكفِ قلوبَها
كم قد يجورُ على جفونكِ سُقمُها
عجبًا لطرْفكِ وهو أضعفُ ما أرى

قامت تميس

رقصًا على نغمات المقول الحاكي
لاهٍ وراحت وكل طرفه باك
مليكة الحسن هل عطف على الشاكي؟
ما أحسن الورد؟ قلت: الورد خذاك
تهوى؟ فقلت لها: إياك إياك
يهواك إي وجلال الحسن يهواك
ينفك في هتك عبّاد ونُساك
من بات سهران مشغولاً بذكراك
أسباب دنياي مع أسباب دنياك!
واخيرتي بين فتان وفتاك!
لما أراك وهل يشفيه إمساكي
ما راقني قط من شيء كمرآك
كالكهرباء التي تجري بأسلاك

قامت تميس بأعطافٍ وأوراك
حوراء جاءت وكل في مسرته
شكوت من خصرها ضعفاً وقلت لها:
فاستضحكت وهي تجني الورد فائلة:
وقلت: أهوى، فقالت بالدلال: ومن
واستحلفتني على قلبي فقلت لها:
سحر بعينيك يستهوي القلوب وما
يا ربة الحسن هلاً تعطفين على
ما أطيب العيش في الدنيا لو اتصلت
الحسن يفتن والألحاظ فاتكة
تهفو بقلبي أشواقي فأمسكه
إنني وعندني بكنه الحسن معرفة
أمسى غرامك يجري في عروق دمي

المكتب

تصوّرُ حدائقَ في بهجة
ترقُّقُ فيها مياه العلومِ
وهبَّ عليها نسيمُ الفنونِ
فأضحت وأرض كمالاتها
وأُمسّت وإنَّ ثمارَ العلاءِ
وطار الفخار بأرجائها
فللمجد وجه طليقٌ بها
غذاء النفوس وطبُّ العقولِ
فتلك إذا ما تصورتها
تروق وفي نضرة تعجبُ
جداولَ تجري ولا تنضب
يروح ويغدو بها يلعب
بنبتِ الحقائق تعشوشب
لأشجارِ عرفانها تُنسب
بلابلُ تغريدها مطرب
وحفظُ الجسوم بها يطلب
وحفظُ الجسوم بها يطلب
جليًّا لعمرى هي المكتبُ

أقبلت في غلائل

تَريشُ إلى قلبي سهامَ المعاطبِ^١
وقد لاح لي منها حُلِيُّ الترائبِ^٢
وعين مَهَاةٍ وائتلاقِ الكواكبِ
ينادونها في الحسنِ بنتِ العجائبِ
فأسفَرَ صبحَ الحسنِ من كلِّ جانبِ
نهارَ مُحياها بليلِ الذوائبِ
تفوقِ الدُّمى في حسنِ ذاكِ التناسبِ
قلوبَ أسودٍ مدمياتِ الكتابِ
لنا بينِ هاتيكِ الظِّباءِ السواربِ
ولا همتِ يوماً في الحسانِ الكواعبِ
ووَجِدٍ وَتَهِيَامٍ وهَمٍّ مواظبِ
وما الشوقُ إلا حاضرٌ غيرَ غائبِ

سيوفٍ لحاظٍ أمِ قسيٍّ حواجبِ
ورُبِّ كعابٍ أقبلتِ في غلائلِ
لها جيدٌ ظبيٍّ واعتدالٌ وشيجةٌ
ولا عيبَ فيها غيرَ أنِ أُولي الهوى
نَضَتْ عن محياها النقبَ عَشيةً
ومذِ نَشَرَتْ سودَ الذوائبِ أولجتِ
تناسَبَ فيها الحسنِ حتى رأيتها
مُفْتَرَّةَ الأَجْفانِ تُدمي بلحظها
فلم أنسها والله يومَ تعرَّضتِ
وما كنتِ أدري ما الصبابةُ قبلها
فأصبحتِ فيها ذا غرامٍ ولوعةٍ
وما الصبرُ إلا غائبٌ غيرَ حاضرِ

^١ راش السهم: عمل له ريشًا.

^٢ الترائب: وهي جمع تريبة؛ أعلى الصدر حيث يوجد العقد.

كل امرئٍ وصيقه

يُصَانُ لَدَيْهِ الْمَالُ وَالدِّينُ وَالْعِرْضُ
كَمَا عَنْ شَتُونَ الْقَلْبِ قَدْ أَنْبَأَ النَّبِيُّ
وإِلَّا فِذَاكَ الْحَبُّ آخِرُهُ بُغْضُ
ثَلَاثًا عَسَى ذَلِكَ الْفِعْلُ يَنْفُضُ
فَرَفُضُ الَّذِي دَامَتْ إِسَاءَتُهُ فَرُضُ
عَلَى جُرْفٍ هَاوٍ يَوْسَسُ يَنْقُضُ
فَلَا يَكُ مِنْهَا خَلْبًا ذَلِكَ الْوَمُضُ

تَحَرَّ إِذَا صَادَقْتَ مَنْ وُدُّهُ مَحْضُ
فَكُلُّ خَلِيلٍ مَنْبِيُّ عَنِ خَلِيلِهِ
وَبِالْصَّدَقِ عَامِلٌ مَنْ تَحَبَّ مِنَ الْوَرَى
وَسَامِحٌ صَدِيقًا قَدْ أَسَاءَ بِفِعْلِهِ
وَبَعْدَ ثَلَاثٍ دَعَا غَيْرَ مَسَامِحِ
وَقَوَّ أَسَاسَ الْوَدِّ بِالصَّدَقِ فَالَّذِي
وَإِنْ وَمَضَتْ لِلْخَلِّ مِنْكَ سَحَابَةٌ

النفس الأمارة

نهيتك عن هواك فما انتهيت
فيا نفسي عن الشهوات كُفِّي
وما أمارةً بالسوء يوماً
إذا ما حلبةُ الحسنات جاءت
فإن أسدى الإله عليك عفواً

ولكن قد فعلت كما اشتهيت
فأنتِ عليك يا نفسي جنيّتِ
سَعت في المنكرات كما سعيت
رأيتك أنتِ صاحبة السُّكيت^١
وإلا يا فجار فقد هَوِيتِ

^١ السكيت: آخر خيل الحلبة.

الأنس في غير موقعه كدر

وصاحبٍ قد دعانا أن نُلمَّ بهِ
في ليلةٍ كان فيها الحرُّ متقدِّماً
وكان ذلك في دارٍ يَضيقُ بها
كأنها مَفحصٌ تأوي القطاةُ له
فما عَهدت طَروباً قبل زورَتها
ومطربات الأغانِي وهي واقعةٌ
مستأنسين بضرب العود والوترِ
ترمي جَهنمهُ الأجسام بالشريرِ
صدرُ الأغاريد من ضيقٍ ومن صغرِ
أو جُحر ضبِّ بأرض صُلبة الحجرا
تلقاه في نغمات العود في ضَجَرِ
في غير موقعها ضرب من الكدرِ

^١ مفحص القطاة: بيتها، والقطاة: نوع من الطيور يشبه الحمام.

الدمع والنار

وحتامَ نارِ البينِ في القلبِ تُلَهَّبُ؟!
ودمع له في عارضِيَّ تَصَبُّبُ
سوى دمعهِ فهو الدواءُ المجربُ
عليَّ به يومٌ شديدٌ عَصَبُصَبُ^١
محيًا له كلَ المحاسنِ تُنْسَبُ!
وشمس الضحى في ضوئهِ تتحجَّبُ
وأنتِ كما شاءَ الجمالِ محببُ
نسيمٌ وأبكي كلما لاح كوكبُ
ويعزبُ عني الصبرُ أيان تغربُ
به صرف دهرٍ لم يزل يتقلبُ
صفا فيه من وقع الشوائبِ مشربُ
رأى الغدرَ من أشداقها يتحلبُ

إلى كم تصبُّ الدمعَ عيني وتسكبُ
أبيت ولي وجدٌ يُشبُّ ضرامهُ
وهل لِمَشوقِ خانهِ الصبرِ عنكمُ
ألا إنَّ يومًا جرَّدَ البينُ سيفهُ
فيا ليتَ شعري هل أفوز برؤيتي
وعينيك لا أسلوبٍ أو يصبح السها
فإنني كما شاء الهوى بك مُغرَمُ
أحنُّ إلى رؤياكمُ كلُّما سرى
وأذكركم للشمس عند طلوعها
لقد بان صبري يوم بينك إذ قضى
تبصَّرَ خليلي في الزمان فهل ترى
ومنَ نظر الدنيا وجربَ أهلها

^١ عصبصب: شديد.

البصرة

إياك والبصرة المُننى توطئها
لا تعجبنيك بالأشجار خُضرتها
ما إن أقام صحيح في مساكنها
ماء زعاقٌ وجوٌ قاتم وهوى
نَتْن وشدةٌ حرٌّ غير مُؤتمن
من السَّقام استحقوا الدَّرج في الكفن
حمى وقد حرمتهم لذة الوسن
صفر الوجوه قد امتصت دماءهم الـ

* * *

يلقى النزيلَ بوجه قُدَّ من حجر
أفيك يا غمرُ يلقى الشعر مأملة؟!
لولا العبوسةُ لم يُفَرِّق من الوثنِ
ما لي أراك على الكرسيِّ منتفحاً
يا خيبة الشعر بل يا ضيعة اللسن!
إن كان فيك احتباس الريح فاحتقن؟

الحرف في أغسطس

قد كاد بالحرِّ هذا اليوم يصهرنا
كأنما الشمس جاعت فَهَي من سَغِبِ
إذ قَدْ بدا فيه للرمضاء تسعير
تُشَوِّى الجسوم لها والأرض تنُّور

البرد في كانون

لله يومٌ جاء يَلْسَعُ بَرْدُهُ فكأنَّ ذرَّاتِ الهوائِ عَقَارِبُ
لم تَلَقَ شيئاً فيه ليس بجامِدٍ إلا احتمالَ البردِ فيه فدَائِبُ

معلقة وقد قالها ارتجالاً

انظرُ إلى تلك المُعلِّقَةِ التي
قَطَعُ من البَلُّورِ مُحدِّقَةً بها
فكأنها بدر تَلَأَلُ في الدُّجَى
بل قد يُمَثِّلُها الخيالُ كأنها

سترتُ ظلامَ الليلِ بالأضواءِ
يحكين شكلَ أصابعِ الحسناءِ
وكأنهنَّ كواكبُ الجوزاءِ
قمرٌ أحيط بهالةٍ بيضاءِ

قد يطفح اللؤم

يَنسَى الحياءَ فيغدو يدَّعي الكرما
رأى الضلالَ هُدًى واستسَمَنَ الورما
إن لم يكُ السيفُ يعلو منهم القمما
حي ادَّعتُ وهي أذنا ب لها الشمما
أو عُدَّت الطيرُ ما كانت ولا رخما
في الخلق بونٌ فذا أرضٌ وذاك سما
والقين يَطبع منه السيفَ والجَلما^١

قد يَطفحُ اللؤمُ حتى إنَّ صاحبه
إن الجَهالة إن كانت قدَى بصيرٍ
ما لِلغواةِ ارعواءٌ عن غوايتهم
كم من أراذلَ أطغَتْها سَفاهتُها
إن عُدَّت الوحش ما كانت ولا بقراً
والناسُ كالناس في خَلق وبيئهم
مثلُ الحديد وما امتازت حقيقتهُ

^١ القين: الحداد. والجلم: المقص.

اللؤم يهجو بعضهم

اللؤمُ داءٌ في النفوس عيَاءٌ
لو كان في الدّماءِ كلُّ عيوبه
ولو أنّ في كِرةِ الهواءِ طباعه
ألقَتْ عليه يدُ الزمانِ مخازيئاً
وجهُ أقامِ الدهرُ فيه من الخنا
يا ماشياً يختال في غلوائه
هَبْ غفلةَ الجهلاءِ عنك طويلة
لم يَشْفِ منه سوى الحمامِ دواءً
بل بَعْضهن لَأنتنَ الدّماءُ^١
فسدت فمات بِنَتْنِها الأحياءُ
منها تلوح بوجهه الفحشاء
سِمةُ فعاد وليس فيه حَياء
«أَطْرَقَ كرى» ما هذه الخيلاء؟!
أفليسَ تعلم خِزْيَكِ العقلاءِ!؟

^١ الدّماء: البحر.

تَجَنَّبُ

تَجَنَّبُ من سَقِيمِ الرَّأْيِ قُرْبًا
ولا تَرَضَ الصِّدِيقَ لِحُسْنِ خَلْقٍ
وذي سَفَهٍ أَكْبَّ على المَخَازِي
تَرْوِجُ المُخْزِيَّاتُ لَدَيْهِ حَتَّى
أَطَافَ بَغْيِيَّهَ وَأَبَاحَ شَتْمِي
وأَغْرَاهُ الضَّلَالُ فَكانَ مَنِي
فَمَتَّ في نارِ غَيْظِكَ مَسْتَشِيطًا
سَأضْرِمُ فيكَ يا لُكْعُ الأَهْجِي
تَجَمَّعَتِ المَخَازِي فيكَ حَتَّى
ولا تَغْتَرَّ بِالْبَدَنِ الصَّحِيحِ
إِذا ما كانَ ذَا خَلْقٍ قَبِيحِ
وما قَبِلَ النِّصِيحَةَ من نَصِيحِ
تَباعَ إِلَيْهِ بِالثَّمَنِ الرَّبِّيحِ
وَكانَ الشَّتْمُ أَجْدَرَ بِالمُبِيحِ
كما كانَ اليَهُودُ مِنَ المَسِيحِ
فَلَسْتَ مِنَ الهِجاءِ بِمَسْتَرِيحِ
كَنِيرانِ تَشَبُّ تِجاءَ رِيحِ^١
يُعدُّ الهِجاءُ فيكَ مِنَ المَدِيحِ

^١ اللكع: اللثيم.

في المسرح

بدت في مسرحِ رَحْبِ البلاطِ
فجالت من ضفائرها بتاجٍ
ولا أنسى تورَّدَ وجنتيها
فقلنا وهي تخطر في وقارٍ
وقد سجدت لها الأنظارُ لَمَّا
وكبرنا المهيمَنَ حين راحت
سقت أعصابنا خدرًا وطارت
مشت مشي الحمامة فوق سلك
وبارت فوقه خفقان قلبي
فخلناها وقد خلبت نُهانا

بقضبان مُشَبَّكَةٍ مُحاطِ
وماست غيرَ ضافية الرياط^١
وقد برزت تميمس على البساط
مليكُ الحُسنِ يخطر في البلاط
أرتنا الحُسنَ يرْفُلُ في القِبَاطِي^٢
تصُولُ على الضيَاجِمِ بالسِّياطِ
مرفرفةً بأجنحة النَّشاطِ
تُهولُ عليه أن تخطو الخواطي
بحاليِّ ارتفاعٍ وانحطاط
تعلمنا الجوازَ على الصراط

^١ الرياط: جمع ريطه، وهي الملاعة إذا كانت قطعة واحدة ونسجًا واحدًا.

^٢ القباطي: جمع قبضية بالضم، وهي ثياب من الكتان، ومنسوبة لقبط مصر.

شكر ووداع

وإن لم تطق شكرًا فلا كنت من شعرِ
بمعناك نور الشمس يُشرق والبدر
بها مثلما حام الفراش على الزهر
برأس عمودٍ خذه من غرة الفجر
عليّ فنّب يا شعر عنّي في الشكر
وربّك لم أحسب سواهن من عمري
غفرت الذنوب الماضية من الدهر
عليّ ففي بيروت كم لك من عذر
بكل كبير النفس ذي خُلق حر
ومن سروات القوم في أنجم زهر^١
مُفارقكم لا عن صدودٍ ولا هجر
إليكم لأشواقًا أحرّ من الجمر
كفتك الملوك المستبدين بالأمر
وأنكر في يوم النوى حكمة الصبر
توارثتموها عن جُود لكم غر

أعرنى لسانًا أيها الشعر للشكر
وجئني بنور الشمس والبدر كي أرى
وحُمّ حول أزهار الرياض تطيبًا
وقمّ في مقام الشكر وانشر لواءه
فإن لبيروتِ حقوقًا جليّة
فإني ببيروتٍ أقمتُ لياليًا
وقضيتُ أيامًا إذا ما ذكرتها
لئن تكّ في بغداد يا دهر مذنبًا
قرأت بها درسَ المكارم مُعجبًا
فكنت بها من بانخ العزّ في الذرا
وداعًا وداعًا أيها القوم إنني
لئن أرفَ الترحال عنكم فإن بي
أودّعكم والشوق بالصبر فاتك
أحبكم قلبي اعترافًا بفضلكم
ولا غرو أن أكرمتُم الضيفَ شيمّة

^١ سروات القوم: سادتهم.

ألستم من العُرب الألى طار صيتهم إلى حيث يَبقى تحته طائر النسر
أعاريب نهَّاضون في طلب العُلا غطاريف سبَّاقون في حلبة الفخر
سأذكركم ذكر المحبِّ حبيبه وأشركم شكر الجدوب ندى القطر
فلا تحرموني من رضاكم فإنني إليكم إليكم ما حييت لذو فقر

إلى إيناس الوزير

صارت بها تضرب الأمثال في الناس
كأنَّ وجهك فيه نور نبراس
بحسنها أنعشت فكري وإحساسي
فزال إيحاشها عني «بإيناس»
لوالدٍ فات فضلًا كل مقياس
واليوم عندي جروحٌ ما لها آس

إيناس إنَّ مزاياك التي عظمت
أخالُ بيتيَ لمَّا جئتَ زائره
أنستني بخصالٍ فيك طيبة
كم أوحشتني الليالي في تصرُّفها
أدامك الله يا إيناسُ تذكرة
قد كان يأسو جروحًا فيَّ دامية

في مادبة آل لطف الله

مما أنشد ارتجالاً في المآذب التي أقيمت للوفد العراقي بمصر سنة ١٩٣٦.

في آل لطف الله لطفٌ ساحرٌ في الخلق والأنظار والأفواه
لله درُّهم لرفعة قدرهم فلذا تسمُّوا آل لطف الله

في مآدبة عبد الرحمن عزام بحلوان

المجد والفضل منشوران في علم
لما حللنا ضيوفاً في مراتبهم
فسوف نشكرهم شكراً نخطُّ به
على بيوت بناها آل عَزَامِ
نلنا بها كل إعزاز وإكرام
لمجدهم سطر إجلال وإعظام

في مآدبة نظة الحكيم

نحن ضيوف لذات مجدٍ لها طباع مهذبّات
والحسن في خُلقها المُعلّى
مُؤتّلٍ خالص صميمٍ أرقُّ من خطرة النسيمِ
كالحسن في وجهها الوسيمِ

الكرخي ومن كذب في منعه

تعيش بها عيش حر سعيد
لها في الأناشيد مرعى بعيد
وبالمبكيات التي لا تبديد
لها قدّ عنا كل خصم عنيد
فمن ذا زهير ومن ذا لبيد؟!
مدحت بها كل شهم مجيد!
صفعت بها كل غاو بليد!
ويُثني عليك بما لا مزيد
يببتون منك بغيظ شديد
يريدون للشعر ما لا يريد
لدى الناس عادوا بغيظ جديد
بعمر جديد وعيش رغيد

أَعْبُودُ إِنْكَ ذُو فَطْنَةِ
قَرِيحَةِ شَعْرِكَ فَيَاضَةِ
أَتَيْتَ مِنَ الشَّعْرِ بِالْمُضْحَكَاتِ
فَأَعْرَبْتَ لِلنَّاسِ عَنْ قَدْرَةِ
تَقَدَّمْتَ فِيهَا عَلَى السَّابِقِينَ
فَكَمْ لَكَ فِي الْمَدْحِ أَنْشُودَةٌ
وَكَمْ لَكَ فِي الْهَجْوِ أَعْجُوبَةٌ
يَبَاهِي بِكَ الْكَرْخُ أَبْنَاءَهُ
وَلَكِنَّ حَسَادَكَ الْخَاسِرِينَ
أَشَاعُوا نَعْيَكَ مِنْ غِيظِهِمْ
وَلَمَّا تَبَيَّنَ إِخْفَاقَهُمْ
فَعَشَّ وَادَعَا رَغْمَ أَنْفَاهُمْ

من خواطر الماضي

ونزّهت نفسي فيه أن أتكذبا
مع الزمن الغاوي إذا ما تقلبا
أبيت لرأيي أن يكون مذبذبا
أرود العلا فيها وطورا مغربا
بهم كنت في شتى المواطن مُعجبا
ككرد عليّ في الرجال مُهذبا
بأدابه منذ الشبيبة والصبا
يؤانسني بالمتع الغضّ مُطربا
بمقتبس من نوره ما تحجبا
لمجمعها أمسى الرئيس المرتبا
سواك إليها يا محمد مُعربا

تعودت إنشادي القريض المهدبا
ومن أجل حبي للحقيقة لم أكن
ومن أجل جهدي في استقامة منطقي
وسافرت في البلدان طورا مشرقا
وصاحبت من عرب وعجم أفاضلا
فلم أر في عرب وعجم لقيتهم
هو العالم الحبر الذي كنت مغرما
فقد كان في مصر صرير يراعه
وكم كنت في الآداب والعلم كاشفا
إلى أن أنار الشام بالعلم عندما
إذا معجمات العلم عيت فلا نرى

صورة

زهرة قد بدت من الأكمام
وتراءت فيها الحقيقة حسناً
إن تجريدها من الثوب يحكي
هي كانت قبل التجرد منه
إن قدس الأقداس يغضب من أن
وأشد الكفر الذي هو رجس
ضلة جاهلية أنكرتها

* * *

انظر الصورة التي انتزعتها
تلق فيها الجمال يضحك ضحكاً
وترى نفسك الكئيبة منها
أنت منها في نشوة المتحسني
منظر يترك الجوانح مناً
«ويرد الوجوه مستبشرات
«يبهج النفس إذ يحرك منها

* * *

خلعت ثوبها وأغضت حياء
فأرتنا خلاءً في احتشام

جلست جلسة الحيّ وأبدت بالتعرّي بداعة في الوسام
ما أُحيلي إغضاءً جعلتها كغريق في لجة الأحلام
يتعامى عنها الحياء حياء ليراها بحيلة المتعامي
لسقوط الرداء عن منكبيها نَهض الفنُّ قائمًا باحترام
«وغدا الحب راقصًا بابتهاج وجرى الشعر شاديًا بانسجام»

* * *

«إن هذا الجمال شيءٌ عجيب حيرة في العقول والأفهام»
«بين ألوانه وبين قلوب النا س جذب ذو حرقة واحتدام»
«وهو في الحب صادق الأمر والنهـ ي مطاع في النقض والإبرام»
«إن يشأ فالصغار غير صغار وعظام الرجال غير عظام»
«هو نور يضيء في أوجه الحب ويهدي إلى طريق الغرام»

عصاي الفتية

قد أتتني من «مظهر» لي هديه
حلية ذات صنعة عبقرية
مُعرب عن مودة أخويه
فلذا صيغ رأسها رأس حيه
بعدما كنت ماشياً كالحنيه
موثق بالوشائج الأدبيه
لكريم من أسرة جُميريه

أنا شيخ وذي عصاي فتية
صاغة «الصابئين» قد ألبسوها
وشعاراً من «مظهر» بكلام
هي تحكي عصا «ابن عمران» قدراً
فسأمشي بها قوياً سويّاً
وستبقى الذكرى بها لإخاء
ألبستني كرامة بإخائي

النشيد الوطني

نحن خَوَّاضو غمار الموت كشافو المحنِّ
ما لنا غير اكتساء العز أو لُبْسِ الكفن
نبذل الأرواح نفديها لإحياءِ الوطن
هل سِوَى الأرواح للأوطان في الدنيا ثمنٌ؟!
يا ضَلالاً لِلأُلَى لم يكونوا له الفِدى
إن نُمْتُ نحن فلتعش ولتحيا أوطاننا

إلى عبد الستار القرغولي

هاك عبد الستار حَقك إني
غير أني زهلت عنه وصدقني
لست من منكرين ثابت حَقك
في ادعائي هذا مقيس بصدقك
عاشق شعرك البليغ كعشقتك
إن تكن قد عشقت شعري فإني

دمعة على قبر الزهاوي

أيها الفيلسوف قد عشت ماضي
ما حياة العظيمة إلا خلود
سوف يبقى بين الوري لك ذكر
أنت فرد في الفضل حيا وميتا
سوف أبكي عليك شجوا وإني
مثل ميت وصرت بالموت حيا
بعد موت يكون للجسم طيا
ناطق بالبقاء لم يخش شيئا
حزت في الحالتين ذكرا عليا
كنت أبكيك في الحياة شجيا

في مدرسة الإمام الأعظم

مما كتب إلى العلامة الشيخ سعيد النقشبندی مهنتاً له بتعيينه مدرساً في مدرسة الإمام الأعظم أبو حنيفة:

قد ازدهى للعلم تدريسُ
واتّضحت معالم العلم لا
بِعالم الآفاق من ربه
سعيد الذي له السعد قد
العالم العيلم من لم تزل
يولج أهل الفضل في قصده
ويطرد الجهل به مثلما
فلا تسل عدّ معاليه إذ
وقل لمن حاول تعدادها:
يحصي الحصى عدّاً ولكنها
القدم الغطريف لا شك في
يبسم إن جئت ولكنه
وليس للقانص علماً سوى

وزال عن طلابه البوسُ
يوجد رسم منه مدرّوس
له على كيوان تأسيس
طأطأ رأساً وهو مرموس
تُحدي إليه النجب العيس
ويعقب الإدلاج تغليس
يطرد بسم الله إبليس
تضايقت عنها القراطيس
عقلك في جهلك مظموس
لها عن الإحصاء تقديس
رؤيته للكرب تنفيس^١
ذو هيبة تحذرهما الشوس
محفله الحافل ناموس

^١ القدم: السيد المعطاء الكريم.

كم أذعن الخصم له طائعا
كم واصل في العلم قال له:
وليس للبرهان في حاجة
أنت سليمان العلا والنهي
أنت لا غيرك في خطة الـ
ونور أقمار سماء العلا
وإن يكن لللفظ درأ فلا
لو لم يكن مدحك في الشعر لا
ومذ حوى مدحك شعري له
قلت وفي روضة إنشاده
أرّخ ودام لسعيد لدى

وانقاد للإيمان قسيس
أنت رئيس وهو مرءوس
إن ضياء الشمس محسوس
أصف والآداب بلقيس
علم لداء الجهل نقريس
من شمس عرفانك معكوس
نَعَجِبُ إذ صدرك قاموس
يزدان تشطير وتخمس
بالعقد ذي الترصيع تجنيس
روح التهاني لك مغروس
إماننا النعمان تدريس

شكر ومديح

وكتب إلى حسين فوزي النائب بعد تناوله الكتاب الذي استعاره منه:

تشكُّرًا لفضلك المستطابُ
أنك غيث نائل ذو انسكاب
فيك بحال عنفوان الشباب
شمس علا ما حجبت في ضباب
شكرًا لإرسالك ذاك الكتاب
كما تسلُّ مرهفًا في قراب
وأنت نُبتٌ عن هموم السحاب
قد هديت بعلمه للصواب
أماط بالفطنة عنها الحجاب
بفكره الثاقب مثل الشهاب
حيث أتاهم بالعجيب العجاب
وأوتى الحكم وفصل الخطاب
برأيه الصائب إلا أصاب
كالصارم المشحوذ منه الذباب
إنك فرع أصل ذاك المهاب
وقد زكى العنصر منكم وطاب
من شرف المحتد إلا الذباب

أهدي إليك يا عظيم الجنابُ
فيا حسين صحَّ عند الورى
قد جمع الله جميع الندى
فأنت في أفق سماء العلا
وإنني أشكر طول المدى
جردتني عن ثوب فقري له
ناب أبوك عن علوم الهدى
علامة العصر جميع الورى
فكم وكم معضلة أعجزتُ
وكم جلا غامض علم لنا
قد بهر الناس بعرفانه
وفاق في الآراء أهل النهى
لم يقطع الأمر لنا حاكمًا
فهو لعمر الله في قطعه
فكيف لا أمدحك اليوم إذ
وأنتم أمجاد هذا الورى
وأنتم الرأس وما غيركم

ديوان معروف الرّصافي

ومنكم الفضل وأنتم له وما سواكم فيه إلا سراب
والله ذو الفضل من المجد قد ألبسكم في الناس أبهى نقاب
فأشهد الله وكل الوري أني إلى أحسابكم ذو انتساب

القدوم المبارك

وكتب للعلامة الشيخ سعيد النقشبندي عند عوده من سامراء إلى بغداد للتدريس بمدرسة الإمام الأعظم:

ألا قد سرُّ طالبُ كل علم
صبيحة شرَّف الزورا سعيد
وتدريس العلوم لطالبيها
هو البحر الخضمُّ بغير حدِّ
فقلت: بمعرض التاريخ بشرى
وأمر الدرس عاد إلى نصابه
ومن بذل النفائس في طلابه
بمقدمه المبارك من غيابه
لدى النعمان عاد إلى جنابه
فرائد كل علم في عبابه

إلى حسين النائب

وكتب إلى حسين فوزي النائب يستعير منه كتابًا:

رفعت أكفِّي نحو فضلك سائلًا
ومن قبل هذا يا ابن أعلم عصرنا
فقد عرضت لي يا حسين لُبَانَةٌ
وجُدُّ لي به بعض الزمان إعارَةً
ولا زلت مأوى للعفاة ومرجعًا
سؤال الورى الوهَّاب يا ابن الأماجدِ
وحقك لم أمدد لغيرك ساعدي
بديوان شعر ابن الحسين فساعد
فلي فيه يا ذا الفضل بعض المقاصد
لكل بني الغبراء يا ذا المحامد

إلى الدكتور زكي مبارك

إذا أطرى الأنام فتى أديباً
وعلم لا أشبهه ببحر
لقيت به أخوا أدبٍ وعلم
زكا نفساً فقيلاً له: زكّي
يمجُّ يراعه في الطرس ليلاً
أقام «بنثره الفني» جسراً
جلا بذكائه سدف المعاني
وخاض عباب بحرٍ من بيانٍ
إذا قرع المنابر يوم حفلٍ
أصاخوا نحوه وقد اشربوا
إذا افتخرت به مصرٌ وتاهت

فَلابنُ مباركٍ أدبٌ غزيرُ
فقد نضبت بجانبه البحور
له شبه وليس له نظير
وبورك فالمبارك منه خير
يشق دجاءُ صبحٍ مستنير
لمن في الفن أعجزه العبور
كأن نكاهه للفهم نور
تحوم عليه من بدع نسور
رأيت الناس من فرح تمور
أكفهمُ تصفق أو تشير
فكل بني العراق به فخور

تخلد العظماء

قالوا: نخلد ذكره بحديقةٍ
ونضيفها في التسميات إلى اسمه
هذا لعمر الله جهل تضحك الـ
إن الحدائق لا تخلد باسمها
ما نفع تسمية الأماكن باسم من
من فاته غُرُّ المساعي فإنه
إنَّ المعالي ما لهنَّ مآثر
هل تُذكرُ الأشجار من بعد البلى
والذكريات إذا أتت بشهودها
من سار في دنياه سيرة مصلح
من عاش في خطط البلاد مؤثراً

غناءً فيها تنبت الأزهار
حتى يكون له بها تذكار
عقلاء منه وتهزأ الأحرار
من لا تخلد ذكره الآثار
خَلَّتِ الضمائر منه والأفكار
بعد الممات بغيرها الإنشار
مثل الليالي ما بها أقمار
إلا بما انتضدت بها الأثمار؟!
حسن السماع وأُحْمِدَ التكرار
لهجت بخالد ذكره الأمصار
أحيته بعد مماته الآثار

بين الرصافي والشيخ الراوي

أرسل المرحوم الشيخ إبراهيم الراوي قصيدة إلى المرحوم الرصافي، من جملتها البيت الآتي:

وأشعر أهل العصر عندي بلا مرا جميل الزهاوي والرُّصافي المقدم

فنظم الرصافي القصيدة التالية وأرسلها إلى الشيخ الراوي:

فضل أظل الخافقين عميما	للسيد الراوي إبراهيم
وبها استحق من الورى تعظيما	ومناقب لهج الرواة بذكرها
جالست منه مرشداً وحكيما	شيخ إذا جالسته في مجلس
أحسست فيك لشخصه تعظيما	وإذا نظرت لشخصه متأملاً
فأصحَّ منها ما رآه سقيما	داوى قلوب ملازميه بهديه
مجد المؤثل حادئاً وقديما	يا أيها الشيخ الذي قد أدرك الـ
ضمَّنتها الدرَّ النضيد نظيما	أرسلت مألِكَةً إليَّ كريمة
تلقاء مثلك يوجب التقديما	أحسنت ظنك بي وحسن الظن من
فشفيت من قلبي الكلوم كلوما	شكراً على شعرٍ إليَّ بعثته
تركت فخار مفاخريك هشيمًا	شيم الكرام ورثتها من هاشم
وأقل مدحك أن تُعدَّ كريما	أدنى احترامك أن تخصص بالعلّا

إلى الشيخ قاسم القيسي

تذكرت عهدًا في الصبا مرَّ كالحلمِ
بفكري ودمعي جاهد النفس والجسم
وأنتابه للرشف من منهل العلم
شفاء لما في مدنف الفهم من سقم
فثقف منها كلَّ ما اعوج من سهم
بلقياه عني غمة الغرم والغنم
يكن فائزًا بالعلم والأدب الجم
وما شاء في التقرير من صادق الحكم
من العلم طودًا فوق أطواده الشم
ورأى سديد لا يحوم على الوهم
رماها بسهم من فطانتها مصمي
فبورك في الأباء من والد شهم
فجاء ابنه قرمًا تولد من قرم
ينيف بها رأياً على ثاقب النجم
سقاك السحاب الجون بالوابل السُّجم

إذا قاسم القيسي مرَّ بخاطري
تذكرته إذ كنت للعلم طالبًا
فقد كنت أحيانًا أزور فنائه
وكم زرتة في جامع الفضل راجيًا
إذا زرتة يومًا نثلت كنانتي
وعدت صحيح الفهم منه قد انجلت
هو العالم الحبر الذي من يلدُّ به
بما شاء في التوضيح من واقد الذكا
بقية أعلام مضوا وكفى به
له نظر في غامض العلم شامل
إذا ما نحا في العلم قتلَ عويصة
نماه أبوه الشيخ أحمد للعلا
فقد كان فردًا كابنه في ذكائه
وكان بتقسيم المواريث عالمًا
فيا رمسه هنأ بالذي أنتَ رامسُ

تقريظ كتاب القيسي

هذا كتابٌ قد تبدأَ جامعا
كشفت فوائده وهنَّ فرائدُ
أبدت بدائعه براعة قاسم
بحر تلاطم بالفنون وبدره
هذا لعمر أبي سحابٍ علومه
حكماً تبين للنحاة التابعا
عن وجه غانية المرام براقعا
من راح في طرق المعارف بارعا
لا زال في برج السعادة طالعا
قد سح للطلاب غيثاً نافعا

الرصافي يحيي وفد مصر الشقيقة

أتى من مصر طُلَعْتُهَا بِنُ حَرْبٍ فأهلاً بالمدلُّ كل صعب^١
وأهلاً بالذي ادَّخَرْتَهُ مِصْرُ لدفع مُلْمَةٍ ولقرع خطب

* * *

هو الرجل الذي في مصر قامت له همم تنفُّس كل كرب
تعهد بالمساعي الغر مصرًا فبدل جذب تربتها بخصب
أحبَّ بلاده فسمعت منها له شكر الحبيبة للمحب

* * *

لقد شاهدت مبتهَجًا بعيني له في مصر آثارًا كبارا
ففي «الكبرى» له متحركات تخلد في البلاد له الفخارا^٢
معامل مارست غزلاً ونسجًا فأغنت في صناعتها الديارا
وفي الإسكندرية باخرات له في البحر تبتدر السفارا
وأما بنك مصر فذاك أمر به قد جل «طلعت» أن يبارى

^١ زار العراق سنة ١٩٣٦ وفد مصري يرؤسه المرحوم طلعت حرب زعيم مصر الاقتصادي ومؤسس بنك مصر وشركاته العديدة التي عادت على مصر بنتائج طيبة ما زالت تذكر فتشكر.

^٢ يريد بالكبرى: «المحلة الكبرى»، وهي مدينة مزدحمة بالمعامل ويعود الفضل في تصنيعها إلى المرحوم طلعت حرب باشا.

* * *

إذا ما مصر في المال استقلت فلا تخشى التأخر في السياسة^٣
فإنّ المال أكبر ما يرَجَى به نيل السيادة والرئاسه
إذا ما الشعب كان أسير فقر فما تجدي السياسة والحماسه
أيصبح في سياسته طليقاً أسيرٌ أوجب الفقرُ احتباسه؟

* * *

رجال النيل حُييتم رجالاً بما للعرب فيكم من سمات
بكم طرب الفرات وقال جهراً لوادي النيل: إنك من لداتي
كلانا جاريان على سهولٍ بأبناء العروبة أهلات
كلانا في الإخاء لنا مواضٍ ضمنّ لنا النجاح بكل آت
وتجمعنا جوامع كبريات وأكبرهن سيدة اللغات^٤

* * *

لقد زرناكم قبلاً فكناً على نشر التجارة والكرامه^٥
فمن بيت يمدُّ به سماطٌ ومن وجه تضيء به ابتسامه
وما هذا لعمر الحق منكم ببدع بل لكم فيه استقامه
وما زرناكم لكبير ملك ولكن للأخوة والشهامه
ألا فلتحي مصرٌ فنحن نرجو لكم فيها السعادة والسلامه

* * *

وكم في مصرٍ من بطل سواكم يسير بها على خطوات سعد^٦
وكم راقٍ بها في جو علم فيستهدي لأنجمه ويهدي

^٣ يشير إلى أن الاستقلال الاقتصادي هو أهم من الاستقلال السياسي.

^٤ يريد بسيدة اللغات: العربية.

^٥ يشير إلى زيارته مصر ممثلاً العراق في آذار سنة ١٩٣٦ وإلى الحفاوة التي لقيها.

^٦ زعيم مصر سعد زغلول مؤسس حزب الوفد وباعث النهضة السياسية.

الرصاصي يحيي وفد مصر الشقيقة

وكم ساع لها بخطا ابن حرب
ولكن ابن حرب في دجاها
فكيف تكون مصر في أسار
ليسعدها بما يقني ويجدي
كبدر الأفق حل ببرج سعد
وفيها اليوم من يحمي ويفدي!؟

